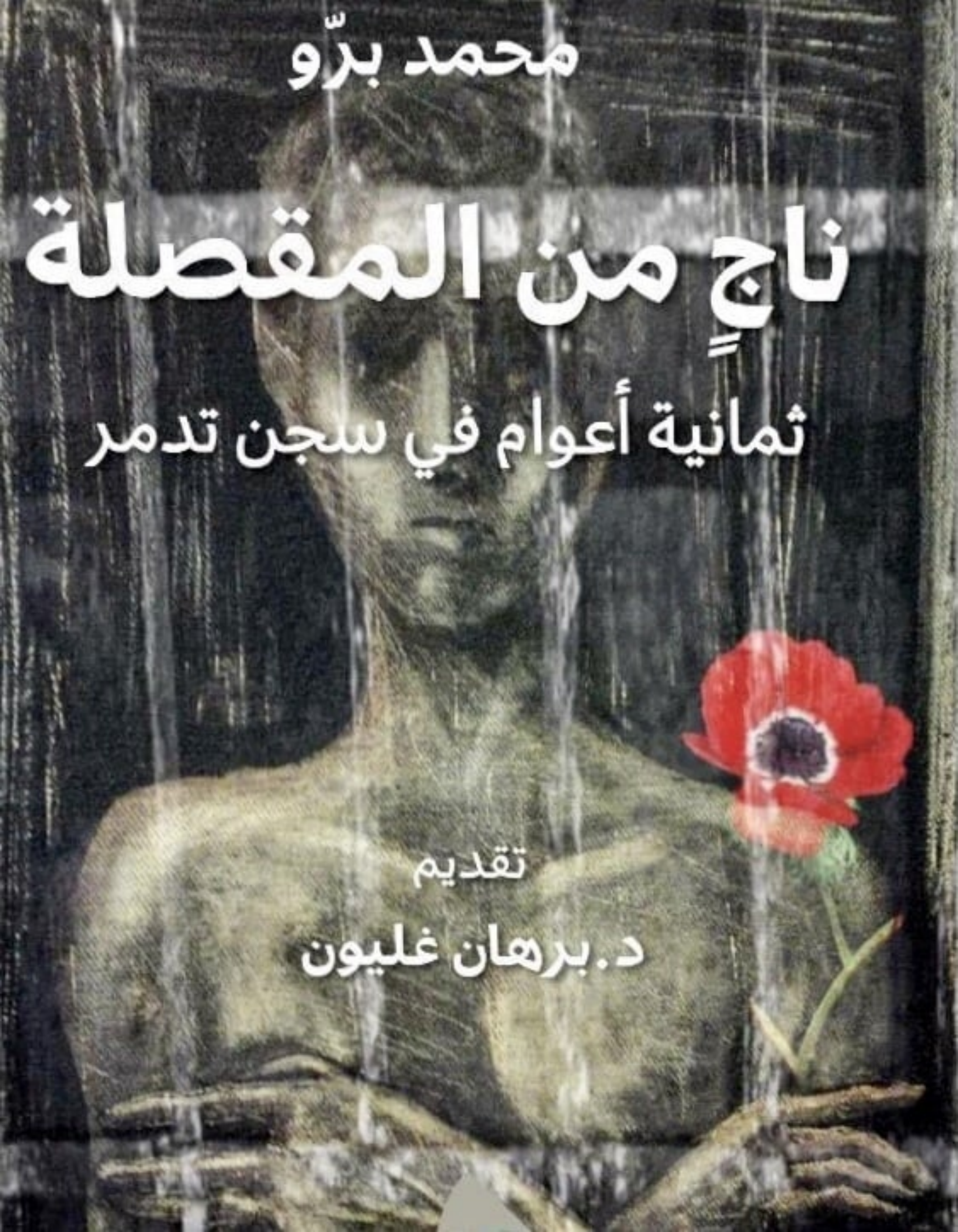

محمد برّو

ناجٍ من المقصلة

ثمانية أعوام في سجن تدمر

تقديم

د. برهان غليون

ناجٍ من المقصلة

ثمانية أعوام في سجن تدمر

ناجٍ من المقصلة

ثمانية أعوام في سجن تدمر

محمد برّو

تقديم

د. برهان غليون

جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

ناجٍ من المقصلة: ثمانية أعوام في سجن تدمر/ محمد برّو.
٣٨٣ص.

ISBN 978-614-431-760-0

١. السجناء السياسيون ـ تراجم.

323

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لجسور
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢١

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

المحتويات

الإهداء ١١
شكر وتقدير ١٣
تقديم: بين عبث التاريخ ومكره ١٥
قبل بدء الكلام ٢٧
١ ـ إن الناجين لا ينسون أبداً ٣١
٢ ـ قبيل الاعتقال ٣٧
٣ ـ مجلة النذير ٤٧
٤ ـ ليلةٌ فارِقة ٥١
٥ ـ في فرع المخابرات العامة بحلب ٥٥
٦ ـ الوافدون الجدد ٦١
٧ ـ التحقيق ٦٧
٨ ـ إلى سجن حلب المركزي ٧٣
٩ ـ صبيحة عيدٍ دامية ٨١
١٠ ـ ليلة النقل إلى سجن تدمر ٨٥
١١ ـ في الطريق إلى تدمر ٨٩
١٢ ـ في ساحة الاستقبال ٩٥
١٣ ـ المهجع رقم (١٤) ٩٩
١٤ ـ التنفس الصحيّ ١٠٧

١٥ ـ «فاضل معقّدة» ١٠٩
١٦ ـ مدير السجن يكتشف من نحن ١١٣
١٧ ـ طعامٌ قذر. . نظامٌ أقذر ١١٥
١٨ ـ الحمّامات ١١٧
١٩ ـ ماءٌ كبريتيّ ١١٩
٢٠ ـ الرقيب «أحمد السباعي» ١٢٣
٢١ ـ المساعد «أبو جهل» ١٢٩
٢٢ ـ المحكمة الميدانية في حمص ١٣٣
٢٣ ـ قافلة الإعدام الأُولى ١٤٥
٢٤ ـ حبل مشنقة ١٤٧
٢٥ ـ مهجع الأحداث ١٤٩
٢٦ ـ على قلبِ رجلٍ واحد ١٥٥
٢٧ ـ صناعة الجلّاد ١٥٩
٢٨ ـ فرَحاً بشفاء الرئيس ١٦٥
٢٩ ـ هرم الرعب ١٦٩
٣٠ ـ موقعك في المعركة: سجين ١٧١
٣١ ـ بريء ستخرج ولو بعد مئة عام ١٧٥
٣٢ ـ العرض المسرحي الأول ١٧٧
٣٣ ـ الحياة اليومية ١٨١
٣٤ ـ الإعدامات في الساحة السادسة ١٨٧
٣٥ ـ المحكمة ١٩٣
٣٦ ـ إشارات «المورس» ١٩٧
٣٧ ـ دخول الملح ١٩٩
٣٨ ـ مهجع الجرَب ٢٠٣
٣٩ ـ الفدائيون ٢١١

٤٠ ـ صورة الرئيس ٢١٧
٤١ ـ الأحداث يُعدمون ٢١٩
٤٢ ـ مسؤول الصوت ٢٢٣
٤٣ ـ جائحة الكوليرا ٢٢٥
٤٤ ـ مهجع النساء ٢٢٧
٤٥ ـ «أبو حِجر» ٢٢٩
٤٦ ـ الساحة السابعة ٢٣٣
٤٧ ـ دخول الجريدة ٢٣٥
٤٨ ـ تحية لحماة ٢٣٧
٤٩ ـ الضحك سلاحنا الأمضى ٢٤٧
٥٠ ـ الرائد «عثمان أصفر» ٢٥١
٥١ ـ قتْل الطبيب «زاهد داخل» ٢٥٣
٥٢ ـ إعدام المقدّم «عبد الرزاق» مراتٍ عدة ٢٥٥
٥٣ ـ مهجع الضبّاط (٣٤) ٢٥٩
٥٤ ـ بيت عليّان ٢٦٣
٥٥ ـ «أبو عوض» ٢٦٥
٥٦ ـ في المهجع (٢٢) ٢٦٩
٥٧ ـ «يشار شوقا» ٢٧٣
٥٨ ـ السرطان و«عبد الله برد» ٢٧٩
٥٩ ـ العريف «فوّاز» ٢٨٣
٦٠ ـ هوَس التحقُّق ٢٨٧
٦١ ـ زيارة من دمشق ٢٩١
٦٢ ـ أمواتٌ يواسون الأحياء ٢٩٥
٦٣ ـ نهاية (الطليعة) ٣٠١
٦٤ ـ «غازي الجهني» ٣٠٥

٦٥ ـ الألم يصارع المعنى ٣٠٩
٦٦ ـ في الصراع بحثاً عن المعنى ٣١٣
٦٧ ـ الحشر إلى المهجع (٣٠) ٣١٧
٦٨ ـ المعتقلون والتجارب الكيميائية ٣٢٥
٦٩ ـ في مهاجع السلّ ٣٣١
٧٠ ـ «أبو حسن» يكسر بيتاً لـ«طَرَفة» ٣٣٧
٧١ ـ «زاهي عبّادي» ٣٤١
٧٢ ـ المحطة الأخيرة ٣٤٥
نسخة من مجلة «النذير» (العدد ١٥ ـ أبريل/ نيسان ١٩٨٠) ٣٤٩

«كل ما تمسّه القوة ينحط قدره
أيّاً كان التماسّ..
فاللطخة هي نفسها، سواءٌ اعتدى المرء
أم تعرض للاعتداء»

سيمون فيل Simone Weil
١٩٠٩ ـ ١٩٤٣

الإهداء

إلى أمي.. صاحبة العذاب الأكبر في غيابي وغيابها..

إلى نادر ورامي ويوسف ومعبد ويشار وخلدون وسليم ومراد ومحمد سليم.. ومئات الأسماء من الأصحاب في تلك الرحلة الطويلة على ضفاف الألم وفي خندق الموت..

إلى أرواح الشهداء: زاهي عبادي وخلدون صباغ وبكري فتي.. وآلاف الشهداء ممن رسموا بثباتهم عظمة الإنسان الحر الذي لا تحطمه القيود..

إلى كل روحٍ نزقة لا تقبل أدنى من الحرية فضاءً لها..

شكر وتقدير

إلى شريكة الرحلة الطويلة

في صحبة ذاكرة الألم

الساكن في الصدر

والمنسكب على أسطر هذا الكتاب

«أم سلام»

تقديم

بين عبث التاريخ ومكره

د. برهان غليون

لم يكن المكان الذي دمّره تنظيم «داعش» عام ٢٠١٥ ـ بعد نقل «النظام» ساكنيه إلى معاقله الأخرى ـ سجناً بالمعنى المتعارف عليه للكلمة ـ أي مكاناً لتنفيذ حكم جنائي، يقضي بحرمان مؤقت من الحرية لأفراد ارتكبوا جرائم أو جنحاً مخالفة للقانون ـ كما لم يكن معتقلاً سياسياً شبيهاً بتلك المعتقلات التي احتفظ لنا التاريخ الحديث بذكريات عنها لا يكاد يصدّقها العقل، كمعتقل الغولاغ الذي خلّد فيه سولجنتسين (Solzhenitsyn) تقاليد الرعب الذي طبع بعض مراحل العهد السوفياتي البائد، أو معتقلات غوانتانامو الأمريكية، أو أبي غريب العراقية أو تزمامارت المغربية، وأخرى كثيرة لم تخلُ منها أي من أنظمة الاستبداد الشمولية أو الدموية.

كانت وظيفة هذه المعتقلات تغييبُ معارضين أو مقاومين وراء الجدران والحَجْرَ عليهم لإخراجهم كليّاً من عالم السياسة والمجتمع، سواء اقتضى تحييدهم السياسي والفكري كسر إرادتهم ومعنوياتهم بمرحلة أولى من التعذيب و«إعادة التأهيل» أو بتركهم يهلكون في أقبية الزنزانات المظلمة، بعيداً عن أعين الجمهور الذي كانوا يحلمون بقيادته أو تحريره أو خدمة قضيته. أما معسكرات الاعتقال السورية التي تُحدّثنا عنها روايات

السوريين الذين كانوا نزلاءها لسنوات طويلة، وأكثرها شهرة معتقل تدمر، فلا يبدو لي أنها تدخل في أي من هذه التصنيفات. ربما هي أشبه بمعسكرات الاعتقال النازية التي لم تُصمّم لحجز المعارضين وتحييدهم، ولكنها أُقيمت لإبادة جماعات قومية أو دينية، تعتقد السلطة الحاكمة أن وجودها يسبّب الوهن في عزيمة الأمة، ويشوّش فكرها، ويُضعف روحها، وأن استئصال هذه الجماعات الغريبة منها، بمقدار ما يُحقّق التجانس ويُطهّر روحها من الشوائب الدخيلة عليها ويُنقّي فكرها، يضمن لها التفوق العرقي الذي تستحقه، ويؤكّد قوتها وعظمتها. وهذا هو التجانس ذاته الذي سيتذكّره بشار الأسد عندما سئل عن مصير ملايين المهجرين السوريين بعد سنوات من قصف المدن والقرى بالبراميل المتفجرة العشوائية، وبالأسلحة الكيميائية، وضرب حصار التجويع على العديد منها، قائلاً: إن سورية أصبحت برحيلهم أكثر تجانساً، وهو يعني أيضاً أفضل استعداداً لمتابعة حرب الإبادة.

ومع ذلك، لا ينبغي لهذا التشابه أن يغيب عن نظرنا الفوارق الأساسية الأخرى التي تجعل من معسكر الاعتقال الأسدي نموذجاً فريداً من نوعه، حتى لو تطابقت الكثير من صور الجثامين المتكدّسة التي جفّت عروقها من الجوع والمرض، وغاضت الحياة في عيونها من انتظار العدم، مع ما تركته لنا معسكرات الاعتقال النازية، والذي أصبح بمثابة بطاقة تعريف بها. فبينما تكاد الوظيفة الرئيسة لهذه الأخيرة تقتصر على التنظيم «العقلاني»، بل الميكانيكي لهذه الإبادة الجسدية، بعيداً عن أي مشاعر أو عواطف أو اعتبارات أخرى سوى القضاء على أكبر عدد من غير المتجانسين بأسهل وسيلة وفي أقصر ما يمكن من الوقت، يتركّز العمل في المعتقلات الأسدية على الإبادة النفسية أو الروحية لغير المتجانسين فرداً فرداً، بإطلاق كل ما تختزنه النفس الحيوانية لدى الجلادين من منابع الحقد واللؤم والنذالة والانتقام وتفجير كل ما يزعزع النفس البشرية من مشاعر الخوف والألم والبؤس والمهانة، ويفاقم من هشاشتها وبؤسها لدى الضحايا والمعذبين. ليس الموت هو ما يبحث عنه الجلاد هنا، وإنما

استحالة الحياة، أو جعل الحياة مستحيلة من دون أن يكون الموت ممكناً. إنه العذاب.

لا حاجة هنا إلى غرف غاز تقضي على المُدانين بالجملة، ولا إلى محارق تخلي أماكنهم لوجبة أخرى. يتصرف الجلاد هنا وكأن الضحية عدوه الشخصي، ويصر على أن يظهر في وجه خصمه كوحش مفترس لا تربطه أي صلة بالإنسانية، ويدخل بكل كيانه في ما يشبه الطقس الديني لإخراج أرواح ضحاياه من أجسادهم بكل ما يُتاح له من أدوات وآلات وأحذية وسكاكين وكبلات حديدية، وما يملكه أو يريد أن يظهره من مشاعر الكراهية والحقد والتشفي. يبدأ التعذيب منذ أن تضع الضحية قدمها على أرض المعتقل، وبحشد الضحايا بالعشرات في زنازين جماعية ضيقة، ولسنوات لا يعرف نهايتها لا السجين ولا الجلاد، هي بالضبط السنوات التي يتوجّب على هذا الأخير أن يستغلها ليثبت تفوّقه في تحويل الكائنات البشرية التي أوكلت إليه - حرفياً - مهمة «معالجتها» إلى خرق ممزقة، تمتزج فيها عظامها مع لحمها ودماغها مع دمها. حيوات محطمة أملها الوحيد معلّق في اقتراب أجلها.

كما تظهر جميع هذه الروايات/الشهادات، لا يخضع برنامج التعذيب نفسه لقاعدة واحدة، فالأمر متروك لكل واحد من الجلادين أن يتفنن ويبدع في وسائل العنف التي يعتقد أن بإمكانها إحداث أثر أكبر في التدمير النفسي للضحية. هكذا لا يتوقف العذاب أبداً، فهو حساب مفتوح، ليلاً ونهاراً، عند الدخول والخروج، بمناسبة ومن دون مناسبة، وقت الراحة المفترض ووقت «العمل»، وحتى وقت الأكل وقضاء الحاجة. لا يترك الجلاد للضحية فرصة لالتقاط الأنفاس ولا وسيلة إلا ويستخدمها لإبراز قسوته ووحشيته واستعداده للذهاب أبعد ما يمكن في انتزاع صرخات الجسد المكلوم وأنينه وسماع أصوات كسر العظام المتهالكة.

هناك شيء لا إنساني، لا معقول أو غير قابل للعقلنة في هذه الفترة المظلمة من تاريخ السوريين: في وجود هذه المعتقلات، وفي تنظيم هذا

العنف المنفلت والذي لا يتوقف إزاء ضحايا مشلولي الإرادة وفاقدي أي قوة أو قدرة على المقاومة، وفي حماس الجلادين الذين جعلوا من العنف رياضتهم الروحية اليومية بمقدار ما أرادوه سمّاً زعافاً لضحاياهم. ولست مقتنعاً بأن السادية قادرة أو كافية لتفسير هذا الهوس المجنون، الذي يتجدد كل يوم بالتمثيل بالأجساد الحيّة، والسخرية من منظر الدم النازف من أعضاء يتم تقطيعها وهرسها بجميع الأدوات والوسائل الحديدية، وحرقها في الأماكن الأكثر إيلاماً كما لو كان الهدف تفجير ما فيها من نوابض الحياة والإنسانية، والتلذّذ بسماع صرخاتها المخنوقة.

كما لا أعتقد بأن لتفجّر هذا العنف علاقة مباشرة بأي إرث ديني أو قومي، ولا بأي مذهب فكري أو سياسي. هو بالأحرى تعبير عن انفلات الغرائز البدائية التي صرف النوع البشري عشرات آلاف السنين وهو يصارع لتدجينها، ومن هذا الصراع ولدت المدنية والحضارة القديمة والراهنة.

ليس هناك نظرية يمكن أن تفسّر مثل هذه الممارسة لعنف فائض بكل معنى الكلمة، عنف منفلت وعبثي حاول أن يحيط به ويستوعب معناه ناجون كثر في شهادات سابقة، وأبدع في وصفه «محمد برو» **في ناج من المقصلة**. ولعلّ علينا أن نقر بأنه ليس كل ما يشهده التاريخ عقلانيًاً أو يمكن أن يستوعبه العقل. كذلك كانت النازية التي اعتقد منظّروها ـ ولم يكونوا من الأغبياء أبداً ـ أن التفوّق مصدر الشرعية والحق، وأن الطريق إليه يمر بالقوة، وأن وسيلة القوة ولغتها هما العنف: العنف العاري من دون حدود ولا ضفاف ولا مبررات ولا أهداف أو غايات سياسية أو أخلاقية تحكمه وتتحكم به، إلا ما يحققه، وما يمكن أن ينتجه من تفوق أو من شعور بالتفوّق والسيطرة. في هذه الحالة يتحوّل العنف إلى لغة، وتصبح ممارسته ـ من دون حدود ولا ضوابط ولا معايير ـ الدليل القاطع على القدرة والعظمة، وربما المشاركة في بعض صفات الألوهية المشرقية.

لكن مع ذلك، لا يوجد شك في أن لانفلات العنف وتقديس أفعاله وفعاليته في حالتنا السورية علاقةً مباشرةً بنمط استثنائي من الحكم

والسيطرة، نشأ هو أيضاً في غفلة من الزمن، وفي ظروف استثنائية، وانبنت عليه علاقة الحاكمين ـ بصرف النظر عن منابتهم ـ بالمحكومين، أي بالشعب، وتكوّنت فيها نظرتهم الدونية إليه، أي احتقارهم له، وإنكارهم لأهليته، واستسهالهم امتهان كرامته وقهره والركوب عليه.

لذلك، لن نرى اختلافاً أبداً بين سلوك جلادي المعتقلات إزاء ضحاياهم من الأبرياء، وسلوك رجال السلطة وأجهزتها إزاء الدولة والمجتمع. وقد بنى الأسد (الأب) سمعة أسطورية، ليس لدى بعض السوريين فحسب، وإنما لدى قطاعات واسعة من الرأي العام والدبلوماسية الدولية، وفي جميع الأنحاء لما أظهره من جرأة على خرق جميع المحرّمات واستخدام العنف من دون قيود أو خشية من رد أو انتقام، حتى أصبح الإرهاب على يديه، المباشر أو بالوكالة، الوسيلة الرئيسة للحكم والسيطرة، وكان أول من حوله إلى سلاح دولة، حصد بسببه احتراماً وتقديراً وربما تعاطفاً وتقديساً لم يسبق لأحد قبله ممن حاول استخدامه أن حظي به. وهذا ما تعلّمه بشار الأسد من تجربة والده وأراد أن يعيد إنتاجه ويفرط في استخدامه بشكل أكبر، خارج أي منطق سياسي أو قانوني أو أخلاقي، منتظراً أن يذهل بذلك العالم ويعمي بصر الجميع حتى لا يستطيع أحد أن يلتقط أنفاسه أو يفكر في أي ردّ. وأعتقد أن هذا العنف ـ المقدس ـ الذي لا يعترف بحدود ولا بروادع من أي نوع، هو الطريق الصحيح للوصول إلى التفوق واستعادة السيطرة وفرض الأمر الواقع وتركيع الجميع وإذلالهم. لم يقف بشار في تفجير عنفه عند حد قمع المظاهرات بالرصاص واعتقال نشطائها وقتلهم في المعتقلات ولكنه أراد له أن يكون زلزالاً يدمّر الجميع وكل من يقف في طريقه، من المجتمع والشعب والحلفاء والأصدقاء العرب والأجانب. ولم يترك سلاحاً من أسلحة الدمار الشامل لم يستخدمه لامتحان القدرة الفتاكة لهذا العنف الفائض على أي حدود، والذي اعتقد أنه به وحده يستطيع أن يوقف التاريخ ذاته وكل من ينكر عليه حقه وتصميمه على جعل الموت الحد الطبيعي والوحيد لطموحاته.

لم تكن المعتقلات ولا كان الاعتقال نشاطاً جانبياً أو ثانوياً في نظام السلطة الأسدية هذه. لقد كان أحدَ الأركان الأساسية للحكم إن لم يكن وسيلته الرئيسة. وقد كانت المعتقلات خلال أربعة عقود المختبر الحقيقي لممارسة هذا العنف المنفلت أو المفرط واختباره وتطوير كوادره وأساليبه وأدواته. وَعَمَلُ المعتقل خلال عقود طويلة من حكم الأسد بمثابة ساحة لحرب محدودة في المكان وبوتيرة بطيئة لكن شديدة الأهمية والفاعلية في تحييد المعارضين وتصفية الخصوم وردع المجتمع والنخب ككل عن أي معارضة أو مقاومة. وكان له (أي المعتقل) دور كبير في تمكين هذا الحكم من البقاء والاستمرار. وبواسطة حرب الاستنزاف الطويلة وشبه الخفية هذه، أمكن للنظام تجريد الشعب من حقوقه السياسية والمدنية، والقضاء بصمت على عشرات ألوف المعارضين أو المشتبه بمعارضتهم، وقطع رأس المجتمع المدني ووأده حيّاً. وكان لوجود المعتقلات في كل مكان، وشغلها الدائم على تفريغ المجتمع من كوادره وتحطيم إرادته ـ الدورُ الأول في ضبط توازن السلطة وبناء علاقة العبد والسيد بين النخب الحاكمة والشعب، ومن ثم ضمان الإذعان والاستسلام الكامل والانصياع لإرادة الحاكم/الرب.

ولم يكن معتقل تدمر المكان الوحيد الذي اختص في سورية بتجريد الإنسان من إنسانيته والشعب من سيادته. لكنه مثّل النموذج الأعلى في سياسة التعذيب وتلقين درس العنف الجسدي والنفسي الذي لا ينسى بين منظومة سجون لا تُعدّ ولا تُحصى، غطت المدن والأحياء والقرى، وانتشرت في كل دائرة وفرقة وكتيبة أو فرع أمن، وكل مدرسة ومصنع وشارع. لم يرَ النظام في السوريين في أي لحظةٍ شيئاً آخر سوى عبيد مستكينين، لا يصلحون إلا لأعمال السخرة والخدمة المجانية، أو حثالات وزوائد وقوارض خطرة، يجدر التخلص منها بأي ثمن.

وسرعان ما تحولت هذه المعتقلات إلى ساحة حرب إبادة جماعية موازية بعد اندلاع الثورة السورية في آذار/مارس ٢٠١١، فاختصت بقتل النشطاء والمثقفين والسياسيين، وتقريباً بالوسائل نفسها، وبالحماسة ذاتها،

مع تسريع وتيرة الموت تحت التعذيب، لكن من دون أن تتخلى عن «رسالتها» الأساسية: اختبار أقصى درجات العنف، وتطوير نموذجه بعيداً عن أي رقابة وبمعزل عن أي مبدأ أو قانون أو أخلاق، وتنويع أشكاله واستخداماته الداخلية والخارجية، وإدخاله إلى كل خلية من جسم المجتمع الضحية.

وإذا لم يملّ جلاد معتقلات الأسد من تكرار أعمال العنف لا صباحاً ولا مساءً، ويزداد حماسةً لتعظيمه وتنويع أدواته كلما شعر ببصيص مقاومة عند الضحية، فلأنه لا يعتقد أنه جلاد أبداً وإنما ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ صاحب قضية. وهو يؤكد في كل مرة يدمر فيها جزءاً من مقاومة ضحيته أو صورتها الإنسانية، انتماءَه لمعسكر المنتصر والمتفوق وولاءَه، لسيده والنظام الذي يملكه ولجماعته المرجعية. لذلك يبدو التعذيب هنا ـ أو بالأحرى التعنيف الدائم للضحايا ـ عملاً نضالياً ووطنياً بامتياز، يستحق التقدير والمكافأة أكثر مما يبدو لمرتكبه ممارسة لأفعال مشينة أو لتحقيق متعة سادية تستوجب الندم أو الإحساس بالعار.

فمن خلال هذا العنف المتحرر من أي قيد يشعر الجلاد الصغير بالتماهي مع الجلاد الأكبر، ويشاركه مشاعر التفوق والقوة والعظمة، ومن ثم فرحة الانتصار المحتّم على الأعداء والمتمردين. إنه لا ينفذ أوامر ولكنه يساهم في تحقيق مأثرة سياسية وملحمة تاريخية.

هكذا يؤدي التعذيب هنا وظيفة إدماجية، هي لحم عناصر السلطة وقواها المختلفة وتعميق الشعور بتفوق الجماعة الحاكمة وأتباعها في كل مكان وساحة مواجهة، وتوحد الجمهور وأدواته مع قائده. ويكاد العنف يتحول ليس إلى طقوس شبه دينية فحسب ـ تعبّر عن التفوق والقوة والعظمة والمجد ـ وإنما أكثر من ذلك، إلى ثقافة مشتركة أو مرجعية تتعرف من خلالها جماعة متماهية مع أجهزة العنف والقوة على هويتها، أو بالأحرى تعيد من خلالها صنع هويتها كجماعة متفوقة وحاكمة وسيدة في الوقت نفسه. وهو العنف الفائض الذي يغمر النظام المجتمعي بأكمله،

ويظهر بالمقدار نفسه في أروقة السلطة والإدارة، وفي العلاقة مع الجمهور في الدوائر الرسمية وفي الشارع، ومع الحضور الطاغي والدائم لعناصر الأمن والاعتقال المرعبة، مثلما يستعرض نفسه في أقبية المعتقلات على يد جلادين محترفين، أو حتى ضباط جيش نظاميين، لم يتردد أحدهم، برتبة لواء، في عرض صور سلخ ضحيته حيّاً ونشرها على صفحات وسائط التواصل الاجتماعية معلقة على حبل.

ها هنا بعض الأفكار لمقاربة أولى لعقلنة أو إيجاد تفسير عقلاني لعنف مجنون وأهوج غزا الدولة ومعتقلاتها في سورية. لكن لا يزال لا يوجد جواب مقنع مع ذلك عن الأسئلة المربكة: كيف نجح نظام حكم مستقر أن يحوّل دولة إلى آلة قتل منهجي ومنظم لشعبه، ويحول سورية بأكملها إلى مسلخ تسيل فيه الدماء في كل زاويةٍ وبيت، ويفقد فيه الإنسان روحه وعقله وإنسانيته كل يوم وكل ساعة؟ كيف تحول «رئيس جمهورية» يملك ويجمع بين يديه كل وسائل السلطة والقوة والإذعان إلى جزّار، وحوّل البلاد إلى ساحة للمسالخ المفتوحة في كل مكان؟ ما هو سر المحرقة الأسدية؟ وكيف أصبحت الإبادة سياسةً، وصار نزع الإنسانية عقيدةً ومذهباً؟ هل فقد النظام عقله، إذا كان قد تمتع لحظة بحدٍّ أدنى من العقلانية والعقل، أعني به السياسة، أم كان منذ بدايته نظام حرب وضع عقله في حذاء جنوده واطمأن؟

وربما لا يوجد جواب شاف على هذا السقوط في العدمية السياسية والأخلاقية. كما لم يوجد جواب شاف على سير إحدى أعظم الأمم الأوروبية في المدنية، وأحد أهم مواطن أنوارها العقلية والإنسانية، وراء شخص مهووس بالتفوق العرقي اسمه رودولف هتلر، ومن ثم ذهابها طائعة إلى الانتحار في حرب لم تُبقِ لمدنيتها أثر.

لكن نخطىء أيضاً إذا لم نكتشف في التاريخ سوى الجنون والعبث. فألمانيا ما بعد الحرب أعظم وأرقى مدنية واستقراراً وإبداعاً مما كانت قبلها. ونظام الأسد يغرق في حطامه، ولن يعيش على مشاعر الحقد

والكراهية والانتقام سوى الأيام التي تسمح له بها الدول التي استخدمت جنونه. ونحن كقرّاء لن نفهم شيئاً إن لم نحتفظ من قراءة روايات المعتقلين الناجين من الموت سوى بصور الموت وصنّاعه. ما يُذهلنا وما يُشكّل الدرس الأهم من هذه الشهادات الناجية من الموت مثل أصحابها، وما يعطي لها القيمة والمعنى، ليس ما تبرزه من حقارة الجلاد ولكن ما تبطنه من شجاعة الضحية وتسره من نبع القيم الإنسانية الذي لا ينضب في قلوب هؤلاء وروح التضامن التي وحدت بينهم في ما وراء الاختلافات الدينية والفكرية والسياسية، وإرادة المقاومة للموت والانحطاط والسقوط التي لم تغادر قلب أحد منهم، والتي يصحّ فيها وحدها وصف مقاومة العين للمخرز. هنا أيضاً نجد أنفسنا أمام سر لا يقل سبر غوره صعوبة عن سابقاته: كيف أمكن لهؤلاء الذين قضوا سنوات معلّقين على حبل رفيع بين الموت والحياة، واليأس والرجاء، معزولين عن العالم، في مواجهة طوفان من مشاعر الكراهية والنذالة والعنف أن يحتفظوا بإنسانيتهم؟ وأي شجاعة تلك التي مكّنتهم من التغلّب على ضعفهم، وتجاوز خوفهم؟ وأكثر من ذلك، أي قوة معنوية كانوا بحاجة إليها للاحتفاظ بعقلهم وبذاكرتهم كيما يحرروا لنا هذه الشهادات التي تشعّ بالأمل بمقدار ما تظهر عبث التاريخ وبؤس المصير؟ هو بالتأكيد الأمل الضارب جذوره في أعماق النفس البشرية، والذي مكّن هؤلاء الشهداء الأحياء أن يتغلّبوا، في قمة ضعفهم وعجزهم، على العبث واليأس، وأن يصنعوا من ألمهم ذاته ومعاناتهم المعجزة. هذه أيضاً من الأسرار التي يصعب سبر غورها.

❊ ❊ ❊

ستعيا يا صديقي وأنت تتبعني..

سأكثّف عشرين عاماً من العذاب والألم

في هذه الصفحات..

قبل بدء الكلام

قبل السَّرد. .

وقبل نزْف الحكايات. .

إنها حكايةُ الآلاف ممّن قضَوا في ذلك السجن الرهيب، وضاعت حكاياتُهم كما ضاعت حقوقُهم، وضاعوا عن قلوبٍ ما زالت إلى هذه الساعة تنتظرهم. .

هي حكايةُ الآلاف من الناجين وأنا واحدٌ منهم. . ولعلَّ الكثير منهم لم ينْجُ بعد، وإنْ خرج بجسده من السجن حياً، لتكون زنزانته معه وقد صُلبتْ روحُه فيها، ولا أمل لديه بالانفكاك عنها. .

إنّها قصة آلاف الأمهات والزوجات والشقيقات والأبناء والبنات. .

إنّها حكاياتٌ سيتناقلها الجيران همساً في الأماسي الحميمة، وهم يتذكرون عشرات الشباب والرجال الذين سِيقوا من بيوتهم ليلاً إلى مصيرٍ مجهول. .

❊ ❊ ❊

إلى جميع الأصدقاء في رحلة العذاب تلك. . إلى جميع الشركاء في تلك الملحمة التي لم تترك بيتاً سوريّاً إلّا اقتاتت من دمه:

ستفرّقنا الأيامُ والحوادث، لكنها وحدَها قصةُ السجن الرهيب مَن تُوحّدنا، وكلما ندَّتْ عن أحدنا همسةٌ، أو نُقلتْ عنه حكايةٌ، في أيّ بقعةٍ

من الأرض الرحبة، تلقّفَتْها أرواحُنا جميعاً، فنحن شركاء الدم جميعاً، وأولُ مَن سيهتف بنداء الحرية ويستجيب له..

وكما نزفتْ أجسادُنا وأرواحُنا في تلك السجون، فقد كان أهلونا وأصحابُنا رجْعَ الصدى لصرخاتنا وأنّاتنا؛ هي ملحمةُ الظلم والعذاب التي تَشارك فيها الشعبُ السوري، من أقصاه إلى أقصاه.

طويلاً كان صمتُنا. ومع أننا خرجنا من تلك السجون الدامية، إلّا أن قبضة الجلاد والجزار ما زالت تُحْكم بأصابعها على رقابنا وتكمُّ أفواهَنا، ولهذا ستتكرر تلك الجريمةُ مرات ومرات.

إنَّ سرد تلك الحكايات وإبقاءها حية ربما يخلق حماسةً جماعيةً ورأياً عامّاً، يدفع لمحاكمة أولئك المجرمين وتقديمهم للعدالة، كيلا يستمرئ القتل والتعذيب من سيعقبونهم، كما أنّه يحمل في طيّاته ردَّ اعتبارٍ لآلاف الضَّحايا والنّاجين الذين شوِّهت صورتهم.

لن يكون بمقدور أحدٍ منّا أن يحكي حكايةَ السجن الطويلةَ بمفرده، فهي آلاف الحكايات والوقائع التي يختلف صداها عند كل راوٍ، كلُّ سجينٍ بذاته حكايةٌ مستقلة، وإن تقاطعَت المساربُ العريضة لتلك الحكايات.

عقودٌ طويلةٌ أمضاها السوريّون دون استثناء، ونِيْرُ الاستعباد الأسديّ يُطوّق أعناقَهم، وسَوْطُه يجلِدُ ظهورَهم.

لا يزال العالم ـ إلى الغد ـ يُصغي إلى تداعيات المحرقة التي ارتكبها «هتلر» بحقّ اليهود، ويدفع تعويضاتها، بينما عشرات المجازر والمحارق لا تزال تُرتكب في بلدنا سورية، تحت سمْع العالم وبصره، دون أن يكون لهذه الجريمة صدًى إلّا في وسائل الإعلام.

جديرٌ بنا أن نكرر سردَ الحكايات، ونوثّقها ونعلّمها لأولادنا، كي نردَّ الاعتبار لمن قضَوا ومَن نجوا، كي نقارع كذبَ نظام الإجرام وقصصَه المختَرَعة التي يخدِّر عبرَها مَن يواليه.

* * *

إلى كلِّ أمٍّ فقدتْ ولدَها، وإلى كلِّ زوجةٍ فقدت زوجَها، وإلى كلِّ ابنةٍ وابنٍ فقدوا أباهم، وإلى كلِّ أختٍ فقدت أخاها:

هذه شهادتي غير موشّاةٍ ببديعِ البيان، ولا مزيدةٍ بزيفِ الخيال. هي ما حصل معنا جميعاً، فمنّا مَن قضى ومنّا من ينتظر.

وحتى لا يُقتل القتيلُ مرتين، مرةً حين ذبحَتْه مِدْيةُ الجلاد، وأخرى حين نذبحُه بمبضعِ النسيان، حريٌّ بنا أن نشيدَ لكلِّ ضحيةٍ منهم نصبَ تقديرٍ وإجلالٍ في نفوسنا، كي يبقوا أحياء بيننا، تحدّثُنا حكاياتُهم دائماً أنهم لم يُنصَفوا بعد، وأنّ العدالة لم تأخذ مجراها كما نتمنّى.

ولا سبيلَ إلى سلامٍ دون ذلك..

* * *

١ ـ إن الناجين لا ينسون أبداً

كلما تركتُ لمخيّلتي العنان أن تستسلم لتداعياتها العفوية، تسوقني طوعاً إلى اللحظات الأولى في سجن تدمر، تلك اللحظات التي دخلنا فيها بوابة السجن الرهيب، صيفَ عام ١٩٨٠..

بوابةٌ حديديةٌ ضيقة جداً، سوداء، قميئةٌ، نال منها الصدأُ وتراكُمُ الأوساخ، فأحالها إلى لوحةٍ بائسة، تنذر برائحة الموت.

كانت هناك على ميمنة الباب الأسود لوحةٌ بيضاء متّسخة، غلبت على بياضها صفرةُ الأوساخ، كُتب عليها بالخط الأسود الرديء: «الداخل مفقود، والخارج مولود»..

وعلى ميمنة البوابة وميسرتها وقف صفّان من الجلّادين النهمين كذئابٍ جائعةٍ، يتلقّفون السجناء المقيّدين بالسياط والكابلات المسلّخة، التي تفتك باللحم الهزيل، بعد أن فعل التجويعُ والجفاف والمرض فيه ما فعل.

كنا قرابة المئة شخص، بين مَن جاوزَ الستين من عمره، وفتًى غريرٍ لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره بعد.

كانت الأصوات تغزو فضاء الصحراء الصامتة فجراً، لا يعكّر هذا الصمتَ إلا صراخُ الجلادين الذين ينتظرون ضحاياهم. والمشهد الذي ينتظرنا لوحةٌ جهنمية من السياط السوداء التي تقطع الجلود فتصبغها بحمرةِ دمائها.

عشرات الجلادين يتعاقبون علينا، ويُعينهم رهطٌ آخر يعمل على إيقاظ مَن أغمي عليه، برشقه بجردل ماءٍ قذر ـ مع عدد من ركلات الأقدام ـ يعيده إلى رشده، كيما يتسنى لهم معاودةُ التعذيب، مرةً ثانية وثالثة وعاشرة.

يقف إلى جانبي فتًى متين البنية، كان صديقي في مقعد الدراسة، إنه «خلدون» الذي كان يمارس بعض صنوف الرياضة، وكانت حركاته تشِي بشيءٍ من المقاومة ومتانة البنية، لم يكن يريد لروحه أن تنكسر فيزيد عليه بأس العذاب. وكان الجلادون يلحظون هذه المقاومة، فيستشيطون غضباً ويُمْعنون في التعذيب.

لكن الذي حصل أنّ الجلاد في إحدى ثورات غضبه ـ وقد أهانته صلابةُ هذا الشاب الذي لم يبلغ الثامنة عشرة بعد ـ انهالَ عليه بالضرب المستمر إلى أن سقط وكفَّ قلبه عن النبض. وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لإيقاظه بمزيد من الضرب والإغراق بالماء، لم يصْحُ من غيبوبته. بقيت الدماء تنزف من صدغيه وأنفه، إلى أن توقف عن الحراك بشكلٍ نهائي.

أخيراً حضر الطبيب المشرف على ساحة التعذيب، وهو ضابط في الشرطة العسكرية مفرز من إدارة السجون، وسرعان ما أسفر فحصه عن قراره بثبوت وفاة الضحية، فأرسل عنصراً يبلغ مدير السجن العسكري بلا مبالاة أن السجين قد مات، ولم يعد يُسمع له نبض.

لم يحصل شيء لافتٌ للنظر، الحرُّ والتعذيب والصراخ ذاته.

استمرت الحال ساعةً أخرى إلى أن هدأت الحركة بشكل مفاجئ، وقدّم ضابطُ الساحة الصفَّ العسكري للضابط «فيصل غانم» مدير السجن.

تقدم مدير السجن العسكري، كانت عيونه ساهمةً في مكانٍ بعيد، لا تستطيع أن تستشفّ منها أيّ تعبيرٍ أو أي معنى، كأنه أَفَاق لتوّه من تأثير أبخرته، التي كانت تحلّق به إلى البعيد البعيد.

تكلم مع الطبيب ـ وهو أدنى منه رتبةً عسكرية ـ تبادل معه بضع كلماتٍ متفرقة، تُنبئ بتبلُّغه التأكيد بوفاة السجين، كلماتٍ مفادها أنَّ الرقم تحول من مئة سجينٍ إلى تسعةٍ وتسعين وحسب. وبإشارة باهتة من يده، تحرَّك بعض العناصر فحملوا جثة صديقنا «خلدون»، ورموه في ركن الساحة البعيد، كيما تأتي سيارة تنقله إلى إحدى الحفر في صحراء تدمر، تلك الصحراء التي ضمَّت، وستضمّ خلال مئات الأيام القادمة، جثثاً لآلاف الشباب والكهول.

ثم وقبل أن ينصرف، تذكّر أنه من اللائق أن يكون له تعليقٌ موجزٌ على هذا الحدث، تعليقٌ يُفهمهم ـ أي الجلادين ـ ويُفهمنا ـ نحن الوافدين الجدد إلى معقله ـ طبيعةَ الحياة في هذا المعتقل، وكيف تُدار الأمور.

صرخ بصوت خشن: «مَن الذي قتلَه؟».

لم يجبْ أحدٌ للوهلة الأولى، فقد كان السؤال على ما يبدو غير متوقَّعٍ.

كرّرها بصوتٍ أعلى: «مَن قتله؟».

تقدّمَ عسكريٌّ ضخم الجثة، بارد الوجه، غطّاه العرق والإعياء، فقد كان يضرب بكل عزمه منذ ثلاث ساعاتٍ دون توقّف، ما عدا بعض ثوانٍ يعبّ فيها من إبريق الماء المركون في زاوية الساحة.

«أنا سيدي القائد». . قالها بصوتٍ لا ينمّ عن الارتباك أو الندم أو الخوف.

تنمّرَ سيادتُه مُبدياً أقصى ما يمكن لغضبه أن يبْلغه في تلك اللحظة. صاح موجّهاً حديثه إلى العسكريّ القاتل:

«قسماً بشرفي، لو عدتَ إلى مثل هذه البياخة ثانيةً سأحلِق لك شعرك. . انقلع من هنا».

فانقلع العسكريُّ صاغراً، وتحرّكَ سيادته بخطًى ثابتةٍ عسكريةِ الإيقاع، يتبعه موكبه، وقد غمر الجموعَ بنبرته العمرية الحازمة.

إنه لا يتهاون مع الخطأ أبداً، ولو كان من أحد أبنائه في قطعته العسكرية، تلك التي تحرس الوطن في لبّ الصحراء.

عاد المشهد إلى سابقه، وكنت مبطوحاً على الأرض أتلقّى سيلاً جديداً من السياط، تلك التي تفتك بجلدي؛ كان صراخي مختلطاً بدم وجهي، وبأفكاري الساذجة التي تبعثرتْ في ألف اتجاه.

لم أشعر ساعتَها أنني ألصقتُ وجهي إلى ثقبٍ في الأرض، هو مدخلٌ لعشٍّ نملٍ أسود، سرعان ما أحسّ برائحة الدم القريبة، فانتشر على كامل وجهي يبحث عن مبتغاه.

* * *

تبقى الذاكرة تلحّ علينا كي لا تتفلّت من بين أصابعنا، على الرغم من زحام المتواليات والوقائع التي تغلغلتْ في أدقّ مطاوي حياتنا اليومية، فأحالتها إلى ركاماتٍ هائلةٍ من الأشياء الجميلة، والأخرى التافهة أو المعذِّبة، التي تصيب أرواحنا وذاكرتنا بالاعتلال.

ماذا يبقى إذا نحن نسينا؟

ماذا يبقى منّا إن نحن فقدنا هذه الذاكرة: مخزن الأيام وحصيلة ما يتبقّى من الأسى والآلام؟ وهل نحن في النهاية إلّا تلك الذاكرة، بحلوها ومرِّها؟

في كل ليلة تعبر أحلامَنا أطيافُ موتانا، لتسأل: لماذا متنا؟ وفي سبيل أي شيءٍ؟ وما قيمة هذا الموت؟ إن كان للموت أصلاً قيمة.

* * *

لم أكن يومها قد بلغت السابعة عشرة من عمري، رائحة الدم، وصورة صديقي الذي مات من دقائق، ومصيري الأسود المجهول، الذي

لا أجدُ له أفقاً، ولوحةٌ سوداء كبيرة تغطّي جدار الساحة الغربي: «ستقف يوماً في محكمةٍ، قاضيها ربّ العالمين».

أذكر الآن ـ وبعد مرور أربعين سنةً على الوقائع المحفورة في تلافيف الروح ـ كيف قهرني تواترُ التعذيب اليومي، وأنا لم أجاوز السابعة عشرة من العمر بعد، كيف عمدتُ إلى إحدى البطانيات الصوفية، فجعلت أنسل خيوطها وأجدلهم بشكل يوميّ، وفي غفلةٍ من المحيطين بي، والمنشغلين بآلامهم، وكنت قد عزمت على ضفْر حبلٍ متينٍ بمقدوره أن يحمل جسدي الصغير النحيل، فأربطه إلى أحد قضبان النوافذ الحديدية في جدار المهجع، وأقوم بإنهاء حياتي شنقاً بيدي.

الأمل معدومٌ والتعذيبُ اليوميُّ أكبر من أن يطاق، وليس هناك من بصيص أملٍ يشي بأية نهايةٍ قريبة، ليس هناك إلّا سردابٌ مظلمٌ طويلٌ من التعذيب والقهر والرعب المنتشر على نتوءات الدقائق البطيئة.

وكلما اقتربت من إنهاء هذا الحبل المضفور، كانت تصفعني كلماتُ أبي، بتكرارٍ رتيب:

«كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنارِ»..

فأنا أفرّ من عذابٍ يومي إلى عذابٍ أبديٍّ، لو أقدمتُ على الانتحار.

* * *

٢ ـ قبيل الاعتقال

أول خيطٍ تشدّني به الذاكرة إلى الأيام الأوائل التي سبقت اعتقالي هو أحداث عام ١٩٨٠؛ فقد جرت العادة أن نسمع، وبفرحٍ شديدٍ بين الحين والآخر، خبرَ اغتيالِ شخصٍ ما من حلفاء النظام وأجهزته الأمنية، مما يسبب إرباكاً لهذه الأجهزة، فكانت السيارات العسكرية التي تحمل المدافع الرشاشة وعناصرَ من الوحدات الخاصة أو سرايا الدفاع، تجوب شوارع حلب بسرعةٍ لم نشهدها من قبل، وهم يفرغون كامل ذخائرهم في فضاءات المدينة، بينما ترتفع أصواتهم بالشتائم والتهديدات لتلك العصابات التي تُربكهم وتهينهم باغتيالاتها، وكانت الهمسات تتردّد هنا وهناك، أن خلايا من حزب البعث اليمينيّ التابعة للعراق، وبدعمٍ وتحريضٍ من الرئيس العراقي «صدام حسين»، تقف وراء هذه القلاقل التي تحدث.

لا أظن أن الشارع يومئذ كان معنيّاً أو مهتماً بتحليل التفاصيل والدوافع، أو صوابية الاغتيالات مِن خطئها، أو مَن يكون وراء هذه الاغتيالات، إضافة إلى أن الاغتيال السياسي والكفاح المسلح كان أمراً مألوفاً في ذلك العهد في بلدانٍ شتى، خصوصاً في أوساط الكفاح الشيوعي في أمريكا اللاتينية، وكنا نسمع في تلك الآونة من بعض الإذاعات عن صداماتٍ مسلحة بين «التوباماروس» وقوات النظام الديكتاتوري في الأورغواي.

الأمر الذي كان ملحوظاً بشكلٍ واضحٍ أن الناس عموماً كانوا فرحين

بهذا النكز في خاصرة النظام، هذا النظام الذي يكمّ الأفواه ويسرف في نهب المقدّرات، ولا يتوقف عن الإرهاب اليومي عبر أجهزته الأمنية المنبثّة في جميع مفاصل الحياة اليومية للسوريين، بدءاً من نقاط الدخول في المطارات والمعابر الحدودية، وانتهاءً بالمقابر، التي كثيراً ما كانت تُنقل إليها توابيت ممنوع فتحها، لكثرة ما كانت تحوي من آثار التعذيب على أجساد الضحايا. كنا نلمس تلهّف الناس لأي خبرٍ جديدٍ، أو حادثةٍ أوجعت النظام مرة أخرى.

* * *

كانت الحادثة التي هزّت أجهزة الأمن العليا يومها قيام ضابطٍ برتبة نقيبٍ، واسمه «إبراهيم اليوسف» من بلدة تادف، بتنفيذِ ما سمّي بـ (حادثة مدرسة المدفعية).

«إبراهيم اليوسف» ضابطٌ بعثيّ كما يؤكد الإخوان المسلمون، وعلى رأسهم المراقب العام الأسبق «علي صدر الدين البيانوني»، في أكثر من تصريحٍ رسميٍّ له، بينما تذكر زوجة «إبراهيم اليوسف» أنه منتسب إلى تيار (الطليعة المقاتلة) منذ عام ١٩٧٧.

قام هذا الضابط (بتاريخ ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٧٩) بتسريب عناصر من تنظيم الطليعة المقاتلة وتسهيل دخولهم بشكلٍ سريٍّ إلى مبنى مدرسة المدفعية بحلب، بعد أن أمر الطلابُ الضباطَ السنة والمسيحيين بمغادرة المدرسة، وهناك جمع ما تبقّى من طلابٍ ضباط ـ وجميعُهم من الطائفة العلوية ـ في قاعةٍ كبيرة، ودخل عناصرُ الطليعة المقاتلة ففتحوا النار عليهم وقتلوهم جميعاً.

سَتُعْرفُ هذه الحادثة بعد ذلك بمجزرة مدرسة المدفعية بحلب. وكانت هذه العملية كارثةً على البلاد بكل معنى الكلمة؛ إذ كانت رسالةً واضحةً بأنَّ هذه الانتفاضة تستهدف العلويين، وليست تستهدف نظاماً قمعياً؛ الأمر الذي كانت له تداعياتٌ سيئةٌ على ما سيليها من أحداث، استطاع النظام أن يوظفها بشكلٍ بارعٍ وعنيفٍ لمصلحته.

سيتبرأ قادة الإخوان المسلمين من هذه المجزرة، التي كانت قتلاً لطلاب ضباط، لم يدخلوا حيِّز الفاعلية العسكرية بعد، فقد قُتلوا على ما يمكن أن يصيروا إليه مستقبلاً، وهذا بالضبط ما أوغرَ صدورَ الآلاف من أهالي الطلاب الضباط الذين قُتلوا في مدرسة المدفعية دون جريرة.

وفي ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٧٩، أي بعد ثمانية أيام من وقوع المجزرة، أصدر الإخوان المسلمون بياناً أكدوا فيه براءتهم من هذه المجزرة. وجاء البيان على النحو التالي:

إن الإخوان المسلمين قد فوجئوا كما فوجئ غيرهم بالحملة التي شنّها عليهم «عدنان دباغ» وزير الداخلية السوري، متهماً إياهم بالعمالة والخيانة وغير ذلك، ومحمّلاً إياهم مسؤولية أمور هو أكثر الناس درايةً أنهم براءٌ منها. لقد حمّلهم مسؤولية المذبحة التي حدثت في مدرسة المدفعية، كما حمَّلهم مسؤولية الاغتيالات التي جرت، ولا زالت تجري في سورية. ونحن نذكّر وزير الداخلية السوري أنه بالأمس القريب كان يتّهم العراق بهذه الاغتيالات، فلماذا تغيرت النغمة اليوم؟

وعلى كل الأحوال، فإن الإخوان المسلمين ـ وهم أكثر الناس إدراكاً للوضع الدقيق الذي تمرّ به بلادهم في هذه المرحلة ـ يحبّون أن يضعوا النقاط على الحروف في الأمور التالية:

١ ـ إن نغمة عمالة الإخوان المسلمين لشرقٍ أو لغرب نغمةٌ أصبحت معروفة ممجوجة، وإن ما لاقوه من عنتٍ وأذى من عملاء الشرق والغرب، إنما كان من أجل مطالبتهم بتحكيم كتاب الله في واقع الحياة.

٢ ـ إنه من العجيب أن يُتَّهم الإخوان بالعمالة لإسرائيل، في الوقت الذي يعلم الجميع قتالهم على أرض فلسطين، بينما يتحمّل غيرهم عارَ الهزائم المتلاحقة.

٣ ـ والأعجب من هذا أن يُتّهم الإخوان المسلمون بأنهم يريدون إضعاف مقاومة سورية، والإخوان المسلمون يقولون: إن الذي أضعف

المقاومة في سورية هو الذي سرَّح الضباط الأكفاء وأوقد نار الطائفية في الجيش وغيره، وحطّم الاقتصاد السوري، وأفقد المواطن الثقة بكل شيء.

٤ ـ أما أن الإخوان المسلمين يعملون لصالح أصحاب اتفاقية «كامب ديفيد»، فهذا يدحضه أنهم هم الجهة الوحيدة التي ترفض بصدقٍ وإصرار أن يكون لليهود دولة ولو على شبرٍ واحد من فلسطين.

فإذا اتضحت هذه الأمور، فلنناقش مسؤولية الإخوان المسلمين عن حادثة مدرسة المدفعية في حلب:

أ. إن النقيب «إبراهيم اليوسف» الذي نفّذَ حادثة مدرسة المدفعية معروفٌ عنه أنه عضوٌ عامل في حزب البعث السوري، وليس له أيّ صلةٍ بالإخوان المسلمين؛ فلماذا ينسب عمله إلى الإخوان المسلمين؟

ب. ثم إن السلطة تعرف أن هناك أوراقاً خلّفها أصحاب الحادثة تبيّن هويّتهم، وأن لا صلة لهم بالإخوان المسلمين.

ج. لقد أَلِفَت شعوب هذه المنطقة أن ضرب الحركة الإسلامية لا يكون إلا مقدمةً لاستسلام أو تسليم.

د. إن هناك وضعاً غير متوازنٍ في سورية، بين الطائفة النصيرية الحاكمة التي لا تشكّل أكثر من ١٠٪ من سكان سورية، وبين بقية الطوائف، ويكفي التدليل على ذلك بما حدث في مدرسة المدفعية، فمن مجموع طلابها لم يوجد إلا ثلاثون سنياً من أصل ٣٠٠ طالب غالبيتهم العظمى من النصيريين.

أليس هذا وحده قد يكون سبباً لاندفاع النقيب «إبراهيم اليوسف» البعثيّ السنيّ في السير في طريقه الذي سار فيه؟

هـ. إن هناك كثيرين من قادة الإخوان المسلمين وأفرادهم معتقلون منذ أشهر، وبعضهم منذ سنين، فهل ما أُعلن بالأمس كان مؤامرةً لإدانة هؤلاء بشيء لم يفعلوه؟

و. إن الإخوان المسلمين يتحدّون أن تُثبت أي جهة في العالم، عن طريق تحقيقٍ نزيه، أن تكون قيادتُهم أو عناصرهم قد سارت في طريق العنف، علماً بأن الحكم السوري قد أوجد له كثيراً من الخصوم الذين يؤمنون باستخدام العنف.

* * *

هذه المجزرة كانت في ظاهرها ضربةً موجعةً للنظام؛ إذ استهدفت الطلّاب العلويين، في المدرسة العسكرية على وجه الخصوص؛ أولئك الطلّاب الذين كان ينتظر النظامُ تخرّجَهم كضبّاط، واستلامَهم مهامهم العسكرية في إدارات الجيش وقطعاته، وكان نظام «الأسد» في أوج سعيه لتشديد إحكامه لقبضته القمعية على جميع مؤسسات الدولة وأجهزتها، وصبغها بالصبغة الطائفية، وعلى رأسها مؤسستا الأمن والجيش.

لكن بعد استكمال الصورة، سيتضح عبر العديد من الوقائع أن النظام كان يستدرج التيار الإسلامي في سورية إلى معركةٍ قد استعدَّ لها أتمَّ استعداد، مستغلاً هشاشته وسذاجته السياسية.

لقد كان «حافظ الأسد» جادّاً ودؤوباً على إحداث هذا الشرخ الطائفي في جميع مؤسسات الدولة، كون هذا الوضع الذي يُنشئه سيُعينه بامتيازٍ على ترسيخ سطوته وجبروته، وتمكينه من إدارة معاركه مستقبلاً، والحصول على دعم طائفته بوصفه حامياً لها.

* * *

بعد هذه المجزرة بأسابيع، تم احتلال مدينة حلب عسكرياً، وصرنا نستيقظ على صرير المجنزرات والدبابات وهي تتمركز في زوايا الحارات ومفارق الطرق.

أذكر أنني وبعض أصدقائي عبرنا إحدى حاراتنا، وكنت أقيم مع أهلي في (حيّ الميدان)، وهو حيٌّ يسكن فيه العرب والأكراد والأرمن والآشوريون، وهو من الأحياء ذات الأكثرية المسيحية، يومها مررنا قرب

مجموعةٍ عسكريةٍ فصرخ بنا ضابطٌ صغير من (قوات سرايا الدفاع) التي تتبع لـ «رفعت الأسد» ـ شقيق الرئيس وأحد عتاة المجرمين في تلك الحقبة ـ وأنزلونا جاثين على ركبنا، وأخذوا يتحقّقون من هوياتنا ويفتشون جيوبنا، ويكيلون لنا أقذع الشتائم، وكان معظمنا شباباً صغاراً، بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة من العمر.

كانت هذه القوات تحتلّ الحيَّ بكامله بطريقةٍ «ميليشياوية»؛ إذ تتسلل مجموعةٌ من المقاتلين المدججين بالعتاد العسكري إلى سطح كلِّ بنايةٍ فيه، وتتبعها مجموعةٌ أُخرى تسيطر على منافذها، ويتم حينها إطلاق مجموعةٍ من الطلقات، التي تؤكد أن السيطرة باتت عليها مُحكمة، بينما ينتشر مئات المقاتلين على أسطح البنايات المجاورة ليرقبوا أي تحرّك أو تسلّل.

وبعدها يقومون بتفتيش البيوت بيتاً بيتاً، ولا يتركون صندوقاً أو خزانةً أو مكاناً يمكن أن يخفي شخصاً أو سلاحاً أو كتباً، إلا مزّقوه وفتّشوه وقلبوه رأساً على عقب. وكثيراً ما كنا نشهد سحب أحد الآباء أو الشباب بقوة السلاح، وهو مدمى الوجه من شدة الضرب بالأقدام وبأخمص البنادق.

أستعيد الآن صوراً من الذاكرة، حاضرةً بكل تفاصيلها، كيف كانت أحياء المدينة محتلةً بالكامل، وقد فرض المحتلون حظراً صارماً للتجوال، وكيف أننا كفتيان، يصعب حشرنا في هكذا ظروفٍ مثيرةٍ بين جدران البيوت، كنا نتسلل إلى أسطح البنايات فنتجمع ونرقب تحركات القوات في شوارع الحي، كنا نحسّ أنهم غرباء ولا يشبهوننا، ولا يشبهون إخوتنا الذين ذهبوا لخدمة العلم.

يومها كنت أرقب رتلاً من المجنزرات وحاملات الجند وهي تتقدم في ضجيج منكر، يحفّ بها جنودٌ مسلحون بكامل عتادهم الميداني، كأنهم يتحركون على جبهتنا مع إسرائيل. لم أملك نفسي يومها من أن أحمل حجراً كبيراً، أكبر من راحة يدي، وأرمي به ذلك الرتل، ولم أكن

يومها أدرك العواقب، فما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى كان الرصاص يمطر واجهة البناية، وعشرات الأصوات الغاضبة تشتم وتتوعّد، وسرعان ما أحكموا تطويقها من كل جهة، وأخذوا أقصى درجات الحيطة وهم يتقدمون نحو مدخلها، وسرعان ما كانت بنادقهم وأقدامهم تقرع الأبواب، بحثاً عن ذلك الذي رشقهم بحجر.

خلال ذلك كنا قد دلفنا إلى أقرب البيوت، بيت جارنا «أبي وحيد»، وجلسنا ننتظر ما سيسفر عنه هذا الاقتحام. لم أكن مذعوراً، وكان معظم الحاضرين يعرفون أنني مَن رمى الحجر، لكن لم يكن هناك مجردُ خاطرةٍ توحي أنهم سيشون بي. وتم تفتيش البناية، ولم يعثروا على ذلك الصبي. لكنّ أحد الجنود، وكان من قوات «رفعت الأسد»، ووجهُه يقْطر لؤماً، ظلّ يشكّ بي ويحاول مراوغتي لأعترف أنني مَن رماهم بحجر.

كثيراً ما تعود بي الذاكرة إلى تلك اللحظة، وكان عمري يومها ستّ عشرة سنة: ما الذي أغرى صبياً صغيراً بهذا الفعل العدائيّ لقوّاتٍ يُفترض أنها قوات بلده كي يخاطر ويرشقها بحجر، وهو يرى فظاعة ما تفعله بمن يخالفها أو يناصبها العداء؟!

وَيدورُ هَمْسٌ في الجَوانِحِ: ما الَّذي   بِالثَّوْرَةِ الحَمْقاءِ قَدْ أَغْراني؟
أَوَلَمْ يَكُنْ خَيْراً لِنفسي أَنْ أُرَى   مثلَ الجُموعِ أَسيرُ في إِذْعانِ؟

لكن حالي كما يبدو كحال الآلاف، الذين يشكلون في معاناتهم الجماعية جبلاً من القهر والحرمان، والخوفِ الضاغط على القلوب، والإحساسِ بالاستلاب الذي تمارسه السلطة الأسديّة وتتمادى فيه كل يوم، الأمر الذي لا بد أنه مُفْضٍ إلى الانفجار، وهو أشبه بتتابع القطرات التي ستستحيل في ساعةٍ ما إلى ذلك السيل الذي لا توقفه العوائق.

* * *

كانت حلب ـ شأنَها شأن معظم المدن السورية، ولأعوام خلتْ ـ تغلب عليها مسحة التديّن الشعبي، ويظهر هذا في المناسبات الدينية، في

رمضان وصلواته وموائده، وموسم عودة الحجيج من مكة، وكيف تصبح حلب برمّتها كأنها مطبخٌ للراحة الحلبية المعجونة بالفستق، والتي تتناقلها الأيدي من كل بيوت الحجاج إلى سائر بيوت المدينة، وفي عيد المولد النبوي كانت المدينة تشتعل بمصابيحها المضاءة وألوانها وفرحها، وعلب الراحة وصرر اللوز الملبّس بالسكاكر، الذي يوزع في المساجد والحارات.

كنت تلمح مئات الشباب يكثرون التراداد إلى جامع ومدرسة الخسروية قبالة باب القلعة لحضور حفلات الإنشاد الديني والموالد النبوية، (وهي الثانوية الشرعية بحلب، نسبةً إلى الوالي العثماني على حلب «خسرو باشا» الذي بناها عام ١٥٤٧)، وكذا الأمر في جامع العثمانية (الذي يسميه الحلبيون جامع القطط)، حيث اشتهرت دروس الشيخ «أبي النصر البيانوني»، التي يؤمّها المئات من الشباب، ليسمعوا منه وعْظَه المعتدل، ويمضوا الساعات من بعد صلاة العصر حتى أذان المغرب، يستمعون إلى ترتيلٍ مسجَّلٍ للمقرئ «محمود خليل الحصري».

ولا أنسى تردّدي وجمْعاً من أقراني إلى مكتبة الشيخ «عمر زيتوني» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي كان من ديدنه أن يشتري مكتباتٍ منزليّةً قديمة، عزف عنها الورثةُ الذين آلتْ إليهم وزهدوا بها، فيبتاعها منهم كاملةً ويقوم بفرزها حسب قِدم الكتب وأهميتها وندرة بعضها.

وكنا مجموعة من طلبة الثانوية، مهتمين بما تحويه هذه المكتبات العتيقة من كتب نادرة، فنعاود الاتصال به بين الفينة والأخرى، ليخبرنا بموعد إخراج مكتبةٍ اشتراها حديثاً من صناديقها، ليكون لنا قصبُ السبق في الانتقاء، والحصول منه على أسعار تشجيعية. كان له الفضل الكبير في إغناء مكتبتنا المنزلية، ولا أنسى يوم حصلت على طبعةٍ مميزةٍ لكتاب (**الكامل في التاريخ**) لـ «ابن الأثير»، وهي الطبعة الأوروبية، وتقع في ثلاثة عشر مجلداً، بقيمة مئة وثمانين ليرة سورية، أي ما يعادل أربعين دولاراً تقريباً.

كان نظام «الأسد» يومها غارقاً في الأزمة اللبنانية، وفي بسْط نفوذه العسكري والأمني. لكن ما أن استتبّ له الأمر هناك، وأصبحت بيروت عاصمةً ثانيةً ومرتعاً للنظام الأسدي، حتى انعطفَ بآلته الأمنية والعسكرية على المدن السورية فاجتاحها.

صحيحٌ أن حادثة مدرسة المدفعية في حلب كانت الفتيل الذي يحتاجه هذا النظام ليبدأ حربه على الشارع السوري برمّته، لكن حتى لو لم تقع هذه الحادثة كان من المؤكد أنه ستقع حوادث أخرى من تلقاء نفسها، بفعل الظلم المتراكم والأفعال الاستفزازية لهذا النظام، كذلك لن يعدم نظامٌ قمعيّ أن يبتكر وقائع وأحداثاً تبرّر له ما يزمع القيام به لاحقاً.

كان مشايخ حلب عامةً مهتمين بأمر (طلائع البعث)، التي ستدخل العسكرة إلى أطفال البيوت، والمراحل الأولى للتعليم، تلك الفكرة التي استحدثها «الأسد» بعد زيارته كوريا، وإعجابِه الشديد بالزعيم الكوري «كيم إيل سونغ» الذي يحكم البلاد كإله، ويستعمر الشعب ويستعبدهم، حتى في بيوتهم وفي تنشئة أطفالهم.

وكان بعض مشايخها، ممن نجحوا في أن يكونوا أعضاء في مجلس الشعب، بفعلِ ما يتمتعون به من شعبيةٍ وولاءٍ لدى قطاعات واسعةٍ من السوريين، يخوضون معاركهم في الهوامش التي يسمح بها النظام، في التخفيف من إلزامية الطلائع للبنات، أو الدفاع عن بعض المعلمين ذوي الصبغة الإسلامية، الذين تم فصلهم وتحويلهم إلى مؤسسات لا تتفق مع مؤهلاتهم، كالتموين والصحة والإصلاح الزراعي. بينما يمعن النظام في تغيير بنية المؤسسات، واحتلالها بمن يواليه، ويطبع الدوائر الحكومية، حتى أصغرها، بطابع الحزبية البعثية والطائفية المقيتة.

كان «حافظ الأسد» بارعاً في إلهاء طبقة المشايخ، ومِن ورائهم مئات الألوف من أتباعهم، في معارك ثانوية لا قيمة لها، بينما يقوم هو باستباحة الفضاء العام واحتلاله، حتى لا يبقى غير «الأسد» الفرد سيداً مطلقاً لهذه البلاد.

أما في دمشق، فقد كانت الحرب السلفية المذهبية التي شطرت التيار

الإسلامي لسنوات، بين مذهبيٍّ يتزعّمه الشيخُ «محمد سعيد رمضان البوطي» والتيارُ الأكبر من مشايخ دمشق، وبين تيار سلفيٍّ ضعيف، لم يستطع أن يبني له حاضنةً شعبيةً ولا مشيخةً مؤيدة، يتزعمه الشيخ «ناصر الدين الألباني». وكلا التيارين غير معنيٍّ البتّة بالفضاء العام أو شؤون السياسة، فكان من اليسير على النظام الأمني أن يدعم التيار المذهبي في مواجهة تيارٍ سلفيٍّ ليس له جمهورٌ أصلاً.

هذا التأثير انسحب على أهم التيارات الإسلامية، ومنهم الإخوان المسلمون، إذ أمضت قواعدُهم، ولسنواتٍ، وقتها في التناجز بين أنصار هذا وأنصار ذاك.

* * *

يقرّر المفكر الجزائري «مالك بن نبي» (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣)، في كتابه **(شروط النهضة)**، أن من فضائل الاحتلال أنه يوحّد الأمة ويشحذ طاقتها ويستنفر فيها همّة المقاومة، ويضعها في ساحةِ تحدٍّ حقيقيٍّ مع المحتلّين، الأمر الذي سيسهم إلى حدٍّ كبيرٍ في تطورها مستقبلاً؛ وأن إخراج عشرة محتلّين أهون بلا أدنى شك من الانقلاب على ديكتاتور محلّي واحد.

تذكّرت ذلك الرأي بُعيد احتلال الجيش الأمريكي لبغداد نيسان/أبريل ٢٠٠٣، عندما تحدث الصديق «أصلان عبد الكريم» في أمسيةٍ سياسية في حلب، وكانت له فيها مداخلة مهمة قال فيها إنه يرى الاحتلال خيراً من الدكتاتورية، أو بتعبيرٍ آخر أقلّ شراً، وإن التاريخ أثبتَ مراراً أن المحتلّ يزول، لكن الدكتاتور لا يزول قبل أن يدمّر البلاد ويقتلع روحها. وأنا أتفق معه من دون تردد.

وأجدني بعد أربعين سنةٍ من العيش في ظلّ الدكتاتورية الأسديّة، والاطلاع على تجارب شتى في العالم، أتفق مع «مالك بن نبي» ومع صديقي المتحدث في تلك الأمسية العاصفة، ومع كل من يرى رأيهما. فالوقائع التي ما زلنا إلى ساعتنا نتجرّع فظائعها، تؤكد أنه لا يوجد ما هو شرٌّ وأقذرُ من نظامٍ ديكتاتوريّ.

٣ ـ مجلة النذير

في تلك الآونة من مطلع عام ١٩٨٠، كنت طالباً في ثانوية «المعرّي» الواقعة في حي الحميدية بحلب. وبُعيد مجزرة مدرسة المدفعية، تبيَّن أن الاغتيالات التي كانت تجري منذ أكثر من عام إنما يقف وراءها (تنظيم الطليعة المقاتلة)، وهو فصيلٌ مسلح منشقّ عن تنظيم الإخوان المسلمين في سورية، أسّسه المهندس الزراعي «مروان حديد» (١٩٣٤ ـ ١٩٧٦) مع زمرةٍ من شباب الإخوان، الذين لم يصبروا على استمرار تغوّل النظام الأسدي، وانشغال التيار العام للإخوان المسلمين بمماحكات فكرية لا تُفضي إلى شيء.

كانت هناك قضيتان تستهلكان الحوارات والاجتماعات في صفوف قواعد الإخوان المسلمين: قضية الأزمة الطويلة بين مكتب حلب ومكتب دمشق وتمثيلهما، إضافةً إلى الخلاف الحاد بين التيار المذهبيّ والتيار السلفيّ.

هذا الأمر دفع الحمويَّ «مروان حديد» ـ وهو شخصيةٌ إخوانيّةٌ مهمة ـ إلى الانشقاق عن التنظيم العام وتأسيس تنظيم الطليعة المقاتلة، الذي ينتهج العمل المسلّح في صراعه مع نظامٍ يتغوّل يومياً في جميع مفاصل الحياة العامة.

وكما يرى عالم الاجتماع السياسي الأمريكي «تيد روبرت غور»، فإن الحرمان والتهميش يؤديان إلى الإحباط، والأخير يؤدي إلى الغضب، والغضب يمكن أن يؤدي بدوره إلى السلوك السياسي العنفي.

وهذا ما كان؛ فقد وُلد تيار الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في هذا المناخ الموائم، الذي ساعدت الأجهزةُ القمعيّة وممارساتُها التعسُّفية بشكلٍ مباشرٍ في خلْقه وإدارته؛ فقد امتاز نظام الأسد بهذا النمط السيئ من إدارته للبلاد، عبر تخليق الأزمات وإغراق البلاد بها، فقد كانت فروع المخابرات، وبشكلٍ يومي، تحدّد حصَّة الطحين والسكر والغاز وغيرها من السلع الضرورية، المسموح بها لكل مدينة، بحيث يبقى المواطن السوري في لهاثٍ يوميّ، بغية توفير حاجاته الأساسية.

اعتُقل «مروان حديد» عام ١٩٧٥، وتمّت تصفيتُه في دمشق عام ١٩٧٦، ليبدأ فصلٌ جديدٌ من تجربة الطليعة المقاتلة، فصلٌ يديره فريق من الشباب الراديكاليّ، الذي لا يرى أي نجاحٍ لحركةٍ أو فكرة إسلامية ما دام نظام الأسد في السلطة.

والحق يُقال أن هذا الكلام ينسحب على جميع التيارات السياسية، وحتى على الصحفيين والمثقفين؛ إذ كانت سورية تعدّ كملكيةٍ خاصة لآل الأسد، وأيُّ صوتٍ مختلفٍ كان يشكِّل خطراً على مسيرتها ووجودها، وتم تتويج هذا كله عندما أطلق حافظ الأسد عام ١٩٨٠ جملته الشهيرة، التي ستكون لعقودٍ المقياسَ المعياريّ لأي وجودٍ في سورية: «مَن لم يكن معنا فهو علينا»، ولم يعدِ الوضع في سورية يحتمل أي طيفٍ خارج هذه الثنائية الكارثية.

إضافة إلى الاغتيالات التي كان ينفذّها (تنظيم الطليعة المقاتلة)، كانت تصدر يومها مجلة (**النذير**) عن الإخوان المسلمين، لكنهم لم يمهروها بشعارهم، إنما كانت تُعنوَن بـ: «نشرة إخبارية تصدر عن المجاهدين في سورية»؛ وهي مجلةٌ أسبوعيةٌ لا يتجاوز عدد صفحاتها أربعاً وعشرين صفحة، تتحدث عن مخازي النظام وجرائمه، وعن معاركهم معه وما يتعرّض له من إذلال على أيديهم، خاصة أنهم ـ وبعد انكشافهم في مدرسة المدفعية ـ عمدوا إلى ما يشبه حرب العصابات في العديد من المدن السورية.

مجلة (**النذير**) هذه، التي يرأس تحريرها «عبد الله طنطاوي»، والتي باشرت بالصدور أوائل عام ١٩٨٠، لا صلة لها بمجلة **النذير** المصرية، التي كانت لسان حال جماعة الإخوان المسلمين، والتي صدر عددها الأول في نهاية شهر أيار/مايو عام ١٩٣٨، وكان يكتب افتتاحيتها المرشد العام «حسن البنا»، وكان رئيس تحريرها «صالح العشماوي»، والتي توقفت عن الصدور بُعيد العدد ٤٤ عام ١٩٤٠.

أما مجلة **النذير** السورية، فهي ـ كما أسلفْت ـ تصدر عن (مجاهدي سورية). وقد اختار الإخوان المسلمون هذه التسمية في مرحلة تبنّيهم للعمل المسلح، التي تتّسم بحدٍّ وافٍ من التناغم والتفاهم بينهم وبين تيار الطليعة المقاتلة. وكان النظام الأمني في سورية يدرك منذ البدايات أن الطليعة المقاتلة في وادٍ والإخوان المسلمين في وادٍ آخر، من حيث موقفهم من العمل المسلح والصدام مع السلطة.

وكانت قيادات الإخوان المسلمين تدرك مدى المجازفة الانتحارية التي يرتكبها تيارُ الطليعة المقاتلة، في الشروع بالعمل المسلح لمواجهة نظام الأسد، هذا النظام الذي برع بشكلٍ كافٍ في تعميم المواجهة بينه وبين تيار الطليعة المقاتلة على جميع التيارات السياسية التي يمكن أن يكون لها شبهة موقفٍ معارضٍ، فاجتثّها جميعها بضربةٍ واحدةٍ، وأصبحت سورية بذلك مملكةً للظلام وأسيرةً للرعب.

وأذكر أنني وجدت ذات صباحٍ، أمام عتبة البيت، نسخةً من هذه المجلة. وكعادة الكثيرين كنا نقرؤها مراراً، ونمرّرها إلى مَن نثق به من أصدقاء وأقرباء وجوار. في المرة الأخيرة قمتُ بتداول هذه المجلة مع بعض الأصدقاء في الثانوية العامة، وسرعان ما وشى بنا أحدهم إلى الموجِّه (أستاذ إداريّ يشرف على مجموعة صفوف)، فاستدعانا ونهرنا بشدةٍ، وأظهر لنا أنه سيتجاهل وصولَ الخبر إليه.

لم تمضِ أيامٌ حتى اعتقل الأمنُ في نهاية شهر نيسان/أبريل ١٩٨٠ مجموعةً من الطلاب ممن تداولوا هذه المجلة، وكنتُ متغيّباً يومها،

فوصلني الخبر إلى البيت، فما كان مني إلّا أن غبتُ لأيام عن منزلي، وكنت أنام في بيت أحد الأصدقاء بحجة الدراسة معه ليلاً.

بعد عدة أيام لم يطرق بابَ منزلنا أحدٌ كما كنا نتوجّس، فاعتبرتُ الأمر منتهياً، وأن الأمن اكتفى بهذه المجموعة الصغيرة، ليحقق في كيفية وصول المجلة إلى أيدينا، ولهذا عدت إلى بيتي وأنا أتعلّل بوهم الطمأنينة، وكانت ليلتي الأخيرة، وبداية فصلٍ جديد سيطبع حياتي كلها وحياة عائلتي لسنوات طويلة بطابع المعاناة.

* * *

٤ ـ ليلةٌ فارِقة

كتب الصديق والشاعر «رامي»:

«لا شيء ولا فيء يُظلّك من الذاكرة، تسطع مثل الشمس»..

وأنا أكتب حتى لا تهرب مني الذكريات.

كان يتردّد إلى بيتنا في حي الميدان الأستاذ «مخلص» رحمه الله، وهو صديقٌ قديم للعائلة، وكان من كبار المثقفين الذين عرفتهم في حياتي، وكانت له ألمعيّةٌ فائقة في قراءةِ الوقائع وتحليلها، والربطِ بين المحليّ والإقليميّ والدولي، ولست أنسى موقفه حين انتصرت الثورةُ الخمينيّة، فقد كان من أشدّ معارضيها، وكان يصف «الخميني» بالشاه المعمّم، وأنه سيكون من أهم حلفاء الولايات المتحدة وإسرائيل في المنطقة.

أغراني قدومُه للسهر في المنزل، وكانت سهرتُه تمتد إلى بُعيد منتصف الليل، وحين انصرف كان النعاس قد غلبني، فنمت على أقرب أريكةٍ في صالون البيت، ولاسيما أنني كنت متغيّباً لبضعة أيام عن البيت، مترقِّباً ما سيسفر عنه التحقيق مع أصحابي قرّاء المجلة.

استيقظتُ فزِعاً على ألم حادٍّ في خاصرتي، أحدثَه أخمصُ بندقيةٍ روسية نكزني بها قائدُ سَريّة ًالمداهمة في فرع أمن الدولة، وهو يصرخ ويشتم، بينما يتحرّك عناصره في بيتنا الصغير، يفتشون وينبشون ويمزقون كل ما تصل إليه أيديهم، بحثاً عن شيءٍ نجهله.

وأنا أنظر إلى وجه أمي الشاحب وقد أُسقط في يدها من هول ما

تعلم، لم نكن نجهل ما يجري في ردهات فروع الأمن وأقبيتها، من تعذيبٍ وجلدٍ وحرقٍ للصدور بأسياخ من جمرٍ، وتكسيرِ أيدٍ وأرجلٍ، وبترِ أصابعٍ، وسلقٍ بالمياه التي تغلي، وسحق للخاصيات بمطارق من حديد، وصولاً إلى الإذابة بالأسيد.

كثيراً ما كان يدور الحديث في الأماسي عن صديقٍ أو قريبٍ قضى في المعتقل، وكيف ذاق أهلُه الأمرّين ليتنسّموا أي خبرٍ عن فقيدهم، وكم دفعوا من رشًى ليكون لهم الحق في دفن جثته، دون السماح لهم طبعاً بمشاهدة تلك الجثة، التي تفضح هول الإجرام والتعذيب الذي لاقته الضحية، قبل أن ينتشلها الموت الرحيم من يد الجلادين.

طالما كنا نردّد بوعي بسيط: «الموت كان أمنية.. الموت كان للجراح أغنية».. لكن بعدَ السنوات التي مرّت بنا، ذقنا هذا المعنى، ولطالما تطلّعت إليه أرواحنا الأسيرة.

كنا نعرف معرفةً تامة أن الذي يدخل أقبية فروع الأمن من المحال أن يخرج منها، وإن خرج سيبقى شبهة إنسانٍ محطّم الروح مكسور الإرادة.

كنا حديثي عهد برواية (**البوابة السوداء**) لـ«أحمد رائف»؛ وهي تتحدث عن الويلات في سجون «جمال عبد الناصر»، والتي كانت يومها أبأس وأقسى ما وصلنا عن عالم السجون عامةً. لكن تبيَّن لنا فيما بعد أنها، على الرغم من هولها الشديد، لا تعدو أن تكون أكثر من لعب أطفال، إذا ما قيست بما يجري في سجون «حافظ الأسد».

كان إخوتي الخمسة مكوّرين في زاوية الحجرة، وقد عقد الخوف ألسنتَهم، وأبي يتابع ارتداء ملابسه، وهو يصرّ على قائد السرية أن يأتي معي إلى إدارة أمن الدولة، ليستجلي سبب اعتقالي، وأنا لم أجاوز السابعة عشرة من عمري بعد، وليس لي أدنى علاقة بالسياسة أو التنظيمات آنذاك، وكان قائد الدورية يؤكد له أنها خمس دقائق وحسب، وسيعيدني هو بيده إلى بيتي.

خلال دقائق، وكنت لا أزال ألبس بنطالي وقميصي، قيّدوني للخلف

وأخرجوني من المنزل، ووالدي يهرع خلفي كي لا يتركني وحدي معهم. وبحكم خدمته السابقة في سلك الشرطة، يعلم أن رجال الأمن، مهما غلظت تصرفاتهم، يتحاشون ما أمكن المجاهرةَ بالسوء أمام أهل المعتقل وذويه، كي لا يتأزّم الأمر، وتتمّ مهمتُهم كما يريدون.

نزلوا بي الدرجات جرياً، وقد أمسك بي قائدهم بقبضةٍ خشنة سببتْ لي ألماً في معصمي، طلبت منه أن يُرخي قبضته قليلاً فأنا لا أحمل أي أداةٍ للمقاومة، فنهرني بغضبٍ شديد، فهو لا يستطيع أن يصفعني ـ كما أراد ـ أمام أبي، لكنه همس بصوتٍ كفحيح الأفعى: «ولاك.. نحنا ما بنخاف، نحنا بناكل بشر». والتفتَ إلى أمي التي تكرر سؤالها: «إلى أين تأخذوه»، ليجيبها بتلقائية مَن يحفظ الإجابة ويكررها دوماً: «خمس دقائق وبيرجع».

وبصيحةٍ تشبه صيحات رجال العصابات، تحرّك الجمع من حجرات البيت، ليلحقوا بقائدهم الذي يجرّني من يدي، وسلاحه مُصوّبٌ إلى رأسي، وأصوات الأحذية العسكرية لأكثر من ثلاثين عنصراً تمزّق هدوء الليل وتوقظ الحيّ بأكمله، دون أن يجرؤ أيّ ساكنٍ أو جارٍ أن يمدّ رأسه من نافذةٍ أو شرفة، فالويل والتهديد لمن تبدر عنه أية نأمة.

رموني مثل ماعزٍ صغيرٍ في أرض السيارة العسكرية، التي امتلأت بالجنود المسلحين، وكانت أرجلُهم تركلني كلما مالت السيارة المسرعة يميناً أو شمالاً، وركب والدي في سيارة أخرى تتبعنا.

كنت أودّع شوارع حلب المظلمة، والخاوية إلا من دبابةٍ هنا وعربةٍ مجنزرةٍ هناك، ومجموعات من قوات الوحدات الخاصة أو سرايا الدفاع الذين يحتلون المدينة ويشعلون حرائقهم هنا وهناك.

كانت مدينة حلب منذ شباط/فبراير ١٩٨٠ تتعرض لتفتيشٍ دقيقٍ لكل حيّ وكل بنايةٍ وكل بيت، لا يتركون علبةً أو خزانةً أو حجرةً صغيرةً أو دمية أطفالٍ، إلّا مزّقوها وقلبوها رأساً على عقب، يفتشون عن أي مسلّحٍ هاربٍ أو سلاحٍ يشي بصاحبه. مزّقوا الكتب وحاسبوا أصحابها على سببٍ

اقتنائها، حتى أشرطة الموسيقى لم تسْلم من تفتيشهم وتخريبهم؛ كانوا يستبيحون المدينة كمحتلّين.

عشرات الصور البسيطة والمروّعة عبرتْ مخيّلتي الطفلة، وأنا أقبع مكوّراً بجسدي الصغير، الذي عملتْ به أحذيتُهم العسكرية وأعقاب بنادقهم ما عملت، إلى أن وصلنا إلى مبنى المخابرات العامة، أو ما يسمى «أمن الدولة». وعلى الرغم من وجوده في حيٍّ المحافظة، وهو حيٌّ يمتاز بأبنيته العريقة التي صُنعت من واجهاتٍ حجريّة تشي بجمال العمارة التي تمتاز بها مدينة حلب عن كثيرٍ من مدن الشرق، إلّا أن فرع المخابرات هذا هو أقربُ إلى قلعةٍ للرعب، تحوطها المدافع الرشاشة، والبنادقُ والحواجز الرملية، كأنها مقدمةُ جبهةٍ مع العدو الإسرائيلي، وتتناثر حولها شرذمةٌ من المسلحين، الذين ينشرون الرعب في نفوس المارة، بمجرد النظر إليهم.

ما إن تصل السيارات العسكرية إلى بوابة الفرع، التي تشبه حصون مافيات المخدرات في أمريكا اللاتينية، حتى يتقافز منها عناصر سَريّة المداهمة، ويطلقون صيحاتٍ عاليةً تعبيراً عن نصرهم بالقبض على الهدف المنشود، كما جرت العادة أن يسمّوا الشخص المستهدف بالاعتقال.

سمعتهم وأنا أرتجف يطمئنون بعضهم أن العملية تمّت دون ضحايا منهم. كان الخوف والتوتر إلى أقصاه بادياً في وجوههم التي غطّاها العرق والغبار، وفي كلماتهم التي تخرج من أفواههم كنصٍّ قبيح محفوظ بالإكراه.

ما إن توقفت السيارات حتى رمتْني ركلاتُ الأقدام أرضاً، ويداي ما زالتا مقيّدتين للخلف، الأمر الذي يزيد من وطأة الألم. وتخطّفتْني الأيدي دفعاً وجذباً، وأنا أسير وأتعثّر بين أرجلهم تارةً وأيديهم تارةً أخرى، نزولاً إلى القبو الرهيب، ذلك القبو الذي يعرفه كلُّ سكان حلب، ما إن يُفتح بابه حتى تصفعك رائحة الدم والقيح، والأصواتُ المنكرة التي تنبعث منه، فلا تعرف لها كنهاً، إلّا أنها تحملِ في جنباتها رائحة الرعب والعذاب واليأس المطبق؛ أصواتُ رجال يُعذَّبون ونساءٍ يستغثْن بعويلٍ يطفئ أيَّة شمعةٍ للأمل في روح سامعه.

٥ ـ في فرع المخابرات العامة بحلب

يسلّمني الضابط الممْسك بي من كتفي إلى الضابط الثاوي وراء مكتبه، بعد أن يوقّع وصل استلامي كبضاعةٍ مستودعيّة ستبقى هنا إلى أجل غير معلوم. يخاطبني، أقف ووجهي إلى الجدار الأزرق، المتّسخ بالدماء والمخاط وأشياء يصعب حصرها، لم تعُدْ هذه الرائحة الأقذر التي شممتُها في حياتي هي المشكلة الآن، فأنا أقف في ممرٍّ ضيقٍ ملصِقاً وجهي إلى الجدار، والعابرون الذين لا ينقطعون جيئةً وذهاباً يؤكدون عداوتهم لعصابة الإخوان المسلمين وولاءهم التام للقائد الرمز بأن يُذيقوني صفع أيديهم وركل أرجلهم كلما مرّوا قبالتي، إضافةً إلى شتائم أعرف بعضها وأنكر معظمها. لكنني لم أفهم وقتها لماذا ينادونني في ذروة حقدهم الممزوج بأقذع شتائمهم بـ: «أبو بكر» و«عمر»!

بعد ساعةٍ تقريباً، سحبني أحدهم من رقبتي، بعد أن تحقق من اسمي واسم أبي وأمي، وأخبر مدير السجن أنني مطلوب إلى مكتب العميد «عمر» (عمر حميدة رئيس فرع أمن الدولة بحلب).

صعد بي عدة سلالم عريضةٍ، إلى أن وصلت إلى صالةٍ باذخةٍ فسيحة، فيها من الرخام وأطباق الفواكه والحلويات المنثورة هنا وهناك ما يذكّرك بقصور الأمراء، لتكون بمتناول يد سيادة العميد ومعاونيه كيفما تحركوا.

كانت الصالة تضمّ عشرة مسلحين ببدلات سوداء، منتصبين يسندون

ظهورهم إلى الجدران، وبحالةٍ عالية من الجاهزيّة والتحفّز بانتظار أدنى أمرٍ من سيدهم. كان معظمهم يرمقني بنظرة استخفافٍ وازدراء، كأنهم يقولون: مَن هذا الجرذ الصغير التافه، الذي أقلق الأجهزة الأمنية في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

أدخلوني مِن فورهم إلى مكتبٍ مُضاءٍ وواسعٍ، يجلس فيه ضابطٌ، حيَّاهُ العنصر الذي جلبني بـ: «سيادة الرائد»، عرفتُ بعدها أنه الرائد «أليف وزّة»، وهو نائب رئيس الفرع، والضابط القائد في جهاز المخابرات العامة في حلب، والفاعل الأساسي وصاحب الأمر والنهي فيه، أما رئيس الفرع «عمر حميدة» فما هو إلا واجهةٌ تجميليةٌ للفرع وحسب.

دقائق قليلةٌ وفُتح باب المكتب الكبير، ونُودي عليَّ أن أدخل، ففعلت، وأنا بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ لما يحصل لي.

كان والدي يجلس بوجهه العابس، يُصغي إلى حديث الرجل الغاضب الذي يجلس خلف مكتبه الكبير، وأمامه منحوتةٌ خشبية عريضة كُتب عليها باللون الأسود: «رئيس الفرع العميد عمر حميدة»، بينما تتصدّر الغرفةَ صورةٌ تكاد تملأ الجدار للقائد الرمز حافظ الأسد.

سرعان ما أنهى حديثَه مع والدي، والتفت إليَّ مخاطباً بهدوء: «مو حرام عليك؟ أنت شبّ أختك بتعشقك، ليش رميت نفسك بهذا الجحيم؟»، ثم تابع يسألني عن التنظيم، ونشاطي مع مجموعات توزيع المناشير، وهل لي أيّ علاقةٍ بالتنظيم المسلح. أكّدتُ له نفيي وعدم انتسابي إلى أيّ تنظيم أو مجموعةٍ مسلحة، فتبسّمَ مقاطعاً حديثي وقال: «والدك رجلُ شرطة قدِّيم، ونحن احتراماً لزمالته بالسلك وخدماته القديمة لن نطيل عليك العذاب، ولن أُحيلك إلى القبو حيث ستعترف بكل شيء خلال ربع ساعة، ومؤكّد أنك من دقائق سمعتَ أصواتَ ما يحدث هناك، خُذْ ورقةً بيضاء واكتب علاقتك بـ «أغيورلي» و«رشيد» و«الزعتري» وفلان وفلان، وكيف كنتم تتداولون المناشير ومجلة **النذير** وتوزعونها».

بمجرد انتهائه من حديثه خاطبني والدي بوجهٍ بائس لكنه شديد الصلابة: «يا ابني كل إنسان مسؤول عن اختياراته وأفعاله، وعليك أن تتحمّل مسؤولية ما فعلت»، ثم وقف مستأذناً بالانصراف وهو يعلم ما أنا ماضٍ إليه. أمر رئيس الفرع بإيصال والدي بسيارة خاصة، فالساعة جاوزت الرابعة فجراً، ثم أمر أحد عناصره المتأهّبين فأنزلني إلى القبو، حيث سجْن الفرع وأصواتُ التعذيب التي لا تتوقف.

لا أعرف كم مضى من الوقت حين انتهوا من تسجيل معلوماتي الشَّخصية وتفاصيل هويتي، ثم قاموا بتفتيشي للمرة الثانية وجرّدوني من كل ما أحمل، حتى حذائي أخذوه مني. وبين الصفع والركل المتكرّر دفعوا بي إلى زنزانةٍ ما زلت أذكر رقمها: (٤)، حيث رُمِي بي هناك.

أُغلق الباب بمزلاجٍ غليظ، وسمعتُ صوت القفل وهو يُنهي أحداث هذه الليلة، التي ستجري خلفَها ليالٍ تتنافس في شدة السوء فيما بينها.

الأرضُ إسمنتيةٌ باردةٌ وخشنة، تتناثر عليها بقع لزجة، لم أستطع تمييزها إلّا من خلال الرطوبة التي أحدثتها في جنبي الممدّد على الأرض. ما إن تمددتُ حتى ارتطمت قدماي بالجدار المقابل قبل أن أقوى على بسطهما، أدركت حينها أنني رُميت في زنزانةٍ دون المترين في الطول، وعرضُها كما تَبَيّن لي في الصباح لا يتجاوز المتر الواحد.

كانت العتمة الطاغية تحُول دون رؤيتي لأصابع يديَّ وهي ترتعش، لست أدري: أمِن برودةِ آخر الليل؟ أم مِن شعوري بالضياع الذي أنا مقدِمٌ عليه في هذا المكان، الذي لا تتوقف فيه صرخات التعذيب وأصداءُ الآلام، وروائح الأجساد التي فتكتْ بها أدوات التعذيب، التي تنتظرني غداً أو بعد غد؟

نمت وأنا ممزّقٌ بين ضفتَي اليأس المطبِق والأمل المرجوّ، بين مَن يعرف أنه سقط في منزلقٍ صعب لا يُرجى معه أملٌ ولا يُنتظر له نهاية، ومَن يأمل أن يكون هذا الاعتقال مجرّدَ تأديبٍ لن يتعدّى الأسابيع، له

ولأسرته، على جرْم تافهٍ. ماذا يعني أن يقرأ فتى صغيرٌ جريدةً ممنوعة؟ ما الخطر الذي سيُلْحِقهُ بأركان دولةٍ متينة، كدولة «حافظ الأسد»؟!

كنت أتذكر حكايةً طالما كرّرَها والدي، جرتْ معه خلال إقامته في مدينة الحسكة، زمنَ الوحدة بين سورية ومصر (١٩٥٨ ـ ١٩٦١)، وكان من أشدِّ مناصري الوحدة، والمؤيدين للرئيس المصري «جمال عبد الناصر»، إلّا أن تأييده هذا لم يكن ليدوم طويلاً، بعدما شهدَ ما شهد من تجاوزاتٍ وفسادٍ، ظهرَ من ممثلي دولة الوحدة في سورية آنذاك، وكان يومها يعمل في سلك الشرطة برتبةِ مساعدٍ أول، حين وردَه كتابٌ من المكتب الثاني (جهاز مخابرات تم تأسيسه زمن الوحدة) يطلب فيه إحضار المواطن «إبراهيم سعيد» مخفوراً، وكان المكتب الثاني يومها لا يملك صلاحية القبض على أي مواطنٍ إلّا من خلال جهاز الشرطة، فهو المسؤول عن الأمن العام.

وكان تجاوُب قسم الشرطة مع المكتب الثاني يتّسم بالإهمال، وربما بالازدراء لهذا الجهاز الغريب سيئ السمعة، الذي بدا كأنه أداةُ عاصمةِ دولة الوحدة «القاهرة» في الهيمنة على الشارع السوري وإذلاله، فتمّ إهمال الطلب، وتُرك مُلقًى في أدراج القسم لأسابيع. ومع تكرار الطلب ذاته، وإصرار المكتب الثاني على جلب هذا المتهم، ما كان من والدي إلّا أن نظّم مذكرة إحضار، أُحضر بموجبها المدعو «إبراهيم سعيد» إلى قسم الشرطة، وكان رجلاً في نهاية عقده الخامس، نحيل البنية شديد السمرة، به علّةٌ في ساقه اليمنى، ربما إثر سقوطه عن فرسه، أو بسبب طلقٍ ناريّ أصابه.

لم يطُل الأمر حتى مضى به والدي إلى المكتب الثاني، واستأذن رئيسه في الدخول عليه، دقائق قليلة ودخل المكتب برفقته الرجلُ المطلوب، وما إن وقعت عينا رئيس الفرع عليه حتى بادره مستغرباً: «أنت إبراهيم سعيد؟»، «نعم أنا هو». تفرّسَه لثوانٍ معدودةٍ، ثم أطرق مليّاً، وحين رفع إليه ناظريه ثانيةً كان به ارتباكٌ واضحٌ، سرعان ما خاطبه وكأنه

يعتذر منه: «روح يا ابني، الله يلعن أبو دولة الوحدة، اللي انت بتشكّل خطر عليها».

مضى صاحبنا إلى سبيله، وسيُمضي أبي عشرات السنين وهو يعيد هذه الحكاية على مجالسيه، مستشهداً أن دولةً تخشى مواطنيها هي دولةٌ غير جديرةٍ بالاحترام، فما بالك بدولةٍ تخشى فتيانها وأطفالها!

في الصباح، وعلى أصوات التعذيب، التي بالكاد توقفت لساعتين أو ثلاث، استيقظت على بصيص ضوءٍ تسرّبَ إلى زنزانتي، وتبيّنَ لي ذلك الكمُّ الكبير من الدماء المتخثرة على أرض هذه الزنزانة وجدرانها. ومع تقدُّم الأيام واعتيادي على الإبصار على الرغم من العتمة الطاغية، استطعتُ أن أقرأ بضعة أبياتٍ من الشعر كُتبتْ حفراً على الجدران الإسمنتية، وتواريخَ وأرقاماً متفرقة تؤرّخ لوقائع يفهمها مَن كتبَها مِن معتقلين سبقوني.

وكان عناصر السجن يفتحون الأبواب، ويرمون الصحون المعدنية وفيها فتاتٌ من خبزٍ عسكريّ وحبيباتٌ من الزيتون لا تتجاوز العَشر. هذه أوّل وجبة طعام عافَتها نفسي، من هول ما سمعت وعاينت في تلك الليلة الطويلة، ومن فظاعة الروائح النتنة التي تسدّ جميع منافذ الروح، غيرَ مدركٍ أنها ستصبح وجبتي المنتظرة والمشتهاة لسنواتٍ طِوال قادمة.

بقيت في زنزانتي الانفرادية عدة أيام، دون أن يكلمني أحدٌ بشيءٍ ذي معنى، ما عدا الشتائم وركلات الأقدام كلما فتحوا باب زنزانتي للخروج إلى المرحاض، أو لرميي بوجبة الطعام البائسة.

أصوات التعذيب لا تتوقف، لكنها تنخفض في وتيرتها نهاراً لتعود فتشتدّ ليلاً، وكلما هدأتْ قليلاً، رنَّ جرس إحدى غرف التحقيق، لتتراكض الأحذية العسكرية وتصفق الأبواب الحديدية، ويُطلب اسمٌ إلى التحقيق. وسرعان ما يعلو الصراخ الذي بتْنا نميّز منه أصنافاً شتى، فصراخُ مَن يتعرض للشبْح يختلف عن صراخ مَن يناله الجَلدُ في (الدولاب)، أو مَن طُويَتْ أطرافُه على (بساط الريح)، أو مَن حُشِر في (الكرسيّ الألماني).

كلّ هذا يختلف اختلافاً جذرياً عن ذلك الذي يضعون له ملاقط الكهرباء في شرجه وقضيبه، بعد أن يرغموه على شرب الماء شديد الملوحة، لترتفع ناقليّةُ جسده، ويصبح التيارُ العابر أشدَّ فتْكاً.

بعد عدّة أيام تمَّ نقلي من زنزانتي الانفرادية إلى زنزانةٍ جماعية، وهذا بحدِّ ذاته تحوّلٌ مهمٌ، يعيه مَن جرَّب السجن الانفرادي، ومدى قسوته وتوحّشه، وهناك اجتمعتُ مع أصدقائي الذين سبقوني إلى هذا الجحيم «محمد» و«رشيد» و«يوسف»، وأخبروني دون مواربةٍ أنهم ذكروا اسمي، أو بالأحرى أكّدوا صحة التقرير الذي ورَدَ فيه اسمي، منضمّاً إلى أسمائهم في تداول الجريدة وتمريرها للآخرين، لكنني كنتُ بالطبع أولَ مَن حصل على الجريدة ومن ثم نقلتُها إلى الآخرين.

لا أذكر أنني شعرتُ ولو للحظةٍ واحدة بغضب، أو أنني وجدتُ في صدري أيَّةَ ضغينةٍ لهم، فوجوهُهم وأيديهم وأقدامهم كانت تخبر أيَّ ناظرٍ لها بمدى التعذيب الذي أحالَ نضارةَ وجوهِهم وجلودِهم الفتيّة إلى لونٍ أزرق داكن، وتحت العيون يتدرّج لونُ العذاب وأثرُ الضرب المبرح، من الأزرق القاتم إلى البنيّ فالأصفر، إضافةً إلى حركتهم التي تشبه الترنّح أكثر مما تشبه المشي، عند الخروج إلى الحمامات.

* * *

٦ ـ الوافدون الجدد

أفقتُ من نومي والظلمةُ تعمّ المكان، إلا مِن بصيصِ ضوءٍ يتسرّب من خلال القضبان العليا للباب الحديديّ الصدئ، وكانت حركةٌ ساكنةٌ ـ إلَّا من همهمات ـ تجري في محاولةٍ لتوسعةِ مكانٍ للوافدين الجدد، في زنزانةٍ تغصُّ أصلاً بالمساجين، الذين جلس بعضهم حيث انتهى به المطاف، ووقف الشطر الأكبر منهم يفكّر، ويستجدي بوجهٍ غير واضحِ المعالم أن نجِدَ له حيّزاً مهما صغُر، ليسند ظهره إليه أو يجلس القرفصاء.

دقائق مرّت، ولم أكن أعرف كم الساعة الآن، إلى أن أخبرني أحدُهم أنها قاربت الرابعة فجراً، وشيئاً فشيئاً بدأتْ تتوضّح معالمُ بعض الوجوه التي أعرفها: فهذا «أبو أسامة»، وهذا «شريف»، وهذا «بكري»، و«عمار». شبابٌ حلبيّون ممّن اعتادوا الانتظامَ في دروس الشيخ «أبي النصر البيانوني» وحُسبوا عليه، ومعلومٌ يومها أن «أبا النصر البيانوني» كان بعيداً كلّ البعد عن العمل بالسياسة، بخلاف شقيقه الأكبر «علي صدر الدين البيانوني»، الذي كان مراقباً عاماً للإخوان المسلمين.

وحصل أنْ كنتُ حاضراً يوماً في مجلسٍ من مجالسه الخاصة مع بعض أتباعه، وسأله أحد المقربين منهم عن رأيه في الأحداث التي تلتْ مجزرة المدفعية، فأجاب مِن فوره: «هذا عملٌ لا يخدم الإسلام ولا المسلمين».

ومن الواضح آنذاك أن الشيخ «أبا النصر البيانوني» كان يرى في

مواجهة السلطة الأسديّة عموماً، وفي المواجهة المسلّحة على وجه التحديد، خروجاً إلى المعركة قبل نضج الشروط، وقبل استعداد التيار الإسلامي لهكذا مواجهة، وقد كان يتقن إمساك العصا من الوسط بمواجهة تغوّل الأجهزة الأمنية، فلا هو يواجهها معارضاً، ولا هو يتماهى بها كما فعل آخرون، وأبرزهم «أحمد حسون، الذي بقي يحبو على ركبتيه متودّداً لأجهزة الأمن، ويتدرّج في المناصب، إلى أن تقلّد منصب المفتي العام في سورية. ومعلوم أن كرسي الإفتاء لم يسلَّم في عهد الأسدَين إلّا لشيخ يمشي في رِكاب السلطة، ويفتي مبرراً قراراتها وأفعالها، ويكون طوعَ بنانها، وموضعَ قبول أجهزتها الأمنية، ويوطّئ لها في الأوساط المحافظة والشعبية عموماً.

صدمتْني تلك الوجوه البريئة، فأنا أعرف عن قربٍ شديد مقدارَ عزوف هؤلاء الشباب عن أيّ شيءٍ يمتّ للعمل السياسيِّ بِصلة، أو حتى للقراءة في الفضاء السياسي الذي كان محظوراً عليهم، كما كانت تُحظر عليهم أيَّة مطالعةٍ أو اقتناءٍ لكتب «سيد قطب» أو الإمام المؤسس لجماعة الإخوان المسلمين في مصر «حسن البنّا»، وأمثالهما. وأذكر كيف كان بعضهم متفلّتاً من انضباطه، يسرّ للبعض أنه حصل على نسخةٍ من رسائل الإمام «حسن البنّا»، وهو يتناولها سرّاً إلَّا عن صفوته القريبة، وكانت وجهة نظر الشيخ «أبي النصر البيانوني» أنه يعمل على تكوين جيلٍ ربَّانيٍّ في بنائه، متين في بنيته الأخلاقية والدينية، وذاك هو مربط الفَرس لديه. أما توظيفهم تالياً في أيِّ مشروع سياسي أو بمواجهةٍ مع السلطة، في يومٍ آتٍ لا ريبَ فيه، فهو حصيلةٌ طَبيعية لاً ينبغي الانشغالُ بها قبل أوانها، وقبل أن يُنهي الدورَ الأهمَّ والأكبر في تربية النفوس: الجهاد الأكبر.

هذه الرسالة بالطبع تتكوّن لدى المتابع للشيخ «أبي النصر البيانوني» عبر ما يتسرّب في مطاوي جلساته الخاصة، أما في تصريحاته الرسمية فلم يكن يُنقل عنه إلا حبّه للنبي وآله، والتزامه مذهبَ المحبّين وإمامهم الشيخ «عيسى البيانوني»، جدّه الذي دفن في البقيع قرب أصحاب النبي في المدينة المنورة لشدة حبّه إياهم. كما كان «أبو النصر» يُعرف كحارس من

حراس التعليم الدينيّ ليس إلّا، وكان إضافةً إلى هذا موجِّهاً في الثانوية الشرعية للبنين في مدينة حلب.

لكن الأمن السوري ـ كما يبدو ـ قد عدَّ هذه الجماعة وأشباهها من الخزَّانات الخلفية لأيِّ حركةٍ سياسيةٍ للتيار الإسلامي. وهذا ما كان بالفعل، فسرعان ما أغرَتِ الحركةُ التي بدأها (تيار الطليعة المقاتلة) الكثيرَ من الشباب المتديّن من جماعة الشيخ «أبي النصر البيانوني» وغيره للانضمام إلى هذه الحركة المسلحة.

لقد كان هناك احتقانٌ كبير، وتململٌ بادٍ في أوساط الشارع السوري عامةً، وكانت السلطةُ الأمنية بممارساتها القمعية جسداً غريباً عن عموم المجتمع السوري، وقد بدأ الناس ينفرون صامتين من تفرُّد (حزب البعث) بالحياة السياسية، التي كانت تتمظهر كسلطةٍ أمنية وحسب، ولم تكن الموجةُ الإعلامية ـ التي تبرّر للنظام اشتدادَ قبضته القمعية بذريعة المقاومة للعدو الإسرائيليّ والموقف من (اتفاقية كامب ديفيد) ـ تقنع الناس، وإن هم اضطروا للعزف في أحاديثهم العلنية على اللحن ذاته، تفادياً لغضب الأجهزة المخابراتية وعيونها.

جرى تبادُل التحيات بيننا بالعيون وببضع كلمات مقتضبة، فالأفراد الذين تضمّهم الزنزانة الضيقة غرباءُ عن بعضهم البعض، والجميع متشكّك بمن هم معه في بادئ الأمر، فلا يجرؤ أيّ أحدٍ على البوح بما يعتمل في وجدانه. الجميع يؤكد أنه بريء، ولا علاقة له البتَّة بما يحصل من اضطرابات وأحداث، بعد صمتِ عشرين سنة تقريباً من الخنوع والإذعان.

فيما بعد، علمتُ أنهم قد اعتَقلوا في ليلةٍ واحدة ما يزيد على ثلاثين موجِّهاً دينياً من أتباع الشيخ «أبي النصر البيانوني»، فهذه الجماعة ليست تنظيماً سرّياً، وكانت تنشط تحت ضوء الشمس، شأنَها شأن معظم الحركات المشيخية البعيدة عن الفضاء السياسي، ولحمايتهم من الالتباس كانت الجهات الأمنية تحصل على قوائم بأسمائهم بشكلٍ دوريّ.

وفي أكثر من مرةٍ، حدث أن دخل الشيخ «أبو النصر البيانوني» برفقة

رئيس فرع أمن الدولة في حلب «عمر حميدة» إلى أقبية السجن، ليُخرج بيده شاباً من جماعته أو معارفه، ممن سبق اعتقالهم بالخطأ. فالأمن يعلم كلَّ العلم أن هؤلاء الشباب تحت السيطرة، ولا خوف منهم أبداً.

إلَّا أن الأحداث التالية (القتال الحاصل بين الطليعة المقاتلة ونظام الأسد) غيّرَت الموازين والمواقع، وتفلّتَ الشبابُ من قبضة شيخهم السلْميّ، وأغرتْهم الانتفاضة التي طالما حلمت أرواحُهم بها. الأمر الذي دفع بالشيخ «أبي النصر البيانوني» للسفر سرّاً إلى الأردن، والإيعاز لأتباعه بالخروج من سورية، حيث أعاد ترتيب صفوفه هناك، ومعظمهم يشكرون له هذا، ويرون فيه حكيماً استطاع أن يمسك بتلابيب شبابه، ويحقن دماءهم، كي لا يحترقوا بنار حربٍ لا يُؤمَل منها خيرٌ.

في الصباح، وحوْلَ قصعةِ الإفطار العامرة بتسع بيضاتٍ مسلوقةٍ وبضع كسراتٍ من الخبز، تحلّقْنا حولها وكان عددنا قرابة أربعة وثلاثين شخصاً، توزّعنا هذه الوجبة الرمزيّة بيننا، وليس بيننا من يملك طاقةً على التعليق أو التبرّم. تبادَلنا النظرات، ثم بدأنا شيئاً فشيئاً نتجاذب الأحاديث همساً، وهم يسمعون مني كيف تجري الأمور هنا، كوني أسبقَهم ولو ببضعة أيام، فأدنى بصيصٍ من المعرفة أمتلكُه عن هذا المعتقل، سيكون أفضل بأشواطٍ من العماء المسكون برعب الصدمة الأولى الذي هم فيه.

في الأيام التالية، تم استدعاء الوافدين الجدد للتحقيق على دفعات متتالية، ولم يكن المحققون يطلبون منهم الكثير، فهم غير متَّهمين بجرم محدد، سوى بعلاقتهم بشيخهم «أبي النصر»، وليس هذا بسرٍّ تجهله المخابرات. وتبيّن أن شيخهم «أبا النصر البيانوني» ضمن قائمة المطلوبين، وأنهم ـ أي تلامذته ـ سيدفعون ضريبة فراره. والحقّ يقال، فإن بعض مشايخ سورية، وإنْ هم لم يشاركوا بتلك الانتفاضة، إلا أنهم بخروجهم من البلاد أسقَطوا عن هذا النظام القمعيّ قبولَهم بواقع الأمر وإقرارهم به، من خلال رفضهم البقاء في رَكبه، على عكس ما فعل

كثيرون سواهم، ممن نالوا ثمنَ صمتهم وبقائهم تقلُّدَهم لمناصبَ ومكاسبَ رخيصةٍ ووضيعة.

ليس هذا وحسب، فقد كان ذلك بالنسبة إلى «حافظ لأسد» فرصةً لاجتثاث معارضيه، ولإتلاف التربة التي يمكن لها أن تُنبت بقاياهم في يومٍ ما. وكأنه يحاكي الأسطورة الرومانية التي نُسجت حول القائد الرومانيّ «تيتوس» (٧٠م) من أنه فلحَ أرض فلسطين بالملح، كي تصبح أرضاً غير صالحة للعمران مستقبلاً (علماً أن الرواية زعمٌ مستحيل، إنما هي تحمل رمزيّة الإبادة المستدامة)، وكذلك فعل «حافظ الأسد» بتفتيته للتربة الاجتماعية التي يمكن لها أن تكون حاضنةً لتيارٍ سياسيّ ذي صبغةٍ إسلاميةٍ مستقبلاً.

كان «حافظ الأسد» يتّصف بحقدٍ عميقٍ عصيٍّ على النسيان، وغير قابلٍ للغفران، كما يؤكّد كلُّ من عرفه، وكما كتب «كريم بقرادوني» في كتابه (**السلام المفقود**) في فصل (مذهب الأسد السياسي)، مما جعل «حافظ الأسد» يتصرفّ في سورية كإلهٍ لا يَغفر أن يُشرَك به، ويغفر ما دون ذلك حيثُ يشاء. و(الحيثُ) هذه بعيدةُ الأجل، فقد كان ينتقم ثأراً لذاته، ويوظّف هذا الانتقام لإرضاءِ طبقةٍ موتورةٍ تمّ استعداؤها في مجزرة مدرسة المدفعية.

وقبل أن تهرب هذه النقطة من سياقها، فإنَّ شطراً واسعاً من الشارع في حلب وحماة وإدلب ومدن أخرى، قد فرحوا بدايةَ الأمر بمقتل طلاب ضباط، يمكن أن يكونوا يوماً ما عدّةً لهذا النظام القمعيّ، الذي كمَّ الأفواه وخنقَ الصدور، وذلك من خلال النظرة المؤطّرة بمدى الأذى الذي لحق هذا النظام، دون النظر إلى الضحية المباشرة وجريمة قتلها أصلاً، كنائبةٍ وممثلة لهذا النظام. إضافةً إلى ما ستجرّه هذه التجاوزات من كوارث، حين يستجمع الخصم وعيَه ويعاود الردّ بقبضة العملاق الذي يبطش بقرية النمل.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد استباح «حافظ الأسد» وقواتُه سوريةَ بيتاً

بيتاً، وأصبح يملك الذريعة لقتلِ أدنى صوتٍ معارض ومَحْقِه، ولم تعُدْ تُسمع في طول البلاد وعرضها همسةٌ تشبه (لا)، وغرقتْ سورية بعدَها في ذلٍّ وقمعٍ وظلام، وأصبحت أصغرُ قصاصةٍ صفراء يكتبها رقيعٌ في زاويته من الشارع، كفيلةً بجرجرةِ أُسرةٍ كاملةٍ إلى غياهب السجون، ومصادرةِ أملاكهم ومحاسبة أقربائهم ومعارفهم، وأصبح الشعب السوري كجثّةِ ثورٍ مجروح، تتناوب عليه العلَقاتُ والديدان والذباب وبغاثُ الطير.

* * *

٧ ـ التحقيق

في صبيحة اليوم الثالث، فُتحَ بابُ الزنزانة ونودي على اسمي، وساقني أحد عناصر التحقيق، بعد أن عصب عينيَّ بقطعةٍ مطاطية سوداء، مؤكداً بصرامةٍ لا تقبل المساومة:

ـ في غرفة المحقق وفي أثناء حديثك معه، وجهك أمامك وعيناك في الأرض، وأجب عن الأسئلة التي تُوجَّه إليك بالتفصيل، ولا تتكلم إلّا حين يُطلب منك.. مفهوم؟

ـ نعم مفهوم.

أجلسَني على أرض الحجرة التي لا أرى منها شيئاً، وكانت رائحة الدم الطازج ما زالت تملأ المكان، ويبدو أن الضابط أمرَه بنزع عُصابتي ففعل. كانت غرفةً صغيرةً، مكسيةً أرضها وسقفها وجدرانها بالموكيت ـ «نوع من السجاد الخفيف» ـ الأخضر الداكن، وواضحٌ من طريقة تلفيح الغرفة به من الداخل أنَّ الغرض منه كتمُ الأصوات التي يمكن أن تنبعث من هذه الغرفة، خاصة في الليل، إذ يصبح صوت التعذيب وصراخ المعذبين قوياً.

ـ اسمك؟ اسم والدك؟ والدتك؟ تاريخ ميلادك؟ مدرستك؟ أين تسكن؟

ثم أكمل حديثاً بدأه رئيس الفرع «عمر حميدة» في الليلة الأولى:

ـ نحن لا نريد إلا أن نحميكم ممن غرّرَ بكم، ونمنعكم من الانزلاق في الجريمة وخيانة الوطن.

ثم رمى لي ورقةً وقلماً وأمرني أن أجلس في الممر بين المكاتب فأكتبُ كلَّ ما أعرفه. نقلني العنصر الأمنيّ إلى الممر الذي يضيئه مصباحٌ ضعيف، وسألت عنصرَ الأمن: «ماذا أكتب؟»، فأجابني بذكائه الفطري: «اكتب كلَّ ما تعرف»..

يا للسماء.. كيف لم أفطن لهذه الفكرة، وهي في غاية البساطة؟ اكتب كل ما تعرف!

لا أذكر على وجه الدقة ما كتبت، لكنني التزمتُ ما أوصاني به أبي، أن أحفظ أجوبتي فلا أغيّر منها شيئاً، وألّا أتوسّع بالإجابة ما لم يُطلب مني ذلك. ويبدو أنهم سيكرّرون هذا الطلب مرات ومرات، علَّني أنسى شيئاً أو أضيف شيئاً يوسّع دائرة التحقيق كما جرت عادتُهم.

لم يكن التحقيق معي ذا بال، لأنهم اعتقلوا قبلي كل أصدقائي الذين تداولوا الجريدة معي. كانت هناك نقطة مراوغةٍ واحدة فقط، وهي قصة «يوسف»، الشاب الذي كان يزورنا ويلتقي معنا دون أن تكون له أية صلةٍ بما نتداوله، وكنت صادقاً في نفيِ تمرير الصحيفة له، ويبدو أنه نتيجةً لاجتماع أقوال كل المتهمين بجريمةِ تداول تلك الجريدة حول هذه النقطة، قد تم الإفراج عنه بعد أشهر.

(سيأتي يوسف ليزورني عند خروجي من المعتقل، بعد ثلاث عشرة سنة، وسيشكر لي صنيعي معه).

تم استدعائي لغرفة التحقيق مراتٍ عدةٍ خلال عشرة أيام، كنت أتلقى خلالها ضرباً بعصا غليظةٍ يحملها المحقق بيده، ولم تسفر هذه التحقيقات عن مزيدٍ من المعلومات. وعند هذا الحدّ انتهى التحقيق، وتمَّ إقفال الملف على ثبوت جريمة تداوُل المجلة، وعدم وجود أية صلةٍ تنظيمية بالطليعة المقاتلة أو تنظيم الإخوان المسلمين. وصُنّفت القضية بأنها (كتْمٌ

للمعلومات)، ولم نكن نعرف وقتها القانون الذي قرّره القانونيّ السوري «محمد الفاضل»، الذي اغتالته الطليعةُ المقاتلة في نهاية شباط/فبراير عام ١٩٧٧ في حرم جامعة دمشق، وقد نفذ الاغتيال طبيبُ الأسنان الحموي «عبد الستار الزعيم»، أحد أهم رموز الطليعة المقاتلة يومها، والذي ما لبث أن قُتل في أطراف دمشق في أيلول/سبتمبر من ذلك العام. فقد قرر «محمد الفاضل» في كتابه **(جرائم واقعة على أمن الدولة)**، في جزئه الثاني، والذي سيكون في متناولنا بعد سنوات في سجن صيدنايا العسكري: أنَّ جريمة كتم المعلومات المهمة عن الأجهزة الأمنية حال حدوث اضطرابات في البلاد، عقوبتها الإعدام!

ولم يكن القانون ٤٩ قد صدر بعد (إذ إنه قد صدر لاحقاً بتاريخ ٨ تموز/يوليو ١٩٨٠)؛ وهو قانونٌ يقضي بعقوبة الإعدام لكل مَن يثبتُ تنظيمُه في جماعة الإخوان المسلمين، بنصٍّ يقول: «يعتبر مجرماً، ويعاقب بالإعدام، كلُّ منتسبٍ لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين».

في الليلة التالية، سيكون هناك تحقيقٌ طويل، وتعذيبٌ يمنع كلَّ نزلاء فرع التحقيق من النوم، على الرغم من الإعياء الشديد وتلَفِ الأعصاب، كانت الأروقة تضجّ بأقدام العناصر وهم يجرّون أحد السجناء من حجرةٍ إلى أخرى، ويبدو أن السجين لم يكنْ يستجيب لما يرغب فيه المحقق من اعترافات، وكانوا يتناوبون على جَلده وصعقه بالكهرباء، كما يتّضح من طريقة صراخه في كل ساعةٍ من ساعات تلك الليلة المشهودة.

كنا نجلس القرفصاء، والرعب يمضغ ما تبقى من بشريّتنا، ندعو له بالتخفيف، بينما تمتزج صرخاتُه اليائسة بصيحات الجلادين والمحققين الذين تكالبوا عليه.

وبعد ما يزيد على الساعة، صرخ أحد المحققين: «إليَّ بالقرميدة»، وهي لبِنة من الرمل والإسمنت المضغوط، وظننّا أنه سيسحق رأسه بها، وما هي إلا دقائق حتى كانت القرميدة بمتناول المحقق، الذي أمر جلّاديه أن يمسكوا بهذه الضحية التي لا تستجيب.

وبين أصوات الجلادين وصرخات السجين الذي يقاوم شيئاً لا نعرفه، سمعنا ارتطامَ حجرٍ بصوتٍ عالٍ، وصرخةً عظيمةً تلاها صمتٌ مطْبق سرى على المكان كله.

وما هي إلا لحظات، حتى سمعنا صوتَ سحبِ الجثّة المقتولة على أرض الممرات التي تفصل بين الغرف. وبين سخريةٍ متفاخرةٍ وسؤالٍ لعنصرٍ مستجدٍّ مندهش، شرح أحدُ الجلادين لزميله كيف أن النقيب «حمد» ـ وكان من أقسى المحققين وأشدهم تعذيباً ـ قد حمل بيديه قطعة القرميد، ورضخ بها خصيتي السجين، وقتله بلحظة واحدة.

أيّ وحشٍ يمكنه أن يفعل هذا بسجينٍ جاوزَ الستين من عمره؟ أي وحوشٍ تعيش بيننا، وتحْكمنا وتتحكّم في مصائرنا دون حسيب أو رقيب؟

سأذكر ما حييْت مُسنّاً في الخامسة والسبعين من عمره، كنّا نناديه بـ«أبي أحمد الدبّاس»، وكان يشغل محلاً قديماً لتصليح (بابورات الكاز)، أحضروه إلى الفرع في منتصف الليل وهو مدمّى الوجه من شدة الضرب، وأدخلوه إلى زنزانتنا، وهذا يحصل عادةً حين يكون السجين قد أُحضر بتهمةٍ تافهة، أو بتقريرٍ كيديٍّ يعرف المحققون أنه محْض افتراء، لكن هذا لا يمنع أن يسوقوه إلى أقبية التعذيب، فيُضرب به مَن خلفه مِن أهلٍ ومعارف وجيران؛ أما إن كان صاحب قضيةٍ خطيرة، فيُرمى في زنزانةٍ منفردة كي لا يساعده أحدٌ في ترتيب قصته أو في صياغة ردوده، أو يسرّب إليه معلومةً تُفيده.

ولم يكن صاحبُنا من هؤلاء، وهو لا يعرف سبباً يوجِب اعتقاله، وهو رجلٌ أميٌّ في عمرٍ لا يصحّ معه أن يكون ذا نشاط سياسي أو مسلّح، هكذا كان يظنّ، وهكذا كنا نرى، لكن بعد عدة زياراتٍ ليلية إلى حجرة التعذيب والتحقيق، وبعد جملةٍ من الإغماءات والحمل مغشياً عليه إلى زنزانتنا، وبعد أن يئسوا من اعترافه ابتداءً، ما كان منهم إلّا أن يصارحوه بالتهمة المنسوبة إليه، والتي وردتْ إلى الفرع عبر تقريرٍ لأحد المخبرين

الأوفياء، وكان من تعاسة صديقنا «أبي أحمد الدباس» أن كان هذا المخبر الوفيّ أحد جلسائه اليوميين في محله في السوق.

ذات أصيل، كانت عصْبةُ (الختايرية) في محل «أبي أحمد» تتداول الحكايات والقصص التي تجري على يد هؤلاء الفتيان، الذين عبثوا بهيبة الدولة وجعلوها على شفير الانهيار، فما كان من «أبي أحمد»، وقد عجمَتْه السنون وتعاقبُ الحكومات، إلّا أن وقف في وسط المحل، وأقسم يميناً معظماً أنه إن سقط «حافظ الأسد» سيرقص وسط السوق بالكلسون على الرغم من كبر سنه!

هل علمتَ ما المضحك المبكي؟ أمضى «أبو أحمد» أشهراً والمحققون يتمتّعون بمحادثته، ويتفنّن الجلّادون في تعذيبه، وبعد عامٍ أمضاه في السجن المركزي بحلب، يحكي للعابرين حكايته التي تشبهُ قصص (السفر برلك)، تلك التي كان يسمعها في دكانه ذاته، من أبيه وجلسائه؛ بعد عام، مرّ به رئيس الفرع وتذكر قصته، فلم يملك نفسه من الضحك طويلاً، ثم أمر بإخلاء سبيله، ربما رغبةً منه في أن يقضي نحْبه في بيته وبين أهله.

بعد سبعة عشر يوماً ـ وكان الفرع قد ازدحم بالمعتقلين لدرجةٍ لم تعُد تسمح بقبول وافدين جدد ـ كان لا بد من نقل مَن انتهى التحقيق معه وأُقفلت قضيته إلى سجنٍ أوسع، وهو (سجن حلب المركزي) في ظاهر المدينة، وهو سجنٌ كبيرٌ يضمّ أعداداً وفيرة من المجرمين والمُدانين بقضايا جنائية أو جنحية.

وقد تسلّمتْ إدارة المخابرات العامة جناحاً منه، وجعلت عليه حراسةً خاصة ومفرزةً أمنية، وأخرى عسكرية تشرف على ضبط أمور السجناء المعتقلين لصالح أمن الدولة.

نودي على قائمةٍ من الأسماء، وكان اسمي ممّن وردَت أسماؤهم بتلك القائمة، كان هناك ارتياح كبيرٌ لمجرد الخروج من تلك الأقبية المعتمة، التي لا يتوقف صراخ المعذَّبين فيها ليل نهار، والتي تعصف

روائح الموت في جنباتها، فلا يمضي يومٌ واحدٌ، وأنت تتنقل فيها بين الزنزانة وغرفة التحقيق والدخول إلى الحمام، دون أن تطأ قدماك بقايا الدم والقيح، وقطعاً من جلد سجينٍ تم شواء صدره أو ظهره بأسياخ حديدية. حتّى الهواء خارج تلك الأقبيةِ المرعبة له طعمٌ مختلف ومحبب، كيف لم أنتبه لروعته إلّا في تلك الساعة؟!

تم نقلُنا في وضح النهار من سجن أمن الدولة في منطقة (المحافظة) إلى سجن حلب المركزي في منطقة (المسلمية) خارج المدينة.

* * *

٨ ـ إلى سجن حلب المركزي

حمَلنا باصٌ صغير يتّسع لأربعةٍ وعشرين راكباً، من بوابة فرع أمن الدولة إلى السجن المركزي، الذي يبعد قرابة عشرين كيلومتراً، وهو سجنٌ تمّ بناؤه حديثاً، مكوّنٌ من عدة طوابق، وفي الطابق الأرضي منه أُفرِدَ جناحٌ من عشر غرف، تستوعب كل غرفة منها عشرين شخصاً على وجه التقريب، وكنا قرابة الثلاثين شخصاً، منقولين من فرع الأمن إلى هذا السجن الذي يعتبر محطةَ توقيفٍ مؤقتة، ريثما يتمّ توجيهنا إلى مكان آخر.

أدخلونا إلى الساحة الداخلية، حيث جرى تفتيشنا من جديد، وتمّ توزيعنا على الغرف السجْنية، حيث دخل كلّ ثلاثةٍ منا غرفةً يسكنها سجناء سياسيون سابقون، ومُنح كل فردٍ جديدٍ فرشةً قطنية قديمةً وغطاءً صوفيّاً، وبدأنا نتعرف إلى الموجودين، الذين كان بعضهم محتجزاً منذ أربعة أشهر.

كان هذا الانتقال يوازي نصف إخلاء سبيل، فالمساحة أوسع بكثير، والضوء متوفرٌ، والدخول إلى الحمامات متاح داخل الغرفة، وحتى الطعام يعتبر نظيفاً نسبياً ووافراً إذا ما قيس بطعام فرع التحقيق.

شيئاً فشيئاً، يتكسّر الجليد وتبدو الوجوه أكثرَ أُلْفةً وأكثر تعاطفاً، يسري الإحساس بالأمان بين المسجونين، لا تزال تجارب الاعتقال جديدة، وعبر سيولٍ من الأسئلة المتبادلة تمتدّ جسور التعارف وتتمتّن وتنشأ العلاقات، وخلال أيام تصبح هذه الغرفة بساكنيها العشرين أسرتَك

الصغيرة، وبعدها تبدأ العلاقات تمتدّ خارج جدران هذه الغرفة، ليصبح الجناحُ بساكنيه ـ الذين يقاربون المئتي سجين ـ عائلةً كبيرة؛ فهذا صوت «أبي حسن» من الغرفة السابعة، والشاب الذي يوزّع الطعام «أيمن» من الغرفة الأولى، وغناء «أبي سليم» الحلبي الأصيل.

وهكذا تبدأ الحياة في هذا السجن تأخذ طابعاً هادئاً، مختلفاً بشكل جذريّ عن الحياة في أقبية أمن الدولة.

يخرج السجناء القضائيون إلى الساحة العامة كلَّ صباح، ويمضون سحابة يومهم في الهواء الطلق، يدخنون ويمشون ويتحلّقون حول بعضهم البعض، كلٌّ له حكايةٌ مختلفة، وفي الغالب هناك روايتان: واحدةٌ للعموم، وأخرى مختلفة للخاصة.

أما نحن ـ جناح السياسيين كما يطلق علينا سائر السجناء، أو جناح أمن الدولة كما يدعونا مدير السجن ـ فليس لنا الحق بالتنفس أو الزيارات، حتى أننا لا نملك رفاهية فتح أبواب الغرف ليتزاور السجناء فيما بينهم.

ثلاثة أشهر مضت، ونحن نقلّب ساعات النهار بسماع المزيد من الحكايات التي يحكيها كبار السن، وكانوا يُعدّون ثلث الموجودين، وكنا نتسلّق قضبان واجهة الغرفة لنطلّ عبر النوافذ التي تغطي جدار المبنى من الخارج، إلى الطريق الذي تعبُره سيارة أو سيارتان كلَّ دقيقة، وهذه نافذتنا الوحيدة على العالم، وكانت أكبر مصيبة تعنيني ـ وأنا بعدُ فتًى صغير ـ هي الاحتجاز داخل غرفةٍ لا أبرحها، وكنت في طفولتي أتذمّر من ساعة القيلولة التي يفرضها الأهل على جميع الأولاد صيفاً، فقد كانت تعني لي الحبس في هذه الحجرة إلى أن يستيقظ الآخرون، فما بالك إن تطاول هذا الاحتجاز لأسابيع أو لأشهر؟! وكنتُ وهذه حالي، آسى على تلك الشجرة التي أُشرف عليها من نافذة زنزانتي، فهي لا تبرح مكانها طوال حياتها، وعلى هذه الساعة، كلما أتذكرها أتذكر كائناً جميلاً ينتصب على ساقٍ واحدةٍ لسنواتٍ طوالٍ دون أن يغادر مكانه.

كانت واجهات الغرف كلها عبارةً عن جدارٍ من القضبان، التي تسمح لنا أن نشاهد العناصر التي تحضر لتوزيع الطعام وإدخاله، وتسمح لمن يتفقّد حال الموجودين من عناصر المفرزة الأمنية أن يرى جميع مَن في الغرفة.

وكان من دأبهم اليومي إجراء تفقُّدٍ صباحيٍّ وآخر مسائي، وعادةً يجري بدخول رئيس المفرزة، وهو برتبة مساعد أوّل مِن أمن الدولة، وله نظير يتناوب وإياه على ضبط أمر المعتقلين السياسيين والإشراف عليهم، بواقع ١٢ ساعة لكل واحدٍ منهما، فما إن ينادي المنادي: (سجناء.. تفقّد)، حتى يقف كلّ واحدٍ منا فوق فراشه، فيمرّ المساعد ويقوم بعَدِّنا بصرياً من حيث يقف، وكانوا نادراً ما يظهرون عدوانيّتَهم.

كان يبدو أن الوضع بين شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو من عام ١٩٨٠ يُنذر باحتمال سقوط النظام، أو هكذا بدا للبعض، وخاصةً لمن تتبّعَ الخطابات المتكررة لـ«حافظ الأسد» يومها، والذي بدا في معظمها مرتبكاً وعلى وشك الانهيار، ولاسيما أنها الهزّة العنيفة الأولى التي يتعرض لها شخصه ونظامه.

هذا الأمر عكَس سلوكاً حذِراً من عناصر المفرزة الأمنية، جعلَنا كسجناء في منجى من الكثير من شرورِهم وحقدهم الذي ظهر تالياً.

كانت لنا اتصالاتٌ مع الأجنحة الأخرى التي تضمّ سجناءَ قضائيين، وكانوا متعاطفين معنا إلى أقصى درجات التعاطف، فقد كانوا ينتظرون سقوط هذا النظام ليشملهم العفو الذي عادةً ما تصدره السلطات عند تبديل نظام الحكم.

وكان هذا الاتصال يقوم به فردٌ مخصّصٌ من جهتنا بفردٍ مخصّصٍ من جهتهم، من خلال فتحات التهوية في حمامات غرفنا، حيث يتمّ عبرها تبادل الأدوات والأموال التي يسرّبها الأهل، وبعض الحوائج الضرورية، لكن الأهم من كلّ هذا كان نقل الأخبار التي تصلنا كلّ يومٍ طازجةً جديدة، من خلال احتكاكهم الأسبوعي مع أهلهم وتوفّر أجهزة الراديو لديهم.

هذا الهدوء الطارئ لم يدمْ طويلاً، ففي نهاية حزيران/يونيو بدأت تتسرّب إلينا الأنباء، من خلال أحاديثنا التي كانت تجري سرّاً مع أجنحة السجناء القضائيين، أن عناصر من (سرايا الدفاع) التي كان يتزعمها شقيق الرئيس «رفعت الأسد»، وهو ضابطٌ ذو رتبة متدنيةٍ، عصابيّ المزاج عدواني النزعة، لا يعرف إلا لغةَ البطش والقتل في خطاب مخالفيه، وسبق له أن اقترَح على شقيقه «حافظ الأسد» أن يدمّر مدينةً أو مدينتين فتُذعن له بقيّة المدن، كما كان يفعل «هولاكو»، وقد كان يُشار إلى «رفعت» في قطعاته العسكرية بـ «القائد»؛ تسرَّب الخبر أنَّ عناصره داهموا سجناً صحراوياً، بعد أن تمّ نقلهم بطائرات الهيلوكوبتر إلى مطار (تدْمُر) العسكري، وقتلوا جميع مَن فيه، وكانوا قرابة الألف سجين أو أقل قليلاً، ولم ينْجُ منهم سجينٌ واحد.

بعد ساعاتٍ من وصول الخبر إلينا، جرتْ حركةٌ عنيفةٌ وسريعة، وتمّت الأوامر بخضوع جميع الغرف بُعَيد ساعاتٍ لتفتيشٍ دقيق، وعلى كل غرفةٍ قبل بدء التفتيش إخراجُ جميع الملاعق وسكاكين الخضروات الصغيرة، وكلّ قطعةٍ معدنيةٍ أو زجاجية، وتسليمها للعنصر المكلّف باستلامها.

ونفّذ الجميع هذه التعليمات. وفعلاً تمّ تفتيش جميع الغرف تفتيشاً دقيقاً جداً، بشكلٍ همجيّ وعنيف، مزّقوا خلاله كلَّ الأوراق التي وصلتْ إليها أيديهم، دفتراً كان أم كتاباً، وجرّدوا السجناء جميعاً من كل أدواتهم البسيطة، التي تلزمهم في تحضير الطعام أو قضاء حوائج معيشية معتادة كتقليم الأظافر وما شابهها، وشعرْنا يومَها أنهم يحضّرون لمجزرةٍ أُخرى، ربما تكون قريبة.

في تلك الليلة، وللمرة الأولى، حضر ضابط بُرتبة ملازم أول، وأمر جميع السجناء بخلع ملابسهم ما عدا السراويل القصيرة، وأنزلونا بُعيد منتصف الليل إلى الساحةِ الخارجية للسجن، الساحةِ التي يتنفّس السجناءُ فيها عادةً.

وكانت هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من الجلادين، يحملون الكابلات الرباعية مسلّخة الأطراف، التي ستترك يومها أخاديدَ عميقةً في ظهورنا وصدورنا وعلى وجوهنا وسواعدنا لأشهر طويلة. أما الأقدام فستُدميها وتشقّقها الأرضُ الإسمنتية الخشنة، التي تنبت في أطرافها شجيراتٌ كثيفةٌ من شوك القندريس ـ نوع من النبات الشوكي يتمتع بأشواك حادة تسبب ألماً مبرحاً ـ والذي جرت الأوامر أن نتدحرج بظهورنا وصدورنا العارية فوقه.

كانت ليلةً ليلاء، فقد جلس الملازم أول مع المساعد رئيس المفرزة وبضعة ضيوفٍ آخرين إلى طاولةٍ خشبيةٍ صغيرة توزّعتْ عليها بضعة كؤوسٍ وزجاجاتُ نبيذٍ ومشروبات أخرى، وكانوا يصرخون بنا وهم يضحكون ضحكاً هيستيرياً. وبعد أن تعب الجلادون من جَلدنا، ونحن نتدحرج أو نزحف فوق الشوك والحجارة الحادة، أخذوا يتفنّنون في تعذيبنا بطرائق مبتكرة، وكانت الليلة مقمرةً، فأمرونا بحزم مصطنَع أن ننفخ مجتمعين نحو القمر بملء صدورنا كي نطفئه بأنفاسنا الّلاهثة! وبقينا عشر دقائق ننفخ بكل عزمٍ لعلَّه ينطفئ امتثالاً لأوامر من ضابط مخبول، لكي يأمرونا بعدها بالتجمّع إلى جهة الجدار الضخم، ويطلبون منا أن ندفعه كيما نُزيحه متراً إلى الخلف!

وكان من بين الكلمات التي تتسرّب منهم ـ وهم في غمرة النشوة من شربهم وتعذيبنا معاً ـ أنهم يبشّروننا بالذبح القريب، أُسوةً بما حصل مع أصدقائنا في سجنٍ صحراويّ، لم نكن قد سمعنا عنه بعد.

وبعد ساعتين من التعذيب المتواصل، أعادونا إلى غرفنا بعد أن تسلّختْ جلودنا واختلط عرَقُنا بدمائنا، وأمضينا ليلنا إلى الصباح يساعد بعضُنا بعضاً في نزع الشوك المنغرس في ظهورنا وصدورنا، أما الأقدام فقد كانت أجلد المتضرّرين.

اعتباراً من اليوم، ستكون المعاملة أسوأ من معاملة مجرمي الحرب، بدءاً من تغيير جملة المناداة من: «يا سجناء» أو «يا بني آدم»، إلى جملة: «يا حيوانات»، يا «أخوات الـ. . . . . . .». وكانت الديباجة المسائية اليومية: «حيوانات ولاك. . حضّروا حالكم للسلخ».

تردَّى مستوى الطعام بشكلٍ مريع، وصار معظم طعامنا من المعلبات الفاسدة ومنتهية الصلاحية، أو من الوجبات التجريبية التي تحضّرها المصانع ثم ما تلبث أن ترميها أو تبيعها بثمنٍ بخس كعلَف للحيوانات، كونها غيرَ مستوفيةٍ لشروط الاستخدام البشري.

خلال أيام، وفي مطلع حزيران/يونيو ١٩٨٠، اشتدّ سُعار الضباط في السجن، وبدؤوا يتصرّفون كأبطالٍ في ساحات الحرب، واشتدّ التعذيب علينا، وسرعان ما تكشّف الأمر؛ فقد استطاعوا قتلَ الضابط المسؤول عن مجزرة مدرسة المدفعية، وهو النقيب «إبراهيم اليوسف»، وطافوا بجثته المربوطة إلى عربةٍ مجنزرة في شوارع حلب.

لم يكن الرعبُ أو الخوف قبل هذه الأيام قد تمكَّنَ من نفوسنا، باستثناء أيام التحقيق والتعذيب في فرع أمن الدولة، لكنه بدءاً من اليوم سيكون اللونَ الطاغي على كل مشاعرنا وتصرفاتنا، والشريك الأكثر حضوراً في لقاءاتنا ببعضنا، وفي أفكارنا التي تحاصر خلواتنا، وسيدوم هذا لسنواتٍ طويلةٍ قادمة.

ستتكرّر نوبات السعار الطارئة، وبشكل مفاجئ، وستكون كلُّ نوبةٍ إعلاناً لمجزرةٍ أو مقتلةٍ ارتكبتْها قوات النظام، فهي بالنسبة إليهم مبعثٌ للطمأنينة والإحساس بالأمان، تبعث برسالتها لهم أنَّ النظام يتقدّم وخصومه يتقهقرون.

ولتكريس هذا الشعور بالطمأنينة المتكلّفة، كانوا يعمدون إلى إظهار فرحهم الغامر واحتفاليتهم، من خلال الإمعان في تعذيبنا، والتلذّذ بلون الدم وبرائحته المنبعثة من أجسادنا.

وفي منتصف شهر تموز/يوليو ١٩٨٠، ومع اشتداد الحر، نفذّت ميليشيات الأسد مجزرةَ سوق الأحد؛ وهو سوقٌ في منطقةٍ شعبيةٍ، بأطراف مدينة حلب، وراح ضحيتَها العشرات من الناس البسطاء والفقراء، فهم يتوافدون إلى هذا السوق الشعبيّ الذي يقصدُه مستورو الحال ومحدودو الدخل، لشراء الأدوات المستعملة والأشياء الرخيصة. لكن

النظام سرعان ما تستّر على تلك المجزرة، وكمَّ الأفواه ومسح الآثار، فلم يشعْ خبرُها.

كان عيد الفطر يقترب مع انتهاء شهر رمضان، وكانت حلب مدينةً محتلة، وأحياؤها محاصرة، والدبابات والمجنزرات وحاملات الجند تذرع الشوارع الرئيسة بصوتها الذي يبعث الرعب في النفوس، ولم يكن هذا محضَ استعراضٍ للقوة، فقد حدث أن كان هناك اشتباهٌ بالتجاء بعض المسلحين إلى عمارةٍ سكنيةٍ في (حيّ الميدان)، وهو حيٌّ تقطنه أغلبيةٌ مسيحية، وكان الأمر من غرفة العمليات أن اقصِفوا البنايةَ بمدرّعة (بي إم بي) واجعلوا سطحها على الأرض، وتمَّ ذلك كما أمرتْ القيادة، ولمراتٍ متكررة في أحياء عدة.

وكما يبدو، فإنّ النظام قد استمرأ القتل، إذ كانت مجازرُه تتعاقب، ولم يكن يرُقْه أن يبتهج الناس بالعيد، على الرغم من كل ما يجري.

* * *

٩ ـ صبيحة عيدٍ دامية

في صبيحة عيد الفطر، بتاريخ ١١ آب/أغسطس ١٩٨٠، وإثر اشتباكٍ في حيّ (المشارقة) بين قوات الوحدات الخاصة ومجموعةٍ مسلحة، أمر العميد «هاشم معلّا»(١)، قائدُ الوحدات الخاصة، عناصرَه، فجمَعوا له معظم شباب الحي الذي توقفتْ سيارته فيه، وكان عددهم بين الثمانين والمئة، معظمهم من الشباب، وإن وُجدت بينهم أعمارٌ بين السادسة عشرة والستين.

ثم أمر عناصره فانبروا يضربونهم بكل ما وصلت إليه أيديهم، من هراوات غليظة ومواسير فولاذية وجنازير وأحزمة جلدية، وحين تعبوا من تعذيب ضحاياهم طفقوا يركلونهم ويدوسونهم بأقدامهم. لم يرْوِ كل هذا التعذيب، الذي دام أكثر من ساعتين، ظمأ «هاشم معلا»، فساقهم إلى أقرب جدار يقع قرب (مقبرة هنانو) في حي المشارقة، وأمر جنوده فقتلوا وإياه بالأسلحة العسكرية كلَّ مَن جمَعوهم. ولبستْ حلب يومَها ثوباً أسودَ

---

(١) «هاشم معلا»:

ضابط برتبة عميد، كان مسؤولاً عن الوحدات الخاصة، التي كان لها الباع الأطول في بسط سلطة «الأسد» في لبنان وإذلال قياداته السياسية، لم يُرقَّ بعدها بسبب خصومةٍ له مع «باسل الأسد»، الابن البكر لحافظ الأسد الذي مات في حادثةٍ غامضة بعد ذلك عام ١٩٩٤. كما كان لهاشم معلا دور كبير في احتلال مدينة حلب في بدايات عام ١٩٨٠ وإخضاعها لتفتيشٍ مهين، ونفذ فيها أكثر من مجزرة أشهرها وأفظعها مجزرة (حي المشارقة).

تمَّ تسريحه من الجيش بأمر من حافظ الأسد، وأمضى سنوات يعاني من تدهور حالته الصحية بسبب مرض السكري، إلى أن قام بالانتحار في صيف ٢٠٠٩ ببندقية حربية.

من الحزن إضافةً إلى حزنها المديد، وكان هذا العيدُ نكبةً على مئات الأسر والعائلات في مدينة حلب.

لم يكْفِ المجرم «هاشم معلا» ما فعل، فعاد إلى الحيّ وبقيَ مشرفاً على استمرار إطلاق النار في الأجواء ليبقي الرعب ساكناً في نفوس الأهالي، الذين فقدوا أبناءهم دون أي جرْمٍ يُذكر، ثم أمر بالعربات العسكرية فتمّ رمي جثث الضحايا الأبرياء فيها، ودفِنوا في مقبرة جماعية، ولم يسمح للأهالي بدفن أبنائهم أو توديعهم.

وقد كتبت حينها (**جريدة الجماهير**)، وهي الجريدة الرسمية في مدينة حلب: «قوات الأمن تهاجم وكراً لعصابة الإخوان في حي المشارقة وتقتل العشرات منهم».

تمّت تسويةُ المقبرة بالأرض، ومسحت كل آثار المجزرة، حيث ستصبح ساحةً واسعة ينتصب في طرفها تمثال للسيد الرئيس، وسيبنى بعدها مسجدٌ يسمى بمسجد الرئيس، كيما يبقى «الأسد» شاهداً صخريّاً على مجازره.

وكما جرت العادة، ازدادت شراسة الضباط، وحتى السجانين، فتكرار المجازر يبعث برسالةٍ للجميع: أنّ هؤلاء مستباحون، وبقاؤهم أحياء هو مكرمةٌ لا يستحقونها!

في اليوم التالي، أي بتاريخ ١٢ آب/أغسطس ١٩٨٠، سترتكب عناصر العميد «هاشم معلّا» مجزرةً أُخرى في حي (بستان القصر)، حيث تمّ قتل خمسةٍ وثلاثين شاباً يافعاً. ومن شدة الإرهاب العسكريّ الذي تنفذّه عناصر ميليشيات النظام في تلك الفترة، لم ينبس أحدٌ ببنت شفة، لأنَّ ذلك كان يعني حينها القتلَ والتعذيب، له ولجميع أفراد أسرته.

لم تطُلْ بنا الحال في هذا البؤس، الذي يقهر النفوس ويُدمي الأرواح، فقد آذن نقلُنا من هذا السجن إلى (معتقل تدْمُر الصحراوي)، إلى عالمٍ يصعب اختزاله بكلمةٍ أو جملة واحدة.

ومعلوم أنَّ اللغة إنما تقارب المعاني، مقاربةً يعيها العقل بمطابقاتٍ تتفق مع السياقات الملاصقة، كأن يُفهم معنى الحب من خلال المضاف إليه، فيميّز حب المرأة عن حب الطعام، وعن حب الحرية، وإن تشاكلت الألفاظ، وكان بين معانيها بونٌ شاسع.

كذلك سيكون الحديث عن التعذيب في سجن تدمر ضرباً من ضروب المقاربات المجازية، إذ لا يمكن إيصال معنى التعذيب الذي كان نبضَ الحياة اليومية هناك، ورائحتَها الطاغية في تفاصيل الثواني البطيئة، إلا بمقدار ما يمكننا شرح الرعشة الجنسية لطفل قارب الثامنة من عمره.

❊ ❊ ❊

١٠ ـ ليلة النقل إلى سجن تدمر

في ذلك التاريخ، الذي يصعب على الذاكرة أن تنزع وشْمه عن جلدها المتحجر، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل من يوم ١٤ آب/ أغسطس ١٩٨٠، أي بعد مجزرتَي (المشارقة) و(بستان القصر) بيومين، ولم تكن النفوس هدأتْ بعدُ من فظاعة الجرائم التي تتوالى علينا دون انقطاع، يستيقظ السجن برمّته على أصوات الرعب التي لم يشهد مثلَها منذ أن تأسّس في منتصف السبعينيات.

تتعالى الصيحات في ردهات السجن، والسجن بأروقته الإسمنتيّة الصمّاء يردّد الصدى قبيحاً مرعباً. عشراتُ السلاسل الحديدية والكابلات النحاسية والقضبان المعدنية تقرع بحقدٍ ووحشيةٍ شامتةٍ جدرانَ الزنازين، التي ضمّت مئات الشباب والكهول الذين أيقظهم الهلع المباغت بعد منتصف الليل.

يتقافز الحراس مع آمر السجن هنا وهناك، كمستَخدمين من الدرجة الثالثة يفتحون الأبواب الحديدية لأسيادهم القادمين: قوات مسلحة بعتادٍ ميدانيٍّ كامل من عناصر الوحدات الخاصة، وضباط من القصر الجمهوري.

ـ استيقظوا أيها الحقراء، أيها المجرمون.. اليوم سنسوقكم إلى الذبح.

يدخل عناصر الوحدات الخاصة الجناحَ وهم يضربون الأبواب الحديدية السوداء بأخمص البنادق الروسية «الكلاشينكوف»، وصوت

عشرات الأحذية العسكرية، وهي تجري، يختلط بأصوات أصحابها، وقعقعة بنادقهم، وعشرات الكابلات الرباعية والجنازير ومواسير الحديد، تخلق حالةً من الهلع والرعب، وتستدعي إلى الذاكرة الرطبة قصصاً كنا منذ أيامٍ فقط نتداولها همساً، عن مصير سجناء تدمر الذين نفِّذتْ فيهم أبشع مجزرةٍ في تاريخ سورية المعاصر، عندما دخلت قواتٌ مجوقلةٌ من سرايا الدفاع، بتكليفٍ رسميٍّ من قائدهم «رفعت الأسد»، وقتلت كلّ مَن كان في سجن تدمر، بأبشع الطرائق.

يبدأ السجّانون بقراءة أسماء مَن سيخرج هذه الليلة من هذا السجن إلى مصيرٍ مجهول، تحت رحمة مَن قدِموا لاصطحابهم، وسط سيلٍ هادرٍ من الشتائم والركلات والضرب المبرح، الذي ينهال على المعتقلين بشكلٍ فردي، عندما يخرج كلّ واحد ممن تُليتْ أسماؤهم من غرفته، وكنتُ واحداً منهم، ويُساق وسط صَفّين من عناصر الوحدات الخاصة المزوّدين بكل أدوات الضرب والتعذيب، حيث ينهالون عليه ضرباً وهو يجري بأقصى سرعته، تُحرّكه غريزته للنجاة منهم.

تمّ سَوْقنا وتجميعُنا في الساحة الداخلية، حيث يتمّ تقييد كلّ واحدٍ منا بحبلٍ متين من القنّب الخشن الذي يُدمي المعصمين، ويتم الشدّ بالحبال إلى أقصى درجةٍ ممكنةٍ، فيحتبس الدم في الكفّين اللتين ما تلبثان أن تتورّما، ثم وبعد ساعات تبدآن بالتشقّق، ويصبح التحام الأظافر بالأصابع واهياً ونازفاً.

وبعد تقييدنا بشكل فرديٍّ، وكلتا اليدين مشدودة إلى خلف الظهر، يتم ربط كلّ واحدٍ منا بمعتقلٍ آخر، فيصبحان معاً زوجين من الحمولة الجاهزة للشحن إلى مسافات طويلة، دون أن يكون لديهما أدنى هامش للحركة أو المناورة، فهو قيدٌ إلى قيدٍ إلى قيدٍ ثالث، يثبّتهما معاً في مقعدهما من الحافلة العسكرية، التي ستكون ضمن قافلةٍ طويلةٍ وبطيئة، تسير بهم من حلب إلى صحراء تدمر، في رحلةٍ ستمتدّ من الثالثة بعد منتصف الليل، إلى الساعة الثامنة صباحاً، تتخلّلها موجاتٌ غير منتظمةٍ من التعذيب المزاجي، والضرب الطويل بأخمص البندقية على الرؤوس والرقاب والأكتاف.

تتعالى فجأةً أصواتٌ متوترةٌ خائفة، عناصر من الوحدات الخاصة يجْرون في كل اتجاه؛ لقد استطاع «أحمد حباب» ـ وهو معتقلٌ حلبيٌّ دون العشرين من العمر ـ الالتفافَ أثناء تلقّيه وابلاً من الضربات من عنصرٍ من عناصر الوحدات، وتمكّنَ من ضربه على رقبته، وحصل إثرَ ترنُّحه على سلاحه، الخالي من الذخيرة الحية.

فرَّ الجميع أمامه، وتركوه كنمرٍ نازفٍ في الرواق المقفل، إلى حين استعادوا صوابهم وذخروا أسلحتهم، وعادوا مجتمعين ليُرْدوه برشقةٍ طويلةٍ من الرصاص الحيِّ، نالت من صدره وبطنه، وتركوه دقائق إلى أن شُلّتْ حركته وغاب عن وعيه، فسحبوه من ذراعيه إلى الساحة المغلقة، حيث نجلس مقيّدين على الأرض ورؤوسنا بين الركب، وركنوه كما أمر الضابط القائد في زاوية الساحة، كيما يتأكدوا من نزفه لكامل دمه.

كان صوت الرصاص في هذا البناء الصخريّ، وفي هدأة الليل، رعباً خالصاً ومروعاً لم نسمعه من قبل، وقد صدرتْ الأوامر إلى الجميع بالانبطاح أرضاً، وبإطلاق الرصاص على كلٍّ من تبدر منه نأمةٌ أو أدنى حركة.

وكانت أصوات نبضات القلوب تقرع كطبولِ الحرب، وكنا نسمع صوت الوريد المنتفض خلف الأذن، وكانت وجوهُنا وآذاننا ملتصقةً بأرض الساحة، نسمع من خلالها كلّ حركةٍ مهما صغُر شأنها.

إلى أن انتهوا من تقييدنا جميعاً، وكان عددنا مئة وخمسة وأربعين معتقلاً تقريباً، بين فتًى في الخامسة عشرة من العمر، وكهلٍ قارب السبعين.

استغرقت العملية برمّتها زهاءَ ساعةٍ كاملة انقضتْ كأنها دهر، كانت كفيلةً بامتصاص ما تبقّى من دم صديقنا «أحمد حباب» المُلقى في زاوية الساحة تحت حراسةٍ مشددة.

ثم صدرت الأوامر بصوتٍ عالٍ: «الجميع وقوفاً، وكل اثنين مقيّدين

إلى بعضهما يتحرّكان عند إشارة الرقيب». وتحركنا إلى خارج المبنى، حيث اصطفّ على أطراف الساحة ـ التي وقفتْ بها الحافلات التي ستقلّنا ـ عشراتُ العناصر المسلحة.

الليل دامسٌ، وبضعةُ أضواء كاشفة تكشف الحركة للحراس المنتشرين في كل زاوية، وقد صدرت الأوامر بشكلٍ مسموعٍ وواضحٍ للجميع. جميع البنادق مذخرة، وجاهزةٌ للرمي عند أي إشارة من مسدس الرائد قائد القافلة.

كنا نصعد الحافلة، وهناك يتلقّفنا عناصر الوحدات المكلّفون بتقييدنا إلى مقعدنا في الحافلة، ووضعِ العُصابات المطاطية السوداء على عيوننا.

عتمٌ وليلٌ وعصاباتٌ ورعب، ظلماتٌ بعضها فوق بعض.

وسط الساحة، وقف الرائد قائد القافلة، الذي لم نرَ وجهه قطّ، فصرخ مذكّراً عناصره للمرة الأخيرة: «في الباصات حاويات قنابل وتنكات بنزين سريع الاشتعال، وأسلحتكم جميعاً بذخيرتها الحية، فما إن نتوقف وتسمعون طلقة من مسدسي حتى تُريقوا البنزين داخل الباص، ويُشعل آخرُ النازلين منكم فيه النارَ وتبتعدون بقدرٍ كافٍ، تجنباً لشظايا القنابل التي ستنفرج حتماً، وإن حصل وخرج بعدَ كلّ هذا أيُّ حيٍّ منهم، تُفرغون في جسده كلَّ رصاصكم.. مفهوم أيها العناصر؟».

وبصوتٍ مدوٍّ يتردّد صداه في الأرجاء: «مفهوم سيادة الرائد».

يُعيد الرائدُ التأكّد من وفاة صديقنا «أحمد حباب»، فيعطي أوامره لسيارة الإسعاف المرافقة بنقله إلى المشفى العسكري، حيث يكرمون وفادته هناك.

تتحرّك القافلة: في المقدمة سيارتان مصفّحتان تحملان عناصر الحماية، تليهما سيارة قائد القافلة، يتبعها ثلاثة باصات مكتظّة بالمعتقلين، ويتبع الجمْعَ سيارتان مصفّحتان من الخلف..

إلى تدمر وبئس المصير.

١١ ـ في الطريق إلى تدمر

«تتعدد أنواع الخوف: من الموت.. من الشيخوخة.. من العجز.. من الحرمان.. لكنه في تدمُر خوفٌ من الألم المحض، والموت محض أمنية»

تمضي بنا الحافلات في ظلام دامس، لا يشوبُه إلَّا بعض ضوءٍ ينبعث من هنا أو هناك. الطرقات فارغةٌ تماماً، إلَّا من عناصر أمنٍ أو عناصر عسكرية.

الجميع ملصِقٌ ذقنَه بصدره وفق الأوامر، والصفعات واللكمات تنهال على الوجوه والرقاب، يتناوب العناصر على السير في الممر بين المقاعد، والحافلة من الطراز القديم البالي، وكلَّما مررنا بحفرةٍ أو منعطف، تصرخ مجموعة من السجناء بسبب الألم الشديد الذي يسببه القيد الضاغط.

في تدمر سنتذوق الرعب والهلع والهول، سنعرف عن قربٍ معنى القلوب الواجفة، وكيف سيكون الموت بحد ذاته حلماً مشتهى.

شريط حياتي القصير يمرُّ الآن أمامي كحلم خاطف، كيف تداولتُ وأصدقائي (**مجلة النَّذير**)، كيف وشى بنا أحدهمً، كيف اعتُقل أصدقائي، وكيف داهمتْ بيتي في الساعة الثالثة فجراً خمسُ سياراتٍ مدججةٍ بعناصر السرايا، ليعتقلوا فتًى أعزل لم يبلغ السابعة عشرة من العمر بعد، بجريرة أنه ارتكب قراءةَ نشرةٍ ورقية. كان هذا في أول أيام شهر أيار/مايو عام ١٩٨٠، عيد العمال العالمي.

كانت القافلة مكونةً من ثلاث حافلات، ومجموعةٍ من سيارات

الحماية المرافقة، وقد وُضع في نهاية كل حافلةٍ صفيحةٌ من الوقود سريع الاشتعال، وصندوقٌ من أصابع الديناميت، وكما أسلفت، كانت الأوامر من الضابط في قيادة القافلة: «عند سماعكم لأية طلقةٍ، تسكبون البنزين عليهم وتنشرون أصابع الديناميت، وتشعلون الباص بمن فيه، وتخرجون بعتادكم بأقصى سرعة».

كان هناك ألمٌ شديدٌ يفتك بأجسامنا وعظامنا ويعتصر المعصمين والكفّين، وذهولٌ طاغٍ لا يستطيع العقل معه التبصّر لما هو أقصى من حدود الحافلات التي قُيّدنا في مقاعدها، فصرنا جزءاً منها، وصراخٌ هنا وهناك، وأصوات ضربٍ مبرح، ورائحةُ دماءٍ وقيءٍ وأشياء أخرى.

وكنا نبصر من شقوق الأعيُن المعصوبة أننا نغادر مدينةً وندخل أخرى دون توقّف. إلى أن توقفت الباصات في فضاءٍ رحبٍ، عرفنا بعدها أننا في بداية صحراء تدمر من جهة مدينة حمص. سمعنا صوت انسكابِ الماء من مكانٍ قريب، وصوتَ العناصر المرافقين وهم يعبّون الماء ويغسلون وجوههم. ومع بزوغ شمس النهار الصيفي، وحرارةِ الأجساد المتراصّة في الحافلة، كانت ألسنتُنا قد التصقت بحلوقنا، وجفّتْ حناجرنا فلم نعُد نقْوَ على الصراخ عندما نتعرض للضرب.

بعد دقائق عاودت القافلة سيرَها البطيء، دون أن ينال أحدٌ منّا شربة ماء، وكنّا مع كل حفرةٍ تعترض عجلات الحافلة، نُطلق أنيناً جماعياً من شدة الألم الذي اخترق معاصمنا، وتسلَّخَ منه جلد المعصمين بفعل الحزم الشديد للقيود.

أخيراً دخلنا مدينةً صغيرةً، ولمحْنا ونحن مقبلون عليها بعضاً من أشجار النخل، وأبنيةً عتيقةً ترابية اللون، وشمساً تُغرق المدينة في ضوئها الصباحي، وأشعتها التي تزداد حرارة.

كانت الساعة تقارب الثامنة صباحاً، وصوت مكبسٍ للقرميد تصطكّ جنباته ببعض وهو يضغط الإسمنت والحصى، فينتهك صمتَ المدينة الصغيرة الغافية في هدوئها، بصوتٍ معدنيٍّ قبيح يجرح الآذان.

سيبقى هذا الصوت مصاحباً لنا طوال السنوات التي سنمضيها في هذا المعتقل الصحراوي، نسمعه كلَّ صباح، وغالباً ما يدوم إلى ما بعد الغروب. كان صمتُه إعلاناً عن انتهاء النّهار، يحمل معه بعضاً من الأمان، حيث ينتهي الجلادون من مهامهم اليومية في التعذيب.

لكن هذا الأمان نادراً ما كان يكتمل إلى الصباح؛ إذ إنَّ المشرفين على تعذيبنا كثيراً ما يفاجئوننا بحفلاتٍ ليليةٍ من التعذيب، عادةً ما تستمر حتى مطلع الفجر.

الآن، وبعد أربعين سنةٍ من ذلك المشهد، يحدث أن أعْبر في شوارع مدينةٍ صغيرةٍ، أو ضاحيةٍ نائيةٍ، تجري فيها أعمال الإعمار، وأسمع الصوت ذاته من آلةٍ مشابهةٍ تضغط القرميد والطوب، فيتوقف الزمن للحظة، وسرعان ما يسحبني هذا الصوت المنكر إلى تلك الساعات الأولى، التي ولَجنا فيها ذلك النفق المظلم الطويل: سجن تدمر.. ذلك الاسم الذي جثَم كماردٍ من الرعب والقهر على صدور الشطر الأكبر من السوريين، وكان يكفي في ذلك الزمن ـ بين عامي ١٩٨٠ و٢٠٠٠ ـ أن تمرّ على ذكْره بصوتٍ خافتٍ، لتصفرّ الوجوه وتخْفت الأصوات وتنكسر العيون، وهي تتذكّر ابن «العمِّ أحمد»، أو جارنا «حسان»، أو صديق أخي «نائل»، ممّن تسرّبت حولهم الأحاديث، كيف اختُطفوا من بيوتهم، أو اعتُقلوا من جامعاتهم أو عياداتهم أو مكاتبهم أو متاجرهم، وكيف غيَّبهم ذلك السجن الرهيب.

«والسجن في إرهابه شبحٌ يلوح بالنهاية
صمت الجدار كأنما انتهت الحكاية»

توقفت الحافلات، وعلتْ أصوات أوامر عسكرية، وتقديم صفٍّ لضابطٍ كبير، وصوت البنادق وهي تلقّم، كأنها تحيّي أصواتَ بنادق استقبلَتنا أصواتُها من أعلى جدران هذا المعتقل الكبير، الذي غطَّتْ بعضَ جدرانِه الترابية والإسمنتية شجيراتٌ هنا وشجيرات هناك، وظهرتْ بوابتُه السوداء الضيقة، التي تثقب برؤيتها كلّ مسامات الروح، وتتساقط ميّتةً على عتباتها كلُّ براعم الأمل وشذرات الأحلام.

لو أتيح لليأس أن يتجسّد في هيكلٍ، لما وَجد أبلغ من هذه البوابة السوداء القذرة، التي كُتب عليها بخطٍ أبيض رديء: «الداخل مفقود والخارج مولود».

إنها بالضبط كما قال الشاعر «عمر أبو ريشة»:

لقد تعبتْ منه كفُّ الدمارِ   وباتتْ تخاف أذى لمْسِهِ
هنا ينفض الوهمُ أشباحَهُ   وينتحرُ الموتُ في يأسِهِ

بوابةٌ ضيقةٌ لا يتعدّى عرضُها المتر الواحد، يقف أمامها صفّان من الجلّادين، يرتدون بزّة الشرطة العسكرية، الجهةِ المخوّلة آنئذٍ بالإشراف على إدارة السجون والتعذيب فيها، وهم يتبعون للعقيد «شمس» مدير السجون في سورية، الذي كان يشارك ـ ويشرف ـ على مدى أعوام طوال على كل حفلات الإعدام التي تتم في الساحة السادسة، والتي راح ضحيتَها ما يزيد على العشرين ألفاً من أبناء هذا البلد الحزين.

صفّان من الجلادين ضخام البنية، قسماتُهم قُدّت من (بازِلت) أسود، يحملون بأيديهم الكابلات والكرابيج الغليظة، التي صنعوها من سير مطاطيٍّ يدير محرك الدبابة، سيرٍ من المطاط المشبّك بنسيج من الكتان المتين إلى أسياخ فولاذية مرنة تزيده صلابةً ومتانةً، وتعطيه قدرةً فائقةً على تمزيق الجلد واللحم ورضّ العظام.

تحلّقت المرافقةُ المسلّحة على شكل قوسٍ يحيط الجهة الخارجية للباصات، حاملين أسلحتهم وبنادقهم في وضعية الاستعداد للرمي، تحسّباً لأي خللٍ يعتري هذا المشهد المهيب، بينما اصطفّ عناصر السجن العسكري، مع قائدهم الرائد «فيصل غانم»[(١)]، وجمهرةٌ كبيرةٌ من عتاة

(١) «فيصل غانم»: (١٩٥٠ ـ ٢٠٠٥)

ضابط من قرية الهنادي، كان من ملاك الفرقة الخامسة التابعة لـ«رفعت الأسد»، وتم انتدابه لإدارة سجن تدمر والإشراف على التعذيب فيه. كانت له سيرةٌ غنية بالإجرام تكفي ليمضي بقية عمره في السجن. في عام ١٩٨٤، حين نفي «رفعت الأسد» خارج سورية، تمَّ نقل «فيصل غانم» إلى =

الجلادين، مستقبلين ـ بحفاوةٍ مبالغ فيها ـ هذا الجمْعَ الغفير من المعتقلين الوافدين، حيث سيكونون في ضيافتهم لأعوامٍ لا أحدَ يعرف متى تنتهي.

تبادلَ الضباط التحية، وسلِّمت الأوراق التي تضمّ أسماءنا، وصعد بعض الضباط صغار الرتب إلى الحافلات ليقوموا بالعدِّ الأوليِّ، الذي أتت نتائجُه مطابقةً للعدد المدوّن في الأوراق، كيما يتم التسليم والاستلام وفق قواعد ضبط المواد المستودعية.

لم يكن دوري في النزول من الحافلة من الأوائل، كنت أنظر بتوجّس عبر زجاج الحافلة إلى مَن سبقني بالنزول مِن رفقاء السفر، وهم يركضون بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، ويعبرون بين صفّين من الجلادين الذين ينهالون عليهم ضرباً بكل حقدهم، ليدخلوا عبر البوابة السوداء الضيقة إلى أولى ساحات سجن تدمر العسكري، الذي سيشهد دخول الآلاف من شباب هذا البلد. هذه البوابة ذاتها التي ودّعتْ قبل أسابيع قليلةٍ ـ في نهاية حزيران/ يونيو ١٩٨٠ ـ قرابة ألفٍ من الرجال والشبان والأطفال الذين قُتلوا في المجزرة الشهيرة، التي اشتهرت بمجزرة سجن تدمر، والتي نفذّتْها مجموعاتٌ من (سرايا الدفاع)، التي تتبع وتتلقى أوامرها من «رفعت الأسد» شقيق «حافظ الأسد».

خلال نزولي ورفيقي الذي قُيّدتُ معه بحبال غليظةٍ، كنت أنظر إلى وجوه العناصر الذين رافقونا، وأشرفوا على تعذيبنا طوال الليل في الطريق من حلب إلى تدمر. ولست أنسى صاحب ذلك الوجه الحزين، الذي كان ينظر إلينا بأسى عميق، ونحن نُساق إلى هذا المصير الرهيب. كان عنصراً من عناصر الوحدات الخاصة، إلا أن حزن روحه كان طافياً على قسمات وجهه، لدرجة أنني أتذكر أني كنت خائفاً عليه من أن يُفتضح حزنُه. كانت

= قطعة عادية في الجيش إلى أن تمَّ تسريحه برتبة عقيد، ليعود إلى قصره الذي بناه في قريته «الهنّادي».

وفي عام ٢٠٠٥، وبينما كان يتابع خطاباً حماسياً لـ«حسن نصر الله» داهمته أزمةٌ قلبية مات على إثرها. كان مشهوداً له بفيضٍ وافرٍ من الغباء، كان يظهر خلال أحاديثه المرتجلة مع المعتقلين، ومع مرؤوسيه.

هذه الخواطر السريعة تعبر بشكلٍ خاطفٍ، والمشهد حولي أشبهَ بحلبةٍ واسعةٍ، انفلتَ فيها ألفُ ثورٍ هائجٍ، وبضعةُ سجناء مسرْبَلين بخوفهم وقيودهم، يحاولون بلا أملٍ النجاةً من ذلك الممر الدامي. عرفتُ بعد سنوات أنّ اسمه «أحمد»، وقد تمّ اعتقاله وإعدامه في هذا السجن، الذي أُعتقَل فيه.

كيف تستطيع العيون، على الرغم من قتامة المشهد الوحشيّ وسرعة المرور الخاطف الذي كنا نُساق به، أن تلتقط تلك الإشارات العميقة؟ لتدرك أن في الصفّ المقابل إنساناً تتمزّق روحه ألماً لما يحدث، ولا يملك من أمره شيئاً.

كغيري، جريتُ مع صاحبي المقيّد معي، تختلط أقدامُنا التي تجري بنا يمنةً ويسرةً، في محاولةٍ مستحيلةٍ لتفادي ما أمكن من الضربات التي تنهال علينا من الأعلى ومن الجانبين. لست أدري كم نالني من عشرات الجلدات، إلى أن وصلتُ إلى جدار الساحة الذي اصطفّ إليه مَن سبقنا في النزول من الحافلات. إلَّا أنَّ رائحة الدم، الذي يخرج غزيراً من أُنوفنا ومن بين أسناننا وسائر أوصالنا، كانت صادمة، تُزكم أرواحنا وأعماقنا قبل أنوفنا، وتطغى على آلامنا.

* * *

١٢ ـ في ساحة الاستقبال

ما إن وصلنا إلى الجدار حتى انهالت علينا السياطُ والكابلات والعصيُّ دفعةً واحدةً، سقطتُ خلالها على الأرض مرات، وكان الجلّادون يوقظونني بجردلٍ من الماء البارد، لأقف وأعاود تلقّي الضربات من جديد.

تتقدّم مجموعةٌ من الجلادين، تفكّ قيودنا في ثوانٍ، وتأمرنا بخلع ملابسنا والبقاء في السراويل، ويتوالى الضرب العشوائيّ وإيقاظ مَن يُغمى عليهم بجرادل الماء أو بمزيدٍ من الركلات. ومرةً أخرى يتقدّم رقيبٌ تصحبه زمرةٌ من الجلادين، فيأمرنا واحداً تلو الآخر بنزع آخر قطعةٍ من ملابسنا وتنفيذ حركتَي أمان، ليتحقق من خلوّ مطاوينا من أيَّة مادةٍ مهربةٍ، ثم نعود إلى وضعنا السابق نتلقّى الجلد والتعذيب.

كان على يميني صديقي «عيسى» ـ الذي أُعدم بعد شهرين من هذا اليوم لكتْمه معلوماتٍ عن شقيقه «صلاح» الذي أعدم أيضاً بعد عامين، وطالما كنا نحسده على هذا الخلاص العاجل مما هو شرٌّ من ألف ميتة ـ وعلى شمالي صديقي «خلدون»، الذي تمّ قتلُه بدمٍ بارد في أول ساعة.

الشمس في شهر آب/أغسطس تحرق رؤوسنا العارية، وتغلي منها أدمغتُنا، وتلتهب تحت أقدامنا الأرضُ الإسمنتية، وعشراتٌ من أعقاب السجائر التي يطفئها الجلادون في وجوهنا ورقابنا ورؤوسنا، والسياط تفتك بجلودنا وأطرافنا، وتنهال على رؤوسنا دونما رحمة، وجرادل الماء

تتوالى مُوقِظةً مَن يسقط منّا، وركلاتٌ من كل حدبٍ وصوب تخترق خواصرنا وظهورنا، وصراخنا يغزو الفضاء.

لم يشفع لنا عند الجلّادين ما لحق بنا من عذابِ السفر، ودوامِ الضرب والتنكيل بنا في الطريق إلى تدمر، وذلك العطشِ القاتل الذي حرَّق حلوقنا وأجوافنا، فكنا نُقبِل على ابتلاع ما يرشقوننا به من ماءٍ قذرٍ، حين يسكبونه على رؤوسنا وأجسادنا، كيما نبقى متنبِّهين لاستمرار التعذيب وجولات التنكيل الأعمى التي يتناوب فيها الجلادون، وقد انتصف النهار وباتت الشمس عموديةً فوق رؤوسنا.

كنا نُساق إلى حلقات الدواليب، حيث يجتمع ثمانية جلادين حول كل دولابٍ، فيُحشَر أحدنا في هذا الدولاب المطاطي ـ وهو عبارةٌ عن دولاب شاحنةٍ عسكرية ـ ويُطوى جسُده فيصبح رأسه ملاصقاً لركبتيه، وتمتدّ يداه لتلامس ظاهر قدميه، وتنهال عليه السياط والكابلات، ويعلو صراخُه ممزِّقاً هدوء المدينة، التي كانت تتعذّب بصراخنا كل صباحٍ وكل مساء، كما سيحدّثنا أحد سكان مدينة تدْمر بعد عشرين سنة، عن معاناتهم اليومية بفعل أصوات التعذيب، التي كانت تصل حجرات نومهم فتقضّ مضاجعهم، فقد كان بناء السجن قريباً جداً من البيوت التدمرية القديمة.

وبعد الانتهاء من مطهر الدولاب ـ إشارةً إلى مطهر «دانتي»[(١)] ـ وبضربةٍ من كبلٍ رباعيّ، نتوجّه للجدار، ونؤمر بالهرولة على إيقاع الجَلد المستمر، ننظر إلى أقدامنا لنعرف كم من الأظافر بقيَ وكم منها سقط أثناء حفلة الدولاب، وكان أصعبها وأشدها إيلاماً تلك التي سقط نصفها وبقي نصفها ينزف.

يصرخ جلادٌ في أحدهم وهو يهرول وقدماه تنزفان:

---

(١) استعارةٌ من كتاب (الملهاة الإلهية) أو (الكوميديا الإلهية)، للأديب الإيطالي الشهير «دانتي أليغييري»، الذي ألّف هذا العمل بين عام ١٣٠٨ حتى وفاته عام ١٣٢١، ويبدأ فيه بالجحيم في الفصل الأول، ثم يليه فصل المطهر، ثم الجنة.

ـ أكلت دولاب ولاك حقير؟

ـ نعم يا أخي والله أكلت.

ـ (نعم يا أخي؟!) يا حيوان مين قلّك إني أخوك؟ أنا سيدك ماني أخوك.

وينهال عليه ضرباً حتى يغمى عليه.

قبيل غروب الشمس، صدر الأمرُ بوقوفنا رتلاً أحادياً، يمسك كل واحدٍ منا بخصر سابقِه بيدٍ، وبيده الأخرى يحمل أسماله التي قدِم بها من سجن حلب، يتقدّم الجمْعَ رقيبٌ عظيمُ الهامة سيُعرف بيننا مستقبلاً بـ«كاسر»، يمسك كرباجه الغليظ من طرف، وقد ألقم طرفه الآخر في فم أولِ واقفٍ منا في هذا الصفِّ المكوّن من أربعةٍ وتسعين سجيناً، ويسُوقنا ونحن مغمضو الأعين، وهو يمشي أمامنا ويستمر في الشتم والصراخ، بين صفوف الجلادين الذين أنهكَهم ضربُنا المستمر، من الثامنة صباحاً حتى الخامسة عصراً.

❊ ❊ ❊

١٣ ـ المهجع رقم (١٤)

يتوقف الرتل أمام بابٍ مرتفعٍ عن أرض الساحة بمقدار درجةٍ واحدةٍ، نسمع صوت المزلاج الحديديّ وهو يُفتح، يصيح فينا أحدهم: «إلى المهجع».

المهجع مكوَّنٌ من حجرةٍ إسمنتيةٍ رمادية، جدرانها وباطن سقفها مرقعةٌ بطينٍ ترابيِّ اللون، يقارب طوله خمسة عشر متراً، وعرضه لا يزيد على خمسة أمتار. هذه الرُّقع الطينية وُضعتْ حديثاً لتغطي آثاراً حفرتْها الطلقات والقنابل، التي قتلتْ أسلافَنا في تلك المجزرة المروعة (مجزرة سجن تدمر) منذ أسابيع فقط، وما زالت بقعُ الدماء متناثرةً على الجدران والأسقف، وقد استحال لونُها إلى أسود قاتم، ولا تزال رائحة اللحم المشويّ وبقايا الأشلاء المتفسّخة تعشّش في أعطاف المكان، وتطبع ملامحَ الأيام القادمة التي تنتظرنا، والتي ستضيف إلى رائحة الضحايا الراحلين ضحايا سيطيلون المكوث في هذا المسلخ البشريّ، حيث ستكون رائحةُ الدم والصديد، المنبعثةُ من جراحنا اليومية، أهمَّ ما يميز تلك الأيام، التي امتدت لتكون سنين.

* * *

سيذكر السوريون جميعاً تاريخ السابع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٠، حيث كانت المجزرة المروّعة، رداً على محاولة الاغتيال الفاشلة لرأس النظام «حافظ الأسد» قبل يومٍ واحدٍ من المجزرة،

وبالتحديد في السادس والعشرين من شهر حزيران/يونيو سنة ١٩٨٠، خلال توديعه للرئيس النيجيري «حسين كونتشي»؛ إذ قام أحد الحراس بإلقاء قنبلة أمام حافظ الأسد، لكنَّ القنبلة لم تنفجر، ونجا الأسد من موتٍ محقق.

سرعان ما بادر «رفعت الأسد» قائد سرايا الدفاع للرد على هذه المحاولة، فكلّف صهره (زوج ابنته) الرائد «معين ناصيف» بالتوجّه إلى سجن تدمر وتصفية كلِّ المعتقلين فيه.

في الثالثة والنصف من فجر اليوم التالي، دُعيت مجموعتان من سرايا الدفاع للاجتماع، باللباس الميداني الكامل، الأولى من اللواء (٤٠)، الذي كان يقوده الرائد «معين ناصيف»، والثانية من اللواء (١٣٨)، الذي كان يقوده المقدّم «علي ديب» (أحد مجرمي مجزرة حماة عام ١٩٨٢، وأحد قادة قوات الأسد في لبنان). ويزيد تعداد كلٍّ من المجموعتين على مئة عنصر. وكانت العملية بقيادة المقدم «سليمان مصطفى»، قائد أركان اللواء (١٣٨).

أقلعت عشر طائرات هليكوبتر محملةً بمنفّذي المجزرة، بعتادهم الحربيّ الكامل، من (مطار المزّة العسكري) الواقع في العاصمة دمشق، ووصلت في السادسة صباحاً إلى تدمر، حيث عقد ضباطُ العملية اجتماعاً تمّ فيه تكليف مجموعة الاقتحام.

في هذه الأثناء كان السجن هادئاً، بعد أن تجرَّع المعتقلون في اليوم السابق أنواعاً شتّى من أشدِّ صنوف التعذيب، وقد سلّمَ مدير السجن العسكري، الرائد «فيصل غانم»، مفاتيحَ المهاجع لضباط السرايا، كما زوَّدهم بعناصر ترشدهم لغرف السجن وساحاته.

توزّعت مجموعات سرايا الدفاع على المهاجع، وفُتحت الأبواب. وبموجب نظام السجن، وقفَ المعتقلون عند فتح أبواب المهاجع مغمضي العيون، ووجوههم إلى الحائط، وقد حُشروا في زاوية المهجع، وما هي إلّا ثوانٍ حتّى أُعطيت إشارة البدء، فانطلقت البنادق تصبّ وابل الرصاص على المعتقلين العزّل، وألقيتْ عدة قنابل، كي لا ينجو منهم أحد.

جميع الضحايا في هذه المجزرة، والذين جاوز عددهم التسعمئة ضحية، من المعتقلين المتَّهمين بالانتماء لتنظيم الإخوان المسلمين. وخلال أقل من نصف ساعة كان جميع مَن في المهاجع قتلى.

بعد الانتهاء من المجزرة بدقائق، غادر عناصرُ سرايا الدفاع السجن سراعاً، كما دخلوه سراعاً، وانبرتْ عناصر الشرطة العسكرية بانتشال الجثث من الساحات، التي امتلأت أرضها بدماء الضّحايا المتخثرة، ثم تمّ نقل جميع الجثث عبر شاحناتٍ عسكرية إلى مكان يدعى «وادي عويطة» في صحراء تدمر، غير بعيدٍ عن سجن تدمر، حيث سيكون وادياً للمقابر الجماعية التي ستضم آلاف الشباب، ممن سيتم قتلهم أو إعدامهم في سجن تدمر.

ستنقل لنا بعضَ تلك المشاهد المروعة مجموعةٌ من المعتقلين الذين تم استثناؤهم من المجزرة، ونُقلوا قبيل المجزرة إلى مهجعٍ في الساحة الخامسة، وهم معتقلون لا يزيد عددهم على العشرين شخصاً، تم اعتقالهم على ذمّة قضايا متناثرة، لا تمتّ إلى أحداث الثمانينيات بصلة.

كما سيعترف عناصر خليّة اغتيالاتٍ، دخلت الأردن بتكليفٍ من «رفعت الأسد» تسلّلاً بجوازات سفرٍ مزورة للقيام باغتيال رئيس وزراء الأردن آنذاك «مضر بدران»، في الأول من شباط/فبراير ١٩٨١، وكانت المجموعة بقيادة العقيد «عدنان كامل بركات» وخمسة من العناصر الآخرين، وقد تمّ بثّ شهاداتهم على التلفزيون الأردني؛ سيعترفون بالتفصيل بوقائع مجزرة تدمر التي شاركوا فيها، وكانت هذه الشهادات أدقُّ ما وصلنا عن مجزرة تدمر.

* * *

كنتُ من أوائل الواصلين إلى نهاية المهجع، حيث ينتهي بحجرة صغيرةٍ جداً تفضي إلى حُجيرتي خلاءٍ دون باب، وفي ركن إحداهما كان صحنٌ بلاستيكيّ أزرقُ اللون ملطّخٌ بالسواد من تراكم الأوساخ، يحوي قرابة لترٍ من الماء القذر القديم، وقد نبتتْ بداخله طحالبُ سوداء وأشياءُ

لا طاقة لي بذكرها. تلقّفَها أحدنا وشرب قليلاً، وناولني ففعلتُ مثله، وناولتُها لمن خلفي، إلى أن انتهتْ. وإلى اليوم لا أستطيع الجزم بحقيقة ما شربت، فهو مزيجٌ هلاميٌّ من ماءٍ وبولٍ ومخلّفات معدنية ونباتية وإنسانية أيضاً! كان هذا أول شيء يدخل جوفي منذ لحظة استيقاظي في سجن حلب قبيل رحلتنا الطويلة إلى تدمر.

كان باب المهجع قد أُقفل علينا، واستلقى الجميع أرضاً، وربما استند بعضنا إلى الجدار. معظمنا امتزجتْ دموعُه بدماء وجهه، من هولِ ما أصابنا وقسوته.

كانت الأرضُ إسمنتيةً صلبة، فيها آثار متناثرةٌ من الترقيع الرديء، فقد تهتّكَ بعض أرضها وجدرانها من أثر القذائف والقنابل التي رُميت في يوم المجزرة المشهودة، ثم جرى إصلاحها بهذا الشكل الخشن، لتكون أداةَ تعذيبٍ داخل المهجع لمن سيكون حظّه النوم فوقها. لم تكن هناك أي وسيلةٍ نستخدمها للنوم، ولم يكن أمامنا إلّا أن نتوسّد هذه الأرض الصلبة الخشنة.

من الصعب جداً أن تمتزج جملةٌ هائلةٌ من المشاعر السوداء القاسية في لحظةٍ واحدة كما حصل في تلك الساعة: ألمٌ وقهرٌ ويأسٌ وخوفٌ وعجزٌ وذلٌّ ومهانة، وأشياء كثيرة لا تستطيع اللغة حمْلَها مجتمعة، وربما لا يستطيع الوعيُ إدراكَها أيضاً.

في البدء كان كلُّ واحدٍ منّا منشغلاً بآلامه وجروحاته، لكن لم نلبث أن انتبهنا لجريحين في حالة خطرٍ شديد، أوَّلهما الفتى الصغير «ماهر»، الذي لم يجاوز الخامسة عشرة من العمر بعد، وقد تسلَّخَ جِلدُ ظهره الغضّ من أعلى الكتفين إلى منتصف ظهره، بفعل الجَلد المستمر الذي تلقّاه، والثاني الفتى «عمّار»، الذي يكبره بسنتين، والذي انتفخ جِلدُ رأسه من شدة الضرب وفتكتْ أشعةُ الشمس به، فتضاعف حجم رأسه بشكلٍ يثير الرعب في نفس ناظره.

وخلال أيام تلت، بدأ الورم يتلاشى ببطء تاركاً جلدة الرأس تترهّل

وقد أصابها الالتهاب الشديد، ومع امتناع إدارة السجن عن معاينة الجَريحين وتقديم أية مساعدةٍ لهما، تفشّى الإنتان في معظم جلد الرأس، ممّا اضطر الصيادلة الموجودين إلى اللجوء إلى قصِّ هذا الجلد الَّذي بدأ بالتفسخ، بشفرةٍ صنعناها على عجلٍ من قفل حزام الساعة المعدني، بعد أن حككْناها حكّاً شديداً على أرض المهجع الخشنة، وتمَّ تضميدُ قبّة الرأس بشاشٍ أبيض، هو كلُّ ما استطعنا الحصول عليه من إدارة السجن. أما ظهر الفتى «ماهر»، فقد تمّتْ تغطيته بالشاش الأبيض نفسه، وبعض المطهّر البسيط. وبقي الجريحان يخضعان لعنايةٍ شديدةٍ داخل المهجع لما يزيد على العام، إلى أن تمَّ التئام الجرح، مع ظهور جلدٍ رقيقٍ شديد الوهن مكانه.

لا أدري كم من الوقت مضى، ونحن بين النوم واليقظة والإغماء، عندما فُتحت نافذة الباب، وهي صفيحة معدنية سوداء صغيرة، وسأل أحدهم: «هل أحضروا لكم تبغاً؟». يا للهول ويا للسخرية السوداء، في وسط هذا الجحيم المظلم أوّل ما يهتمون بتأمينه ونحن على شفير الموت هو التبغ للمدخنين، الذين لا يتعدّون العشرة بالمئة من الموجودين!

بعد نصف ساعةٍ فُتح الباب، ورُميتْ صرّةٌ كبيرةٌ فيها بعض علب التبغ المهرَّب، وطُلب منا جمع مبلغٍ محدّدٍ ثمناً له، سرعان ما تبرع «عدنان» ـ وكان أنشطنا بنيةً ـ وقام بجمع المبلغ المطلوب ممن يحملون مالاً، وتمَّ الأمر واطمأنّت نفوسنا، ها هو التبغ قد توفّر وحُلّتْ أكبر المشكلات، لم يبقَ إلا بعض الأمور الثانوية كالدواء والماء والطعام، وستأتي من دون أدنى شك، ما دام التبغ قد تم توفيره!

نمنا تلك الليلة دون أن يحضِروا لنا طعاماً أو حتى فراشاً، نمنا من سطوة الألم وذهول الأرواح، لم يدُرْ أيُّ حديثٍ بيننا، سوى بعض ما وشتْ به العيون، من خلال تعرّفها على بعضها؛ فمعظمنا يعرف الآخرين معرفةً مباشرةً، أو من خلال سماع صوته في جناح السجن المركزي بحلب.

أسلَمنا أجسادَنا المتهالكة الدامية إلى الأرض الإسمنتية القاسية، وأرواحَنا إلى ملكوت السماء، علّنا نحظى بقسطٍ من نومٍ نتوق إليه، مثل توقنا إلى جرعة ماءٍ تطفئ لهيب حلوقنا ونار أجوافنا.

لست أدري: أقضيتُ تلك الليلة نائماً حقاً؟ أم أن روحي حلّقت في عوالم أجهلها؟ أم أنها لم تقوَ هي الأخرى، وكانت مقيدة في حدود جسدي؟!

تمددتُ متكوراً ململماً شظايا نفسي بحطامِ جسدٍ متهالكٍ، وحلقٍ يكاد يتشقّق من شدة العطش، ومعدةٍ خاويةٍ حتى من عصارتها. كانت تعتريني هواجسُ الأحلام، وصدى أصواتِنا ومعاناتنا وآلامنا في ساحة التعذيب الأولى خلال النهار، ولسعُ السياط وزمجرةُ الجلادين، وصورةُ «خلدون» الذي قضى واستراح في الساعات الأولى.

كلُّ هذا كان يتناوب على نفسي وبصري في قرْعٍ مُدَوٍ، إلى أن طلع الصباح بنشيده الرسمي، الذي سيتكرر خلال آلاف الأيام؛ إنها معزوفة مكبس القرميد التدمريّة ذاتها التي استقبلتنا في يومنا الأول، والذي يثوي على مسافةٍ قريبةٍ تكفي لأن يصلنا الصوت منها بشكلٍ واضحٍ.

كان مكبس القرميد الإسمنتي من أبسط أنواع المكابس وأقدمها، فهو يضغط القالب المعدني مع اهتزازاتٍ سريعةٍ، وبصوت منكر أشبه بصوت مطرقةٍ مدببةٍ، تثقب طبلة الأذن وصولاً إلى الفصّ الصدغي من الدماغ، فيدمّر القدرة السمعية لسامعه.

وكان هذا المكبس يعمل بواقع ١٢ ساعة يومياً، ويحدث أحياناً أن يتوقف لسببٍ لا نعلمه، فيعتري إيقاعَ حياتنا هزةٌ وتشويش: ماذا حصل؟! لكنه سرعانَ ما يعود لعمله فيبعث الاطمئنان في النفوس. وكانت حالُنا معه على مرّ الأيام أشبَهَ بحال عاملِ النسيج الذي ينام ملْءَ جفنيه، وصوتُ المكّوك الفولاذيّ يقرع قرعاً حاداً في آلة النسيج، فإذا ما توقّف لعطلٍ أو انتهاءِ خيط، استيقظ العامل من فوره.

وقد حدث أن زرتُ تدمر بعد خروجي من المعتقل بعامٍ واحدٍ، بصحبة جمعية العاديات (وهي جمعيةٌ أهليّة في مدينة حلب تُعنى بتاريخ المدن السورية وآثارها)، واقتربتُ من جدار السجن، أنا وصديقي «أنس» ابن أحد المعتقلين الذين قضوا في هذا المعتقل في الأشهر الأولى، وترنّمتُ بصوت مكبس القرميد وأنا أقف خارج الأسوار، ولعله يعمل إلى الآن.

في الساعة السابعة للصباح الأول في تدمر، دخل أحد الرقباء برفقة مجموعةٍ من الجلادين، ووجَّه كلامه إلينا، ونحن نصطفّ إلى الجدار ووجهنا إلى داخل المهجع مغمضي الأعين ورافعين رؤوسنا وفقاً للتعليمات التي أمْلوها علينا ساعة دخولنا هذا المهجع.

ـ ولا حقراء (أي: أيها الحقراء)، انتو في سجن عسكري، مين منكم كان بيخدم عسكرية؟

بعد لحظات تردّدٍ، تقدم «عدنان»، لأنه فعلاً كان رقيباً في الخدمة الإلزامية، وكانت له لحيةٌ بطول إصبعين تقريباً، نمَتْ خلال بقائه أربعة أشهر في زنزانته المنفردة. أبلغه الرقيب بعد أن صفعَه على وجهه أنه سيكون رئيساً للمهجع، ومسؤولاً عن كل شيء يحصل هنا أمام إدارة السجن، وأنَّ عليه أن يحلق لحيته اليوم بأي أداةٍ تتوفر له، وأنَّ عليه أن يقدّم الصفّ بإيعازات الانضباط العسكرية المعروفة: «استعدّ.. استرحْ.. الصف جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.. أو سيدي المساعد»، وذلك عند كل فتح أو إغلاق للباب.

ثم أمر بإدخال الطعام الموجود خارج المهجع، وهو عبارةٌ عن وعاءين كبيرين، تسبح في أحدهما بضعة لتراتٍ من الشاي الموشّح بالدسم والهباب الأسود، وفي الآخر حفنةٌ من حبات الزيتون، كانت كافيةً لينال كل واحد منا سبع زيتونات، هي وجبته لإفطار اليوم، وستكون هذه أول وجبةٍ سنتناولها، عربوناً عن حُسن الضيافة، ولم يكن هناك خبز بعد.

كان هناك بضعةُ أكواب بلاستيكيةٍ قديمةٍ ووسخة، على الأرجح أنها من تركة أسلافنا ضحايا المجزرة. غسلنا ببعض الشاي ما استطعنا من اتّساخها العتيق، وتوزّعنا الشاي عبر تلك الأكواب: كلُّ عشرة أشخاص ينالون نصف كوبٍ من هذا الشاي المحلّى بسخاء، والذي كان رحمةً لنا من عطشٍ لم نكن نعلم متى سينتهي بعد.

* * *

١٤ ـ التنفس الصحيّ

بعد وجبة الإفطار بساعتين على وجه التقريب، عاودوا فتح الباب، ثم أمر الرقيب بخروج الجميع إلى التنفس، صارخاً بأعلى صوته:

ـ أوبااااش. . التنفس الصحي للإخوان المسلمين.

ستتكرر هذه الصيحات مراراً وعلى مدى أعوام، وسنُطلق اسم «أوباش» على هذا الرقيب.

خرجنا نجري الواحد إثر الآخر، نعرج على أقدام مسلّخة، وكان شطرٌ منا لا يقوى على السير، وربما أصابه الكسر أو الرضّ، فحملناه حملاً ليخرج الجميع إلى الساحة. أذكر يومَها أنني، وبمعونة صديقي «زكريا»، حملنا «العم أبا ياسين»، وكانت قدماه زرقاوين سوداوين من كثرة ما تخثّرَ تحت جلديهما من الدماء، لدرجة أنه لما رآه المساعد أول ـ وهو من أعتى الجلادين وأبعدهم عن الشفقة ـ طلب منا أن نحمله برفق.

أذكر أنه بقيَ لديّ من أظافر القدمين ظفرُ الإبهام من قدمي اليسرى، الذي سرعان ما التهبَ وأصبح مصدراً لألم شديدٍ منعني من النوم لليالٍ عدة، أما باقي الأظافر فقد آثرَت البقاءَ في ساحة التعذيب الأولى. لم يكن هناك أي مادةٍ طبية أو معقّم أو مسكّنٍ يمكن لي أن أسكّن به ألمَ إصبعي الملتهب، لكن مهندساً زراعيّاً أشار عليَّ أن أسحق بصلةً صغيرةً وأغلّف بها إصبعي عبر ضمادٍ من قميصي الممزق؛ وكذا فعلت. وما هي إلا ساعات حتى سكَن ألمي، وعبر أيامٍ قليلةٍ أخذ إصبعي بالتعافي شيئاً فشيئاً.

لم يكن هذا التنفّس يشبه في شيءٍ التنفّسات التي ستجري تالياً،

والتي ستكون شكلاً من أشكال (حلَبات قيصر)، يتبارى فيها الجلادون في ضربنا وتعذيبنا بشكل يوميٍّ رتيب على مدى سنواتٍ طوال.

وفي أطراف الساحة الثالثة، حيث مهجعنا الذي يحوي نصف الدفعة، ونصفها الآخر أدخلوه إلى المهجع ١٥ في الساحة ذاتها، كان عناصر البلدية يقومون بغسل (البلوّات)، وهي قدورٌ كبيرةٌ جداً، يتم إحضار الطعام فيها إلى السجن من مطبخٍ عسكريٍ في قطعة قريبة.

دين وهم يخاطبون هذه الزمرة البشرية المحتقَرة والمهانة، لكنها تأتي في السجن في مرتبةٍ أعلى من مرتبتنا ـ عرفنا من خلال الأصدقاء الذين سبق لهم دخولُ سجنٍ عسكري أنهم عسكريون مدانون بجرائم كبيرةٍ شتى، وينفّذون أحكامَ سجنٍ طويلة، غالباً تكون فئتهم الجرْمية سرقةً كبيرةً أو تجارةَ المخدرات أو قتلاً وتشويهاً أو اغتصاباً، أو أن غضباً عارماً من رؤسائهم قد نالهم لسببٍ مجهول.

يقوم هؤلاء (المغضوب عليهم) بتنفيذ أحكامٍ بالأشغال الشاقة، وهي القيام على خدمة السجن وجلاديه، ونقل الطعامٍ وتنظيف أوانيه الكبيرة، ولاحقاً القيام بالحلاقة الدورية لشعر السجناء وذقونهم. وكلُّ هذا إذا جمعتَه سيكون عملاً أقسى من عمل العبيد في عهد روما، لكنه إن هو قورن بحجم الرعب الذي يلقونه وهم يشاهدون حفلات التعذيب اليومية، ومشاهد القتل والتمزيق وتكسير الأضلاع والخنق حتى الموت، ستكون جميع أعمالهم الشاقة هذه أقربَ إلى التسلية. وكثيراً ما يقع أحدُهم ـ إن هو أخطأ أو نالَه غضبٌ من أحد الرقباء ـ فريسةً لتعذيبٍ وحشيٍّ يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ ما ينالنا من التعذيب، لذلك تَراهم مبلسين مكفهرّي الوجوه، كمن يمشي قريباً من نارٍ عظيمة لا يعرف متى تقذفه بشرَرِها.

لقد اكتفوا اليوم بتعريضنا للشمس، ونحن ندور في حلقةٍ مغلقة، يمسك أوّلُنا بتلابيب آخرِنا، والأوامر تتكرّر كلَّ دقيقة: «وجهك في الأرض وعيونك مغمضة».

عند عودتنا إلى داخل المهجع، توزَّعنا بشكلٍ عفويّ على مجموعاتٍ صغيرةٍ، وبدأت الحكايات تنسرب من الصدور.

١٥ ـ «فاضل معقّدة»

كنت أجلس إلى مجموعةٍ يتصدّرها رجلٌ طويل القامة معروق الوجه، قد عركتْه السنون، يتكلم بصوتٍ هادئٍ رصين؛ إنه «فاضل معقّدة»، ذلك الرجل الذي أعدموه لأنهم وجدوا اسمه في قوائم الإخوان المسلمين في نهاية الخمسينيات، عندما كان الإخوان المسلمون جزءاً من الحياة السياسية في سورية وشركاء في البرلمان السوري.

ثم سافر في مطلع الستينيات إلى هولندا وجمهورية التشيك ليتمّم أبحاثه ودراساته في الجيولوجيا، وعزف عن كل ما يمتّ إلى السياسة بصِلة، وكان أحد أهم المرجعيّات الجيولوجية في سورية.

كان من الواضح أنهم مهتمون وجادّون في تصفية النخب السياسية والفكرية والعلمية، لتخلو لهم البلاد فلا يسمعون صوتاً معارضاً.

في هذه الحلقات والمجموعات الصغيرة سنستمر، ولأعوام طويلةٍ، في تداول المعارف وتلقّي العلوم والأبحاث مشافهةً، كما كان «أفلاطون» يعلّم تلامذته في أكاديمية أثينا. وكم كان ذلك الرجل حريصاً على أن نُمضي سحابة يومنا ونحن خارج الأسوار بأرواحنا، فكان لا يملّ من عقد الحلقة تلو الأخرى، والندوة إثر الندوة، يحدّثنا فيها عن أرض سورية التي أفنى شطر عمره في مسحها ودراستها، وما تحويه من معادن ثمينةٍ ومن فرصٍ هائلةٍ للتنمية، إن هي خُدمتْ بأيدٍ أمينة.

لست أنسى وجهَه الأسمر الذي حفرت فيه السنون آثارها، كيف كان

ينظر دائماً بتفهّم هادئ، وبلا أدنى تململٍ أو شكوى، وهو يعرف بقرارةِ نفسه أن لا جدوى من الهذر والتشكّي، فهذا هو القدر يضرب ضربته، ولا سبيل إلّا للمضيّ مع اتجاه العواصف، وهو أهونُ الشرور.

كنتُ أقف إلى جانبه في إحدى العقوبات الليلية، حيث تقدّم المساعد الذي كنا نناديه بـ«أبي جهل» وفتح النافذة الصغيرة في باب المهجع، وأمر رئيسَ المهجع أن نقف عراةً بالسراويل ويسكب علينا الماء البارد المتوفر لدينا، وأن نقف على ساقٍ واحدة، ونحن مبتعدون مسافةَ مترٍ عن الحائط، ووجوهنا نحوه وقد رفعنا الأيدي فوق رؤوسنا، وأن نلتزم هذا الأمر من دون أدنى حركة إلى أن يأتي الإيعاز بالانصراف.

بعد ساعات، وقد خيَّم الظلام، بقي الجميع منضبطين بالأوامر الصادرة، فلا يوجد بيننا أحمق يمكن أن يجازف بحياته إن هو خالف أو تخلّف عن تنفيذها، بدأ البعض يترنّح ويستند إلى مَن هم بجانبه، لكن لم يعْصِ أحدٌ الأوامر.

مال إلى جانبي قليلاً وهمس: «هذه هي التقوى». وكان يعني أن تنضبط بالأوامر وإن غاب الآمرُ تجنّباً لغضبه.

كانت زوجة «فاضل معقدة» سيدةً تشيكية من جمهورية التشيك»، وكانت تزوره في سجن القلعة في دمشق، وتعنّف السجانين لسوء معاملتهم، وبعد سنواتٍ سألتقيها بُعيد خروجي عام ١٩٩٣، وأُحدّثها عنه وعن يوم إعدامه مع زمرةٍ من الأطباء والسياسيين والمثقفين السوريين، والشباب اليافعين الذين بالكاد أنهوا دراستهم الجامعية، وحين حان وقتُ الحصاد وانتفاعُ البلاد بأبنائها، حصدَتْهم آلةُ القتل الأسديّة.

وسألتقي بنجْله الوحيد «أنس»، الذي يماثلني عمراً، ومن ثم عائلته بعد أن عرَّفتني إليهم مهندسةٌ كنت أتدّرب في مكتبها على بعض برامج الرسم الهندسيّ، بُعيدَ خروجي من السجن، وكانت صديقةً لشقيقاته، وسأحكي لهم كلّ ما جرى لأبيهم في هذا الوطن الأسير.

لم يطُل المقام بأستاذنا «فاضل معقّدة»، فقد حُوكِم على عجلٍ في الشهر التالي في فرع المخابرات العسكرية في حمص بإشراف «غازي كنعان»، وهو واحدٌ من أعتى الضباط المجرمين، الذين أذاقوا الشعب اللبناني ذلّاً لم يعرفه من قبل، حين كان رجل «حافظ الأسد» وسوطه الدامي في لبنان، حيث كان يدير شعبة الاستخبارات السورية هناك عام ١٩٨٢، وكان من أسوأ المجرمين الأسديّين الذين مروا على لبنان، وكان له قصب السبق في زجِّ خيرةِ شباب حمص داخل المعتقلات، وهو يعلم أن معظمهم أبرياء.

وحصل أن تجمّعتْ كوكبةٌ من سيدات حمص، ممن اختَطفَ أبناءهنّ ذلك المجرم، وطالبنه بوقْف الاعتقالات وإطلاق سراح المحتجزين قسراً، فالتفتَ بكلّ لؤمٍ إلى سيدةٍ من عائلةٍ معروفةٍ في مدينة حمص، وخاطبها:

ـ يا أم فلان، إن نساءنا خدمن طويلاً في بيوتكم (يقصد السيدات العلويّات أيام الإقطاع)، فتفضلّنَ واذهبْنَ إلى أم يعرب (زوجته) عسى أن أنظر في أمر أبنائكنّ.

فردّتْ عليه السيدةُ الحرّة بأنفةٍ ونبرةٍ حازمة:

ـ إن لدينا أولاداً آخرين، اذهب واعتقلهم لو أنّ هذا يشفي صدرك.

وكأنها تقول له: الموت ولا المذلة.

المرعب في الأمر أنه كان من الوضاعة والخسّة أن فعَل، وكان لها ولدٌ لم يبلغ السابعة عشرة من العمر بعد، فأمر باعتقاله، وأعدَم ولديها الآخرين في تدمر.

بالعودة إلى الحلقات الأولى، لم تكن تنافس حلقةَ «فاضل معقدة» في عدد المتحلّقين حولَها والمواظبين على حضورها إلّا حلقةُ الأستاذ «أحمد عساني»، رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وكان مهندساً ميكانيكياً مميزاً، وتم اعتقاله وهو مديرٌ لمجمع التدريب المهني بحلب، وهو يشبه معهداً رسمياً لتخريج المهنيين في حِرَفِ الكهرباء والخراطة والتسوية وصيانة الآلات، وكان له

تجربةٌ واسعةٌ قياساً بأقرانه يومئذٍ؛ فقد تخرّج من ألمانيا الغربية، وكان يسكن خلال دراسته في كنفِ عائلةٍ ألمانية، يفيد من لغتهم ويتعلم من عاداتهم وثقافتهم. وقد حدّثَنا طويلاً عن زيارته إلى لندن، وجلوسِه طويلاً في حديقة (هايد بارك)، خاصة في ركنها الشمالي (سبيكرز كورنر: زاوية المتحدثين)، والتي كانت تشهد بشكلٍ مضطردٍ جموعاً من المتحدثين، ومن المتابعين لهم.

بعد أيامٍ أخرجونا عصراً إلى الساحة، وأمرونا أن نجلس بوضعية (الجاثي على الركب) في صفّين يبعد بينهما مترٌ واحد، ووقف في مقدمة كل صفٍ عنصرٌ من البلديات ممسكاً بمكنة حلاقةٍ يدوية، أمضينا زهاءَ ساعةٍ إلى أن انتهى المهجع كاملاً من حلاقة الشعر والذقن بهذه المكنة التقليدية، وعدنا إلى مهجعنا.

من المضحك المبكي أن يكون شعورنا حين نعود إلى المهجع مشابهاً لشعور العائد من عملٍ طويل إلى بيته، حيث الأمان والدَّعة! فالعودة إلى داخل المهجع تعني توقّف احتمالات التعرّض للتعذيب والجَلْد، لسويعاتٍ على الأقل. لم يكن في مهجعنا من السجناء طبيب، وربما هي المرة الوحيدة التي يفتقر فيها مهجعٌ إلى طبيب، لكن كان هناك أربعة صيادلة، وكانوا يقومون بما يلزم من ضرورات العناية الطبية.

أما الأستاذ «فاضل» ـ وكان يحب أن نناديه «أبا أنس» ـ فكان لا يخرج في حديثه عن معرفته في الجيولوجيا وخصائص كل منطقة في سورية، وكان طويلَ الشرود، تلمح في عينيه إيماناً عميقاً باللاجدوى، ويأساً تاماً من أي خيرٍ يمكن أن يأتي به هذا النظام، وكان يهمس بين الحين والآخر بالجملة الأخيرة التي ينهي بها «نيكولاس كازانتزاكس» روايتَه «**المسيح يصلب من جديد**»: «لا جدوى يا يسوع، لا جدوى».

كان موقناً أنَّ نظاماً يعذّب ويقتل مواطنيه أو معارضيه بهذه الوحشية، من المحال أن يسمح لهم بالنجاة، فهو كالقاتل الذي يكشف وجهه للضحية، محالٌ بعدها ألّا يُجْهز عليها.

١٦ ـ مدير السجن يكتشف من نحن

في عصر أحد الأيام في البدايات، كان مدير السجن الرائد «فيصل غانم» ينفّذ جولاته الاستطلاعية كعادته، مدفوعاً بفضوله النهم، فقد عرف أنّ من تضمّهم جدران هذا السجن هم مِن صفْوة المجتمع السوري تعليماً وثقافةً.

كان مهجعنا يضمّ مهندسين وأطباء وصيادلة ومحامين وموظفين، وطلاباً في المرحلة الثانوية (مثلي) وطلاباً جامعيين، وكان نصفنا تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والثلاثين من العمر، وكان معظمنا من مدينة حلب.

دخل مهجعَنا بعد أن قُدِّم له الصف، تأمّلَ الوجوه مليّاً، ثم سأل أقربَهم إليه، وكان الصيدلاني «زكريا»:

ـ ما عملك؟

ـ صيدلاني.

ـ وأنت؟

ـ صيدلاني.

ـ وأنت؟

ـ مهندس.

ـ وأنت؟

ـ مهندس.

وعندما سأل التاسع، وكان المهندس الزراعي «أبا حسام»، وأجابه:

ـ مهندس.

كان وقعُ تكرار كلمتي (مهندس) و(صيدلاني) قاسياً على نفسه الوضيعة، فصرخَ بلا وعيٍ وبصوتٍ هيستيريّ:

ـ عرصة.

فما كان من «أبي حسام» إلا أن ردّ وبنفس النبرة:

ـ نعم عرصة.

فصفعه، وأكمل تصفّحه لحالنا، ثم التفتَ إلينا جميعاً وقال:

ـ العمى بعيونكِن! أصغر واحد فيكِن بيحمل شهادة جامعية، شو وصلّكِن لهون؟ شو بدكِن أكتر؟

وبإشارة من يده، طفَق زبانيتُه يضربوننا بكل وحشيةٍ، وخرج من مهجعنا وعناصرُه يواصلون الضرب.

وكان من خساستِه ولؤمه أن يكرر الزيارة بين الحين والآخر، ليفرغ حقدَه فينا من خلال ضربنا بكلتا يديه، ويخرج دون أن ينبس بشفة. يضرب بكل بطولةٍ سجناء عزّلاً، وهو محميٌّ بعشرين جلاداً ضخام الأجساد، مدرّبين بقدرٍ كافٍ على التعذيب والقتل لدرجة الإدمان، كأنه يستعرض قوته في (حلَبات قيصر).

* * *

١٧ ـ طعامٌ قذر.. نظامٌ أقذر

كان الطعام يأتي ثلاث مراتٍ في اليوم، ويأتي معه الجلادون ليتباروا فيما بينهم أيّهم أبْدُع ابتكاراً في إذلالنا؛ فيُدخل أحدُهم جزمتَه العسكرية ـ المليئة بالأوساخ ومخلّفات الحيوانات التي يتعمّد وطْأها ـ في أوعية الطعام المخصّصة لنا، قبل فتح الباب لإدخالها، خاصة عندما يكون الطعام سائلاً، مثل الشاي على الإفطار أو الحساء ظهراً ومساءً، ونقوم بإدخال الطعام بين ركْلٍ وضرب بالكرابيج، وهم يضحكون بطريقةٍ هيستيرية.

وإذا كانت جزمتُه نظيفةً وهو على عجلةٍ من أمره، يقبض بيده قبضةً من رمل الساحة، الممتزجِ بدمائنا على مرّ الأيام، ويهيلها فوق الأرزِّ أو البرغل. وحصل أكثر من مرةٍ أن تبوّل أحدهم فوق الطعام وسطَ عاصفةٍ من ضحك رفاقه.

ستُنقل هذه التصرفات لمدير السجن، وستدوّن في سجلِّ مناقبه الحسنة، وسيمتنع الشخصُ الذي يراقب الباب منا عن البوح لنا بما رأى، وربما سيمتنع عن تناول هذه الوجبة ويتعلّل بأعذار شتّى، لكنه من المحال أن يحرِم المجموع من وجبتهم التي بالكاد تبقيهم أحياء.

سننتظر البيضة الحسناء صباحاً، وهي تفرش ثوبَها لسبعة أو ثمانية أشخاص، وسيقوم المتخصّص في القسمة العادلة بقصّها بخيطٍ رفيع من البوليستر، نَسَله من أحد الجوارب القديمة ثم ضفَره ليكون متيناً، ويقوم

بغسله كلّ مرةٍ والاحتفاظ به مطويّاً، لحين الحاجة إليه عند تقسيم تفاحةٍ أو بيضةٍ أو قطعةِ جبن.

وحين يكون الفطور مربّى، فيه من السكر المُذاب عشرات أضعاف ما فيه من ثمر، فإن الحل الأمثل إذابته بالشاي وتناوله بشكل جماعي. ونتّبع السياسة ذاتها حين يكون الفطورُ حلاوة. أما الزيتون ففي أمرِه متّسع مريح؛ إذ ينال كلُّ منتظرٍ أنهكَه الجوع سبعَ زيتونات كاملات الدسم، يقتل بهنّ ما تغوَّل من جوعه.

أما وجبتا الغداء والعشاء، فغالباً ما يكون البرغل أو الأرزُّ هو الطبق الأساسيّ فيهما، مع بعض المرق الأحمر الذي تختبئ فيه بضع حباتٍ من الفاصولياء، أو قطع صغيرةٌ من البطاطا أو خضروات أخرى، ويكون العشاء قطعةً صغيرةً من البطاطا المسلوقة، أو نصفَ لترٍ من حساء العدس، لمجموعة من سبعة أشخاص، تضاف إليها بصلةٌ صغيرة أو شطر بصلة.

وكان بعض السجناء من طلاب الهندسة الزراعية غالباً ما يقايضون جزءاً من وجبتهم، أو قطعةً صغيرةً جداً من الدوسير (حلوى أو فاكهة تأتي بعد الغداء، وأصل الكلمة من الفرنسية) بتلك الحصة الصغيرة من البصل، لمعرفتهم بما تحويه من معادن وأشياء تنفع المقروم، الذي يشفّ وجهه عن خواء معدته من شدة الجوع.

وكان في المهجع صنبورٌ ضعيفُ التدفّق، يسكب الماءَ كأنه خرج لتوّه من مدينة مرو (عاصمة خراسان التي ذكرها «الجاحظ» في كتابه «**البخلاء**» لشدة بخل أهلها وتفنّنهم في ذلك). كان يعمل ساعتين من النهار ويستريح أربعاً، فنقوم بتجميع ما ينزُّ منه من ماءٍ شحيح ونتوزّعه بيننا بالقسط، فلا يطغى أحدٌ على أحدٍ، وندّخر منه شطراً لشرْبنا وطعامنا، وشطراً لوضوئنا وحمّامنا، وشطراً لغسل الآنية وغسل الثياب، فإذا ما باغتتنا الشرطة في ساعة قيظٍ، أخرجوا ماءنا المدّخَرَ عنوةً وسفحوه حيث سيجلسون بُعيدَ تعذيبنا، ليكون مجلسهم رطباً كما ينبغي.

١٨ ـ الحمّامات

وكما جرَت العادة، فإنّ لنا يوماً كلَّ أسبوعٍ نخرج فيه إلى الحمّام للاغتسال، لمعرفتهم بأن الماء في المهجع لا يكفي لهذا الاغتسال، ولينوّعوا كذلك أشكالَ التنكيل والتعذيب التي نتجرّعها، فلا يصيبنا الملل من تلك الرتابة.

يقف أحد الرقباء خارج المهجع وينادي: «مهجع ١٤، إلى الحمام». في لحظتها نترك كل شيء، وهمّنا الأوحد أن نسرع في خلع ملابسنا، إلا ما يستر ذكورتنا، وبالتأكيد ليس لأحدٍ منا عذرٌ في ألا يخرج إلى الحمام، فلا يمكن لأحدٍ أن يتخلّف مهما كان عذره، ويحمل كلُّ واحدٍ منا صابونته العسكرية، التي يوزعونها مرةً كل شهرين.

وعند فتح الباب، نخرج في رتلٍ أُحاديّ، يمسك كلُّ واحدٍ بكتفِ سابقِه، ويتلقّم الأول بفمه طرفَ الكرباج الأسود الذي يمسكه الجلّادُ قائدُ القافلة، وتحفُّ بنا مجموعةٌ مستذئبة من الجلّادين الذين يستمرون بضربنا، ونحن نجري في خطٍّ ملتوٍ من وطأة الجَلد المنهمر والضرب المستمر على أجسادنا العارية.

نصل إلى ساحة الحمّامات كما نسميها، وهي الساحة الثانية من ساحات سجن تدمر. يتكوّن الحمّام من قاعةٍ متوسطة المساحة ومقطّعةٍ إلى حجرات صغيرة جداً يفصل بينها جدارٌ إسمنتيّ، وليس لها أبواب، ويتدلّى من الأعلى أنبوبُ ماء يُفتح من قِبلهم، فيقومون بإدخالِ شطْرنا وحشْرِنا في

هذه الحجيرات، بواقع خمسةٍ في كل حجيرة، ويفتحون الماء المغليَّ ـ الذي يكاد يسْلق الجلود ـ إذا كان الفصل صيفاً، بينما يفتحون الماء البارد حين يكون الفصل شتاءً. والويل كلُّ الويل لمن يخرج من حمّامِه ولم يبتلّ بالكامل! وكنا نتلقّى الماء بأيدينا ثم نُريقه على أجسامنا لتتبلّغ به وتبتلّ.

خمس دقائق لا أكثر، وينادي الرقيبُ ليخرج الجميع من الحمام، فنعدو إلى الخارج، ليدخل الشطرُ الآخر وينال حظّه من هذا الحمام الفريد، والجلّادون ينهالون ضرباً على الفريق المصطفّ بانتظار الحمام، وما إن يدخلون حتى يصطفَّ مَن خرج مِن حمّامه لينال ما نال سابقوه. وحين ينتهي المجموع، نعود بالطريقة ذاتها التي أتينا بها، إلّا أنَّ الجَلْد الآن سيكون أشدّ إيلاماً بسبب ترطيب الجلود بالماء الساخن أو البارد.

وبعد أن نعود إلى المهجع، سيكون هنالك فصلٌ طويلٌ من إزالة الفوضى، التي ستُحدثها عملية خلع السراويل، وعصْرها من الماء وغسلها من بقايا الصابون العالق بها، وتوفير مكانٍ لنشرها وانتظارها لتجفّ، والأدهى من ذلك أن معظم السجناء لا يملكون بدلاً من هذا الذي تمّ غسله، فيحتالون عليه كيما يعجّلوا بجفافه.

❋ ❋ ❋

١٩ ـ ماءٌ كبريتيّ

سيتكرر هذا بشكل يوميٍّ مرتين: صباحاً ومساءً؛ بعد إدخال طعام الفطور بساعةٍ تقريباً، تبدأ أصواتُ الأبواب الحديدية فتحاً وإغلاقاً، تنشر صداها وينتشر الرعبُ القادم معها، وتبدأ أصوات الجري وارتطام الأقدام الرتيب بالأرض في تعيين المسافة الفاصلة بين مَن يُعذَّبون ومهجعنا، وكان لهذا الكشْف أشخاص متخصصون، بحكْم المداومة على التنصّت من خلال لصْق آذانهم بالأرض، حيث يستطيعون تقديرَ رقم الساحة التي يجري فيها التعذيب الآن.

كانت سَريّةُ التعذيب تتحرك بمجموعها، وتُعذّب السجناء بالتتالي وقد انقسموا إلى ست مجموعات، تتولّى كلّ واحدةٍ منهن التعذيب في ساحةٍ معينةٍ، يقومون بإخراج السجناء مهجعاً إثرَ مهجع، إلى أن يأتوا على كل المهاجع، ثم ينصرفون إلى مكان استراحتهم ويتناولون غداءهم، وعند العصر يُعيدون الكرَّة ثانيةً.

ليس هذا وحسب، فكثيراً ما كانوا ينتقون مهاجعَ بشكلٍ عشوائيّ، ويقومون بإخراجهم ليلاً إلى الساحة على أضواء الكشّافات، ويسومونهم جولةً فظيعةً من التعذيب، وعادةً ما تكون هذه أقسى من سابقتيها، والسبب أنها جولاتٌ غير رتيبةٍ، بل إنهم يتعمّدون أن تأتي بشكلٍ مفاجئ، فلا أحد منا يعرف متى سيتم إيقاظنا ليلاً، لجولةٍ إضافية من التعذيب، وربما تمرّ عدة ليالٍ نسمع فيها أصوات المعذبين، دون أن نخرج بدورنا للتعذيب، وقد ينالنا دور التعذيب في أكثر من ليلةٍ متتالية،

الأمر الذي يُبقينا متوتّرين مترقّبين طوال الليل، إمعاناً في تعذيبنا نفسياً.

بالعودة إلى التنفّس اليومي، فهو يبدأ بضربةٍ شديدة العنف على باب المهجع، من عصا غليظةٍ بيد الرقيب أو كابل نحاسيٍّ أو أي أداةٍ سواه، مع صرخةٍ لمخلوقٍ متوحش: «مهجع.. إلى التنفس»، ويفتح الباب ويكرر: «الجميع للخارج».

ونبدأ بالجري خارج المهجع، وهم وقوفٌ ينتظرون فرائسَهم، وما إن يخرج آخرُنا، حتى يدخل الرقيبُ ويُلقي نظرةً فاحصةً، يتحقّق فيها من عدم بقاء أحدنا في الداخل، ثم يقفل الباب.

ونكون وقتها نجري بشكل دائريّ، يمسك كلُّ واحدٍ فينا بظهر سابقه، وما إن يُقفل الباب حتى تبدأ السياط في رقصتها الغجريّة على ظهورنا ورؤوسنا، ويبدأ الرقيب في توزيع إيعازاته، التي تشبه نوطةً موسيقية في غاية النشاز:

«منبطحاً.. جاثياً.. تابع رمَلاً.. مستلقياً.. جاثياً.. منبطحاً.. تابع زحفاً».

وهكذا بإيقاعٍ سريعٍ يقطع الأنفاس، وإذا ما أخطأ أحدُنا في فهم الإيعاز ونفّذَ غيره، كأنْ يتابع رمَلاً بدلاً من أن يتابع زحفاً، يكون قد ظهرَ نشازُه عن الجوقة العامة، وسرعان ما يلتقطه أحد الجلادين المنتظرين بنهم لهكذا خطأ، فيضربه ضربةً على رأسه يطير منها صوابه، ثم يأمره بالتنحّي عن الحلقة، وينبطح أرضاً ليتلقّى ما خبّأ له القدر من جَلدات. وليس لهذا التعذيب الفرديّ والمركّز أيّةُ ضوابط، فالسجين تحت رحمة مزاج الجلّاد نفسه، فقد يكتفي بمئة جَلدة، وقد لا يتوقّف حتى ينْهره جلادٌ آخر، حينها يكون السجين قد شارفَ على الموت أو أُغمي عليه.

ويستمرّ التنفّس أو جولةُ التعذيب ساعةً تقريباً، يتمّ خلالها جَلدُ وتعذيب الجميع بشكل عام. أمّا المتميّزون منا بأشكالهم، فكانَ الله في عونهم، فكلُّ طويلٍ أو قصيرٍ أو بدين، أو أشيب أو أصلع أو أبرص،

سيُنادى عليه مراراً ليتسلّى به كلُّ مَن خطرَ بباله من الجلادين، وربما ينال الواحدُ من هؤلاء عدّةَ دفعات من التعذيب في تنفّسٍ واحدٍ، على يدِ أكثر من جلّاد!

وعند انتهاء التعذيب، يُصدر الرقيبُ أمرَه بعد أن يفتح قفلَ الباب بيده، ويصرخ آمراً: «الجميع عَ المهجع».. ويا لها من جملةٍ محببةٍ ننتظرها بفارغ صبرنا، فهي الإيذان بتوقّف جولة التعذيب هذه، وسرعان ما نعدو كظباء تُطاردها كلابُ الصيد، ونتدافع عند باب المهجع الضيّق، الذي لا يزيد عرضُه على المتر الواحد، وسيعْبره خمسةٌ وتسعون سجيناً، تطاردهم الكابلات والكرابيج حتى آخر لحظة.

يُطبق الباب بقوةٍ ويُقفل.

ـ استعدّ.. استرِحْ.. الصفُّ انتهى من التفتيش حضرة الرقيب.

ونحن نسمع أصواتَ مَن يخرجون، يتهالك الجمْع أرضاً، في لحظةِ جمودٍ يلتقطون أنفاسهم، وما هي إلّا دقائق حتى تدبّ الحركةُ رويداً رويداً، خاصةً مَن به جرحٌ أو نزفٌ فسرعان ما يبادر إلى إيقافه أو تضميده، ومَن مُزِّقت ثيابُه يسرع لتسجيل دوره عند خياط المهجع ليقوم برتْق ما مزِّق منه، بينما يقوم أصلبُنا أو أقلّنا تعرّضاً للضرب في هذه الجولة فيحمل سطلاً بلاستيكياً مملوءاً لنصفه بالماء، ليسقي العطشى.

جميعنا عطشى بكل تأكيد، فالجريُ المتواصل لمدة ساعة، مع قسطٍ وافر من التعذيب، ومع رعبٍ متلازمٍ مع كلِّ دقةٍ من دقات القلب، كفيلٌ بحرق كلِّ قطرةٍ من الماء في عروقنا.

الماء.. يا لهذا الماء الآسن، الذي لن ننساه أبداً، فأيّ طعم ممجوجٍ أو غيرِ مستساغ يمْكن مع التكرار الطويل أن يصبح مألوفاً أو مستساغاً، إلّا هذا الماء ـ ماء تدمر ـ برائحته الكبريتيّة التي يعرفها كلُّ مَن زار نبعاً كبريتياً في زمنٍ ما، إضافةً إلى قِدم الأنابيب التي تنقل الماء إلى مهاجع سجن تدمر، فقد مضى عليها أربعون سنةً على أقرب تقدير، الأمر

الذي يعني أنها ممتلئةٌ بالطحالب والإشنيات والبكتيريا، التي تجعل الماء غير صالحٍ للاستخدام البشري، ومع هذا فقد كنّا بالكاد نتحصَّل على النزر اليسير لنَروي عطشنا، وربما كان سوء طعمه عاملاً مساعداً كي نكتفي بالقدر الضئيل منه، فلا تطلبه النفس لسوء رائحته وطعمه.

هذا البرنامج اليومي كثيراً ما تُضاف إليه جولةُ تعذيبٍ طارئةٌ في منتصف الليل، لكن دون الخروج إلى الساحة، فربما خطرَ ببال الضابط المناوب ليلاً أن يتسلّى، أو يرقبَ عن قربٍ نظرات الرعب التي ترتسم في عيوننا ونحن نهبُّ من نومنا مذعورين؛ فقبل أن يتمكّن رئيس المهجع من إيقاظنا، يستيقظ آخرُنا على صراخ أوّلِنا، وقد هبَّ من نومه مفزوعاً والسياطُ تنهال، وصراخٌ وشتائم من الجلادين وهم ينهالون علينا ضرباً، بكل ما لديهم من أدوات تعذيب.

* * *

٢٠ ـ الرقيب «أحمد السباعي»

كما جرت العادة اليومية، قرابة الساعة الواحدة ظهراً تتمّ عملية الاستلام والتسليم؛ إذ يسلّم الرقيبُ المناوب مجموعَ السجناء للرقيب التالي، وتجري العملية بالدخول إلى المهاجع، والسجناءُ وقوفٌ وظهورُهم باتجاه الجدار، وعيونُهم مغمضة ورؤوسهم مرفوعة للأعلى، ويقوم الرقيب الجديد بحضور الرقيب المناوب بِعَدّ السجناء داخل كلّ مهجع، ويتأكد من رئيس المهجع بسؤاله: «كم حمار عندك؟»، فيجيب رئيسُ المهجع وبصوت عالٍ: «خمسة وتسعون حضرة الرقيب». وعادةً يكون الرقم مطابقاً للجدول الذي يحمله، وللعدِّ الذي قام به، ولتقرير رئيس المهجع.

ونادراً ما يختلف العدد، بسبب خطأٍ في العدّ، أو بسبب أنّ أحد السجناء تمّ استدعاؤه لفرع التحقيق ولم يقم الرقيب بإثباته في الجدول، ساعتَها تقوم قيامتُهم ويعودون للعدّ بشكلٍ أكثر صرامة، إلى أن تتمّ المطابقة العينية بين المعدود والمسجّل في الجداول.

تستغرق عملية التفقّد اليومية هذه قرابةَ ساعةٍ ونصف، حتى ينتهوا من جميع المهاجع، والتي يزيد عددها على الأربعين. وبعد التحقّق من العدد في كل مهجع، يتسابق الجلّادون فيما بينهم مَن منهم الذي سيحقق في صفوفنا أكبر عددٍ من الضربات واللكمات، ومَن سيخلّف عدداً أكبر من النازفين، ثم ينتقلون جرياً كحمُر الوحش إلى مهجعٍ آخر؛ وهكذا دواليك.

في حكايتنا هذه سيكون هنالك نغمٌ نشاز عن الجوقة العامة، سرعان

ما يكتشفه السامعُ الخبير عند أول حركة؛ إنه رقيبٌ لم نرَ وجهه، لكن صوته يأتي طبيعياً دون صراخ، وإنْ صرخَ سيكون صراخُه بالنسبة إلينا باديَ التكلّف، وكثيراً ما كنا نضحك في سرِّنا: «ما لهذا الرقيب لا ينجح في تقمّصِه لدور الجلّاد؟!».

بعد أسابيع لم تطُل، كان هذا الرقيب يتميز عن سواه بأنه ما إن يُنهي عدَّ الموجودين حتى يصرخ بالجلّادين بحزم: «شرطة.. كفى»، فيخرجوا سراعاً، ليقوم بإقفال المهجع بيده، وما إن يبتعد الشرطةُ ليفتحوا المهجع التالي، حتى يُعيد سحبَ الباب إلى الخلف قليلاً قبل أن يُقفله ويقول بصوتٍ خافتٍ جداً: «بيفرجها الله يا شباب».

ماذا؟! هل صحيح ما نسمع؟! أم أننا بدأنا نهلوس؟

في هذا الجحيم المطبق، هناك مَن يتعاطف معنا؟ يا للسماء!

ليس بالإمكان وصفُ هذه الحالة التي تعترينا جميعاً، لمجرّد أن يقول هذا الإنسان: «بيفرجها الله يا شباب». لا توجد عبارةٌ تُشيع الأمل في نفْس اليائس أبلغَ من تلك العبارة في ساعتها. ولا يمكن تخيُّل مقدار الحبور والطمأنينة والسلام التي تهطل دفعةً واحدة بإغراقٍ على تلك القلوب المتصحّرة، التي باتت تنْكر الأملَ إن ورَدَ عرَضاً في المنام.

وعبر أسابيع قليلةٍ تكررَ هذا أكثر من مرة، وكنا حين نسمع صوتَه يُملي أوامرَه على الجلادين المرافقين تسكن نفوسُنا، وكان من أقصى أمانينا أن نرى وجهَه لنعرف مَن هذا الرجل الذي يجرؤ على مواساتنا، في هذا الجحيم الذي لا تبدو له نهاية.

لكنْ لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نقصانُ. لم تطُلْ فرحتُنا بهذا الإنسان الذي ثقبَ نافذةً للأمل في جدارٍ من إسفلتٍ أسود يغلّف نفوسَنا. ففي ضحى أحد الأيام التي لا تُنسى، جرتْ حركةٌ عنيفة جداً غيرُ مألوفة في هذا الوقت وبهذا العدد من العناصر، وما هي إلا دقائق حتى كانت سَرية التأديب ـ المسؤولة عن التعذيب والحراسة ـ مجتمعةً بكاملِ عددها

وعتادها مِن سياط وكابلاتٍ وقضبان حديديةٍ وهراوات. وقفوا بوضعية الاستعداد وقُدّم الصف للضابط مدير السجن «فيصل غانم»، وكان بعضهم يمسك برجلٍ عارٍ كما ولدتْه أمُه، وجسدُه مدمى من شدة التعذيب، رموه في وسط الساحة وهم متحلّقون حوله كضباع جائعة.

في البدء حسِبناه سجيناً قد أتوا به من أحد الفروع، لكن ما هكذا تُورد الإبل، ولم تكن هذه طريقتهم مع سجينٍ واحد، أن تجتمع السريةُ بالكامل ويحضر مدير السجن!

وبعد عدة صفعات من مدير السجن، أمسك به من رقبته وقاده إلى باب مهجعنا، وفتحَه على نحوٍ مفاجئ أرعب مَن كان متمدّداً أرضاً يرقب الوقائع من ثقبٍ صغير في الباب، ولوهلةٍ حسبنا أنهم كشفوا أمرَ تلصُّصنا وهرعوا لعقوبتنا، فانكمشنا في أماكننا لا نلوي على شيء؛ لكن ما إن فُتح الباب حتى نادى مديرُ السجن رئيسَ المهجع بصوتٍ غاضب ومتوعّد:

ـ شو كان هالحقير يحكي معكم عند التفقّد؟

أُسقط في يد المسكين، وعجز عن الكلام من هول الصدمة؛ إنه الرقيب الذي افتقدناه لأيامٍ خلتْ، والذي كنا نتنسّم سماع صوته المُواسي.

صرخ الضابط مرةً أخرى وبصوتٍ أعلى:

ـ ما عبتسمع يا حقير؟

ـ سيدي في التفقّد يسألون عن العدد ويضربوننا ويشتمون. وليس فوق هذا أي حرف الله وكيلك.

ـ حسابكم بعدين يا حقراء، والله لأربّي فيكم السجون.

يضرب البابَ برجله ويخرج، ويعاود الكرّةَ مع عدة مهاجع في الساحة نفسها، دون أن يحصلَ على جوابٍ ينتظره، فيتوعّد الجميعَ بجمعةٍ دمويةٍ من التعذيب.

ثم يلتفت إلى سَريّته المتأهبة للانقضاض على هذا المسكين:

ـ زميلكم هذا «أحمد السباعي» من حمص، وثقْنا به وهو خائن، الوطن يُطعمه ويُسكنه ويمنحه عملاً وشرفاً وراتباً، وهو خائن!

يصرخ فيهم:

ـ ما جزاء الخائن؟

ـ الموت (يصيحون بصوت واحد).

وبإشارة من يده ينقضّون على الرقيب «أحمد السباعي». لقد عرفنا اسمه الآن، يا للمسكين، ربما مضت ساعتان أو أكثر ونحن في انقباضٍ ورعبٍ وبكاءٍ ودعاء، ونحن نسمع صراخ «أحمد» وهو يتقلّب أرضاً بين أقدامهم وأدوات تعذيبهم، ثم يتوقّف صوتُه فنعلم أنه قد أغمي عليه، ونتمنى أن يكون فارقَ الحياة، لكن سرعان ما نسمع صوت سفْحِ الماء على جسده، فيعاود الاستيقاظ والصراخ، وهم مستبسِلون في تعذيبه، إلى أن أحالوه شلْواً ممزقاً، مفقوءَ العينين مبقورَ البطن، مكسّرَ الأضلاع والأطراف.

لا يمكن وصف هذه الحالة بما تستحقه من الوصف، فحجم التعذيب الذي ناله اليوم لو أنّه طبِّق على جدارٍ صلبٍ من الإسمنت المسلّح لتفتَّت.

بعد أن انتهوا منه وتحقق الطبيبُ أنه فارق الحياة، عاد مديرُ السجن ليطمئن أن رسالته إلى جميع العناصر قد وصلتْ، وأنّ أيّ خللٍ في تنفيذ الأوامر بدقتها، وأيّ تعاطفٍ مع هؤلاء المجرمين ـ نحن ـ يعني عقاباً منزوعَ الرحمة، خالياً من أيَّة شفقةٍ يتمنى صاحبها أن يعجّلَ له بالموت.

ثم جاء جلّادان ببطانيةٍ عسكرية فحملاه بها إلى مثواه الأخير.

من شدة انهماك الجلادين وإنهاكهم في تعذيب الرقيب «أحمد» حتى

قتْلِه، لم يعدْ بمقدورهم متابعة تعذيبنا في جميع الساحات، وتمّ إعفاء السجناء من التعذيب في هذا اليوم، وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد حملَ عنا تعذيبنا جميعاً في هذا اليوم، فنال ما سيلحق بخمسةِ آلاف سجين من التعذيب دفعةً واحدة! أيُّ جبلٍ هذا؟ وأيُّ وحوشٍ هؤلاء؟

ستذكره صلواتُنا وخلواتنا وما ندعو به لسنوات طويلة، وسيتحاشى أيُّ عنصرٍ في هذا السجن أن يهمس أو ينظر نظرةً بريئة قد يُفهم منها تعاطُفه.

الأمر المثير للسخرية أنّ هذا الحذر المبالغ فيه كان شأن الجميع باستثناء العناصر التي تنحدر من طائفة رئيس البلاد، فهذا العنصر لا يحتاج برهاناً ليثبت ولاءه لآل «الأسد» أو عداءَه للسجناء، فكان يتصرف على سجيّته كجلّاد محترف، يعذّب ويبطش حين يشاء، وفق الأوامر وبلا تصنُّع.

أما مَن ينتمي إلى طائفةٍ أُخرى، فهو متّهم من داخله، ومسكونٌ بقلق الشبهة، فيعمد إلى دفْعها عنه بمبالغةٍ شديدة في التعذيب والشتم والضرب، كيفما تحرَّك وحيثما كان، إن قضَت الأوامرُ بهذا أم لم تقْضِ. وكثيراً ما كان الجلادُ (العلويُّ) يُمسك بتلابيب الجلّاد الآخر ليمنعه من التمادي في الضرب، الذي يصل في شدّته إلى قتل السجين ويودي به إلى الموت، وكنا نفضّل أن نميل إن استطعنا، ونحن نجري في ساحات التعذيب، إلى جهة الرقيب العلويّ لذات السبب الذي ذكرت.

لم يكن بمقدورنا أن نتخيل كيف يتشوّه الإنسان ليصل إلى هذه الحالة من التوحّش؟ كيف تصبح رائحةُ الدم ولونُه وصراخُ الضحيةِ إحدى متَعِه التي تبلغ حدَّ الإدمان؟!

الأدهى من ذلك، والأشدُّ مرارةً، أن بعض حفلات التعذيب كانت تصوَّر بالفيديو، وجميعنا يذْكر كم كان جهاز تصوير الفيديو كبيراً في تلك السنوات، فكان يحمله عنصرٌ فنيٌّ مُوفد من إدارة الأمن في القصر

الجمهوري، وينقل عبرَ عدسته حفلات التعذيب وجميع حفلات الإعدام للقابع على صدر الشعب السوري في (قصر المهاجرين).

ويُعرف عن «حافظ الأسد» أنه كان يتمتّع في سهراته الخاصة بمتابعة خصومه السياسيين وهم يُعذَّبون ويُقتلون في سجونه.

* * *

٢١ ـ المساعد «أبو جهل»

في البدايات، كان المساعد «أبو جهل» ـ وهو المدير التنفيذي لسجن تدمر، الذي يشْرف شخصياً على جميع الإجراءات فيه ـ يشعل حماسةَ الجلادين، ليستمروا بجلْدنا وتعذيبنا ساعاتٍ طوالاً، (ولقب «أبي جهل» الذي أطلقناه عليه هو محاكاةٌ لأبي جهل الذي كان يعذب المسلمين في بطحاء مكة).

كان ذلك التعذيب ينهك الجلادين أشدَّ الإنهاك، فيُمنّيهم «أبو جهل» بحصص وافرةٍ من الطعام واللحم الذي يأتي للسجن. وكان الدجاج المسلوق يأتي مع وجبة الغداء يوم الأحد من كل أسبوع، بواقع دجاجةٍ كاملة لكل خمسين شخصاً، فكان يصرخ فيهم في الاجتماع الصباحي الذي كنا نحضره بآذاننا:

«شرطة: الدجاج كله لكم اليوم.. لكل شرطيّ دجاجةٌ كاملة.. فقط أروني همّتكم بهؤلاء الحقراء».

لكن بعد أشهر، وقد تمكّنتْ رائحة الدم من أرواحهم، وبلغوا حدَّ الإدمان، تكرّرت حالات القتل أثناء التعذيب بشكلٍ كبيرٍ، لدرجةٍ لم تعُدْ مقبولةً لدى إدارة السجن، أعقبها مرورُ خبراء روس (كنّا نميّزهم من لغتهم الروسية الواضحة، فقد كان بيننا ضباط شاركوا بدورات تدريبية على السلاح الروسي) وتفقّدهم لساحات التعذيب أثناء تعذيبنا، ويبدو أنهم أشاروا على مدير السجن ببرنامج يخفّف من هذه الحالة المتمادية جداً

لدى الجلادين، والتي قد تُخرجهم عن السيطرة، فكان الأمر أن يتوقفوا عن الجَلد والتعذيب يوماً كاملاً كل عشرة أيام.

وكنا نسمع التوجيهات في الاجتماع الصباحي:

«شرطة: اجمعو لي كل الكرابيج، ما بدي أشوف ولا كرباج بالساحات».

ثم يؤكد لهم مشدداً:

«إذا شفت اليوم كرباج بيد أي شرطي، قسماً بشرفي لأجلدكم بالشورت».

ليس هناك أبلغ من هذا التهديد، وكنا نشعر أنَّ هذا اليوم الذي بات يمرّ علينا بين فترةٍ وأخرى من دون تعذيبٍ، هبةٌ من السماء، لكننا سرعان ما نفاجأ بهم يتّفقون فيما بينهم، فيعمد الحرس إلى رصد الساحات ومراقبة تحرّك المساعد «أبي جهل»، لينبّه باقي عناصر الشرطة إن هو اقترب من الساحات، وخلال ذلك يحملون الكرابيج ويمارسون التعذيب لمجرد المتعة، على الرغم من المخاطرة.

ويحصل أن يصل صوت التعذيب إلى المساعد «أبي جهل»، فيحضر من فوره ويعيدنا إلى مهجعنا، ويأمرهم أن يخلعوا ملابسهم ويجْلدهم في نهاية الساحة بعيداً عن أعيننا، ويقوم بجَلدهم بيده حتى يُنهَك من شدة الضرب، وكنا نسعد ونحن نرقبهم من ثقوب الباب، وهم يتجرعون بعضاً مما يسومونا إيّاه كل يوم.

سينضبطون بأوامره عدة أسابيع، لكنهم سيعيدون الكرَّة دون استخدام الكرابيج، باللكم والصفع والخنق والإطباق على أعناقنا بأحذيتهم العسكرية.

لقد فقدوا إنسانيتهم، وتأصل الشر والحقد في نفوسهم، واستذأبت أرواحهم، ولم يعد بمقدورهم التوقف عن التنكيل المستمر بنا، فقد أصبحت عملية التعذيب بحدّ ذاتها ولعاً لنفوسهم السقيمة.

وستكون المفارقة المثيرة للضحك حين نسمع أحدهم وهو عائدٌ من إجازته، التي يتمنى ألا يحصل عليها ثانيةً، وهو يقصّ على زملائه وهم جلوسٌ إلى جدار مهجعنا كيف أنه خلال إجازته بحمص تقدّمَ إلى شباك أحد المخابز ليشتري بعضاً من الخبز، غير مُبالٍ بطابور المنتظرين، وكيف جذبه أحدُهم من ياقته وأهانه، وصرخ به أن ينتظر في الطابور مثل بقية الآخرين، وكيف أنه هَمَّ أن يصرخ فيه ويضربه ويعرّفه بمن يكون، لكنه تذكّر أن هذا من الأسرار التي لا ينبغي التحدّث عنها، لأنه يعرضه للخطر الشخصي.

كيف له أن يكون في (تدمر) نصف إله، يُحيي ويميت دونما أدنى مساءلة، ثم يكون بين أهله وفي مدينته مجرّدَ شرطيٍّ عسكريٍ تافهٍ، لا قيمة له ولا امتياز؟!

هذا بالضبط ما يعيشه المجرمون والقتلة، ورجال العصابات؛ فهم في موضعٍ أنصاف آلهة، مطاعةٌ أوامرهم، لا يتورّعون عن القتل حتى لمجرد التسليًة، وإن كانوا في مواضع أُخرى مضطرون لإخفاء وحشيتهم، فهم خارج قطعاتهم العسكرية لا يجرؤون على طلب الامتيازات التي اعتادوا على سلبها عنوةً بذات الفظاظة، فهي حكرٌ على ذوي الرتب أو المواقع الحساسة، مثل عناصر فروع الأمن.

* * *

٢٢ ـ المحكمة الميدانية في حمص

انقضى شهرٌ على وجودنا في سجن تدمر العسكري، وفي ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، قبيل الفجر، بدأنا نسمع الأسماء تُقرأ من نافذة باب المهجع، ويُطلب ممن وردَتْ أسماؤهم الخروج إلى الساحة من دون حمْل أيّ متاع، وكنتُ من الذين وردتْ أسماؤهم.

كنا نصطفّ في رتلٍ أُحاديٍّ ونحن نرتجف من البرد والخوف معاً، فهذه أول مرةٍ يُنادى على بعضنا دون البعض الآخر، وضربٌ من المستحيل أن يخطر ببال أحدنا أنَّ هناك أمراً جيداً ينتظرنا. بعد دقائق ساقونا إلى الساحة الأولى، التي شهدَت التعذيب الأول، ومنها إلى الساحة الخارجية للسجن.

كانت سيارة (زِيْل) عسكرية تنتظرنا، ونحن معصوبو الأعين ومقيدون إلى الخلف بقيود حديدية، وقد ربطونا جميعاً بسلسلةٍ واحدةٍ يستحيل معها التحرّك منفردين. صعدنا الدرجات المعدنية إلى السيارة، وتكدّسنا في أرضها فوق بعضنا، كنا زهاءَ أربعة وعشرين سجيناً، أغلقوا علينا شبكاً حديدياً وجلس حارسان خارجه في الجزء الخلفي من الشاحنة، وانطلقت بنا تتقدّمها سيارةٌ فيها حراسةٌ مشدّدة وتتعقّبها سيارةٌ أخرى.

لا تسلْني كيف تسنّى لنا أن ندرك كل هذه التفاصيل في مثل هذه اللحظات العصيبة، وقد عُصبت أعيننا بعُصاباتٍ مطاطيةٍ سوداء. لا شيء يقهر حواسَّ السجين وقدرتَه الهائلة على إدراك المحيط، تتسرّبُ حواسه أو

يتسرّب العالمُ إليها كما تتسرّب قطرات الماء خلال شقوق أرضٍ أنهكها الجفاف، كنا نرى الدنيا كما يراها المكفوف بكل حواسه مجتمعةً ومتآزرةً كيما تعوِّض فقْد البصر.

تنطلق بنا الشاحنة، التي كنا نسمّيها سيارة اللحمة، لشدّة الشبه بينها وبين سيارة المسْلخ التي توزّع اللحم على الجزّارين. لا نسمع أيّ همسةٍ سوى صوتِ محرّك الشاحنة، وبعض الهمهمات الدائرة بين الحارسَين، ودخانٍ منبعثٍ من سجائرهما التي لم تتوقف.

بعد ساعةٍ ونصف تقريباً، أمضيناها ونحن مكدّسون فوق بعضنا مثل الذبائح، توقّفت الشاحنة بعد أن توقفتْ سيارة المقدمة، وكان هناك ضوءٌ خافتٌ في الأفق ـ أميّزه من طرف عصابة عينيّ ـ يوحي بدُنوِّ شروق الشمس، وأصواتُ أبواب السيارات وأقدام الحرس ونسماتُ الصباح الباردة تتسرّب مع فتح الأبواب.

كان هناك صوتُ صنبور ماء. واضحٌ أنهم توقّفوا للتبوّل والاستراحة، وربما شرْب بعض الشاي. كان هناك حارسان قريبان من مؤخرة الشاحنة، همس أحدُهما بصوتٍ خافت جداً، لكنه مسموع بصعوبةٍ بسبب الهدوء المخيم على المكان:

ـ إلى أين نمضي بهم؟

ـ إلى حقل الرمي في «سعسع» (حقلٌ للرمي يقع إلى الجنوب من مدينة دمشق يتم التدريب على الرمي فيه)، هناك سيتمّ رميهم بالرصاص.

ـ لماذا لا نرميهم هنا وننتهي منهم؟

ـ هكذا هي الأوامر، سيتم تصويرهم ليراهم سيادة الرئيس.

لو كنتُ سمعت هذه المحادثة في أول أيام اعتقالي، لربما ارتعدتْ فرائصي منها، ولكان وقْعها على نفسي، أو نفسِ أي سجينٍ، كوقع الصاعقة، ولأصابني منها رعبٌ طاغٍ، فالسَّوقُ إلى الموت أمرٌ جللٌ يهابه الجميع، لكنه اليومَ أمرٌ في غايةٍ الاختلاف، إنَّه الخلاص في أجلى

صوره. هكذا باتت الصورةُ واضحةً، وكما توقّعَها معظمنا، إنهم ماضون بنا إلى حتْفنا. يا مرحباً يا مرحباً... هل يعقل هذا؟ أن تستجاب دعواتنا وننتهي من هذا العذاب اليومي الذي لا يطاق؟

نعم هذا ما شعرنا به جميعاً، انتابتني قشعريرةٌ لطيفة سرَتْ في أنحاء جسدي كافة، وغمرتْني طمأنينةٌ خيّمت على مساحات روحي..

هو إحساسٌ يصعب وصفه، أنْ تعرفَ أنك ستموت بعد قليل، لحظاتُ ما قبل الموت بثوانٍ معدودة، حالةٌ تعجز الكلمات عن التعبير عنها، فكيف بالطمأنينة تغشاك، بل حتى السعادة، التي لن تنالها إلا بالمرور من بوابة الموت؟! إنها لحظاتٌ لا تتكرّر كثيراً في حياة الإنسان، ولا تحدث مع كثير من الناس.

وبتلقائيةِ النفس المطمئنة، بدأنا جميعاً نقرأ ما نحفظ من القرآن، وفي مقدّمتها سورة (يس)، التي يحفظها معظمنا منذ الأسابيع الأولى في تدمر، نستعدّ في فرحٍ غامرٍ لاستقبال الموت وانتهاء البؤس والآلام.

كان يشوب هذا الحبورَ بعضُ الذكريات، التي بدأتْ عرباتُها المكتظّة تعدو دونَ استئذانٍ في أخيلتِنا، وكأننا نودّع هذا العالم في غفلةٍ وانشغالٍ منه، تمرُّ حياتنا مثل شريطٍ سينمائيٍّ خاطفٍ، نتذكّر الأهلَ فرداً فرداً، والأصدقاءَ ورفقاء السجن، وليلةَ الاعتقال والأقبية الأولى، التي علّمَتْنا كيف نبصر في أحلك الظلمات.

دقائق قليلة مرّتْ، قبل أن تتحرك الشاحنة والسياراتُ المرافقة لها مرةً أخرى. ولشدة ذهولنا في التطواف والتحليق في تلك اللحظات النادرة بين عالم الروح والجسد، والحياة والموت، لم نشعر كيف انتهوا وكيف ركبوا.

سارت قافلتنا الصغيرة؛ سلامٌ غامرٌ، وطمأنينةٌ ترين على الروح، ونحن نمضي في ساعاتنا الأخيرة، نودّع حياةً غيرَ مأسوفٍ عليها، ونمضي إلى ظلّ عدالةٍ سماويةٍ، كأننا ننظر إليها بقلوبنا. لم نكن نشكّ للحظةٍ

واحدةٍ أننا سنُقتل ظلماً، وأن أسوأ مصيرٍ سينتظر قاتلينا لا محالة، إلّا أن حزناً شفيفاً لامسَ وجداننا، حَزِنًا على أهلٍ وأصدقاء سيُفجعون بقتلنا، وسيُفجعون برؤية قاتلينا وهم يتغطرسون أمام عجْزهم.

كانت الشاحنة تسير، والدقائقُ تمرّ دون أن ندرك ما يحيط بنا، فقد كنّا في ذهولٍ عن عالم الأشياء والمحسوسات، ونحن ننتظر تلك اللحظات القليلة التي تفصلنا عن عالمٍ مشتهى، إنَّه عالمٌ خالٍ من التعذيب الصباحي ومن قلق الدقائق والساعاتً، ومع كلّ هذا تبقى للموت رهبةٌ لا ينْكرها إنسان.

شيئاً فشيئاً، بدأنا نسمع أصواتاً كسرتْ رتابةَ الصمت التي ألفْناها في الصحراء. من الواضح أننا نمرّ بأحياء سكنية، ونسمع أصوات سياراتٍ وباصاتٍ تتحرّك، وأصواتَ بائعين جوّالين وأطفال. من الواضح أننا وصلنا إلى مدينةٍ لا نعرفها. لكن هذا غير ما كنا ننتظره، فحقل الرمي في (سعسع) لا يكون هكذا أبداً!

توقفَت القافلة وترجّلَ الحرس، وسمعنا صوتَ حديثٍ وضحك، إنهم يتحدثون عنا، سمعنا كلمات «حقراء.. محكمة» وأصواتَ بنادق، ثم فُتح الباب وصرخوا بنا أن نتحرّك، وأمسكوا بأوّلنا وتبعَتْه بقيةُ السلسلة، ونحن نتعثّر ويمسك بعضنا بعضاً، فما زالت أعيننا معصوبة.

دخلنا إلى مبنى تتردّد فيه أصداء أصواتنا، صعدوا بنا أدراجاً طويلة، ثم أدخلونا إلى صالةٍ وأمرونا بالجلوس أرضاً، ثم حضرَ أحدُهم وقام بتحريرنا من السلسلة التي كانت تجْمعنا، وأبقونا مقيّدين إلى الخلف، وانصرفوا عنا. لكننا كنا نسمع حديثهم من الغرفة المجاورة، لقد تم نقلنا إلى الفرع العسكري في مدينة حمص، وهذا هو العميد «غازي كنعان» رئيس الفرع يعطي أوامره للعناصر بطريقة ترتيب دخولنا إلى قاعة المحكمة.

ساعةٌ مرّتْ دون أن يحدث أي شيء، ثم تقدم ضابطٌ وأبلغنا أننا سنُعرض فرادى على محكمةٍ عسكرية.

بعد ساعةٍ أُخرى على وجه التقريب، كان هناك عنصرُ أمنٍ ينادي على اسم مَن تطلبه المحكمة، ويمسكه من يده وهو ما زال مقيّداً، مدْخِلاً إياه إلى قاعةٍ، كنّا نتوهّم أنها قاعة محكمة، لكن الأمر الذي لم نجدْ له تفسيراً ساعتَها أن الفاصل الزمنيّ بين الاسم والاسم التالي لا يتعدّى ثلاثَ دقائق، وربما أقل!

حين نوديَ على اسمي سارعتُ للوقوف، فقبض العنصر على ذراعي وقادني إلى تلك القاعة، وهناك نزع عن عينيَّ العصابة السوداء فأبصرت، ويا لها من قاعة محكمة! كأنك تتهيأ لمقابلةِ أسدٍ هصور، فلا تجدْ أمامك إلا هريرةً صغيرة في شهرها الأول بالكاد تقوى على المواء! حجرةٌ صغيرةٌ مربعة لا يتجاوز طولها أو عرضها المتماثلان أربعةَ أمتار، ضعيفة الإنارة، ربما تعبر عن امتهان «غازي كنعان»، رئيس هذا الفرع الأمني، لهذه المحكمة الميدانية المهزلة.

وثمَّة طاولةٌ خشبيةٌ متوسطةٌ، نُثرتْ عليها رزمتا أوراق بشكلٍ فوضوي، يجلس خلفها ضابطٌ نحيلٌ يقطر اللؤمُ من عينيه وصفرةِ وجهه، وهو القاضي الذي يمثّل المحكمة الميدانية المتخصصة بمعتقلي تدمر، سنعرف اسمه فيما بعد، إنه «سليمان الخطيب»، الذي مهرَ بقلمه ما يقارب ثلاثين ألف حكْمٍ صادرٍ عنه بحقّنا، ثلثا تلك الأحكام كانت الإعدام، وتمّ تنفيذ تلك الأحكَام. وكان يجلس قبالته كاتبٌ ببزّة عسكرية رثةٍ بلا رتب.

وبالطبع، لا تكون تلك الأحكام نافذةً حتى يوقّع عليها القائد العام للجيش والقوات المسلحة، كما كانت توصيف وظيفته العسكرية، وهو «حافظ الأسد»، أو نائبه. ولأن القائد العام كان أذكى من أن يمهر هذه الجرائم بتوقيعه، فقد أوكلها إلى نائبه وزير الدفاع «مصطفى طلاس»، الذي سيتبجّح برعونةٍ في غاية الإسفاف وهو يستعرض مذكراته ومناقبه فيها، فيذْكر أنه كان يوقّع ويصادق أسبوعياً على إعدام مئةٍ وخمسين سجيناً من الإخوان المسلمين!

ما إن دخلتُ حجرة المحكمة المزعومة، حتى بادرني «سليمان الخطيب» سائلاً:

ـ اسمك.. تولّدك.. اسم أمك.. اسم أبيك..

ـ محمد برو.. تولد ١٩٦٣.. الأم مديحة.. الأب خالد.

ـ أنت قرأتَ ووزعت **مجلة النذير** ومناشير لعصابة الإخوان المسلمين.

ـ سيدي أنا لم.....

ـ خراس ولاك حقير.. ولا كلمة.. أنت حكمك إعدام، تعا وقّع هون.

(كتّر خيرك لفظتها)! وأنا أشعر أنني أسير في نومي من شدّة الذهول، وقَّعتُ على ورقة بيضاء، كُتبت فيها قرابة عشرين كلمة لا أكثر، لكن استطاعتْ عيني أن تقرأ السطرَ الأخير بشكل خاطف: «الحكم إعدام».

وبإشارةٍ من طرف قلمه، أمسك بي العنصر الذي جلبني إليه، وكان واقفاً بمحاذاتي، وعصبَ عينيَّ من جديد وأعادني إلى حيث كنت، مع بقية السجناء الذين تمّتْ محاكمتهم. وحين رماني إلى الأرض نطقَ بكلمةٍ واحدةٍ: «إعدام».. ليسمعها الذين يحيطون بنا من عناصر الفرع.

لم تنعقد المحكمة الموقّرة لأكثر من ساعةٍ واحدة. كانت جميعُ الأحكام الصادرة هي الإعدام، وأُقفلتْ الأضابير التي سيحملها القاضي العسكري «سليمان الخطيب» إلى وزير الدفاع ليصادق عليها. لكن، وللأمانة التاريخية، فإن هذه المصادقة والتوقيع (الوزير دفاعي) ليسا على أيَّة درجةٍ من الأهمية، إذ يمكن أن تُمهر بعد تنفيذ الإعدام، وحصل هذا لأكثر من مرة، كما يمكن أن يموت كل أسبوع في سجون النظام ومستشفياته العديد من المعتقلين السياسيين دون أدنى مساءلة.

بعد أن انتهت محاكمتنا، انصرف الضباط لتناول الطعام، وتركونا بين أيدي عناصر الأمن، ليُكرموا وفادتَنا بألوان شتّى من التعذيب.

وبعد ساعاتٍ صدرت الأوامر بنقلنا إلى شاحنة العودة، وما هي إلّا دقائق حتى كانت الشاحنة تنهب الأرض في الطريق إلى تدمر. وكان القلق

الأكبر: هل سيعتبروننا وافدين إلى السجن، فيتجشّمون عناء استقبالنا بحفلةِ تعذيبٍ أخرى مثل سابقتها الأولى؟ أم أنهم سيعتبروننا بضاعةً مرتجعة، تكفي إعادتنا إلى مهاجعنا بحفنةٍ بسيطة من الركلات والصفعات والجلدات؟

سؤال في غاية الصعوبة، حيث يتصارع الأملُ بالنجاة، مع اليقين بسوء العاقبة التي تنتظرنا؛ وهذا ما كان.

لكن بما أننا وصلنا ليلاً، وهذا يعني أن الجلّادين منهكون من ممارسة التعذيب ليوم كاملٍ، فقد اكتفوا بتفتيشنا مثلما فعلوا في المرة الأولى، وبساعةٍ من التعذيبً لا أكثر، حفاظاً على أعراف المكان المهيب وتقاليده. ودخلنا إلى مهجعنا مبتهجين بعودتنا إلى أصدقائنا، الذين احتفظوا لنا بحصّتنا من الطعام، وكان هذا أوّلَ شيءٍ يدخل أجوافنا منذ فجر اليوم.

سيكون الغد ساحةً للحكايات الفظيعة، والطريفة، التي حدثتْ معنا، وستكون هناك خيبةٌ للأمل لدى جميع العائدين، فقد حسبْنا أو تمنّينا ونحن متيقّنون أننا مساقون إلى حتفنا في حقول الرمي في «سعسع».

أمضينا يومين نحكي طرائف ما لحقَنا في هذا اليوم الفريد، يومِ الذهاب إلى حمص، وخيبتنا في المحكمة التي كدنا نصدّق أنها محكمةَ، ففوجئنا أنها لا تعدو عن حجرةٍ ممتهنة لتوزيع أحكام الإعدام علينا، ولم يكن أحدٌ يصدّق فعلاً أن هذه الأحكام المضحكة كانت حقاً أحكاماً نافذةً للموت.

لكن أكثر ما بقي في ذاكرتي وأثّر فيها هو أننا خلال رحلة العودة من فرع الأمن العسكري، حيث تمّتْ محاكمتنا، كنّا قد أزحْنا العصائب المطاطية التي تعصب عيوننا، بشكلٍ جزئيٍّ مكّننا من رؤية الطريق، وكان الوقت قُبيل الغروب، وما إن اقتربنا من مدينة تدمر حتى استقبلتْنا مزارعُ النخيل متراميةُ الأطراف، وكان ثمرُها قد أينع، وتدلَّتْ عناقيد البلح الأصفر بين سعف النخيل النضِر.

لن أنسى ما حييت ذلك المشهدَ البسيط القريب، الذي عَبَرَتْه شاحنتنا ببطءٍ أتاح لنا تأمّلَه عن قرْب، كان ثمّةَ فلّاحٌ قد لوّحت الشمسُ عارضيه، مستلقٍ وقد أسند أعلى كتفيه ورأسه إلى جذع نخلةٍ فتيةٍ، وقد لفَّ أعلى رأسه بكوفيةٍ حمراء تقيه الشمس والغبار، وقد عقدَ كلتا يديه وراء رأسه، وتمدّدَ جسدُه فوق النجيل الأخضر، باسترخاءٍ وسكينةٍ تسرّبتْ إلى نفوسنا، وسرعان ما تبادلنا عبارات الدهشة والاستحسان لهذا المشهد الذي سحَر كلَّ مَن نظر إليه؛ كان يستريح من عناء العمل وكأن الدنيا قد حِيزتْ له.

وإلى اليوم، كلَّما حزبني أمرٌ، أو اجتاحتني كآبة، أتذكر ذلك الفلاح الذي يرْفل بسَكينته، غير عابئٍ بهذا العالم الأرعن، فتسْكن نفسي وتصغر في عينيَ الهموم.

لن يطول الأمر علينا، وسنكتشف بعد شهرٍ واحدٍ أنّ مَن حُكم بالإعدام سيساق إليه عمّا قريب.

في صبيحة اليوم الثالث بعد المحكمة الميدانية، نُوديَ على مجموعةٍ أخرى من الأسماء، ولكن الغريب أن اسمي أيضاً كان بينهم، طلبتُ من رئيس المهجع أن ينبّههم إلى أني قد حُوكمتُ منذ يومين مع المجموعة الأولى، ففعل، لكن الرقيب أصرَّ على أن اسمي وردَ في هذه القائمة أيضاً، وليس له إلا أن يرسلني معهم.

مرةً أخرى، والمسلسل ذاته، لكنني في هذه الرحلة كنتُ الدليل، الذي سيُخبر أصدقاءه بما ينتظرهم بالتفصيل. وبعد أن وصلنا بساعتين، أتى رئيس الفرع «غازي كنعان» ونادى من باب الصالة:

ـ جيبولي الحدَث «محمد برو».

فوقفت من ذات نفسي، أمسكَ بي من أذني وسحبني إلى حجرة القاضي قائلاً:

ـ ابن القحبة هذا. . . . لا يُعدم، إنه لم يبلغ الثامنة عشرة بعد.

رمقني القاضي «سليمان الخطيب» بنظرة استخفاف:

ـ حدَث.. سوّدَ الله وجهك، خفّفنا لك الحكم إلى عشر سنوات.. انقلع.

نطقها بغضب، وهو أشبه بصيّادٍ أفلتت من قبضته طريدة كاد يطْبق عليها.

عادوا بي إلى حيث جلس أصدقائي، وأنا ذاهلٌ عمّا يجري حولي، هل حقيقيٌّ ما يحدث أمامي؟ بهذه البساطة ينتقل حكم المتَّهم في هذه المحكمة من الحكم بالإعدام إلى الحكم بالسجن لبضع سنوات! جلست حيث جلس أصدقائي وأنا ساهمٌ لاهٍ عما يدور حولي، هل سيُعدم أصدقائي وأبقى بعدَهم أتجرّع سوء العذاب كلَّ يوم؟ هل لي أن أحزن من تخفيف حكْمي أم أفرح لنجاتي من حبل المشنقة؟ وهل سيتفهّم من سأحكي لهم يوماً أن هذا التغيير في الحكم، والذي يبذل في سبيله سجناءُ قضائيون مبالغَ طائلةً دون جدوى، كان نقمةً عليَّ؟ وكان سبباً في بقائي لأعوام طوال أتجرَّع ما هو أسوأ من الموت بمرات؟!

طالما تأرجح تفكيري يمنةً ويسرة وأنا أقلب النَّظر في هذا الغموض العجيب، فحياتي كانت للحظةٍ معلقةً بقرارٍ ارتجاليٍّ يُصدره قاضٍ عسكري، هو أبعدُ ما يكون عن معنى القضاء وهيئة القضاة؛ وفي لحظةٍ أخرى كان القرار المعاكس يصدر عن مجرمٍ من عتاة المجرمين، «اللواء غازي كنعان»، الذي أذاق السوريين واللبنانيينَ فظائعَ لا يعرفونها من قبل.

من الصعب جداً أن يكون خبر الإعفاء من الإعدام، لسجينٍ في سجن تدمر، خبراً محبَّباً، لكن بعد مضيّ سنوات، والخروج من سجن تدمر، سيدرك هذا السجين ذلك البونَ الشاسع بين أن يُعدم في ذلك السجن الصحراويّ، وأن ينجو ويأخذ حظّه وحقَّه في الحياة، والأهم أن تكون عودته شفاء لأرواحٍ أعياها طول الانتظار، وأنهكتْها قسوة القلق، في انتظار هذا الغائبِ الضائعِ بين مفاوز الحياة وصحراء الموت.

انقضى هذا اليوم كسابقه في المحكمة الأولى، وعدنا إلى تدمر وتمّ استقبالنا كما سبق منذ ليلتين.

كان لتخفيفِ حكْمي، وأخْذِ عمري بعين الاعتبار، وقعٌ كبيرٌ في نفوس الأصدقاء؛ فهذا التدقيق يعني أن الأحكام التي صدرتْ أحكام صحيحةٌ، وأننا سنودّع عما قريب بعضاً ممن حُكموا بالإعدام.

ولم يطُل انتظارُنا.

* * *

كانت الأوامر الرئاسية قد أمرتْ بنقل جلسات المحاكمة إلى تدمر، فكانت المحكمة تنعقد كلّ أسبوعٍ مرةً واحدةً، وكنا نعلم بوصول فريق المحكمة وفريق تنفيذ الإعدام معاً من خلال صوت طائرة الهيلوكوبتر العسكرية التي كانت تقلّهم من دمشق إلى مطار تدمر العسكري القريب من السجن.

في تلك المحكمة دخل ثلاثة أشقاء من آل «علوان» من مدينة حماة، وكانوا رهائن عن شقيقٍ لهم، وبعد خمس سنواتٍ من الملاحقة المستمرة تمَّ القبض عليه وقتله في أحد فروع الأمن، وكان من الطبيعي أن يُطلق سراح الرهائن، كوْن الطريدة الأصلية اعتُقلت وقُتلت، وكنّا نعلم أنه إذا حضر الأصيلُ بَطُلَ فِعلُ الوكيل.

وخلال المحاكمة تبجّح «سليمان الخطيب»، كما تتبجح آلهة الحرب، وأخبرهم أن شقيقهم قُتل وأصبح نسْياً منسيّاً، فطالبوه برفع أمرهم للإدارة المسؤولة، إذ إنَّ حجزهم الاحتياطي قد زالت علَّته وانتفى سببه، وينبغي إطلاق سراحهم على الفور، ولاسيما أنهم أمضوا خمس سنين في هذا السجن دون جريرة. ويبدو أنهم من هول الصدمة بخبر مقتل شقيقهم غفلوا عن ضبط نبرة صوتهم وحديثهم وحركة الأيدي المنفعلة، ولم يرُقْ هذا سيادةَ القاضي، فهدّدهم بأنه سيعلّق مشانقهم فوراً، فاستمرّ الشقيق الأكبر والغضبُ يملك عليه حواسَّه، وأجابه أنِ اللّعنةَ على هكذا حياةٍ وهكذا نظامٍ وهكذا عدالة، ولم يستطع الفتى الغاضبُ إكمال كلماته، فقد عاجلَه الرقيب ومَن معه بضربةٍ من هراوةٍ غليظةٍ كان يحملها، فأسقطه أرضاً.

وقام القاضي من ساعته، وقد ملك عليه الغضبُ عقله، فأصدر أوامرَه بأن يعاد نصْبُ ثلاث مشانق في الساحة السادسة، ويُشنق الأشقاء الثلاثة من فورهم، وبحضوره.

وبينما نحن جلوسٌ في المهاجع، ننتظر عودة الذين تجري محاكمتهم اليوم، بعد أن كنا صباحاً نودّع بضعةً وتسعين شاباً صعدتْ أرواحهم إلى السماء عبر أعواد المشانق، وننتظر ما ستسفر عنه تلك المحاكمات الصوريّة الرهيبة، حتى سمعنا حركةً عنيفةً، وعناصرَ يحملون أعواد المشانق مرةً أخرى إلى صدر الساحة السادسة. يا لرحمة السماء، سيعدمون آخرين مرةً أخرى في هذا اليوم!

ستنعقد هيئة الإشراف على الإعدام، وبحضور آلة تصوير الفيديو التي توثّق للقصر الجمهوري وسيّدِه وقائعَ الإعدام كما جرت العادة، وسيُساق الأشقاء الثلاثة ويُعدمون، وتنتهي المهزلة.

لم يدُم الأمر أكثر من عشر دقائق حتى أتتْ سيارة (زِيْل) عسكرية حملتهم جثثاً لينضموا إلى سابقيهم في مثواهم الأخير، وليعود القاضي إلى سابق عهده، فيُصدر الأحكام بعد أن سكن غضبُه، فلا يصحّ أن يقضيَ القاضي وهو غاضب!

يا لتلك الأم الثكلى، التي فقدت أربعةً من أولادها دفعةً واحدة، ويا لتلك العائلات السورية المفجوعة، على مدى عقود حكم «الأسد»، حيث يقضي أفراد العائلات بالجملة ضحايا استبداد النظام ووحشيّته وقمعه، وتترك أرواح أبنائها لعبثِ أمزجةِ ضبّاطه وقُضاته، الذي يقترفون صباحَ مساء جرائمَ بحقّ الإنسانية، تندى لها جباهُ الضباع في البراري.

* * *

٢٣ ـ قافلة الإعدام الأُولى

بعد شهر تماماً من محكمتنا الميدانية في حمص، وفي الساعة السادسة صباحاً، قدمت مجموعةٌ من الرقباء إلى بابِ مهجعنا على عجل، وطلبوا مجموعة أسماء موجودةٍ في مهجعنا، يجمع بينهم أنهم خضعوا للمحكمة الميدانية في الشهر المنصرم، وطُلب منهم إنهاء علاقتهم بالمهجع، وجلب جميع متاعهم معهم.

اليوم هو السادس عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٨٠، وكان قد مضى على اعتقالي قرابة الخمسة أشهر، خرج من مهجعنا سبعة عشر شاباً وكهلاً، ممن كانوا بالأمس يشاطروننا حبّات الزيتون وكسرات الخبز وجولات التعذيب. لم يكن أحدنا متيقّناً من حقيقة ما سيجري، ولم تكن أحكام الإعدام التي بُلِّغناها تعني شيئاً، ولم يكن الأمر يتعدى حدود المعرفة، التي تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ معرفة كلِّ إنسانٍ أن الموت قادمٌ في يومٍ ما.

صحيحٌ أنَّ الجميع قد بُلِّغوا مِن قاضي المحكمة الميدانية في حمص، الرائد «سليمان الخطيب»[1]، أنهم محكومون بالإعدام، لكن القرار أو

---

(١) «سليمان الخطيب» (١٩٤١ ـ ٢٠١٤):

ضابطٌ عسكري برتبة رائد، من أطراف بلدة (الدريكيش) في محافظة طرطوس. في عام ١٩٨٠ تمَّ تكليفه ليكون قاضي المحكمة الميدانية في تدمر، التي حاكمت خلال ما يزيد على خمس سنوات قرابة ثلاثين ألف سجين، لم تطُل محاكمة أحدهم أكثر من دقيقتين على أبعد تقدير، وكان يُصدر أحكامَ الإعدام على عواهنه دون أي رقيب أو حسيب. مات على إثر نوبة قلبية في بلدته الدريكيش عام ٢٠١٤، وكان يومها برتبة لواء.

الحكْم شيءٌ، ومشاهدةُ تنفيذه شيءٌ آخر؛ كمَنْ قرأ كثيراً عن الزلزال، لكنه حين يدهمه الزلزال سينخلعُ لبُّه لهول الحدث.

بقينا نرقبهم من ثقوب الباب، وقد تمّ تقييدهم بحبالٍ من القنّب القاسي عند باب المهجع، ونحن ننظر إليهم دون أن تهتزَّ منهم إصبع، وقد عُصبتْ أعينهم، ولم يعُدْ هنالك أدنى شكّ في ما ينتظرهم في مكانٍ لا نعرف عنه شيئاً بعد.

ساقوهم إلى الساحة السادسة بهدوء، وكانت سَريّة التأديب حاضرةً بكامل عددها. و(سَريّةُ التأديب) هو الاسم الرسميّ لمجموعة الجلّادين المجنّدين والرقباء المتطوّعين من الشرطة العسكرية، عملهم الوحيد هو التعذيب اليومي وتنفيذ أحكام الإعدام.

وصلتْنا بعد دقائق أصواتٌ بعيدة، لكنَّ صوتَ ارتطام السواري الخشبية كان واضحاً، وكنا نلْصق آذاننا بأرض المهجع وبجدرانه، لنسمع ما يصل عبرَها من أصوات.

كم كنا نحسدهم جميعاً، «فاضل» و«شريف» و«أغيورلي»، وجميع مَن خرج معهم إلى الإعدام؛ لقد انتهى تعذيبهم، وسيكون علينا الانتظارُ لسنواتٍ لا نعلم عددَها ونحن نتجرّع العذاب تلو العذاب دون أمل.

ماذا كان يُضير ذلك الوغد «غازي كنعان» لو أنه تجاهل صغرَ سنّي وتركني لحكم الإعدام مع شركائي في التهمة ذاتها؟ كان من الممكن أن أُعدم في الأشهر الأولى، وأنتهي من هذا الشقاء المديد.

ستتوالى الإعدامات، والقتلُ الكيفيُّ والعبثيّ، والتعذيبُ الوحشيّ، أعواماً طوالاً، إلّا أنّ بريقاً من رجاءٍ وأملٍ كان ينبعث بين فينةٍ وأخرى مِن ثنايا إيماننا، الذي كان العاملَ الأقوى في تعزيز بقائنا متماسكين؛ إيمان يشرق كالشمس التي تتحدى الظلام، لتقول بأننا لا محالة سنخرج ذات يومٍ، ونحكي تلك الحكايات..

وهل العمر إلا تلك الحكايات؟.

٢٤ ـ حبل مشنقة

كنتُ ـ لصِغر سنّي وقدرتي على الحركة أكثر من غيري ـ أبادرُ لقضاء بعض الحاجات التي تأتي عرَضاً، ومنها تمزُّقُ الأسمال التي نلبسها مراراً، بسبب الزحف اليوميّ على أرضٍ إسمنتية.

لم يكن لدينا إبرةٌ للخياطة، ولا خيوط لاستخدامها. أما الإبرة فقد وجدنا بديلاً عنها في أعواد المكنسة المصنوعة من القشّ، والتي كنا نثقبها بمسمار دخل إلينا منغرساً في قدم أحدنا من ساحة التعذيب؛ وأما الخيوط فكنّا نسلّها من البطانيات العسكرية بعنايةٍ ومهارةٍ، فلا نضيع منها شبراً.

وكنت أجلس كل يوم بُعيد التفقّد أرتق وأُصلح ثيابَ مَن تمزّقَ بنطالُه أو قُدَّ قميصُه، ونحن بانتظار حفلة التعذيب الثانية، التي تكون بين العصر والمغرب في معظم الأحوال.

في الليل والجميعُ نيام، كنت أنْسل الخيوط القطنية من بطانيتي، وأجمعها إلى بعضها ثم أجدلها، لتصبح حزمةً رفيعةً من عشرة خيوط، وأستمر في هذا العمل أياماً عديدة، لأجدل من مجموعة الضفائر الصغيرة حبلاً طويلاً، أعلّقه في قضبان النافذة التي يمكنني الوصول إليها ببعض الحيلة، لأعمد إلى شنق نفسي وأنتهي من هذا الجحيم الذي لا يُعرف له قرار.

وكلما أنهيتُ شطراً من الحبل أخبّئه في صرّة ملابسي البسيطة.

وما إن أسْند ظهري إلى الجدار، حتى أتذكر صوتَ أبي وهو يتحدث

عن حلول عقيمةٍ هي أسوأ من المشكلة الأصلية، إذ كان يقول: «كالمُستجير من الرمضاءِ بالنار»، فيرتجف قلبي من هذه الصورة، ثم ما ألبث أن أتناساها فأكمل غزْلي.

وهكذا مضى أكثر من شهر وأنا أعدّ عدّتي.

إلى أن أحسّ بي العم «أبو خلدون»، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من أقدم أصحاب المطابع في مدينة حلب، وكان رجلاً عميقَ الخبرة، طالما جلس يحدثنا عن تلك الصناعة، التي كانت له سبباً لزيارات متكررة إلى لندن ومعارض ألمانيةٍ عدة. أخذ مني ما جدلتُه، وكان حبلاً طويلاً بالفعل، وأقنعني أن هذا الحبل القطنيّ لا يستطيع حمْل جسدي، فهو شديد الوهن، والأجدى أن نجد حبلاً من الخيوط المتينة تصلح لهذا الغرض، وهي غير متوفرةٍ في هذا السجن، لنأمل أن نجده إن خرجنا.

وأطلق ضحكته الطويلة التي كنتَ تراها من بعيد في إشراقةِ وجهه وتحرُّكِ كل أعطافِه دفعةً واحدة.

على الرغم من بدانته المحببة، فإن جسَده وتقدُّمه في العمر لم يحتملا هذا التعذيب، وهذا الحرمان والذلّ، وبدأ جسده يهزل ويذوي رويداً رويداً، إلى أن أصابه نوعٌ قاتل من فقر الدم الخبيث، والذي يبدو أن مردّه إلى نقص بعض أنواع الفيتامين والعوز الغذائي، إضافةً إلى أن فقر الدم ـ كما يبدو ـ إذا ما اجتمع إليه هذا القدْرُ المخيف من القهر والتعذيب اليومي، أصبح مزيجاً قاتلاً.

* * *

٢٥ ـ مهجع الأحداث

في نهاية العام، وبعد انتباه إدارة السجن إلى وجود سجناء دون السن القانونية ـ الأمر الذي كشفتْه المحاكمات الميدانية ـ قررت عزلَ السجناء صغار السن عن الكبار منهم، لأسباب مختلفة، ربما يكون بعضها نابعاً من رغبتهم في أن يكون الصغار بمعزلٍ عن تأثير الكبار، وربما تكون لهم مستقبلاً معالجةٌ مختلفةٌ، ولاسيما أن معظمهم سيخرجون، بعكس الكبار الذين تنتظر معظمَهم أحكامٌ جاهزةٌ بالإعدام.

ظهراً ـ ودون سابق إنذار ـ تمَّ تبليغنا بتجهيز كل مَن هو دون الثامنة عشرة من العمر، ليجمع جميعَ أمتعته للخروج من المهجع. وما هي إلا دقائق حتى دخل إلى الساحة رتلٌ طويلٌ من الفتيان الصغار، ممن تنطبق عليهم التعليمات السابقة، تم تجميعهم من ساحات متعددة، وفُتحت الأبواب في ساحتنا الثالثة تباعاً، ليخرج كلُّ مَن هو حدَث.

خرجت من مهجعي (المهجع رقم ١٤)، الذي لن أراه ثانيةً، ولن ألتقي بمعظم الموجودين فيه مرةً أخرى، فمعظمهم سيتم إعدامه خلال السنة القادمة، ولن يبقى من القافلة الأولى، التي دخلتُ معها هذا المعتقل الرهيب، إلّا بضعة أفراد.

سار بنا هذا الركب باتجاه الساحة السادسة، التي ستُعرف لاحقاً بساحة الإعدام، والتي ستشهد أعتى الملاحم وعمليات القتل في هذا السجن.

توقف الرقيب الذي يتولى أمر نقْلنا في منتصف الساحة، أمام مهجع يحمل الرقم (٢٦)، وأمر بأن ندخل عبر رتلٍ أحاديٍّ إلى هذا المهجع

بهدوء، وهو يقوم بعَدّنا فرداً فرداً، وحين وصل العدد إلى مئةٍ وسبعين سجيناً ـ كنتُ منهم ـ أمر الباقين بالانتظار، وأغلق الباب بعد أن عيَّن أحدَنا رئيساً لهذه المهجع المُحدث، ثم أكمل سيره بمن بقي معه إلى المهجع التالي، وهو المهجع (٢٧). وسيُعرف هذان المهجعان بـ (مهجعَي الأحداث)، وسيطلقُ علينا الجلادون اسم «الوظاويظ»، ويقصدون بها (الصغار المستخفّ بهم)، وسيحمل مهجعُنا هذا الاسم لسنوات.

كان المهجع كبيراً وفارغاً من كل شيء، إذ لم تكن في هذا المهجع أية أدواتٍ لشرب الماء أو لتوزيع الطعام، وحتى الأغطية والعوازل التي سنفترشها أرضاً لم تكن متوفرة.

وكنا نتكوّر على أنفسنا من شدة البرد، في هذا اليوم من أيام شهر كانون الأول/ديسمبر. وكنا غرباء عن بعضنا، الأمر الذي يضاعف الوحشةَ، والإحساسَ بذلك الشعور الغريب والقاسي، أننا غدَونا بمفردنا أمام هذه الوحوش الكاسرة.

عند التفقّد، أخبرهم رئيس المهجع بحاجتنا إلى تلك الأشياء، فأجابوه أن نتدبّر أمرنا لهذا اليوم كيفما كان، وغداً سيهتمون بما ينبغي فعله، كانت النبرة توحي أننا سنكون مميزين عن أشقائنا الكبار، أو هكذا توهّمنا، ولن نتعرّض ثانيةً للتعذيب كما كنا نتعرّض له سابقاً، أو هكذا تمنّينا على وجهٍ أدقّ.

لم نخرج إلى التنفس في هذا اليوم، ولم نتعرض للتعذيب، لكن ظهرَ فيما بعد أن الإدارة والعناصر كانوا مشغولين بشكلٍ كاملٍ في إعادة ضبط أعداد السجناء، في كل ساحةٍ وفي كل مهجع.

أعادوا التفقّد مرةً أخرى بحضور المساعد المسؤول، وانتهى اليوم ونحن في مهجعٍ جديدٍ، باردٍ ومظلم، يلفُّه الصمت، فمعظم قاطنيه الجدد مترقّبون، ينظرونَ بحذرٍ إلى أين نحن ماضون.

أمضينا ليلتنا ونحن نسند ظهورنا إلى الجدار، كان الليل شديدَ البرودة وطويلاً جداً، وبين الفينة والأخرى تمرّ بسطح المهجع دوريةُ

الحراسة، فتتفقّد المهاجع من خلال (الشرّاقات)، وهي نوافذ كبيرة جداً في سقف المهجع على ارتفاع أربعة أمتار، واحدةٌ في أوّله وثانيةٌ في نهايته. كانت هذه النوافذ محصّنةً بثلاث طبقات من القضبان الغليظة، بحيث يستحيل مرور هرّة صغيرة منها، والغرض منها توفير هواء كافٍ للتنفس في هذا الحيّز الضيّق جداً، إضافة إلى تمكين الحرس من كشف كلّ ما يجري في هذا المهجع كلَّ ساعة.

مستقبلاً سيكون لها دورٌ أهمّ، وهو تعذيب السجناء وهم داخل مهجعهم، من خلال الأوامر التي تصدر من الأعلى.

في اليوم التالي، وفي ضحوة النهار، سمعنا صوت عناصر البلدية يلْقون عن أكتافهم أحمالاً كبيرة، إنهم يجلبون البطانيات والعوازل (وهي قطع من الكتّان السميك بطول ١٨٥ سم وعرض ٨٥ سم، تُفرش أرضاً وتُفرش فوقها بطانية)، وهي كلُّ فراش السجناء، وسيكون هذا الفراش الوثير مكاناً لنوم أربعةِ سجناء، سيستوعبهم هذا الحيّزُ المضبوط بدقّة من خلال إشراف مسؤول النوم، الذي سيساعده الكبّيس (شخصٌ يقف ويستند إلى جدار المهجع الأقصى ويدفع بكلتا قدميه ظهْرَ أقرب المستلقين ليوسّع لمن سيليه مكاناً ليحُشر فيه).

في اليوم الثالث عدنا إلى سيرتنا القديمة، وسمعنا أصوات أبواب المهاجع الأخرى تُفتح من جديد، لمباشرة التنفس على إيقاع صرخات الرقيب «أوباش»، الذي كان مِن دأبه أن يفتتح التعذيب بصيحته المعهودة: «التنفّس الصحي للإخوان المسلمين».

لم نكن متيقّنين بعد: هل سيكون مهجعنا والمهجعُ المجاور ـ مهجعا الأحداث ـ مشمولَين بهذه التنفّسات؟ أم أننا سنكون مميزين عن الآخرين؟

لم يطُل قلقنا وتساؤلنا طويلاً، فبعد ساعات جاء دورنا، وخرجنا نعدو بشكلٍ دائري في الساحة السادسة، وهي أكبر من الساحة الثالثة بكثير وبذا تتّسع الحلقة وتزيد سرعة الجري.

تحوي هذه الساحة ثمانية مهاجع، ومهجعاً اسمه الورشة، وهو مخصصٌ لجمع من سيُعدمون في اليوم التالي، وسنطلق عليه اسم (المستودع)، ففيه تُخزّن المشانق الخشبية، ويُساق إليه المحكومون بالإعدام، في الليلة السابقة لتنفيذ الأحكام. لا أعتقد أنني أستطيع وصف شعور الشخص الذي سيمضي ليلته في هذا المستودع وهو يعلم أن حكم الإعدام سيُنفّذ فيه عند الصباح، خصوصاً أنه سيبيت ليلته بين الأعمدة الخشبية والحبال، التي ستُزهق روحه عليها.

وسيكون للمهجع (٣٤) ـ الذي يقع في الطرف المقابل لمهجعنا من الجهة الثانية للساحة ـ شأنٌ عظيم؛ فهذا المهجع الذي اعتدنا أن نطلق عليه اسم (مهجع الضباط) يضمّ بين جنبيه نخبةً من ضباط الجيش السوري، جميعهم دون استثناء أُخذوا على الشبهات، ولم تثْبت إدانةُ أيّ واحدٍ منهم بجرمٍ أو مؤامرةٍ أو اشتراكٍ بعملٍ سياسيٍّ معارض، اللهم إلا بضع كلماتٍ قالهاً أحدهم منتقداً الاعتقالات التعسفيّة التي تجري آنئذٍ، أو علاقة قربى تربطه بأحد المطلوبين أمنياً، أو تقريراً كيديّاً من ضابطٍ منافس.

خرجنا إلى التنفس الأول في ساحتنا الجديدة، ونالَنا من التعذيب مثل ما نال شركاءنا في هذه الساحة، الأكثر تميّزاً بين ساحات سجن تدمر، وكان الجلادون لا يكفّون عن مناداة واحدنا بـ «وظوظ»، العبارة التي لاقت استهجاناً ونفوراً من طرفنا، فهي تعني الاستصغار والاحتقار معاً.

وتوالت الأيام بالإيقاع ذاته، الذي ألفْناه في سابق عهدنا.

بعد بضعة أيام، وكانت الساعة قرابة السادسة فجراً، كانت هناك حركةٌ غريبةٌ لم نشهد مثلها من قبل؛ قُدّم الصف لضابطٍ في الساحة، وسمعنا الباب الأقصى في الساحة (المستودع) يُفتح، وصوتَ عوارض خشبيةٍ كبيرةٍ ترتطم في أرض الساحة، لم نكن يومها نعرف أنها عوارض المشانق، التي ستحمل بعض أشقائنا في هذا الصباح، والتي ستحمل الآلاف منهم خلال عشر سنين قادمة.

صوتُ جريٍ سريع، ومجموعةٌ من الجلّادين يسوقون بضعة أشخاصٍ

لا يتعدّى عددهم الستة، يتوقفون قبالةَ بابِ مهجعنا، يتقدّم منهم الضابط المسؤول ويسأل أحدَهم مستنكراً:

ـ أنت.. لماذا لم تنسحب من التنظيم؟

ـ سيدي أنا لم أكن منظّماً أصلاً.

لن أنسى هذا الصوت ـ الذي يشبه نعيب الغراب العجوز ـ يوماً:

ـ أنت محكوم إعدام، ورح نعدمك اليوم.. خذوه.

صوت أقدام المحكومين بالإعدام، وهي تجري إلى صدر الساحة حيث تنتظرهم أعوادُ المشانق، يشبه صوت عدْو مجموعةٍ من الظباء في مرْجٍ واسع. حركة الجري الرشيقة لا تشي بأي خوفٍ يعتري هذا الإنسان، الذي يستقبل الموت بحماسةٍ عصيّةٍ على الفهم.

كان الصمت يلفّ المكان، بشكلٍ يبعث الرهبة في نفوس الحاضرين، كانت الدهشة تعْقد ألسنتَنا، لم نكن نتخيّل أن إزهاق الأرواح البريئة ـ وفق قوانين هؤلاء المجرمين ـ يجري بهذه البساطة.

دقائق قليلة مرّتْ، سمعنا بعدها صوتَ مشنقةٍ تُرفع عن الأرض، وصوتَ شقيقٍ لنا يصيح وهو يتأرجح على الحبل: «الله أكبر»، ثم حشرجةً قصيرة، وصمتاً يقطعه رنينُ مكبس القرميد، الذي لا يعنيه ما يجري هنا.

وتتكرر العمليةُ ست مرات، ثم ينصرف فريق الإعدام.

جرت العادة أن يأتي طبيب السجن بعد ساعةٍ، مع بعض أعوانه، ليتحقق من ثبوت الوفاة، بعدها تُنقل الجثث الستّ إلى شاحنة عسكرية، ستمضي بهم إلى مكانٍ بعيدٍ في قلب تلك الصحراء، التي ستُتخم بجثث المقتولين في هذا السجن، على مدى سنوات، ستنفتح بوابات السماء لتستقبل الوافدين الذين قُتلوا ظلماً.

أحسسنا ساعتَها أنّ السماء تبكي معنا، فقد كان يوماً ماطراً لم تنقطع أمطارُه حتى المساء. لم يتحرّك أحدٌ منا من مكانه، دخل الفطور، ثم بعد ساعات دخل طعام الغداء، ولم يتحرك نحوَهما أيُّ جائع، ونمنا تلك

الليلة جائعين، يغلق الذهولُ والحزن علينا كلَّ منافذ الروح.

استيقظنا في اليوم التالي على الإيقاع اليومي للتعذيب وضجيج السجن، وصرخات الألم تنبعث من جميع الساحات التي تشهد تعذيباً مضاعفاً، وهذا ما كان يحصل عقب كلّ إعدام.

بدأت الحركة داخل المهجع تأخذ شكلها النمطيّ، وتعارَف الموجودون بقدرٍ كافٍ لتسير الحياة اليومية بشكلها المعهود. تنظيف المهجع وتوزيع الطعام وكلّ الخدمات والنشاطات المطلوبة في حياتنا في تدمر كانت تجري تطوّعاً. دائماً كان هناك مَن يبادر للتطوّع ولتقديم أي خدمةٍ يحتاجها المجموع، وأهمها الخدمات التي تحوي تماسّاً مباشراً مع الجلادين، الأمر الذي يعني التعرّض للضرب المباشر والتعذيب عند كل تماسّ، مثل إدخال الطعام وإخراج الفوارغ، وإخراج بيدونات الماء حين يطلبها رقيبٌ أو شرطيٌّ، وأشياء أُخرى.

وكما هو معلوم، فإنه من المُحال استمرار سير الأمور بهذا الجمع الكبير داخل المهجع دون وجود منسّقٍ عام لها. في البدء كان رئيسُ المهجع ـ المُعيّن اعتباطاً من قبل الرقيب ـ يقومُ بهذه المهمة الشاقة جداً، لكن بمرور الأيام، واتجاهِ الحياة اليومية من الوجود المؤقت أو العارض إلى الوجود المستقرّ طويل الأمد، بات يلزمنا آلياتٌ أكثرَ مناسبةً لهذا الوضع.

الحلّ معروف، وسيكون له قبولٌ فوريٌّ ومرحبٌ به: «إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدَكم»، فما بالنا إن كنّا نعدّ مئة وسبعين إنساناً؟! تم إعلان أحدنا أميراً للمهجع، وتم القبول بالإيجاب أو الصمت.

والحقيقة أنني لا أذكر يومها كيف تمّ اختياره، لكن في أزمنةٍ لاحقة سيكون ـ كما جرتْ عادة السلف ـ شخصاً تتم تزكيته من جمْع كبير من الحاضرين، مشهوداً له بالحكمة والاختيارات الراجحة.

وهكذا، سيكون هناك دائماً رئيسُ مهجعٍ معيّنٍ من الشرطة العسكرية، وأميرٌ مختارٌ من السجناء، وسيكون لكلٍ واحدٍ منهما مساحة الإدارة المستقلة، وإن كانت الكلمة الأخيرة داخل المهجع دائماً للأمير.

٢٦ ـ على قلبِ رجلٍ واحد

كان أسبوعاً شديد القسوة، حافلاً بالتعذيب المكثف، ونال مهجعنا منه حصةً مميزة.

في تلك الليلة، وبعد انتهائنا من وجبة العشاء الفقيرة كالعادة، كان الأمير «أبو عمار» يشعر بتهالُك النفوس، خاصةً أن بعضاً ممن كانوا بيننا قد تمّ إعدامهم هذا الصباح، ولِعلْم الشرطة والرقباء أن هؤلاء كانوا من مهجعنا ـ بسبب حداثة سنّهم ـ فقد أفردوا لمهجعنا ومهجع الأحداث الثاني قسطاً أوفر من غيرنا من التعذيب.

وقف الأمير «أبو عمار» يشدّ من بأس المجموع المصْغي إليه بكلِّيته، ويشحذ النفوس، ويؤكد أنه سبق لنا أن تعرّضنا لموجات تعذيبٍ أشدّ من هذه، وكنا نتلقّاها بنفوس عاليةٍ وبصبرٍ وإيمان كبيرين.

وما إن أنهى بضعَ كلمات، وكنت أقف إلى جواره، حتى حانت مني التفاتةٌ، فوجدت الجلّاد «سامي» وقد ألصق وجهَه بقضبان النافذة العليا، وهو يُصغي باندهاشٍ بالغٍ لهذا الكلام المسبوك، الذي يصْدر عن أحد «الوظاويظ» الصغار الذين يعذّبونهم طوال النهار.

مشيتُ فوراً بعيداً عن النافذة ومجال رؤيتها، جاذباً بطرف يدي الأميرَ «أبا عمار» من يده، وأنا أتمتم بحذرٍ: «سامي على النافذة».

كدأبنا، نلتقط أدنى إشارةِ تنبيهٍ أو تحذير في ثانيةٍ واحدةٍ، ويسري هذا التحذير في أطراف المهجع بشكلٍ خاطف، فيتبدّل المشهد وتتغير

الاتجاهات، ويشْرع كلّ فردٍ منا بالانهماك بأيّ حركة، كطيٍّ بطانيةٍ أو طلبِ دورٍ للحمام بصوتٍ عالٍ، أو الانحناء إلى الأرض كمن يقوم بتنظيفها؛ وهكذا حتى ليخالَ الناظرُ إلينا أنّه كان من ثوانٍ فقط ينظر إلى مهجعٍ آخر، ويكاد يكذّب عينيه اللتين شهدتا قبل ثوانٍ غيرَ هذا.

كان الجلّاد «سامي» يقفز فوق النافذة العليا، كأنّ كلباً مسعوراً عضّه للتوّ، أو أنَّ مسّاً أصابه. صرخ برئيس المهجع أن يأتي إليه بذلك السجين الذي كان يخطب بالسجناء ويكرّر عبارة: «إيماننا بالله واعتصامنا بحبله المتين».

لم يغيّر رئيس المهجع روايتَه أبداً، كان يعيد ويكرّر أمام الجلاد مؤكداً أنه هو مَن كان يتحدث إلى المهجع، ويأمرهم بسرعةِ تنظيف الأرض والتجهّز للنوم. ويصرخ الجلاد «سامي» وهو عاجزٌ عن الوصول إليه وصفْع هذا الكذّاب الأشر، ويتوعّد أنه سيأتي فوراً مع جميع عناصر سَريّة التأديب، ليعاقبنا على كذبنا ويعاقب ذلك الوجيه الذي كان يخطب فينا.

أمر رئيسَ المهجع أن نعْبر من تحت نافذته ووجوهنا للأعلى ونحن مغمضو الأعين، ونفّذنا التعليمات، لكنّ «أبا عمار» لم يظهر، فقد اختفى في إحدى زوايا المهجع، وأنّى لهذا الغرِّ أن يميّز أحدَنا من الآخر، فالجميع حليقو الرأس، ومتطابقون في نحولهم وصفْرة وجوههم، وحتى في انتشار الرقع في ملابسهم.

أمضى المسكين «سامي» ساعةً وهو يبتكر طريقةً إثْر أُخرى لكشف الأمير المتخفّي، وعبثاً يحاول. انتهت نوبةُ حراسته، وغادر متوعّداً إيّانا بشرِّ عقاب، وبتْنا ليلتنا والألسنُ تلهج بالدعاء، لا يعرف أحدٌ ماذا ينتظرنا غداً، لكن حتماً سيكون أسوأ مما نتوقّع.

الأمر الوحيد الذي يمكن له أن يخفّف نتائج ما حصل هو نظرةُ الجلادين إلى «سامي» نفسه؛ فقد كانوا يتندّرون بقصر قامته المفْرط جداً، بخلاف الجميع، وبسوادِ لون بشرته، فكانوا ينادونه بالأفريقي، ولم يكن

يحظى بينهم بأدنى تقدير، وكلما حاول أمراً فشل فيه، فهو موضع سخريةٍ من جميع رفقائه، وكثيراً ما كنا نسمعهم يتندّرون بفشلٍ أو خطأٍ وقع فيه.

في الصباح، ومع إدخال وجبة الفطور، أمر الرقيبُ ـ الذي صحبَتْه سَريّة التأديب بالكامل، وكانوا قرابة الثلاثين جلّاداً ـ أنْ نخرج من فورنا إلى الساحة بالشورت، وكانت السياط تصفع الجدرانَ بصوتٍ تنخلع له القلوب، ولكننا تعاهدنا جميعاً ألا ينبس أيُّ فردٍ فينا بحرفٍ واحد، فروحُ «أبي عمار» باتت أمانةً بيد كلّ واحدٍ فينا.

وقف الرقيب بثقةٍ عاليةٍ مؤكداً أنه سيعفو عن سائر المهجع مِن هذا التعذيب، ومن تعذيب أسبوعٍ كاملٍ، إن نحن اعترفنا وأخبرناه باسم الذي كان يخطب فينا.

عبثاً يحاول، والسياطُ تنهش جلودَنا، وصراخُنا يصل إلى أقصى بقعةٍ في تدمر، لكن الأرواح متينةٌ، والنفوسَ مشحونةٌ باجتماع الموقف على المقاومة والصبر. وما كان يزيدنا إصراراً وثباتاً، بل يتعدّاهما إلى الشعور بالنصر، هو ذلك الخزيُ والعجز الذي نلمحه في عيونهم، وهم عاجزون عن كسر صمتنا وإرغامنا على إفشاء سرّنا.

استمروا في تعذيبنا ثلاث ساعاتٍ دون كلل، ثم هدّدونا بالإعدام، وطفقوا يلفّون الحبلَ المشدود إلى عصا الدولاب حول رقابنا، حتى تصبح الرقبة مشدودةً تماماً في وسط العصا الغليظة، ويحملها جلّادان من طرفيها إلى الأعلى، فيغدو أحدُنا معلّقاً من رقبته فيها. ثوانٍ قليلة من هذا الرفع كافيةٌ للغياب عن الوعي، ولانفلات المصرّة البولية، ولرؤية أجسام نورانيّةٍ تحوم حولنا بين الحلم والحقيقة.

كان خيرَ مُواسٍ لنا مشاهدةُ الرقيب وهو يوبّخ الجلّاد «سامي» على توهُّمه، مؤكداً أن هؤلاء «الوظاويظ» لا يجرؤون على فعل هذا، ولا يرقى فهمهم وإدراكهم إليه أصلاً.

توقف التعذيب، وحملْنا من بقيَ منا رهينةَ الإغماء، ودخلنا إلى

مهجعنا نقْطر عرقاً ودماً، وبعضنا قد بلّل ثيابه. بينما تهالك الجلادون عند أقرب جدارٍ، يسبحون في عرقهم وتعبهم، ويطلقون أسوأ العبارات والشتائم تجاه الشقيّ «سامي»، الذي سيصبح منذ اليوم من أشرسهم في تعذيب مهجعنا خاصةً، وكان دأبه كلما مرّ شهرٌ أو أقل أن ينتحي بأحدنا وهو يعذّبه، فيساومه أن يدعه وشأنه إنْ هو صدق فعلاً في رواية ما حدث تلك الليلة، ولا تفتر همّتُه بتقديم الوعود إثر الوعود بطيّ الموضوع إنْ نحن اعترفنا أنّ ما شاهده كان صحيحاً وليس وهماً.

لم يفلح مسعاه معنا أبداً، فبقيَ يكرّر كلما باشر بتعذيبنا:

ـ «اعتصامكم بحبله المتين»؟ والله لأقطع هذا الحبل على أعناقكم.. يا حقراء يا «وظاويظ».

* * *

٢٧ ـ صناعة الجلّاد

كثيراً ما سألت نفسي وأنا أتابع وأتجرّع أصنافاً شتى من التعذيب، على يد هؤلاء الذين بقيتْ أرواحُهم بريئةً من كلِّ فضيلة، بريئةً مِن كلِّ ما يمتّ إلى الإنسانية بصِلة، من كلِّ ذرة خيرٍ أو شفقة: من أين يأتي هؤلاء الوحوش (أو مَن نسمّيهم مجازاً بالوحوش)؟ والحقيقة أنها الإنسانية في وجهٍ قذرٍ من أوجه تجلّياتها السلطوية.

وكعادتها، تتفتح الذاكرةُ الغنيّة كوردةٍ من نار، لتُخرج من ثنايا الماضي صوراً عجزتْ الأيام عن طمْسها، كيف كان يتحوّل السجانُ الذي وفَد حديثاً إلى سجن تدمر مِن كائنٍ مندهشٍ من هوْل ما يراه ـ ولا تزال بقايا تكوينه البشريّ حاضرةً ولو بشكل مقتضب ـ إلى مجرمٍ متمادٍ في إجرامه ومتلذّذٍ به؟ مع العلم أنهم كانوا ينتقونه أصلاً من أقذر الأشخاص وأكثرِهم عدوانيةً وأحطّهم أخلاقاً، الأمر الذي يسهّل عليهم عملية تحويله من محضِ إنسانٍ إلى كائنٍ مشوّهٍ يتلذّذ بتعذيب الآخرين.

كانت الواقعة في الشهر الثالث من العام ١٩٨٢، في الأسبوع الأول منه، حين دخل «هوشابا» ـ كما كان أصدقاؤه يخاطبونه ـ إلى سجن تدمر، وكنا نلاحظ دهشته وهو يشهد مجموعةً لا تتعدّى العشرة من الجلادين وهم ينكّلون بأفراد مهجعنا الذين يتجاوز عددهم المئة والسبعين، بطرائق تعجز الأبالسةُ عن الإتيان بمثلها، دون أن نأتي بأيّة ردّةِ فعلٍ أو اعتراض، سوى صراخنا الذي كان يملأ الأرجاء.

لم يكن يعلم أن أيّة ردة فعلٍ تصدر عن أحدِنا ستعامَل كتمرّدٍ جماعيّ، وسيكون ردّهم مزيداً من التعذيب الذي يتعدّى حدود الخيال، بحيث يبدو الموت إزاءه مجرّد لعب أطفال.

أسبوع مضى، قبل أن يطلبوا من «هوشابا» أن يمسك كرباجاً مصنوعاً من المطاط القاسي، الذي تنتظم في وسطه حزمةٌ من الأسلاك الفولاذية، ويضرب به ضرباتٍ بسيطةً على الجدار، بحيث تنشأ ألفة غريبةٌ بينه وبين هذه الأداة القذرة، التي كانت تفتك بجلودنا صباح مساء على مدى سنوات طوال.

في الأسبوع الثالث قاموا بتدريب «هوشابا» على الضرب الاحترافيّ بالكرباج، وصار يضرب بقسوةٍ وعنفٍ شديدين، وكنا نشعر بتلذّذه في إتقان هذا الفعل، الذي كان مندهشاً منه منذ أسابيع ثلاثة.

وكان الأسبوع الرابع أسبوعَ التكريس، إذ سيُعمَّد «هوشابا» جلّاداً (دراكوليّاً) بدماء ضحيته، ليغدو وحشاً لا يرتوي من رائحة الدماء، وتثيره، كما تمتّعُه، رؤيةُ الوجوه والأطراف نازفةً مهشمةً بفعل الضرب الوحشيّ الذي يمارسه بحقّنا كلَّ يوم.

في صباح ذلك اليوم قدم الرقيب «فيصل» ومعه سجينٌ في مثل عمرنا، وسأل:

- كم واحد عندك رئيس المهجع؟

- مئة وأربعة وتسعون، حضرة الرقيب.

فأدخل هذا الشاب الذي أتى به إلى المهجع، وأمر بإبقائه عندنا. كان شاباً حمويّاً من عائلة «الكيلاني»، وهي من العائلات التي نُكبت في مدينة حماة، لكثرة ما قُتل منها واعتُقل وأُعدم.

جرت العادة في كلّ وقائع التعذيب في سجن تدمر أن يؤمَر السجناء بإغماض العيون وإطراق الرؤوس أرضاً، إلا في هذا اليوم الموعود، إذ يشدّد الرقيبُ الآمرُ في الساحة على أن نرفع رؤوسنا وننظر أمامنا:

ـ ارفع راسك.. وفتّح عيونك.. وطلع قدامك.

كنا نعرف ما الذي يريدون منا أن نراه، لتوثّقه قلوبُنا حفراً في تضاريس الذاكرة. بدأت حفلة التعذيب تلك في الساعة الحادية عشرة، عندما أخرجونا إلى ساحة التعذيب، بعد أن طلبوا أن نخلع ملابسنا «الكلّ بالشورت»، وبدأت السياط والكابلات تلعلع في أرجاء الساحة، وعلى جلودنا العارية تحفر وقائعَ لن يقهرها النسيان. وآمرُ الساحة ـ وهو الرقيب الذي يعطي الأوامر والإيعازات للمعتقلين ـ يهتف:

«منبطحاً.. تابع زحفاً

جاثياً.. تابع رمَلاً

منبطحاً.. مستلقياً.. جاثياً

اليدان على الرؤوس

تابع مشياً على ركبك

منبطحاً..

تابع زحفاً على الأكواع إلى أن تسيل الدماء».

والويل لمن يتخلّف. كنا نسحج أكواعنا بعنفٍ على الأرض الإسمنتيّة السوداء كيما تنزف عنوةً، أو ربما ينزف أحدهم بغزارةٍ، فيأخذ زميله الذي يزحف إلى جانبه بعضاً من دمه النازف، فيمسح بها كوعَه كي ينجو من التهديد.

طال التعذيب ساعةً، كانوا خلالها يبرعون في التفنّن بألوان فريدةٍ من طرائق التعذيب التي لم نألفْها قطّ، وكان «هوشابا» يعذّب صديقنا «أحمد طوير»، الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر بعد، وهو فتى من محافظة إدلب. ولشدة التعذيب وقسوته لم يطقْ صديقنا صبراً، ففرّ بيديه كيلا يصيبه كرباجٌ كان يهوي بكل روح حاقدة، ففوّتَ على جلاده متعة الجَلد، فاستشاط غضبُ «هوشابا»، الذي كان يبحث عن ضحيته أصلاً.

وبصرخةٍ من الرقيب الآمر، توقّفَ التعذيب الجماعي، وطُلب منا أن نقف إلى جانب الجدار ووجوهُنا إلى الساحة، وأن نواصل النظر أمامنا لنشهد كل تفصيلٍ همجيٍّ.

وتحلّق الجلادون حول جسد «أحمد» الفتى الصغير، ذلك الجسد الذي غابت تفاصيله لكثرة ما غطّتْه الدماء وتشقّقت منه الأطراف، وتركوا متعة الجَلد للجلّاد «هوشابا» منفرداً.

ساعةٌ أخرى مضت، و«هوشابا» يواصل جَلد «أحمد»، إلى أن ينهكه التعب، فيشرب بعض الماء ويجفّف عرقه الغزير بقبعته الكتّانية، ويعاود الجلد تارةً بالكرباج المطاطي، وتارةً بالكبل الرباعي مسلّخ الأطراف، الأمر الذي يُكسبه قدرةً استثنائيةً على تسليخ الجلد وتقطيعه، وتارةً بعصا غليظةٍ يقارب طولها المتر أو يزيد.

لم تبْقَ عظمةٌ في جسد «أحمد» إلّا وأصابها الكسرُ أو الرضّ، وجهُه مغطّى بدماء تنزف من حاجبه المشقوق ومن إحدى أُذنيه، كفّاه الغضّتان مشوّهتان من كثرة الجراح التي نالتهما وهو يحاول أن يدرأ بهما بعض الضربات التي كانت تنهال على وجهه.

كنا نرقب، بألمٍ تعجز الكلمات عن وصفه، كيف يتمادى المجرم في قتل صديقنا، وهو بفعله يقتل كلّ واحدٍ منا. لقد بلغ منه الإعياء مبلغه، وصار لهاثُه أقرب إلى عواء وحشٍ جريح، وأدرك الرقيب آمرُ الساحة أن يديه كلّتا عن الضرب بتلك الأدوات، فأومأ برأسه لأحد مساعديه، فقدّم إلى القاتل عبوةً من التنك، تلك التي يعبّأ بها الزيت عادةً، وتزن مملوءةً نحو ٢٠ كيلوغراماً، وقد مُلِئ نصفها بالإسمنت المتصلّب والحجارة فأصبحت كتلةً خراسانيةً قاتلة، فكان يحملها بكلتا يديه إلى الأعلى، ويرمي بها صدرَ ضحيته أو ظهره، وكنا نسمع صوت العظام تتكسّر، وقد فقدَ «أحمد» القدرة على الصراخ، فكانت أنّاته العميقة تنبعث من حنجرته، التي ما تنفكُّ تُخرج مع الأنين دماً أسود.

مرّت ساعةٌ طويلةٌ ثقيلةٌ بطيئة، قبل أن يصدر الرقيب أمره كي نحمل

صديقنا وندخل به إلى المهجع، وكان واضحاً لنا أنهم يريدون منا أن نشهد موته بيننا، وهو ينزف من كل جزءٍ من جسده الفتيّ المحطّم.

دخلنا إلى المهجع، ونحن نحمله شهيداً حيّاً على أكتافنا، وهناك تحلّقنا حول جسد «أحمد» وهو ينازع الموت، الذي كنّا نعدّه أكبرَ رحمةٍ يتلقّاها في هذه الساعة. لم يكن هناك من شيءٍ نفعله، إلّا أن نغسل جروحه ونضغط على مواضع النزف المتعدّدة فيها، ونصلّي طلباً لموتٍ عاجلٍ يُوقف ذلك الألم الرهيب.

لم نكن نقوى على النظر في وجهه المهشّم، وقد خرجت عينه اليسرى من موضعها، وشُق جانبٌ من وجهه كاشفاً عن عظم فكّه، وتدلّتْ نصف أُذنه التي مزّقتْها ضربةٌ من عصا غليظة، وخرج لسانه أزرقَ ضخماً من كثرة ما عضّ عليه وهو يتقلّب في حمأة التعذيب.

بقينا ساعاتٍ قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وسط دموعنا ودعائنا، وكان الحرس يطلّ كلَ ساعةٍ متسائلاً ببراءةٍ الذئب: «ألمْ يمُتْ صاحبكم بعد؟».

وحين أخبرنا الحارسَ بموته، أجاب بأنهم يعرفون، وتركوه إلى المساء مسجًّى في وسط المهجع، ملفوفاً ببطانيّةٍ عسكرية، حملوه بها في المساء إلى حفرةٍ في الصحراء خارج السجن، حيث انتهى حال المئات، بل الألوف، من أصدقائنا.

حين كنا نُخرج جسد «أحمد» ملفوفاً ببطانيته، سأل الرقيب «فيصل» مرةً ثانيةً رئيسَ المهجع:

ـ كم واحد عندك؟

ـ مئة وأربعة وتسعون حضرة الرقيب.

فعلّق ساخراً:

ـ هذا هو العدد.. لم يزدْ ولم ينقصْ.

هكذا يصنعون الجلّاد، الذي سيكون من الغد وحشاً ضارياً، يُمتّعه مشهد الدم النازف من الوجوه والأطراف، ويطْرب لصرخات المعذّبين وهو يجلدهم، ويتفنّن في رسم أقسى صورةٍ للرعب على وجوه ضحاياه، ولا يردعه عن إيغاله في القتل والتعذيب إلا أن يُضرب من رؤسائه كما يَضرب ضحاياه.

لقد صنعوا اليوم الأُلوفَ منهم، وأطْلقوهم في مدننا مسوخاً ضاريةً، لا يرتوون من الدم.

سأحكي يوماً ما أننا خرجنا من ذلك السجن الرهيب، واستقبلنا الحياة بإرادةٍ قويةٍ، بينما بقي «هوشابا» مسخاً قذراً، شبهة إنسانٍ يعيش في كوابيسه السوداء، بين مستنقعات الدم وصراخ ضحاياه.

* * *

٢٨ ـ فرَحاً بشفاء الرئيس

كان يوماً مشمساً، وكان دور مهجعنا في الحلاقة الشهرية، وهو يومٌ مشهودٌ، عبارة عن حفلة تعذيبٍ تستمرّ ساعتين متواليتين على أقل تقدير.

بالطبع لا أحتاج للتأكيد على أن هاتين الساعتين لا تنحصران في مئة وعشرين دقيقة، كسائر الساعات؛ إنهما، وفق نسبية «أينشتاين»، ربما تمتدان لبضعة آلافٍ من الدقائق البطيئة والقاتلة؛ إذ يتم إخراج المهجع كاملاً إلى الساحة، وهناك نصطفّ بوضعية الجاثي على الركب، والجسدُ منتصبٌ والرأسُ منحنٍ، بحيث يلامس الذقنُ أعلى الصدر، ويقوم الجلّادون بالتعذيب العشوائيّ، بينما يقوم الحلّاقون بالحلاقة بآلات حلاقةٍ يدويّة، يحلقون لكل سجينٍ ما نبتَ من شعره الذي لا يتجاوز طوله السنتيمترين، وكلما انتهى أحدُنا من حلاقته، يقفز هارباً إلى المهجع قبل أن يناديه أحد الجلّادين فيسومه ما شاء من العذاب.

تلك الحلاقة التي تُدمي فروة الرأس، لكثرة ما يقوم الحلاقون بجذبها بقوةٍ، وهي ممسكةٌ ببقايا شعرٍ لم تتمّ حلاقته بعد، وكل ذلك عن إهمالٍ مقصود، باستخدام آلاتِ حلاقةٍ بالية، تجرح وتنتف من شعر الرأس وجلده أكثرَ مما تحلق.

ولم نكن نعدُّ هذا شيئاً يُذكر، قياساً إلى هول التعذيب المستمر الذي يصبّه الجلّادون على رؤوسنا، لمحض المتعة والتسلية، فيبتكرون صنوفاً من العبث المؤلم بأجسادنا؛ كأن يقوم أحدهم بالضغط الشديد بإبهامه على

الشفة السفلى للسجين وهي مقحمةٌ فوق أسنانه، وكامل قبضته تمسك الذقن من الأسفل كي لا تتراجع، فتصبح الشفة بين سندانَي الاصبع من الأعلى والأسنان من الأسفل، وكثيراً ما تنتهي العملية بنزفٍ شديدٍ في الشفة.

وربما عمد بعض الجلّادين إلى الاجتماع على معتقلٍ نحيفٍ منا (ومعظمنا كان شديدَ النحول بارزَ عظم الترقوة)، فكانوا يمسكونه من أطرافه الأربعة، ويقذفون به للأعلى، ليسقط على وجهه على الأرض الإسمنتية، وكانوا يسمّون هذا الشكل من التعذيب (الباراشوت، أو المظلة)، وحين يتعبون من هذه اللعبة، يأمرون رئيس مهجعنا أن يحضر أربعةً منا، ليمارسوا التعذيب ذاته على سجينٍ عبس بوجهه الحظُّ في تلك الساعة.

وإذا أصابهم الفتور واشتدَّ عليهم الحرُّ، فربما ينادون اثنين منا، ليقوم كل واحدٍ بضرب الآخر بملء قبضته على فكّه الأيسر أو الأيمن، ويقوم الآخر بردّ الضربة بمثلها وبشكلٍ منتظم، وسيكون الفائز في هذه اللعبة مَن يستطيع تحطيم ضرس الآخر أولاً، فينجو من تعذيبٍ آخر، يناله مَن كُسر ضرسه أولاً، بتلقّي حزمةً كبيرةً من الجَلد بالسياط، ربما تصل إلى مئتي جلدةٍ، غالباً ما يدخل بعدها إلى المهجع مغمًى عليه، وقد فقدَ ضرسه. وهكذا تنقضي ساعات الحلاقة الشهرية، وهي محصورة بحلاقة الشعر.

في ذلك اليوم، الذي يعدّ يوماً لا يُنسى من أيام تدمر، في أواخر شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٨٤، كان ثلثا المهجع يجثون على ركبهم، بانتظار دورهم في الحلاقة في الساحة السادسة، وقد انتهى الثلث من حلاقتهم وعادوا إلى المهجع.

وفجأة علَتْ أصواتٌ مبهمةٌ من المحارس، التي تجثم على أركان السجن وزواياه، وسرَت حركةٌ عنيفةٌ وسريعةٌ بصخبٍ غير مفهوم، تلَتْها قعقعةُ السلاح والبنادق، وتم تذخير الأسلحة، ثم بدأ صوت الرصاص فوق رؤوسنا، وتطايرت فوارغُ المقذوفات فوقنا، وأصابنا هلعٌ تقف بلاغة

اللغة ومفرداتها عند عتباته؛ فقد أيقن الجميع أنها المجزرة الثانية بحقّ السجناء في هذا السجن، وها هي تنفّذ الآن دون سابق إنذار.

كنتُ بين الجاثين على ركبهم في الساحة، وأيقنتُ أنهم يقتلون الآن مَن هم بداخلِ المهاجع، وسيُكملون مجزرتهم بنا بعد أن ينتهوا منهم. لنعرف لاحقاً مِن أصدقائنا في داخل المهجع أنهم أيقنوا أيضاً أنَّ القتل والمجزرة بدأتْ بمَن هم في الخارج، وسرعان ما سيلحقونهم بنا فور انتهائهم منا.

وكان الموت والهلع يغشيان النفوس، وبشكلٍ تلقائيّ انحنت الرؤوسُ باتجاه الصدور، وبدأت الألسن والجوارح تلهج بالقرآن والدعاء، استقبالاً لموتٍ لا مفرّ منه. لم نكن نعي ما يجري حولنا، سوى صوت الموت محمولاً على أزيز الرصاص، وفوّهات البنادق التي لم تتوقف، تخالطها صيحاتٌ لعناصر سَريّة التأديب، مبْهمةٌ لا يُفهم منها أيّ شيء.

لا يمكن التكهّن على وجه الدقة كم مضى من الوقت ونحن في هذا الهول العاصف، وكنا أشبَه بأحياء يقفون على بوابة الموت، فلا الموت يقبضنا ولا الحياة تبقينا.

توقّف الرصاص رويداً رويداً، فما إن تفرغ بندقيةٌ من طلقاتها، حتى يتوقف صاحبها عن إعادة تذخيرها، إلى أن توقفت جميعها، لكن أصوات الفرح الهيستيريّ المنبعث من الجلّادين لم يتوقف.

مضت دقائق عدة، إلى أن تبيّن مِن بعض العبارات التي ترشقها أفواهُهم أنهم ـ كسائر القطعات العسكرية في الجيش السوري ـ يبتهجون فرَحاً بإعلان شفاء الرئيس من مرضه، وأن الأمر صدر من وزارة الدفاع، من العماد «مصطفى طلاس» شخصياً، بأن تُفرِغ جميعُ البنادق والأسلحة الفردية في جميع قطعات الجيش العربي السوري رصاصَها دفعةً واحدةً، ابتهاجاً بشفاء القائد الرمز، الذي كاد شقيقه «رفعت الأسد» أن يستولي على السلطة والحكم خلال مرضه، لولا وقوف زمرةٍ من الضباط الموالين لـ«حافظ الأسد» في وجهه، وفي مقدمتهم العماد «مصطفى طلاس»، الذي كان ـ وسيكون ـ له دورٌ كبيرٌ في تثبيت حكم آل الأسد.

كنا لا نزال جالسين على أرض الساحة ـ ورؤوسنا بين ركبنا وأيدينا فوق الرؤوس ـ حين انتهى هذا الهرجُ المريع، فأمروا بنا أن ندخل إلى المهجع دون أن تتم حلاقتنا، وانصرفوا لتوّهم.

بعد ساعةٍ شاهدنا عناصر البلدية وهم يجمعون الفوارغ النحاسية للطلقات التي تمّ إطلاقها في هذا الفرح العظيم. لم يهدأ السجن للحظةٍ واحدةٍ بعدها، فقد كانت الموسيقى الحماسية والأغاني التي تمجّد القائدَ الرمز وتحكي مآثرَه تصدح حتى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل.

بقينا ليومين كاملين ساهمين صامتين، لا ينبس أحدُنا ببنت شفةٍ إلّا ما ندر، وقد خيّمَ علينا ذهولٌ غريب. ما أتفه هذه الحياة! وكيف يمكن أن تنتهي في طرفة عينٍ، حزناً أو غضباً أو فرحاً بشفاء رئيس!

لقد كانت مجزرة تدمر الأولى غضباً وانتقاماً لمحاولة اغتيال الرئيس، فهل سيكون قتلنا، ومجزرتنا، ابتهاجاً بشفائه يوماً ما؟.

* * *

٢٩ ـ هرم الرعب

بعد ليلتين، وقبيل الساعة الرابعة فجراً، كنا نغرق في نومٍ عميقٍ بعد يومٍ طويلٍ أمضيناه بين الحلاقة والتنفس وقد أنهكَنا التعذيب.

أذكر الآن، وأنا أستعيد المشهد المروّع الذي يستعصي على مبضع النسيان، أن صراخاً متصاعداً في وتيرته بدأ من قرب باب المهجع، إثرَ صوتِ تأرجح القفل النحاسي وتحرّكِ الدرباس بشكلٍ عنيف.

لا أعرف كم ثانية استغرق الأمر، لنتراكض جميعنا ومن دون تفكير إلى أقصى الزاوية اليمنى في المهجع، في أبعد نقطةٍ عن الباب، ونتكدّس فوق بعضنا البعض، مشكّلين هرماً يصل إلى السقف الذي يرتفع أكثر من أربعة أمتار، وقلوبنا تخفق في صدورنا من الهلع مرتين:

مرةً بسبب الذعر الذي خلقَه قدومهم المباغت ليلاً، والذي أوهمنا أنهم يدخلون لرمينا بالرصاص لينفذوا مجزرة جديدة أسوة بمجزرة ١٩٨٠، ولاسيما أنهم منذ يومين فقط كانوا يمطرون السماء برصاصهم.

ومرةً أخرى بسبب الذعر الغريزي، الذي سببه صراخُ بعضنا بالتتابع وانتقاله للمجموع بالعدوى، لدرجةٍ أربكت الرقيب وجميع الجلادين القادمين معه، فقد هالَهم صوت الصراخ المنبعث من أعماق قلوبٍ أيقنت بحضور الموت.

وحين خطا خطوةً واحدةً إلى الداخل، هاله ذلك المشهد المذهل: مجموعةٌ كبيرةٌ من السجناء ملتصقين بزاوية المهجع في ذعرٍ حقيقيٍّ،

تسلّقتْ على أكتافهم ورقابهم مجموعةٌ أقلُّ عدداً، وتسلّقتْ فوق المجموعتين مجموعةٌ أقل، حتى شكّل الجميع هرماً مائلاً إلى الداخل، والرؤوس مختفيةٌ بين الأكتاف!

ضحك ملءَ بطنه الكبيرة وهو يتلعثم بعبارات مبعثرة، ليطمئننا أن نعود إلى أماكننا ونتابع نومنا، وربما ليطمئن نفسه ومَن معه أيضاً، من شدة الذعر الذي أصابه بفعل صراخنا.

وقربه وقف صديقنا «نادر» الذي تم استدعاؤه إلى فرع التحقيق في حمص منذ خمسة أسابيع، لدرجة أننا نسيناه ولم يعد أحدٌ يفكر في عودته. وقد جرت العادة عندما يطلبون سجيناً بمذكرة إحضارٍ من أحد الفروع الأمنية، أن ينهوا علاقته بمهجعه بالكامل، ولم يكن من الضروري أن يعيدوه إلى مهجعه إذا رجع، لكن بما أنَّ «نادر» قد خرج من مهجع الأحداث، كان لزاماً عليهم أن يعيدوه إلى المهجع ذاته.

وقف «نادر» بينهم وهو مأخوذ بالدهشة نفسها، التي تعدّتْه إلى مُحضريه، وسنحكي له غداً كلَّ ما حصل في غيبته، وعلى الأخص ذلك اليوم الرهيب يوم ابتهجوا بشفاء الرئيس، وسيحكي لنا شيئاً مماثلاً له، جرى في حمص حيث كان.

خطا «نادر» خطوتين إلى الأمام، ووضع أشياءه التي أتى بها أرضاً، وخطا الرقيب ومَن معه خطوتين إلى الخلف، وأقفل الباب. وتدارك رئيسُ المهجع نفسه وقدّم الصف: «استعدّ.. استرحْ.. الصف انتهى من التفتيش حضرة الرقيب».

بينما كنا ننزل، ونساعد بعضنا في النزول، من أعلى هرم الرعب الذي بنيناه في ثوانٍ خاطفة.

* * *

٣٠ ـ موقعك في المعركة: سجين

ربما يكون السجن من أقدم الأدوات التي لا تستغني السلطة الحاكمة عنها؛ إذ يعود تاريخ السجون إلى الألفيّة الأولى قبل الميلاد، في بلاد الرافدين ومصر كما يرى البعض. وقد كانت السجون أقبيةً مظلمةً رطبة، يُقيّد فيها السجين بالسلاسل لزمنٍ طويلٍ، قبيل تنفيذ الحكم القاضي بالقتل أو التعذيب أو العبودية.

وتالياً برزت مسألة التغريم المالي، كعقوبةٍ أخفّ، تتيح للسجين العودة إلى المجتمع، دون المسّ بشخصه وإهانته، وربما تعدّ إنكلترا مؤسِّسة النمط الحديث للسجون. ففي مطلع القرن التاسع عشر في إنكلترا، كان الفيلسوف «جيرمي بنثام» (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) مِن أوائل مَن نادوا بإلغاء عقوبة الإعدام، والاستعاضة عنها بحبس المجرمين المدانين، كعقابٍ بديل عن القتل.

وفي كتابه (**المراقبة والمعاقبة**) يفسر الفيلسوف الفرنسي «ميشيل فوكو» نشأة السجون والمعتقلات بأنها الشكلُ البديهيّ للعقاب في المجتمعات الصناعية، حيث إن فكرة السجن تمثّل حيثيةً اقتصاديةً، تعاقب عن المال بالحبس (كأن يُحبس مَن يعجز عن تسديد دَينه) لأشهر أو سنوات. كذلك فكرة السجن في رأيه تأتي من كونه آليةً لتغيير الأفراد المجرمين أو المدانين، وذلك من خلال فرض نظام قاسٍ وصارمٍ يخضع له السجناء، فيطبع نفوسَهم وسلوكهم بالانضباطٍ في كل مناًحي حياتهم اليومية وتفاصيلها، إضافةً إلى حالة الندم التي تطبع حياة السجين المنعزل عن

مجتمعه، والمتمركز في تفكيره اليومي حول جرْمه الذي أفضى به إلى هذه العقوبة.

مع كل هذا، فإن «فوكو» يؤكد فشل هذه المنظومة العقابية، بدليل الوقائع؛ إذ إن السجون لم تسهم مطلقاً في تخفيض المعدلات الجرميّة وانتشار الجريمة، بل على العكس، أصبحت السجون، وبشكلٍ عالميٍّ، من أهم المنظومات فاعليةً في تخريج عتاة المجرمين المنحرفين.

كل ما سبق ذكره يتناول السجن بوصفه موطناً عقابياً للمجرمين والخارجين عن القانون، أما المعتقلون السياسيون فهم في الأغلب شرٌّ من المجرمين، حسب تصنيف السلطة الحاكمة، ولاسيما أن هذه السلطة في الغالب كانت تضمّ بشكلٍ أو بآخر السلطتين المكانية والزمانية، فيصبح الخروج عليها كفراً يوجب القتلَ في الكثير من الأحيان.

كلُّ هذا يتناول المجرم الذي يخالف نصوص القانون المدنيّ أو الجزائيّ المعروفة والمكتوبة، بينما المعتقل السياسي تحت سلطة الدكتاتوريات لا يخالف نصوصاً مكتوبة، بل يواجه مزاجيّات السلطة الحاكمة أو تفسيراتها، مع أنَّ المعتقل السياسي في الغالب مارس عملاً يجيزه القانون أو الدستور بالنص، من حيث حرية تشكيلِ الأحزاب وحرية الرأي وحرية التجمّع والتظاهر والتعبير، لكن التقدير والتقرير بالتجريم محصورٌ بيد السلطة الحاكمة، الخصم والحَكَم.

ولما باتت الدولة الحديثة محصورةً في السلطة المكانية، ونُزعت عنها القداسة ولو شكلياً، كان لا بد للأنظمة القمعية ـ التي تتمحور حول عبادة الفرد وتأليهه ـ من تضخيم مبالغ فيه لشخص الحاكم الفرد ومنجزاته، حتى يقارب في عُلوّه صفة الإلَه، وهذا ما نلمسه في خطاب الأنظمة القمعية. ففي البدء يكون القائد الملهم والمفكر الأول، والجندي الأول، إلى أن يصبح ربّكم الأعلى!

على سبيل المثال في سورية «الأسد»، تدرّجَ «رفعت الأسد»، شقيق الرئيس «حافظ الأسد»، من رتبة ضابطٍ صغيرٍ في الجيش السوري، إلى

رتبة القائد في سرايا الدفاع ـ وهي وحداتٌ عسكرية تحت قيادته مباشرة ولا تتبع لقيادة الجيش ـ إلى (القائد الرب)، إذ كان يُشار إليه في بعض قطعاته العسكرية باسم (الرب)!

والمثال الآخر كان بطله اللواء «آصف شوكت»، صهر الرئيس «حافظ الأسد»، ونائب وزير الدفاع السوري «داوود راجحة»، الذي اغتيل معه في تصفية خلية الأزمة عام ٢٠١٢، وقد جرَت الحادثة حين عنّف «آصف شوكت» أحدَ المسرحيين السوريّين حول تبسُّطه بالحديث عن شخص الرئيس المفدّى في إحدى المقابلات الصحفية، حين ذكر للصحفي كيف سأل الرئيسَ «بشار»، عن علاقته بأسرته، وكيف يجد وقتاً يمنحه لزوجته وأولاده، فعنّفه «آصف شوكت» قائلاً عن «بشار الأسد»: «هادا الله.. حدا بيسأل الله عن علاقتو بمرتو؟!».

كل هذا أفضى لابتكار آليات مراوغة، تُحكم من قبضة السلطة على مخالفيها، باتهامهم بالسعي للتخريب وإثارة الفتنة والخيانة والعمالة، وحديثاً تهمة الإرهاب، وهي من أخطر التُّهم طرّاً، فهي تنازع الدولة هذا الاحتكار الأهم.

وحين تضيق بالشعوب المقهورة والمنهوبة السبلُ، ويصبح صوتُها اليوميُّ وصمتُها شكلاً من أشكال التبرّم والرفض، وريحاً تُنذر بهبوب العاصفة، فإن السلطة القمعية تعمد إلى خلق أزماتٍ تحْسن إدارتها والسيطرة عليها، ليتمّ من خلالها زجُّ المجتمع برمّته في سجنٍ جماعيّ، أسوارُه وسياطُه أحكامٌ عرفيّة، جوهرها محاربة الإرهاب والتكفيريين والخونة والعملاء.

في عام ١٩٨٢، في ساحة من ساحات سجن تدمر، وبعد جولةٍ داميةٍ من التعذيب في الساحة السادسة، وهي الساحة الأكبر في السجن، حيث تنفّذُ فيها أسبوعياً عمليات الإعدام الجماعية، تمّ إخراج المعتقلين من مهاجعهم، ووقف الجلّاد الأكبر، مدير السجن الحربي «فيصل غانم»، وهو أحد رجالات «رفعت الأسد»، ليخطب في السجناء بصفته قائدهم، وبصفتهم مرؤوسيه.

وحين سُمح لبعض المعتقلين بالكلام، انبرى أحدُهم ليعرض على سيادته فكرةَ وضع المعتقلين على خطّ الجبهة مع العدو الإسرائيلي، ليكونوا درعاً للوطن بدلاً من وجودهم في ساحات التعذيب هذه.

أطرق القائد البعثيُّ مليّاً وقد أربكه هذا الطلب، ثم ما لبث أن تهلّل وجهه وطفق يشرح بأن القيادة الحكيمة وحدَها هي من تقدّر الموقف، وتضع كل إنسانٍ في مكانه الأمثل. ليختم حديثه بجملته الذهبية، التي تُجمل فلسفةَ الحكم في سورية، على مدى خمسين سنة:

«القيادة تضعك في موقعك الصحيح.. موقعك في المعركة: سجين»!.

* * *

٣١ ـ بريء ستخرج ولو بعد مئة عام

في ذلك اللقاء ذاته، تقدّم معتقلٌ شابٌ من مدينة اللاذقية طالباً الإذن بالكلام، فأشار إليه المقدّم «فيصل» أن تكلَّم، فأخذ يشرح لقائد السجن، الذي يشرف على حفلات الإعدام الأسبوعية وحلقات التعذيب اليومية، أنه ومنذ سنة تقريباً تم تقديمه إلى المحكمة، التي تنعقد في السجن نفسه كلّ بضعة أسابيع، تطول قليلاً أو تقصر، وأنه تلقّى حكماً بالبراءة من القاضي العسكري في تلك المحكمة، وهو «سليمان الخطيب» قاضي محكمة الميدان، الذي لا يُردّ له حكم ولا يُراجع له قرار، فلماذا أنا متروكٌ هنا إلى هذه الساعة بين محكومين بالإعدام أو بالأشغال الشاقة، أتلقّى التعذيب يومياً، شأني شأن مَن أُدينوا، وثبتتْ جريمتهم؟

انتهى السجين من عرض حالته البائسة، ورانَ صمتٌ طويل، كان المقدم «فيصل» مطرقاً يصوغ ردَّه الألمعيّ، ونحن وقوفٌ ننتظر هذا الردّ، وقد بدأت السخرية تتسلّل إلى نفوسنا من هذا الموقف الصعب الذي حشر نفسه فيه. كيف سيبرر الآن الإبقاء على السجين رهنَ التعذيب اليومي، مع أن محكمتهم العتيدة التي لا يردّ لها قضاء أصدرتْ حكماً ببراءته؟ هذه المحكمة التي كثيراً ما أصدرت حكماً بالإعدام، وأشرفت على تنفيذ هذا الحكم بعد دقائق من صدوره، دون المصادقة عليه، كما كان المعهود أن يجري، من قِبل وزير الدفاع العماد «مصطفى طلاس».

رفع المقدم «فيصل غانم» رأسَه، ووجهُه يشرق ثقةً، وأشار بسبّابته إلى السجين الذي ينتظر ردّه، وقال بصوتٍ عالٍ كأنه يسطّر بكلماته مأثرةً

سيذكرها التاريخ: «إذا كنت بريئاً، تأكد أنك لن تُظلم قيد شعرة. بريء؟ ستخرج ولو بعد مئة عام»! وطغى على المشهد تصفيقٌ حاد، من جموع الجلادين الذين يحيطون بقائدهم، فقد سطَّر ببلاغته أكملَ ما يمكن للعدالة الأسديّة أن ترقى إليه، هل يمكن لسجّانٍ أن يُطَمئن قلبَ سجينه المقهور بأبلغ من هذا الأمل؟!

وذهبتْ مثلاً، كما كان يذكر «أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني» في كتابه (**مجمع الأمثال**) حين يتحدث عن الجملة المفتاحية في حدثٍ ذي شأن. فكنا نكررها مراراً وتكراراً، كلما أراد أحدُنا أن يطمئن سامعيه أو محدّثيه بطريقةٍ ساخرة: «بريء.. ستخرج ولو بعد مئة عام».

ستنتكس روح صديقنا، هو يطرق برأسه من وطأة الخيبة، سيخرج ولو بعد مئة عام! ما الذي سيبقى منه بعد مئة عام؟

وأنت أيها الشعب السوري العظيم، إذا كنت بريئاً، ستخرج من محنتك وسجنك.. ولو بعد مئة عام!.

* * *

٣٢ ـ العرض المسرحي الأول

لم يكن هناك نشاطٌ ثقافيٌّ لم نسْعَ لممارسته داخل هذا الجحيم الأسود، فقد كان بعضنا من محبّي المسرح على الرغم من حداثة السن، وكما يبدو أنهم ورثوا هذا عن حبّ آبائهم للمسرح، فقد كان العمل المسرحي (السرّي) أقربَ نشاطٍ يمكننا أن نمارسه.

كان العمل الأول يتحدث عن العرب في الجاهلية، طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم، ولم يكن المشهد يحتاج لأكثر من مجموعةِ متحدّثين وخيمةٍ وجملٍ وراوٍ. وما زلت أذكر الجملة الأولى في تلك المسرحية: «لم تكن للعربِ دولة، لم يكن للعَرَب كيان».

لكن ليس للأمر أن يجري بهذه البساطة في مهجع من مهاجع تدمر، حيث يحيط به الحرس من كل الجهات، ويفتقر إلى أَبسط الأدوات التي تلزم في تجهيز خشبة المسرح وتجهيز الممثلين، لكن وكما يهزج «بديع الزمان الهمذاني» في مقامته البغدادية:

أعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ ... لَا تَقْعُدَنَّ بِذلِّ حَالَهْ
وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهْ

فغالباً، وعند الحاجة الملحّة، تتفتّق المواهب وتتسابق الابتكارات وتكثر التجارب. أشار أحدُنا أن نحرق المطاط الأسود الذي نستعمله في ملابسنا الداخلية، وما نتجَ عنه من رمادٍ نحلُّه في الماء فيصلح للكحل ورسم الشوارب واللحى، وأهم خصائصه اللازمة هي سرعة انحلاله بالماء وسهولة إزالته.

وانبرى مَن يتقن الخياطة منا لجمْع ما توفّرَ من ملابس ملوّنة وأشياء يصعب حصرها، لتكون عباءةً هنا وعمامةً هناك، وخيمةً وما إلى ذلك من لوازم هذه المسرحية. وكان التدريب وإعادة المشاهد يجري على قدمٍ وساقٍ طوال أسبوع، لا يقطعه إلّا خروجنا للتعذيب أو التفقّد أو إدخالُ الطعام.

لكن العقدة الأصعب هنا: كيف سننجو من عيون الرقيب؟ وهو لا يفتأ يمر فوقنا، وينظر أنّى شاء مُحصياً علينا حركاتنا وسكناتنا.

كان الحل أن يكون هناك راصدون، يحْصون على الحرس حركاته وسكناته، سيجلس أربعة شباب يلصقون آذانهم بالجدار، ليسمعوا إن كان الحرس في محرسه أم أنّه خرج، وبهذه الطريقة يسمعون أدنى حركةٍ تجري فوق السطح، إضافة إلى راصدين يرصدون من النوافذ الجانبية أيَّة ظلالٍ لشخصٍ يمشي، ومن الأمام سيكون هناك راصدٌ منبطحٌ عند الباب الحديديّ، ينظر من ثقبٍ صغير فيه إنْ دخل أيُّ عنصرٍ إلى الساحة. وما دام هؤلاء الراصدون يلتزمون السكونَ، فالوضعُ آمن، وعند رؤيتهم أو إحساسهم بأدنى حركةٍ من أحدهم، ستتجمّد الحال كأننا في متحف الشمع، ريثما تصدر الإشارة المفسّرة، أو الآمرة بالتغيير.

ويبدأ العرض المسرحي في أقصى ركنٍ من المهجع، بينما يتحلّق المجموع على الأطراف كما يجلسون عادةً، إنما بشكلٍ أكثرَ التصاقاً.

سيتابع الجمع سيرَ المسرحية بحبورٍ غامرٍ، فمعظم الحاضرين ساهم بشكلٍ أو بآخر لإنجاح هذا العمل. ولكن مع كلّ هذا الفرح الاستثنائيّ، الذي يخرج بنا خارج أسوار هذا المعتقل الرهيب، لا يغفل جمع الحضور عن مراقبة أي إشارةٍ يمكن أن تصدر من أحد الراصدين، ولو حصل وصدرتْ إشارةٌ واحدة، ستتحرّك جميع الأيدي بسكونٍ مطبقٍ لترتفع في الهواء وهي في حركةٍ سريعةٍ من الضمّ والبسط لأصابع اليدين، بحيث ينتبه كلُّ الحضور ويشاركون هذه الإشارة التي تسري كالنار في الهشيم، وفي الثواني التالية يتحرك المجموع إلى مواضعه الاعتيادية، فلا يرى الناظر أيَّ شيءٍ مريب.

يمكننا أن نتخيل الثمن الذي سندفعه فيما لو تم ضبطنا ونحن نقوم بتحضير مسرحية أو تمثيلها، لكن سيشقّ علينا تخيُّل وقْع الأمر على سجّانينا. لا شك أنهم سيتصاغرون أمامنا ويعتبروننا أبعد من حدود المكان، وستتعرّى قاماتهم القزمة أمام ذواتهم، ويكتشفون أنهم هم المساجين، فهم الذين قضوا ساعاتٍ وأياماً طويلة، وعلى مدى سنوات، لا يألون جهداً في تحطيم أجسادنا وسحْق أرواحنا وكسر إرادتنا وإطفاء أية جذوة أمل فينا.. شيءٌ لا يمكنهم تصوُّره بعد كل جهودهم تلك، ونحن لا نزال نصنع فنّاً ونتشوّق للحياة؟!

وتتابعت هذه الاحتفاليات الجميلة مرةً كلَّ شهر، لتكون نافذةً لنا إلى فضاء أرحب، تصنعه خيالاتُنا التي يستحيل أسرها.

* * *

٣٣ ـ الحياة اليومية

بعد أشهر من حياتنا الجديدة في المهجع (٢٦)، توافدَ إلى مهجعنا عددٌ كبيرٌ من الشباب الجدد، أعمارُهم تماثل أعمارنا، وشيئاً فشيئاً بات المهجع يغصّ بنا. وصل عددنا إلى مئةٍ وأربعة وتسعين سجيناً، الأمر الذي دفع الإدارة لنقلنا للمهجع (٣١)، وهو أوسع من سابقه، ويقع في الصدر الأقصى للساحة السادسة، مقابل الصدر الآخر الذي تتمّ عنده حفلاتُ الإعدام الأسبوعية.

توزعنا الأماكن، التي ستكون محلّ نومنا ليلاً وجلوسنا نهاراً، وكان الأوفر حظاً هو مَن يحوز مكاناً في زاوية المهجع أو قريباً منها، والأقلّ حظاً مَن سيكون مكانه قريباً من دورة المياه (البَخشَة)، لأنه سيكون عُرضةً لاصطدام الأقدام العابرة فوقه ليلاً، وهي في طريقها إلى ما لا بدّ منه (البَخشَة)، إضافةً إلى الروائح المنبعثة من هذا المكان.

كان الاستيقاظ والنوم محدّداً، في الساعة السادسة من كلِّ صباح، والسادسة من كلِّ مساء، وكان هنالك أشخاصٌ متطوّعون، يسهرون الليل كله بالتناوب، يشرفون على تنظيم مرور العابرين إلى (البَخشَة)، ويكونون جاهزين لسماع الأوامر التي قد ترِد من الحرس العسكريّ؛ يُسمى هذا المتطوع بالحرس الليلي، وله نظيرٌ نهاريٌّ يدعى مسؤول الحمّام.

ما إن يعطي الحرسُ الليليُّ الأخير الإشارةَ بانتهاء حصّة النوم وبدء اليوم، حتى ترتفع الأيدي بالعشرات وهي تنبض بحركةٍ تشبه (فلاش)

السيارة، عن طريق قبض الأصابع وبسْطها بسرعة ليلتقطها الحرس الليلي، الذي ستكون مهمته الآن إعطاء أرقام لترتيب دخول الحمام للمحتقنين، بعد ليلةٍ طويلةٍ وباردة، لكن لهذا الأمر سلسلة قصيرة من الحركات الرمزية، التي تنتهي بأن يأخذ الطالب دورَه في السلسلة التي تعنيه.

فما إن يلتفت إليه الحرس الليليُّ ويشير إليه أنْ تحدَّث، حتى يوقف صاحبنا حركةَ الأصابع ويؤشر بإحدى إشارتين، الأولى حركة جانبية بإصبعيه أمام وجهه، وتعني النصف، أي إنه يريد ارتكاب جنحة التبوّل فقط، والثانية حركة بالأصابع الأربعة للأمام، الأمر الذي سيفهم منه الحرس الليلي أنه يريد ارتكاب جناية التغوّط.

وعند انتهاء إحدى هاتين الإشارتين، سيشير إليه الحرس الليلي برقم سيَفهم الطالبُ أنه رقمه في الدور، وعادة سيكون رقماً كبيراً، مثل مئةً وأربعة وخمسين، فيعاود الطالب تحريك أصابعه بإشارة استفهام، تعني ما الرقم الذي دخل أخيراً؟ فيأتيه الرد بإشارة أخيرة أنه الرقم ٩، سيعلم صاحبنا أن عليه انتظار مئة وخمسة وأربعين شخصاً لينتهوا من ارتكاب جنَحهم قبل أن يفعلها! وسيكون الأمر في غاية الصعوبة، لكن لا مناص.

سيكون هذا الإجراء ملازماً للسجناء طوال يومهم، فدخول البخشة حدثٌ في غاية الأهمية، إضافةً إلى أن محيط البَخشَة بذاتها مكانٌ لتجمّع المنتظرين الذين تدور بينهم أحاديثُ شتّى، وقد قال فيها شاعرنا:

«وننقلكم إلى الدورةْ

على بابٍ لها اجتمعتْ جميعُ كوادرِ الثورةْ

«ابن سيرين» أوّلُهم يجادل مثْبتاً دورَهْ

وشخصٌ آخرُ راحتْ يداه تغورُ في العورة!».

وكان هذا بعد أن استفحل الجربُ فينا وانتشر، وهذا يعني أن هذا الشخص المصاب لا ينفكُّ يهرش مطاويه السفلى، لتوضُّع الجرب فيها.

و«ابن سيرين» هذا، نسبةً أو تشبّهاً بمفسّر الأحلام «ابن سيرين، أبي بكر محمد بن سيرين البصري»، هو الشخص الذي اعتاد الجميع قصدَه لتفسير الأحلام وشرح المبشّرات، وهو يفسر الحلوى في المنام تارةً بأنها فرجٌ قريب وتارةً بأنها تعذيبٌ قادمٌ لا محالة، والتفسير الثاني أدقّ وأثبتُ في التحقّق، كونه لا يفارقنا في أيّ يوم، وهو بالنسبة إلى صاحبنا «ابن سيرين» أشبَه بمن يعِدنا أنَّ الشمس ستشرق في يومٍ قريب.

في هذه الأثناء، يكون المهجع عامةً في حالة استيقاظ جماعي، ينهض الجميع على التوالي، فيطوي كلُّ واحدٍ بطانيته ويرتّب أشياءه الليلية، ويكون قد أتمَّ حجزَه لدوره في قافلة الجنح أو الجنايات «التواليت»، فيجلس لتبدأ حصة القمل، الذي دخل إلى سجن تدمر مع بعض الوافدين الجدد من فروعٍ أمنيةٍ تتّسم بحظّها الأوفر من القذارة والإهمال. يجلس الجميع فيخلعون ملابسهم الداخلية واحدة تلوَ أخرى، ويقومون بفحص ثناياها، خاصةً عند الحافة التي صنعتْها درزةُ الخياطة وتحت الإبطين.

وما إن ينتهي كلُّ واحدٍ من هذه المهمة اللازمة، حتى يلتفت إلى يمينه أو يساره ليذكر لهم عدد القملات اللائي استطاع فقسهنَّ بين ظفري إبهاميه، فمرةً يكون العدد سبعاً وعشرين، ومرةً يكون ثلاثين، وهكذا دواليك.

بعدها مباشرةً، سيعلن رئيس المهجع عن حصّة قراءة القرآن، فيجلس في صدر المهجع الفتى الحَموي «سمير»، الذي عُرف برقّة صوته وإجادته للتلاوة، فيتلو ما طاب له أن يتلو بزمنٍ لا يتعدّى خمس دقائق لا أكثر، هي للبركة ليس إلّا، لأن معظمنا في سحابة يومه يكون له حظٌّ وافرٌ في حفظ القرآن ومراجعته وتلاوته.

ما إن تنتهي حصة التلاوة، حتى تعقبها على الفور ـ وغالباً من القارئ ذاته ـ أنشودةٌ دينية مما حفظَ من الإنشاد. وما إن ينتهي حتى يقول قائلُنا: «هيا يا شباب.. مَن عنده رؤيا أو منام مبشّر، فليقصص رؤياه علينا».

وتبدأ حصة المنامات هذه، وهي من أهم الفقرات في يومنا، فبِها وعبْرها تطمئنّ نفوسٌ كثيرةٌ، ويتجدّد أملها في الخلاص، ويعقّب عليها صاحبنا «ابن سيرين»، الذي اشتهر بضلوعه في تفسير المنامات، وربما التبستْ عليه رؤيا، فيتركها للأيام تشرح في وقائعها ما غاب عنا في تلك الرؤيا، فيذكّرنا قائلاً: «هل تتذكرون رؤيا فلان؟ هذا هو تفسيرها».

وفي هذا الباب اشتُهر أفرادٌ بتحقُّق نسبةٍ كبيرةٍ من مناماتهم، وكنا نعلّل ذلك بقولنا: «شاشته صافية». فيحْدث أن يخبرنا أحدهم من الصباح أن التنفّس اليوم سيقتصر على حضور رقيبٍ واحدٍ وثلاثة جلادين، وليس معهم سوى الكرابيج، التي كنا نعدّها أداةً تافهةً مقارنة بقضبان الحديد وكابلات النحاس وعصيٍّ تحطّمُ العظام، والمدهش أنه في كثيرٍ من الحالات تتحقّق الرؤيا.

لكن المؤسف حقاً أن معظم الرؤى التي تَعِد بفرجٍ قريبٍ، وبحريةٍ تقرع الأبواب، وبرؤيتنا ونحن نبادر إلى دخول بيوتنا آمنين، كانت رؤىً مؤجلةً إلى زمنٍ غير معلوم.

بعدها تدهمنا أصواتُ عناصر البلدية، التي بدأت توزيع الفطور، وتعكّر صفوَ ما كنّا به، فيتابع المجموع ترتيبَ حاجاته وضبطَ مواعيده التي يزمع في هذا اليوم أن ينجزها. سيكون لديَّ موعدٌ مع «بكري» لحفظ سورة الأنفال، وستكون الساعة التالية مع «مرهف» ـ وهو من طلاب الثانوية الشرعية ـ لإكمال دروس الفقه الحنفيّ. وهكذا إلى أن تتوزع المواعيد على ساعات النهار، فلا يبقى منها إلّا ما ستقتطعه ساعة التنفّس، أو الحلاقة أو التفقّد. وهذا ليس له تعويض، فيكون الإتمام في اليوم التالي.

أذكر مرةً أنني حاولت مع صديقي «بكري» أن نرتب موعداً قريباً، يجمعنا لتدارُس مسألةٍ معينةٍ، وكان هذا صباح يوم السبت، فلم نوفّق لترتيب موعدنا لساعةٍ تكون شاغرةً لدينا نحن الاثنين، إلّا صباح الأربعاء!

الشطر الأكبر من التعلّم والمثاقفة سيكون مشافهةً، باستثناء بعض

المواد؛ فالقرآن مثلاً كنا نثبّت حفظه عبر ربط كل آيةٍ منه بعقلةٍ (سُلاميّة) من عُقل أصابعنا، فالسلاميّة الأولى من إبهام اليد اليمنى ستكون للآية الأولى من كل سورة، وتتبعها باقي السلاميات.

أما الشِّعر وبعض المتون، فكنّا في البدء نستخدم ورقة القصدير التي تغلّف علبة السجائر من الداخل، حيث يسهل الكتابة عليها بأية أداةٍ مدببة، إلا أن ندْرتَها، والحاجة الكبيرة للمزيد من أدوات الكتابة، دفعتْنا إلى استخدام ألواح الصابون، التي نكتب عليها حفراً ناعماً على الوجوه الأربعة للوحٍ تمّ تجفيفُه لأشهر، وبات يصلح للكتابة عليه كالرُّقُم الفخاريّة.

لكن الابتكار الأهم، والذي سيُحدث ثورةً في عالم التدوين، وإعادة الكتابة مراتٍ ومرات على الواسطة نفسها، هو عبارةٌ عن (بقجة) يصنعها صاحبها لدرْسه، وتكون عبارة عن وسادةٍ صغيرةٍ جداً، بقياس راحتي الكفّين أو أقل قليلاً، يتم حشْوها بأكياس النايلون لتصبح مشدودةً تماماً، ويكون أحد وجهيها أو كلاهما من قماش البوليستر الناعم، وخلال عدة أيام يتمّ مسح كل ما علِق بالأيدي بهذه القطعة، إلى أن تصبح متشرّبةً بالدسم والأملاح والأوساخ، التي ستعْلق بها وتغطيها بطبقةٍ شحميةٍ، يمكن الكتابة عليها بسهولة، بوساطة عودٍ صغيرٍ أو أيَّة قطعة مدببة، وعند الانتهاء من النصّ المكتوب يتم مسْحه بقطراتٍ من الماء، ليعود من جديد معدّاً للاستخدام.

سيكون هذا اللوح لصاحبه بمنزلة الدفتر اليومي، أو الكراس الذي يكتب فيه ما يريد أن يكرره ويحفظه، وستحوي هذه الكراساتُ (**ألفيّةَ ابن مالك**) في اللغة العربية، و(**متن الرحبية**) في علم المواريث، و(**البيقونية**) في علم مصطلح الحديث، و(**الجزرية**) في التجويد، وعشرات القصائد التي سيكتبها شعراءُ من بيننا، وأشياء كثيرة يصعب حصرها.

* * *

٣٤ ـ الإعدامات في الساحة السادسة

كان الحدث الأهمّ في هذه المرحلة هو نقل قاعة المحكمة الميدانية من حمص إلى تدمر، لارتباطها أولاً بتنفيذ أحكام الإعدام بمن سبق الحكمُ عليهم، ولتلافي عملية نقل المعتقلين من تدمر إلى حمص، وما يفرضه هذا النقل والإعادة من إجراءات أمنية مربكة.

وسنعتاد يومي الاثنين والأربعاء من كل أسبوعٍ أن يطلبوا الأسماء التي صدرتْ بحقّها أحكام الإعدام، في الليلة السابقة لتنفيذ الحكم. وسيتم نقلهم من مهاجعهم المتفرّقة إلى مهجع المستودع الذي يقع في بداية الساحة السادسة. وكنا نقوم بحفظ أسمائهم أولاً، وذلك عبر عمليةٍ معقدةٍ يشارك فيها عددٌ كبيرٌ منا، إذ يقوم كلٌّ واحدٍ، وبشكلٍ منظم، بحفظ خمسة أسماء، فيقوم الشخص الأول بحفظ الأسماء الخمسة الأولى ويعيد تكرارها بسرعةٍ مراتٍ عدة إلى أن تترسّخ في ذاكرته، بينما يقوم الشخص التالي بحفظ الأسماء الخمسة التالية، وهكذا دواليك. فنحصي بذلك عددَ مَن سيعدمون في الصباح الباكر وأسماءهم. وبعد أن يتمّ جمْعهم مقيّدين في مهجع المستودع، يُقفلُ الباب عليهم ولا يقترب منهم أحد.

سنمضي ليلتَنا متوجّسين، يسكننا الحزنُ والاضطراب، وأحاسيسُ لا تستطيع الكلمات بسط معانيها، سيكون هناك عددٌ يتراوح بين (ستين ومئة وخمسين) شاباً، يمضون ليلتهم الأخيرة في هذا المهجع المظلم، وهم جلوسٌ على أرضٍ إسمنتيّة باردة، وسنسمع أصواتهم، التي لا يستطيع الحرسُ إسكاتَها في مثل هذه الليلة، وهم يقرؤون القرآن بصوتٍ جهوريّ،

ويرفعون أصواتهم بالدعاء والإنشاد، وهم متيقّنون أنهم مقبِلون على نهايتهم المشرفة، ومِلْءُ أرواحهم الإيمان العميق بأنهم ماضون إلى رحابِ ربٍّ رحيم.

أذكر من أحاديث متكررةٍ، كان يقصّ فيها والدي مشاهداته القريبة لأكثر من سبعين مجرماً محكوماً بالإعدام بين عامي ١٩٥٥ - ١٩٧٠، بحكم موقعه كمساعدٍ في سلك الشرطة آنذاك، كيف كان هؤلاء المحكومون جميعاً، ساعةَ تنفيذ الحكم، يبولون على أنفسهم حين إخراجهم من زنازينهم، ويصابون بالشلل، فلا يستطيعون التقدّم خطوةً واحدةً، فيتم حمْلهم حملاً إلى منصّة الإعدام، باستثناء حالةٍ واحدةٍ كان يحكي عنها بإعجابٍ كبير، إذ خرج المحكوم من زنزانته منتصباً، ومشى بضع خطواتٍ وهو يحيّي قائد الوحدة العربية «جمال عبد الناصر» ويشِيد بعدالته، لكنه بعد عدة خطوات انهارت قواه وسار على نهج سابقيه، فحُمل إلى مشنقته حملاً.

في الصباح الباكر، سنستيقظ على أصوات جلبةٍ كبيرةٍ، يُحدثها ارتطامُ أعمدةِ المشانق بالأرض وهي تُجهّز لاستقبال ضحاياها، وسيشارك عناصرُ البلديات في تنفيذ عمليات الإعدام، التي سيستنفر لها كلُّ مَن في هذا السجن.

سيُقدَّم الصف لمجموعةٍ من كبار الضباط، في مقدمتهم مدير السجن الرائد «فيصل غانم»، والعقيد «شمس» رئيس الشرطة العسكرية ورئيس إدارة السجون في سورية، والقاضي العسكري الرائد «سليمان الخطيب» الذي أصدر أحكامه على هؤلاء المساقين إلى حتفهم، إضافةً إلى مجموعةٍ من ضباط القصر الجمهوريّ، يرافقهم مصوّر فيديو يوثّق جميع الإعدامات، في فيلمٍ سيُنقل للطاغية المتربّع على قمة جبل (قاسيون).

يقف الجميع على هيئة قوسٍ، وأمامَهم ستكون أعواد المشانق ملقاةً على الأرض، ربما يكون عددها زهاء خمسٍ وعشرين مشنقةً لا أكثر.

يُفتح باب المستودع، ويُنقل المحكومون فرداً فرداً حسب ورود

أسمائهم في القائمة، يمسك جلّادان بهذا السجين ويقوْدانه جرْياً أمام إحدى المشانق، بينما يقترب منه القاضي «سليمان الخطيب»، فيقرأ اسمه واسم أمه وأبيه، ويكشف عن وجهه العصابة ليتحقّق منه، ثم يعيدها مُصدراً الأمر بشنقه.

في هذه اللحظة، يكون أحد الرقباء ممسكاً بالحبل الذي يتدلّى من قائمة المشنقة، بعد أن ترفعها مجموعةٌ من عناصر البلدية أو الشرطة إلى مستوى عنق المحكوم، وما إن تلتفّ الأنشوطةُ حول عنقه، حتى يدفعوها بكل عزمٍ للأعلى، فتنتصب على أربع قوائم غليظة، يجلس كل جلّادٍ على قائمةٍ منها ليثبّتها أرضاً، بينما تتأرجح الضحية وهي تنازع أنفاسَها الأخيرة.

خلال سير هذه العملية، تكون الضحية التالية تسير وفق التسلسل ذاته، فترى الأعوادَ تنتصب واحدةً تلو أخرى، بفاصلٍ زمنيٍّ لا يتعدى دقيقةً واحدة. وما إن تكون المشنقةُ التاسعة أو الثامنةُ تَرفع ضحيتها، يكون رهطٌ آخر من الجلّادين يُنزلون الضحية الأولى بعد أن تحقّق موتها.

وهكذا تسير عملية الإعدام بشكلٍ متسلسلٍ سريع، مشانقُ ترتفع وأخرى تتخفّف من أحمالها ليُعاد استخدامها مجدداً، وأصواتُ الضحايا وهم يكبّرون ويهلّلون ويصرخون بأسمائهم، ليعلم جميع مَن يصله الصوت، أنهم يُشنقون الآن.

يستمرّ تنفيذ الإعدام ساعةً، تزيد أو تنقص قليلاً حسب عدد الضحايا الذين يتم إعدامهم، وكلما تكدّستْ مجموعةُ جثثٍ أسفل المشنقة، قامت مجموعةٌ من الجلادين بسحبها كيفما اتفق جانباً، ليتّسع المكان لمزيدٍ من الجثث الباردة، التي كانت قبل قليل تضجّ بالحياة.

بعد أن ينتهي تعليق جميع المحكومين على أعواد المشانق، وإنزالهم جثثاً ساكنة، يعيد القاضي «سليمان» مطابقةَ عددهم بعدد الأسماء الواردة في قائمته الورقية، وبعدها يتقافز الجلّادون والبلديات وبعض الضباط منهم، ويركلون بأقدامهم جثثَ الضحايا، ويُظهرون فرحاً صاخباً

بانتصارهم. ثم يأتي الطبيب العسكري فيفحص جثثَ الضحايا المقتولين، واحداً واحداً، ليتحقّق من ثبوت الوفاة، ثم تأتي سيارة (زِيْل) عسكرية أو سيارتان، فتُرمى داخلها جميعُ الجثث، لتُنقَل إلى وادٍ في ظاهر تدمر، حيث يُرمون في حفرةٍ جماعية.

سألتقي في نهاية عام ١٩٩٨، في متحف تدمر، بمديره المرحوم «خالد الأسعد»، وبرفقتي صديقي «نادر» الذي كانت تجمعني به صحبةٌ عتيقةٌ خلال سني السجن المديدة، واستطعنا أن ننتحي بالمدير جانباً ونحدّثه عن حياتنا في هذه المدينة الساحرة، التي عشنا فيها قرابةَ ثماني سنوات، دون أن نمشي في شوارعها خطوةً واحدة!

عجبَ لحديثنا معه، لفرادته وغرابته، ولجرأتنا على مبادرته بالحديث عن أحد أهم المحرّمات في هذه المدينة، مع أن الجميع هنا شهدَ وسمعَ أصواتَ تعذيبنا، وأصواتَ حفلات الإعدام الصباحية. وكانت أجهزةُ الأمن تداهم البيوت القريبة من السجن كلَّ حين، فتبالغ في تفتيشها وتهديد أهلها، إن هم تكلّموا ببضع كلمات حول ما يسمعونه.

وحين سكنت نفسُه إلينا، بكى من حرقةٍ وطولِ صمتٍ وعجز، لما حصل ويحصل في هذه المدينة، وقصّ علينا كيف كانوا يُمضون أمسياتهم وهم يصغون بألمٍ كبيرٍ إلى أصواتنا ونحن نُجْلد ونُقتل، وكيف اعتادوا أن يستيقظوا في كثيرٍ من الأيام على أصوات أعواد المشانق، وصيحات الرجال الذين يملؤون الفضاء بتكبيرِهم، وأرواحُهم تصعد إلى السماء.

بعد انتهاء نقْلهم من ساحة الإعدام إلى بقعةٍ مجهولةٍ في صحراء تدمر، ينصرف الجمعُ المنتصر، بينما تشرع البلديات في غسل تلك البقعة من آثار المقتولين. ويسود صمتٌ طويلٌ، لا يقْطعه إلا رنينُ مكبس الآجر، الذي يُعيدنا إلى رشدنا، فنحن ما زلنا هنا في تدمر، شاهدين على ما يحصل في ساحتها السادسة.

كل هذا يجري في الخارج، بين الساعة السادسة والثامنة صباحاً على أبعد تقدير، أما في الداخل، فيكون المهجع (٣١) على وجه التحديد ـ

حيث أقيم ـ ولموقعه المباشر قبالةَ ساحة الإعدام، يرقب الحدثَ بأعين حذرة؛ ففي حجْرة الحمام الصغيرة نقوم بإطفاء المصباح، لتكون الحجرة مظلمةً وعصيةً على الكشف من الخارج، وفي صدرها ستقف مجموعة من المتطوّعين على شكل هرم، قاعدته مشكلةٌ من ثلاثة أشخاص، يقف فوقهم شخصان، ويتسلق الثالث فوق سابقيه، ليكون بمستوى النافذة، فيرقب المشهد كاملاً بأمّ عينيه، وسرعان ما يغادر موقعَه ليحلّ محلَّه مراقب آخر، ستكون حصةُ الواحد فينا لا تتعدّى دقيقةً واحدة، تكون كافيةً ليشهد عمليةَ إعدامٍ كاملة.

بينما يجري هذا التكنيك المعقّد، في رصد الإعدامات من داخل حجرة الحمام، يكون هناك فريقٌ آخر يرصد المشهد ذاته من ثقب الباب، حيث يكون النظر في وضعيةِ المنبطِح أرضاً، وإلصاقِ العين في هذا الثقب الصغير، ليتّسع المشهد للساحة كاملةً، ويساعد في قدرتنا على تنظيم دورٍ طويلٍ، لمن يرغب في رؤية الأصدقاء وهم يودّعون الحياة مقهورين مظلومين. يساعد في كل هذا انشغالُ الحرس بمتابعة مشهد الإعدام، الذي يكون في البدء مثارَ دهشتهم، لكن مع التكرار والاعتياد يصبح مشهداً مألوفاً وشيقاً.

وأذكر يوماً كان عدد المعدومين فيه صغيراً جداً مقارنةً بالوضع السائد، وكنا ننظر إلى الحرس وهو يعدّهم ويشير إليهم بسبّابته، وحين انتهى بإشارته عند العدد (سبعة عشر)، برمَ شفتيه وحرّك يده باستهتار، مشيراً إلى تفاهة هذا العدد.

جرت العادة أن نمتنع عن الطعام عقب حفل الإعدام يوماً كاملاً بشكلٍ تلقائيٍّ في بداية الأمر، ثم صرنا نمتنع عن وجبة الإفطار وحسب، أو نؤخرها قليلاً من شدة التأثّر، واحتراماً لأرواح مَن مضوا وتركونا في هذا الصباح الطويل من العذاب والانتظار، الذي لا تُرجى له نهاية.

سأتذكر هذا بعد سنتين، حين قدِموا نهاراً ونحن جلوسٌ في مجموعات طعام الإفطار، فطلبوا صديقنا «حسن بركات»، وكان يجلس

إلى يميني، وكان فطورنا عبارة عن مزقة لبنٍ وقليلٍ من الشاي، طلبوا منه أن ينهي علاقته بالمهجع ويحضر معه جميع أشيائه. تحرّك «حسن» دون تردّد، ولم يأخذ معه أيَّ شيء من متعلقاته الشخصية، واكتفى بأن همسَ بضع كلماتٍ في أذن صديقٍ له من قريته (أورم الكبرى)، وحين سأله الرقيب عن أغراضه وملابسه، أجابه أنها تنفع للأحياء ولا تلزم الأموات.

عصبوا عينيه وقيّدوه، وساقوه إلى الساحة السادسة لتنفيذ حكم الإعدام، قدّم رئيس المهجع الصف، وجلس الجميع في أماكنهم يتابعون الإفطار وهم صامتون، يتابعون مضغَ لقيماتهم التي توقّفت حين فُتح الباب، سارت تفاصيلُ هذا اليوم بعد خروجه كما كان مخططاً لها دون أدنى تغيير.

لم يعُد للموت رهبة، ولم يعُد للحزن سطوةٌ على النفوس، فالموت أرحم ألفَ مرةٍ من يومٍ واحدٍ نُمضيه في هذا الجحيم، الذي لا يُرى له قرار.

❊ ❊ ❊

٣٥ ـ المحكمة

بعد ساعتين، ستبدأ عملية قراءة أسماء مَن سيُعرضون اليوم على محكمة الميدان العسكرية، التي تم نقلُ مقرّها من الفرع العسكري بحمص ـ قلعة «غازي كنعان» ـ إلى سجن تدمر العسكري، الذي يعتقل فيه «حافظ الأسد» شعبَ سورية كاملاً، من خلال الرعب الذي يسرّبه من ثقوب هذا المعتقل الأصمّ.

سيُنادى على الأسماء، ثم ستُفتح الأبواب ليَخرج كلّ مَن وردَ اسمُه في هذه القائمة. وكثيراً ما كانوا يعودون للبحث عن اسمٍ لم يعثروا عليه، إمّا لقراءتهم الاسم بطريقةٍ خاطئة، أو لأنّ المنادى عليه قد لقيَ حتْفه في ساحة التعذيب، أو بسبب مرضٍ أودى به دون علاج.

وسيُنقل مَن وردتْ أسماؤهم في رتلٍ طويلٍ إلى الساحة الأولى، حيث خُصصتْ غرفةٌ تحوي طاولةً وكرسيين للقاضي وكاتبه، وسيُنادى على الأسماء بالتتالي، ليسمعوا حكْمهم ويعترفوا بجرمهم، ويوقّعوا أو يبصموا على ورقةٍ لا يقرؤون منها حرفاً واحداً. والويل لمن يحاول أن يتكلم أو ينكر أو يعترض على صحة الجرْم المنسوب إليه، كأن يزعم أنه اعترف بهذا تحت وطأة التعذيب، ساعتَها سيؤمر به لينال قسطاً وافراً من الجَلد والركل والضرب، ليكون هذا كفيلاً أن يتعلّم منه الآخرون، فيلزَمون الصمت والإقرار، وهم يسمعون الجرائم التي لُفّقت لهم، والتي تودي بهم دون أدنى شكٍّ إلى حبل المشنقة، الذي ينتظرهم قريباً.

سيكون يوماً طويلاً وحافلاً، سيعود مَن خرج إلى المحكمة عصراً، بعد أن ينتهي القاضي العسكري من استعراضه لجميع مَن حضرَ محكمته في هذا اليوم، وسيُبلّغُ معظمُهم بالأحكام التي تنتظرهم، والتي تكون جميعها مدوّنةً قبل حضور القاضي إلى تدمر. سنسمع صوت مغادرتهم بطائرة الهيلوكوبتر العسكرية التي قدِموا بها صباحاً، والتي تنطلق عصراً لتعيدهم إلى مطارٍ عسكريّ في دمشق، لينقلوا شريط الفيديو الذي صوّر خصومَ «حافظ الأسد» السياسيين وهم يُعلّقون على أعواد المشانق هذا الصباح.

بعودةِ مَن خرج إلى المحكمة من مهجعنا، سيكون الوقتُ مخصصاً بالكامل ليقصّ علينا كلٌّ واحدٍ منهم تفاصيلَ ما سمع أو شهد، وسيروي تفاصيل الحديث الذي دارَ بينه وبين مَن جاوره في الساحة، قبل المحكمة أو بعدها. سيحمل العائدون أخباراً عن مهاجع أخرى، وأخباراً وصلت إلى مهاجع أخرى من خلال وافدين جدد من فروع التحقيق، وينقلون الأعداد الجديدة التي آلتْ إليها تلك المهاجع بعد الإعدامات الأخيرة، وربما يصلنا عبْرَهم أحياناً تصحيحٌ لروايةٍ من الروايات التي نعتمدها في القرآن المحفوظ أو الحديث، أو لحكمٍ فقهيٍّ صدر عن الشيخ «هاشم المجذوب» في مهجعه.

وسنسمع في كل مرةٍ العجبَ العجاب من بلاغة القاضي العسكري، الذي أوكل إليه القصرُ الجمهوري مهمةَ الفصل في أمر المعتقلين الذي تجرّؤوا على قول (لا) لحاكم سورية الفرد، وتَرك له أمرَ الاختيار بين قتْلهم مباشرةً، أو تعليقهم على أعواد المشانق. وفي كل مرةٍ يبتدع فيها أمراً أو حكماً، يكون له قصبُ السبق في اجتراحه.

وفي المحكمة الأخيرة هذه، تفتّق ذهنه الألمعيّ عن مقايضةٍ يجريها بين أبٍ وولديه اللذين يحاكمان معه؛ فقد عمدَ إلى تخيير الأب الكهل بين ولديه، ليختار مَن منهما سيُعدم ومن منهما سيبقى حياً، فقد وعدَه بأن

يكون رحيماً مع شَيْبِه البادي ويُبْقي له على أحدهما، شريطةَ أن يكون الأب هو من يختار بين ولديه!

يا لتعاسةِ هذا الأب وشقائه! كيف سيقضي بإشارةٍ من سبابته، لاختيار مَن سيُقتل مِن ولديه، ومَن ستكتب له الحياة؟

بكى كلّ مَن سمع القاضي وهو يخاطبه بأعصاب باردة، بينما يتقلّب الرجل بين قهرٍ وعجز، وعبثاً يحاول الرجل جاهداً أن يثني القاضي عن هذا العرض الذي لا يطاق. ولكن لو لانتْ صخرةٌ في جبل العرب، لتحرّكَ عصبٌ في قلب هذا الجزّار الذي يتمتّع بتعذيب المتهمين وقتلهم.

في النهاية نهض القاضي عن كرسيه، وأمسك الشيخَ المُسنّ من رقبته، وحَسم الأمر:

ـ إما أن تختار بينهما، أو أعدم لك الاثنين معاً..

كلنا يعلم أن هذا الوحش يستطيع أن يفعل هذا لو أراد، وستُكتب هذه الجريمة في صفحة مناقبه عند أسياده. لم يكن لهذا الأب المسكين من حيلةٍ إلا أن يشيح بوجهه بعيداً وقد تخضّب وجهُه بدموعه، ويشير بطرف يده إلى واحدٍ منهما لا يعرف مَن هو. ستغرقُ عيناه بسيل الدموع، وسيعجز عن التمييز بينهما، وسيختار جسداً قريباً منه لا يعرف اسم صاحبه.

ربما كان من محاسن الأمور أن يكون الرجل وولداه من مهجعٍ غير مهجعنا، لنكون بمنجاةٍ عن متابعة تداعيات تلك القصة الرهيبة، وكيف سيمضي هذا الشيخُ تلك الأيام، التي ستفصل بين صدور حكم الإعدام وساعة تنفيذه، والتي قد تطول لعدة سنوات، ينظر في وجه ولده، الذي قرر هو بنفسه أنه سيُقتل دون أخيه!

سينقل لنا مَن خرج إلى محكمة اليوم الصيحات والكلمات التي سينطق بها أصحابُها قبل أن يُعلّقوا على أعواد المشانق، إذ جرت العادة أن يختار كلُّ مَن صدر بحقّه حكمٌ بالإعدام بيتاً من الشعر أو قولاً مأثوراً

أو جملةً خاصةً به، يصرخ بها وهو يُساق إلى الموت، ليعلم كلُّ من يعرفه أنه يُعدم الآن.

فهذا «بكري» يصرخ: «الله أكبر يا عرب»، و«أبو عبيدة» سيصرخ: «فزتُ وربِّ الكعبة»، وآخر سيصرخ: «ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً»، ويصيح آخر: «أخوكم شريف دواليبي». وهكذا كنا نسمع الصيحات فنعرف مَن الذي يُعدم الآن.

* * *

٣٦ ـ إشارات «المورس»

عقب كل حدثٍ مهم، تشتعل شبكة المراسلات بالأخبار السائلة بين المهاجع، ويبدأ النقرُ على مواسير المياه المعدنية على قاعدة (أبجد هوّز)، التي كان يجيدها العديدُ منا، والتي تعْبر الجدارَ من مهجع إلى آخر، فتعمّم أسماء من أُعدموا في هذا اليوم، ومن حُكم عليه بالإعدام، وتفاصيل الصيحات التي سيصرخ بها أصحابُها ساعةَ تنفيذ الإعدام، والتي وردتْنا من خلال اللقاءات التي جرتْ في المحكمة بغفلةٍ عن عناصر الشرطة.

وكنا نختار أوقات المراسلة بالنقر خلال ساعات التعذيب، إذ يكون عددٌ من معتقلي المهاجع في الساحات يتعرّضون للتعذيب اليومي، ويكون الحرس منشغلين بحماية الجلّادين بسلاحهم من عَلُ؛ تضيع خلال ذلك أصواتُ النقر المنتظم بين أصوات المعذَّبين وصراخهم.

وحين تنقطع المياه ـ وهذا ما يحصل مراراً كل أسبوع ـ سيكون هناك سبيلٌ مختلفٌ للتواصل؛ إذ سيقوم أفرادٌ مختصّون بسحب المياه المتبقية في الأنابيب، عن طريق شفْطها بالفم إلى أن تفرغ تماماً، فتصبح قناةً موصلةً للصوت، ويقوم كل من عُهد إليه بهذا النشاط بوضع خرطوم الماء الموصول بالأنابيب المفرغة، ويتحدث بعد نقرةٍ أولى، تعتبر شارةَ البدء للمحادثة التي ستحْمل في طيّاتها الكثير في كلا الاتجاهين. ثم ينهي المتحدث جملته الطويلة بكلمة: «انتهى»، فيبدّل من وضع طرف الخرطوم من فمه إلى أذنه، بينما يقوم الطرف المقابل بالعكس، ويبدأ الحديث أو يجيب عن السؤال.

سيستمر هذا الحديث لساعات، يتم خلالها تبادُل كلّ ما وصل إلينا من معلوماتٍ متعدّدة المصادر، بدءاً من عودة أحدهم من فرع الأمن عقب طلبه للتحقيق، أو عودة مريضٍ كان في زنازين العزل، وسمِعَ ما سمعه من حديث الرقباء أو الضبّاط الذين لا يشعرون بوجوده أصلاً، أو عن طريق سجينٍ تمتْ زيارته من قِبل أهله، بوساطةٍ عاليةِ التأثير من وزير الدفاع شخصياً، أو بدفع رشوةٍ عظيمة لمدير السجن وصلتْ في بعض الأحيان إلى سيارة مرسيدس موديل ١٩٨٣ جديدة لم تُمسّ من قبل، أو مبلغٍ ماليٍّ يتعدّى مليون ليرة سورية في كثير من المرات، لقاءَ زيارةٍ لا تتعدى العشر دقائق لا أكثر.

وأخيراً ستكون الرؤى والمناماتُ المتميزة، والتي تحمل بشاراتٍ واضحة، مصدراً أخيراً من مصادر الأنباء المتناقَلة، وربما أهمها.

وفي لحظةٍ غير معلومة سيسمع المتحدثون عبر الأنابيب صوتَ انسيابِ الماء في الأنابيب من جديد، طارداً الهواء الذي كانت تنساب عبرَه المحادثات، فتنقطع الأحاديث لتتخذ سبيلاً مختلفاً في التواصل من جديد.

ستنتقل تفاصيل هذه المحادثات إلى جميع مهاجع الساحة الواحدة، والتي قد تصل إلى ثمانية مهاجع في الساحة السادسة وقتَها، ولاحقاً سيتم بناء مهجعين إضافيين.

* * *

٣٧ ـ دخول الملح

سيكون يوماً مشهوداً من الصعب نسيانه؛ لقد طلبوا صديقَنا «كنان» إلى زيارةٍ خاصة، وهو شابٌ من مدينة حمص، التي اشتهر أهلُها بدماثة الخلق ولينِ المعشر وبلمعةٍ في الذكاء، على عكس ما تشِي الطرائفُ التي تحكي عنهم، وكثيراً ما يشاركون هم أنفسهم في روايتها.

كان والد «كنان» مهندساً زراعياً، يدير مشروعاً للتنمية الزراعية في دولة الإمارات، وله حظوةٌ لدى بعض أمرائها، فاستطاع اغتنامَ فرصةٍ مواتية، وطلبَ وساطتهم لرؤية ولده الوحيد لدقائق لا أكثر، وتمّ له ذلك بالفعل.

خرج صديقنا «كنان» للقاء أهله، وسنعرف أن ذهابَه هذا كان لمقابلة أهله من الطريقة التي تم بها استدعاؤه، إذ يطلبون من المعتقل في هذه الحال أن يرتدي أنظف ثيابه، ويأخذونه ـ على غير عادتهم ـ برفقٍ دون ضرب، لكن سيبالغون في تنبيهه وتحذيره إنْ هو نبسَ بحرفٍ واحدٍ عن وضع التعذيب أو غيره، (فكلّ شيءٍ يسير هنا على ما يرام، ونحن في صحةٍ جيدة ونتلقّى أحسن معاملة!). هذا ما ستذكره للأهل، وسيكون اللقاءُ في غرفةٍ بائسة، هي عبارةٌ عن سريرٍ عسكريّ، تفوح منه رائحة العرق المتراكم منذ سنين، وكرسيين من القش، إضافة إلى كرسيٍّ كبير، سيجلس عليه الرقيب الذي سيُحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم.

جلس إلى جوار أمه، التي ما انفكّت تبكي من أول اللقاء حتى

نهايته، وجلس الأب قبالَته مشتتٌ بين تهدئة الأم والاطمئنان على ولده. لم يكن بحاجةٍ لكثيرِ سؤال، فصفْرةُ اللون وبروزُ عظام الوجه ونحولُ الأصابع وتورّمُ الخدّ الأيمن من الصفع واللكم اليومي، تشي بما هو عليه.

تماسَك الأب الزائر للحظات، ثم ما لبث أن انفجر باكياً، أمام ارتباك صديقنا النحيل «كنان»، لأنه سيُحاسب وبشدة عن أي خللٍ أو خطأ يحصل في هذه الزيارة الخاطفة.

دامت الزيارة عشر دقائق لا أكثر، كان هَمُّ «كنان» فيها أن يوصل لأبيه أن ابن عمه فلانٌ قد أُعدم، وأن جارهم فلانٌ حيٌّ يُرزق. وبين عناقٍ وبكاء استطاع إيصال ما أراد، وسلّمَه الأب رزمةً كبيرة من آلاف الليرات السورية، وهو يهمس بإذنه: «لكم جميعاً». لم يكن بحاجةٍ إلى هذه التوصية، فكل ما يرِد إلى المهجع من أي زيارة سيكون للجميع بالتساوي، ويحقّ لصاحب الزيارة فقط أن ينتقي لباساً واحداً من كل ما ورِدَه. لقد كنا كالأشعريّين كما تصفُهم الروايات: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحدٍ، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسوية». وهكذا كنا في جميع شؤوننا، على حداثة سنّنا.

قفل «كنان» عائداً، حزيناً على والديه، وهو يحمل بعضَ ما جاء به أهلُه في هذه الزيارة اليتيمة، ويتبعه جمعٌ من البلديات يحملون له ما لم يستطع حمْله، وكان كثيراً. وما إن تدخل أمتعةُ الزيارة، وهداياها التي خضعتْ لتوّها لتفتيشٍ دقيق، حتى تتسلّمه لجنةٌ تتولى الشؤون العامة وإدارة الموارد.

حَوَت تلك الأمتعة ـ إضافةً إلى كثيرٍ من البدلات الداخلية والبيجامات والقمصان مختلفةِ الألوان ـ أشياءَ سنراها لأول مرة في هذا السجن:

علبة كبيرة من المحارم الورقية، التي سيتحصل كلّ فردٍ فينا على

منديلٍ ورقيّ واحدٍ منها، ويفيض عن العدد ستة مناديل، سيتسلمها المسؤول الصحي، لتكون بمنزلة القطن الذي يُستخدم للجروح.

علبة «فريز» تزن كيلوغراماً واحداً، وكانت هذه الثمرة نادرة الوجود في سورية آنذاك، وكانت هذه العلبة كافية ليتذوّق كلُّ فردٍ فينا حبّةً كاملةً.

لكن المفاجأة الكبيرة، التي ندتْ لها صيحات مَن رأوها أولاً، هي كيسٌ ناصعُ البياض صغيرُ الحجم من الملح، ذلك الرخيص العزيز، الذي غاب عنا ثلاث سنوات، لم نحظَ بذرّةٍ منه. صمتَ الجميع وكفَّ عن الاهتمام بأيّ شيءٍ يشغله، وتسمّرَت العيون على هذا المسحوق الأبيض، ودارَ حديثٌ عاجلٌ بين لجنة التوزيع ومسؤول الطعام وأمير المهجع ورئيسه، واستقرّ الرأي أن يُوزّع بالتساوي ومن فوره على الجميع، وسرعان ما تحلّقَت المجموعات، كل مجموعةٍ من ستة أفراد، فكنا اثنتين وثلاثين مجموعةً تقريباً، وكان مسؤول الطعام «وائل» قد كال بإحدى ملاعق البلاستيك محتويات الكيس الصغير، وعرفَ كم سيكون حجم ملعقة الملح التي ستحصل عليها كل مجموعة.

تحلّقت المجموعات، ووَضعتْ كلُّ مجموعة كأسَها البلاستيكيّ الكبير، ليمرّ صديقنا «وائل» فيسكب لكل مجموعةٍ ملعقةً كبيرةً من الملح، تقارب خمسةً وعشرين غراماً على وجه التقريب. وحين انتهى من التوزيع للجميع، أعطى الإذن ببدء تناول الملح، ستَملأ كلّ مجموعةٍ كؤوسها بالماء، ليكون لديهم ماءٌ مالحٌ، يغمسون فيه ما بحوزتهم من خبزٍ، ويتذوّقون طعم الملح بعد انقطاعه ثلاث سنين. وسيتبقى لديه بضعة غراماتٍ، ستكون في زجاجةٍ بلاستيكية، للغرغرة حين يلتهب بلعومُ أحدهم، أو كمطهّرٍ للجروح، وما أكثرها!

سنتذكر لسنواتٍ يومَ الملح العظيم، وزيارة «كنان». وسيعود هذا الضيف العزيز للاحتجاب مرةً أخرى، لا ندري كم سيطول. وستكون هنالك زياراتٌ أخرى لسجناء يستطيع أهلهم تحمّل النفقات الباهظة لزيارةٍ خاطفة، غرضُها الوحيد التأكّد من أن ولدهم ما زال حياً، على الرغم من

مئات القصص المخيفة، التي تتسرّب إليهم عن فظائع هذا الجحيم المطبق، إضافةً طبعاً إلى إيصال ما أمكنَ من لباسٍ وثمن دواءٍ في صحراء الموت (تدمر)؛ ذلك الاسم الذي سيبقى لسنواتٍ رمزاً لأقسى صنوف التعذيب والقتل، ولجائحات الأمراض، التي لا تلقى أيّ اهتمامٍ من إدارة السجن، التي كانت ترى في الأمراض مساعداً لها في تصفيتنا، دون الحاجة لإجهاد الجلادين، باستثناء ممرّضٍ عسكريٍ وحيدٍ اسمه «أبو رشيد»، وطبيبٍ عسكريٍ يقوم بدور الجلّاد المتفنّن، أكثر مما يمارس دوره كطبيب، وكنّا نادراً ما نراه.

* * *

٣٨ ـ مهجع الجرَب

في مطلع العام ١٩٨١ بدأ انتشار الجرَب والقمل في مهاجعنا وفي سائر المهاجع، وكان المساعد الممرض «أبو رشيد» ـ وهو رجلٌ كبير السنِّ مقارنةً بالآخرين ـ هو الذي يتولّى أمر العناية الصحية من قِبل إدارة السجن، فكان يزورنا كل أسبوع تقريباً، فيكشف على المرضى من مسافة مترٍ، وتحت رقابةٍ مشدّدةٍ تُحصي عليه حركاته ونظراته ونبرة كلماته. يسألهم عن الأعراض، ويكتب لهم من سلّته الدوائية، التي تقتصر على الحبوب المسكّنة ومضادات التحسّس وحبوب المغص والتشنّجات المعوية، إضافةً إلى أشربة السعال والربو وبعض المواد المعقمة، لا أكثر.

وحين بدأ الجرب بالانتشار، كان يأتي ويفحص المرضى بعودٍ خشبي صغير، كي لا تمسّهم يداه، وكان يُحضر معه كل مرةٍ بضعَ عبواتٍ بلاستيكية تحوي (بنزوات البنزيل)، وهو الدواء الشائع لعلاج هامة الجرب يومئذٍ، ويأمر مَن حمَل جلدُه آثارَ الجرب أن يخلع ملابسه في الشمس، ويدهنَ سائر جسده حتى أعلى الرقبة بهذا المحلول البترولي الواخز. وكانت كمية الدواء المعطاة لنا أقلّ مما نحتاجه بكثير، لذا كان الحلّ أن نقدّم للممرض أو طبيب السجن عدداً من المرضى أكبر من المصابين حقاً، فكنّا نقرص بأيدينا مواطن توضّع الجرب عادةً، وهي منطقة البطن وفوق العانة وتحت الإبطين، فنقرص تلك الأماكن قبل الخروج للكشف الطبي، وحين نعرض عليه ينظر من مسافة مترٍ تقريباً، ويظنّه جرَباً، فيمنحنا ما يكفي من هذا المحلول للمرضى الحقيقيين.

وكذلك كان دأبنا في مرضى الحمّى التيفيّة؛ فقد كانوا يمنحون المريض ربعَ الجرعة اللازمة من (الكلورام فينيكول)، وهذا يعني بالطبع أن الحمّى لن تزول وستتطور إلى حالةٍ معنِّدةٍ، بسبب الجرعة الناقصة من العلاج، فكنا نضاعف عدد المرضى عدة مرات لنتحصل على علاج وافٍ لمريضٍ واحد.

لم تنتهِ أزمة الجرَب بهذه المعالجة الناقصة، فالمرضى يحتكّون بالأصحّاء بشكلٍ كثيف، خصوصاً أثناء التنفس والتعذيب، وملابسهم لا تتعرّض لأي نوعٍ من الغسل المناسب أو الغلي بالماء، الأمر الذي يفاقم الحالات ويزيد من عدد المصابين، لدرجة أنه أصبح جائحةً تعمّ السجن برمّته.

لم يكن لدى الإدارة خيارٌ سوى عزل السجناء المصابين عن الأصحّاء، فتمّ استحداثُ مهجعٍ للجرَب، يُجمع فيه جميع السجناء المصابين ويتم علاجهم هناك. ومع تفاقم الوضع تم استحداثُ مهجعٍ آخر. كانت هناك حالاتٌ مستفحلة، يصعب النظر إليها من شدة انتشار التقيّحات والتقرّحات من أعلى الرقبة إلى نهاية الساقين، حيث يتقرّح الجلد وتتقيّح بقعٌ حبيبيّةٌ منه، الأمر الذي يخلّف بقعاً دمويةً وقيحيّة صفراء في الملابس، يصعب غسلها بما هو متوفّر لدينا، إضافةً إلى الآلام التي تُحدثها هذه التقرحات، خاصةً أثناء حكّها ليلاً.

وكان أصدقاؤنا الأطباء في مهاجعنا هم مَن يوجّهون طبيب السجن وممرّضه لنوع المساعدات اللازمة، مثل مضادات التحسّس التي تخفّف من حاجة المريض إلى الحكّة المستمرة، التي تبالغ في انتشار المرض وتؤخّر الشفاء.

كل هذا لا يلغي أهمية مهاجع الجرَب، والمزايا والامتيازات التي يتحصّل عليها المريض في مهاجع الجرب؛ فالجلّادون يبتعدون عن المصابين بالجرب خشيةَ الإصابة خلال ساعات التنفس، لذا سيقتصر تنفّسهم على مجرّد جلوسهم وهم عراةٌ في الشمس، وكان هذا بمنزلة

استجمامٍ قياساً إلى ما يحصل معنا في مهاجعنا من تعذيبٍ وتنكيلٍ مستمرَّين.

إضافةً إلى كمية الطعام، التي تكون عادةً أوفر بكثيرٍ ممّا يصلنا في مهاجعنا، لدرجة أن مرضى الجرب يعتادون طوال بقائهم في مهجع الجرب على الشبع، الأمر الذي أصبح في سائر المهاجع محض حلمٍ بعيدٍ، أو ذكرى كانت جميلة.

الأهم من هذا كله هو ذلك اللقاء الفريد بين أشخاص لم يعرفوا بعضهم من قبل، وهم يعيشون شركاءَ في جميع تفاصيل هذه المحنة، إضافةً إلى لقاءِ أشخاص يعرفون بعضهم البعض سماعاً وعبر تداول الروايات، ولم يحصل قطُّ لقاءٌ بينهم، وهو يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ لقاءنا اليوم بصديقٍ من (الفَسَابِكة)، دامتْ صداقتُنا معه ومتابعاتنا ـ وربما حواراتنا ـ لسنواتٍ عدة.

سيكون هذا الاجتماع أشبهَ باجتماعٍ في أحدِ أسواق العرب، كسوق (عكاظ) أو (ذي المجاز)، وسرعان ما سينكشف الغبار عن طبيبٍ من أحد المهاجع أو أكثر، يشرفون على سير العلاج ويُعهد إليهم بالدواء.

كما سيُعرف مَن حضر من الأسماء المشهورة وأتى إلى هذا اللقاء، فقد كان في كلّ مهجعٍ ـ باستثناء مهجَعي الأحداث ـ رجالٌ معروفون بسعة العلم أو الباع السياسيِّ أو الرتبة التنظيمية، ومعظم هؤلاء عادةً يكونون من المحكومين بالإعدام، ينتظرون أجَلهم القريب. الأمر الذي يجعل منهم شهداءَ أحياء، وسيكون لحديثهم رنةٌ خاصةٌ، وجلالٌ يحتكره أولئك المُقبلون على الموت.

في مسرحيته الجميلة (**الزوجات الثلاث الكاملات**)، يتحدث المسرحيّ الإسباني «أليخاندرو كاسونا» ـ وهو من كبار مؤسّسي المسرح الإسباني الحديث ـ عن رجلٍ يخطّ رسالتَه الأخيرة قبل الإقدام على الانتحار، فيقول مدلّلاً على مدى صدق رسالته: «إنّ مَن كان في قبضة الموت لا يكذب أبداً». وهذا ما كنا نراه في هؤلاء الرجال المقبلين على الموت، والذين لا تجِد لهم أرَباً في أي شيء.

كان مهجع الجرب في ساعاته الأولى يشبه خليةَ نحلٍ في أوْج نشاطها، كلٌّ واحدٍ يبحث ويسأل، ويقدّم نفسه للآخرين ويتعرف إليهم. ضجيجُ الحركة هذه وسرعتُها ناجمان عن تشوّقٍ عالٍ لأيّ شيءٍ جديدٍ قد يأتي به هذا الاجتماع بأشخاصٍ آخرين، غير الذين اعتاد المعتقل وجودهم في مهجعه مدة أربع وعشرين ساعة يومياً. وسيكون لهذه الأحاديث الممتلئة بالحماسة دويٌّ هائلٌ يسمعه الحرس، ويصرخ بالمهجع لالتزام الصمت، مهدّداً متوعّداً، فيبرّر له رئيس المهجع بأن المرضى يشرحون للأطباء مشاكلهم.

الأمر الثاني كان معرفة الجميع أن مدة هذا الاجتماع المحبّب لن يتعدّى بضعة أيام، تقلّ أو تكثر قليلاً، وسيكون هذا الغياب عن المهجع الأمّ أشبه باستراحةٍ بمنتجعٍ، يُمضيها المرء في مدينةٍ بعيدةٍ عن مدينته، وستكون الحكايات العجيبةً والمبهرة هي الهدية الثمينة التي سيعود بها كلُّ مريضٍ إلى مهجعه. فكل مهجعٍ عالمٌ خاصٌّ وفريدٌ، ومستقلٌّ عن جميع ما حوله، وله من الأعراف والقوانين المختلفة عن الآخرين ربما بالقدر ذاته الذي نجده في اختلاف دولةٍ عربية عن كوكب اليابان.

سيتم تدقيق الآيات القرآنية في مواضع الاختلاف، وعادة يكون الاختلاف في حرفٍ منها، مثل ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أو «فجاوزنا».

وسيتمّ تناقُل بعض القصائد التي ذاع صيتها، وأصبحت معْلماً فنياً يُشار إليه، مثل قصيدة (رسالة إلى الإمام)، وهي قصيدةٌ ملحمية طويلة، يرسلها الشاعر على لسان سجناء في سجن تدمر، تشرح للإمام المتخيَّل (ليس لصفة الإمام هنا أيّ ارتباطٍ بإمام الشيعة) ما نالَنا منذ لحظة الدخول إلى الساحة الأولى، وصولاً إلى تفاصيل جائحتي الجرب والكوليرا، وتعليق الشباب على أعواد المشانق. ولا تفتأ القصيدةُ تختم كلَّ مقطعٍ فيها بعبارة: «أترُاكَ شُقَّ عليك وصفٌ بالكلام؟ السجنُ مرٌّ يا إمام». والإمامُ في هذا السياق هو كلُّ مَن كان في موقع القيادة والقرار، وانشغل بترتيب

حياته الجديدة في المنفى مع إهمالٍ مُخْزٍ لجموع المعتقلين المحسوبين على تياره، ولاسيما بعد أن تسرّبَت الأنباء عن ترف حياة بعض القيادات الإخوانية في منفاهم في العراق في كنف «صدام حسين»، وكان لهذا أسوأ التأثير على الكثير من المعتقلين والمحسوبين على تيار الإخوان المسلمين. وتُنسب القصيدة إلى شابٍ فلسطينيٍّ اسمه «يحيى حناوي».

كذلك ستُصحح روايات بعض الأحاديث النبوية المحفوظة، والفتاوى الفقهية، وما رُوي عن «الشافعي الصغير»، وهو لقب الشيخ «هاشم المجذوب» أحد مشايخ دمشق، الذي اشتهر بطول باعه في الفقه الشافعي، وما حكاه «أبو العون» ـ وهو من قيادات التنظيم في حماة ـ قُبيل إعدامه.

وبالاهتمام ذاته، سيتمّ تداولُ أسماء مَن أُعدموا، ومَن ينتظر تنفيذ الإعدام، ومَن اختار لصيحته مقولةً محددةً يصرخ بها حين تعليقه على المشنقة، وسنتناقل وصايا بعض مَن يتوقّع أن يكون موعدُ إعدامه قريباً. كنا نعيش مع الموت القادم عبر أعواد المشانق، كجارٍ ودودٍ من الجوار، يأتي ليحمل الرحمةَ والخلاص لمن اختارهم، ويترك الحزن العميق مع الأسى لمَن أهملهم.

وحين قدوم يوم الكشف الطبي، لفحص مرضى الجرب والكشف عن المرضى الذين تماثلوا للشفاء أو انتهت مدة إجازتهم ـ كما سيقرر الأطباء في هذا المهجع ـ سيضجّ المكانُ بحركةٍ عجيبة، فيها من حزنِ المفارقين، وفرحةِ العائدين إلى مهاجعهم التي اشتاقوا لمن فيها، ولن ننسى ما سيتركه بعضُ مَن ينتظرون الإعدام من أمتعةٍ قليلة، ربما تنقل إلى أهلهم لو خرج أحدنا من هذا السجن، وسيحفظ كلُّ مَن حملَ هذه الأمانة اسمَ الشقيق أو الأب الذي سيسلّمها له يوماً ما، وعنوانه بالتفصيل، وربما رقم هاتفه، وسيبقى لسنواتٍ يكرّر تلك المعلومات حتى لا ينالها مبضع النسيان، وهو يحتفظ بهذا القميص بين أمتعته، وربما يغسله بين فترة وأخرى، كي يتخلص من الرائحة العطنة التي كانت تصيب جميع أمتعتنا.

هذا القميص أو قطعة المتاع سيكون الدليل الجازم لدى أمٍّ تنتظر

ولدَها أو زوجها لسنوات، وترفض أن تقبَل خبرَ موته دون دليلٍ ملموس، وحتى مع قدوم هذا الدليل ذات يوم، سيكون أطيبَ لقلبها أن ترى فيه خبراً كاذباً، فلن يكون من السهل قبولُ الفقْد، والأصعب قبول أن يذهب ذلك الانتظارُ الطويل، وآلافُ الدموع والتنهّدات والحسرات هباءً.

وسأذكر في يومٍ بعيد، بعد مقابلةٍ تلفزيونية ذكرتُ فيها اسم صديقي «خلدون» الذي لقيَ حتفَه في الساعات الأولى في سجن تدمر، وصادف أن سَمعتْ هذه المقابلةَ أمُّ ذلك الفقيد وعائلتها، ما زلت أذكر كيف اتصل بي شقيقُه من بلدٍ بعيد، يسألني عن تفاصيل تخصّ أخاه، ليتحقّق بالقرائن من دقّة معرفتي به، وتطابُقِ هذه المعلومات مع شخص أخيه، وحين تمّ له ذلك على أكمل وجه، ولم يعُد هناك أدنى شكّ بدقّة روايتي، شكرني بحرارةِ مَن وجدَ ضالته، ثم صمت لثوانٍ طويلةٍ خلْتُه يبكي خلالها، وقال لي بالحرف الواحد:

«أشكرك من كلِّ قلبي، وأمي تدعو لك؛ فاليوم، وبعد خمس وثلاثين سنة من الانتظار المرّ، ستصلّي أمي صلاةَ الميت الأخيرة على ولدها، وستبكيه طويلاً، وستنام قريرةَ العين هادئةَ البال، لأول مرة منذ زمنٍ بعيد، فهي تعرف الآن على وجه اليقين أين يثوي ولدُها، وأنه بمنجاةٍ عن أهوال التعذيب اليوميّ الذي تسمع عنه».

سيكون يوماً حافلاً من الصباح الباكر، لا يشبه بحركته وضجيجه إلّا حركة خليَّة النحل وهي تشارف على الانقسام. وفي ضحوة النهار سيأتي الممرض «أبو رشيد» ومعه ما يلزم من عناصر الشرطة، ليقوم بنقل مَن تم شفاؤه بناءً على تقييم الأطباء في مهجع الجرب، دون الحاجة ليعيد فحصهم بنفسه، فهو يعلم بحقٍّ أن وراء هذه الأبواب تقيم نخبةٌ من أمهر الأطباء السوريين، الذين طالما أداروا مشافيها وأبدعوا في غرف عملياتها، وكان يُظهر لهم من التقدير والاحترام ما تسمح به طبيعة العلاقات في هذا السجن، وكان شديدَ الانضباط بعمله، فلا يتجاوزه ليكون جلّاداً، ولا يُبدي أدنى حسٍّ إنسانيٍّ مِن شأنه أن يودي به في مهالك، هو حريصٌ كلَّ الحرص أن يكون بمنجاةٍ منها.

ستتمّ إعادة كلّ مَن تماثلَ للشفاء إلى مهجعه، وستكون علائمُ التنعّم باديةً على وجوههم، من وفرة الطعام وقلّة التعذيب، تلك الوفرةُ التي لا تبلغ ـ في أحسن أحوالها ـ الحدَّ الذي يناله فقيرٌ من بلدٍ يعاني من المجاعة على أحد الأرصفة!

سيستقبل مهجعُنا اليوم العائدين الغانمين من مهجع الجرَب، وسنودّع في الدقيقة ذاتها رهطاً آخرين من حديثي الإصابة بهامة الجرب، وهكذا يبقى سيل الاتصالات موصولاً، وتبقى الأخبارُ تتواتر في جميع الاتجاهات، وهذا ما جعل من المهاجع الأربعين في سجن تدمر قريةً كبيرةً، بات يعرف القاصي فيها الداني، وسيكون يومُ عودة الجربى المتماثلين للشفاء يوماً غنياً بكل ما هو مشوّقٍ، من أخبار وطرائف وأشياء أخرى.

* * *

٣٩ ـ الفدائيون

سيكون من عادة حراس السجن أن يطوفوا بسطوح المهاجع ليلاً، يراقبون مَن يتحرك أو مَن يتكلم مع جاره، وعادةً سيجِد مَن يكلّم حرسَنا الليليّ لحجزِ دورٍ إلى الخلاء، أو يطلب مِن جاره أن يصحّح وضعه في النوم ليعود إلى مكانه، فيصرخ بحارسنا الليلي أن (يُعلّمه) ـ أي يحدّده ـ لكي يتذكّره صباحاً حين سيطلبونه عند إدخال الفطور.

لكن مَن تمَّ (تعليمه) من هذا الحارس العسكري، سيُمضي ليلتَه على جمر الانتظار، وربما سيتمنى لو تنزل به في الحال تلك العقوبةُ المنتظرة غداً لينتهي من هذا القلق والخوف الذي سيلازمه حتى تلك الساعة، وفي الغالب لن يتذوق هذا المسكين طعمَ النوم، وسنجده من أول الجالسين قربَ باب المهجع منتظراً جلّاده، وسترقّ لحاله قلوبُ العشرات ممن يعرفون طعم هذا الانتظار.

وحين تبدأ أصواتُ صفْق الأبواب معلنةً عن توزيع وجبة الإفطار، وتكون دقّاتُ قلب صاحبنا قد جاوزت المئة وثمانين ضربة في الدقيقة، وبدتْ عليه كلُّ علامات ارتفاع الضغط وشحوب الوجه، ستقترب منه مجموعةٌ من الشبان الفدائيين، سيطلبون منه التنحّي جانباً، فهُم مَن سيخرجون لتلقّي التعذيب عنه، سيتلقّون عنه تعذيباً مجهول الكمّ والكيف، وربما يفضي إلى الموت، وفي حالاتٍ كثيرة يعود الفدائيّ بكسرٍ في يده أو ساقه، أو ضلعٍ من أضلاعه الصدرية، مع الكثير من الدماء النازفة من وجهه أو رأسه بطبيعة الحال.

سيمانع صاحبُنا، ويتمسّك بتحمّل ما كُتب عليه، وستأخذ المسافةُ بين الجلّادين القادمين وباب مهجعنا بالانحسار، وسيتدخّل رئيسُ المهجع لفصل الأمر وتقرير مَن سيخرج.

وفي غضون ثوانٍ معدودةٍ، يتم تقرير مَن هو الفدائي الذي سيخرج، وحين يُفتح الباب ينادي الجلاد: «مين اللي علّمه الحرس ليلاً؟»، فيخرج بطلُنا ويتلقّى ما قُدّر له من الجَلد والركل والتعذيب، ويعود ونفسُه ملْءَ السماء، فنهرع إليه نمسح جروحَه وندلّك ما ازرقَّ من جِلده. ويتكرّر هذا الحادث مراتٍ في الأسبوع، وفي كل مرةٍ يكون هناك رهطٌ من الشباب المتطوعين لتلقّي العذاب.

سأعيش طويلاً، وسأشهد الكثير الكثير، لكنني لن أجدَ فداءً يضارع هذا الفداء. مثارُ الدهشة في هذا الأمر أنّ مَن يخرج فداءً لشخصٍ آخر قد يكون خصماً فكرياً له، وقد تكون بينهما خصومةٌ وجفوةٌ وانقطاعُ صلة، كلّ هذا لن يكون له أيّ اعتبارٍ أمام مواجهة الجلّاد، وبذْل النفس فداءً للآخرين.

ذات مساء، تمّ تعليمُ شابٍ قصيرٍ بادي النحول، وتم التأكيد على رئيس المهجع أن يخرجه صباحاً، وتمّت الترتيبات كما تجري في كلّ مرة، وكان الشابّ الذي تطوّع لتلقّي التعذيب عنه جاهزاً قرب باب المهجع، ينتظر الأمر لخروجه، وتم إدخال الطعام وأُغلق الباب، ولم يقمْ أحدٌ بطلبِ مَن تم تعيينه الليلةَ الفائتة، وظننا أن الأمر انقضى، وأن الحارس أهمل الأمر عامداً أو نسيَه.

لكن في حصة التنفس، ونحن نتلقّى التعذيب اليومي، قدِم الحارس الذي علّم صاحبنا، ونحن مستلقون على ظهورنا نتلقّى الجَلدَ والضرب، فنادى بنا أن يخرج مَن تمَّ تعليمه الليلة، وكوننا مبعثرين في ساحة التعذيب ولا سبيلَ لتنسيق الأدوار، فقد تحرّك خمسةٌ من تلقاء أنفسهم، ليقول كلُّ واحدٍ منهم: «أنا من ناديت».

يتوقف التعذيب، ويتحلّق الجلّادون مع الرقيب «مرهج» ـ وهو مجرمٌ

من عتاة المجرمين، لم يكن يرتوي من رائحة الدم ـ محاولين فهمَ هذه الحركة الغريبة، هم ينادون واحداً ليتلقّى تعذيباً خاصاً، فيهبُّ خمسة! واضحٌ أن في الأمر ما يُريب. يُعيدهم الرقيب «مرهج» إلى أماكنهم، وهو يُوهمنا أنه لم يفهم الأمر على وجهه الصحيح، ويصرّ أن يخرج مَن تمّ تعليمه منفرداً، فينهض سبعة عشر شاباً، يزعم كل واحدٍ منهم أنه مَن تمّ تعليمه الليلة الفائتة!

سيكون واضحاً لدى الرقيب وزمرة الجلّادين أنّ في الأمر تحدّياً، فهؤلاء «الوظاويظ» الصغار لا يخافون من التعذيب، ويرفضون تسليم مَن تم تعليمه، هذا أمرٌ غير مسبوق، وسيُهين قدرتهم على إخافتنا مرةً ثانية.

وعبثاً يحاول، وهو يجْلد ويركلُ بكلتا يديه وقدميه، ويهدّد رئيسَ المهجع بأشدّ العذاب إن هو تستّرَ على الشخص الذي تمّ تعليمه. وفي النهاية، لم يكن أمامَه إلّا أن يأمر بجَلْد الجميع، ثأراً لهيبتِه المُهانة، وكنا نضحك في سِرّنا من عجزه وحماقته.

ربما هو جزءٌ من الطبيعة البشرية، أنَّ أيّ مُصابٍ إذا كان عاماً أو جماعياً يكون وقْعه أهونَ مِن وقعه حين يكون فردياً، ولعل ذلك للإحساس العارم بالقوة الذي يمنحه التشاركُ الجماعي في تحمّل المُصاب، إضافةً إلى مسألة الإحساس بالمهانة والذلّ الذي يخلّفه التعذيب وأيُّ شكلٍ من أشكال ممارسة القوة، فحين يكون هذا الإحساس فردياً يشعر المرءُ بأنه دون الآخرين، حتى إن كان مظلوماً، بعكس الحالة حين يكون المصاب جماعياً، إذ تغطّي المشاركة العامة على الإحساس بالمهانة الفردية.

ربما تشبه هذه الحال إحساسَ مريض الجرَبِ بالعزلة، والتميّز السلبي حين يكون في مهجعٍ للأصحّاء، بينما لن يحسّ بهذا وهو في مهجعٍ للجرَب، شأنه شأن جميع الموجودين، كلهم مصابون بالعلّة ذاتها.

في أسابيع ستأتي، سيكون هناك تحدٍّ مستمرٌّ، بين مهجعنا (المهجع رقم ٣١) وعناصر الشرطة؛ فقد ساعدَنا موقفُ التحدّي السابق في الوصول إلى قرارٍ عام ألزمْنا به أنفسَنا، وهو عدم تنفيذ الأوامر المذلّة، وفي

مقدمتها إحناءُ الرأس أثناء التنفس، إضافةً إلى بذلِ أقصى درجات التماسك، وعدم الصراخ أثناء تلقّي الجَلد، ولاسيما أننا نتلقّى التعذيب في كلِّ الأحوال، سواء أَطَعنا أم لم نطِع.

وكان ذلك بالفعل بمنزلة صفعةٍ قويةٍ يتلقّاها الجلّادون والرقباء، وكان في مقدمتهم الرقيب «مرهج»، الذي ارتكب بوحشيةٍ ما لم يفعله أيُّ جلاد، فقد جُنّ جنونُه.

إنَّ أقصى ما يعني الجلاد هو إذلالُ ضحيته واستمتاعه بصوت صراخها، تعبيراً عن انتصار الجلاد وتمامِ سحقِ الضحية. ولمدة أيامٍ كان يأتي الإيعاز العسكري: «راسك في الأرَض»، فيُقابَل بتجاهُلٍ مِن قِبَلنا، ويتمّ جَلد العشرات منا، ونحن نكزّ على الأسنان ولا نصرخ، وكنا نلحظ بكل وضوحٍ تميّز الجلادين غضباً، إلى أن وصل الأمر بهم أن الرقيب المشرف ـ وكان اسمه «فيصل كحيل» ـ كان يقول للجلادين: «هؤلاء العرصات مهجع «٣١» تستمرون بجَلدهم حتى يصرخوا من الألم، فإن صرخوا تتركونهم».

لم يعُد الأمر محضَ تعذيب أو إذلال، بل تحوّلَ إلى مباراةٍ لكسرِ العزيمة، وكنا نستبسل، ونستمتع بلعبة عضِّ الأصابع هذه، ونحن نراهم ملْءَ العين يستشيطون غضباً.

بعبارةٍ موجزةٍ يمكننا القول إن هذه المقاومة حرّرتْنا من غمامة الوهم في نفوسنا.

لم يكن أكبرُنا يتجاوز الثامنةَ عشرة من العمر، مع ذلك كنا نشكّل التحدّي الوحيد لإرادة قطيع الجلّادين، الذين لم يشهدوا مقاومةً تُذكر إلا في هذا المهجع. ولأشهر طويلة، سيكون حظّ هذا المهجع من التعذيب أوفر من سواه. إلّا أنهم شيئاً فشيئاً بدؤوا يتجنّبوننا، بعد أن فشلَ السلاحُ الوحيد الذي في أيديهم، وهو سلطة التعذيب. ولم يكن بوسْعهم نقلُ الأمر إلى إدارة السجن، لأنه سيكون مذلّاً لهم أنّ مهجع الأحداث هذا هو مَن خرج عن سيطرتهم، وهزأَ بتعذيبهم وجبروتهم المزيّف.

في المساء، وبعد انتهاء حفلات التعذيب اليومية، كانت هناك أصواتُ تعذيبٍ نميّزها بسهولةٍ لكثرةِ تكرارها؛ إنها مجموعةٌ جديدةٌ من السجناء الوافدين إلى سجن تدمر، يتمّ استقبالهم في الساحة الأولى، فصوتُ صراخهم نميّزه عن صوت التعذيب الاعتيادي، وبفضل الهدوء الطاغي على المشهد، سنتمكّن من التقاطِ بعض الصرخات الممزوجة بكلماتٍ تتكرّر، وهذا ما يفعله الوافدون الجدد. أما في التعذيب اليوميّ فلا أحدَ يتكلم، والصوتُ الوحيد الذي يُسمع هو صوتُ السياط والصرخات، فالجميع يعلم أنّ الكلام ممنوعٌ أصلاً، إضافةً إلى أنه لا يُجدي نفعاً، وربما يُقارب أثرُه أثرَ الزيت المسكوب على النار؛ إنه يُفقد الجلادَ توازنَه، وكذلك المحقّقون. إنَّ أيّ كلام يصدر عن الضحية سيعني أنَّ صاحبه إنسانٌ يفكر ويتكلم، بينما يمارس الجلادُ التعذيبَ أو التحقيق بوحشيةٍ مفرطة لأن الضحية التي بين يديه لا ترقى إلى مصافّ الإنسان، وربما تنحطّ عن مستوى الحيوان أيضاً! هكذا تُغسل أدمغتهم، ويتم حشوها بأفظع التصوّرات، حتى يتمكنوا من ممارسة التعذيب الوحشيّ دون أدنى رادعٍ للضمير، إنْ هو وُجدَ أصلاً.

في هذه الأثناء، سيجلس الجميع في حزنٍ عميق، ليس لهم إلا الدعاء لهؤلاء الأبرياء الذين قدِموا إلى هذا الجحيم، وسندعو بكل إيماننا ألّا يكون بينهم فتيانٌ صغار، وسيتضح هذا قريباً حين يدخلونهم إلى مهجعٍ جديد، هل سيكون منهم مَن يُساق إلى مهجعنا أم لا؟

ومع الأسف الشديد، غالباً ما ينتهي المشهدُ بإدخال مجموعةٍ من الفتيان إلى مهجعنا. سيزداد الغمُّ وتضيق المساحات، وسيهبُّ الجميعُ للمساعدة والعون، بدءاً من الاهتمام بمَن هو جريحٌ أو نازف، وصولاً إلى تأمين مكانٍ لنومهم في هذه البقعة التي باتت تُقاس بعرض الأصابع، وسيكون على (فريق الكبْس) تولّي أمر حشْر الجميع في أماكنهم ورصّهم دفعاً بالأقدام، كي يستوعب هذا الحيّزُ المحدودُ ذلك العددَ الكبير، الذي يتزايد باستمرار.

في هذه الحمأة من الصخب، سيعرف معظمُنا مِن أيّ المدن أتى هذا الفريقُ التعيس؛ إنه من مدينة حمص، وسنكتشف هذا بالكلمات المفتاحية، التي تحدّد وبسرعةٍ عاليةٍ من أي مدينةٍ قدموا، إنهم يستخدمون لفظة (عَلَايْ) المفخّمة بدلاً من لفظة (عليه)، وهذا ممّا يميّز لهجة الحمامصة عن لهجة غيرهم.

كانوا صغاراً، وعلائمُ اللطف والتهذيب باديةٌ عليهم، وكان اليومُ يومَ أَحد، وعادةً تكون وجبةُ الطعام مصحوبةً رمزياً ببعض لحم الدجاج، لكنه يأتي (مُدَولَباً)، أي إنه تعرّض لدولابٍ من الشرطة، وهذا تعبير نطْلقه عندما يقوم فريقُ التعذيب وسَريّة التأديب بمداهمة قدورِ الدجاج قبل توزيعها على المهاجع، فينتزعون جميعَ لحم الصدور والأفخاذ، ويُبْقون على النزر اليسير من اللحم، وعلى جميع العظم المتبقي.

وكان مِن العُرْف بيننا أن ينالَ الوافدون الجدد في هذا اليوم نصيباً مميزاً من لحم الدجاج، غالباً يصل إلى مقدار الثلث مما يأتي للمهجع. وحين هدأتْ أحوالُ الفتيان الجدد، قُدِّم لهم الطعام فأكلوا على مضضٍ، وكانوا قد اعتادوا أن يأكلوا في فروع الأمن في حمص مِن أجود الطعام، إذ كان أهلُهم يتولّون أمرَ إحضار الطعام الفاخر، لهم ولضباط الفرع؛ أما هنا، فسيأكلون مِن طعامٍ أسود لم يألفوه من قبل.

وحين انتهوا من طعامهم، أرسلوا جانباً القصعةَ التي أكلوا منها، وفيها جلدُ الدجاج والعظامُ الذي لم يتذوّقوه أصلاً. أخذَ مسؤول الطعام هذه البقايا ووزّعها على آخرين. لم يعرفوا بعدُ أننا لا نتركُ فضلاتٍ من لحم الدجاج أو عظامها، فنُدْرة الطعام والتعذيبُ اليومي والجوعُ الكافر الذي لا يفارقنا، لا يُبْقي ولا يَذَر.

سيتكيّف القادمون الجدد، كما يفعلون دائماً، وسيقفون بعد أسابيع في طابور توزيع العظام، تلك التي تركوها اليوم، شأنهم شأن الآخرين.

* * *

٤٠ ـ صورة الرئيس

في عصر يومٍ حارٍّ جداً من أيام شهر تموز/يوليو، يجلس الجلّادون بعد ساعاتٍ من التعذيب المستمر منذ الصباح، وقد أعياهم استمرارُ الجَلد والضرب، يأمر أحدُهم واحداً منا كالعادة أن يأتي بسطلٍ من الماء، فيُريقه على الجدران والأرض ليخفّف من شدّة الحرّ الذي يعانون منه.

وتشاء الأقدار أن تكون هناك صورٌ للرئيس المفدّى ملصقةٌ حديثاً على تلك الجدران بمناسبة الحركة التصحيحية (الانقلاب الذي قاده «حافظ الأسد» ضدَّ رفاقه البعثيين في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، وعلى الرغم من الحذر الشديد الذي يُبديه ذلك المسكين الذي كُلِّف برشْق المياه، إلّا أنَّ رشقةً من الماء أفلتتْ منه وأصابت إحدى الصور بالبلل من جانبها الأعلى، وانفلتَ لاصقُها فمالت إلى الأرض.

انتبه الجلّاد القريب لهذه الكارثة الحقيقية، وهبَّ مع صَحبه وهو ينادي حرسَ الساحة ليكون شاهداً على ما حصل، وصرخ بالشاب صاحبنا وبَطحه أرضاً، وتحلّقتْ حوله عصبةُ الجلّادين، فقد واتتْهم الفرصة الطيبةُ ليُثبتوا ولاءهم وحبَّهم لسيّد الوطن، ذلك الحب الذي يضارع العبادة.

لقد جاوزَ هذا السجين قدره حين سوّلتْ له نفسُه أن ينال من صورة سيّد الوطن، فانهالوا ضرباً وجلداً وشتماً على جسد ذلك المسكين الضعيف، وكلما تعبتْ سواعدُهم من شدة الضرب، أراحوها وأعملوا أقدامَهم وأحذيتهم العسكرية ضرباً في بطنه ورأسه.

لم يطُلْ صراخ صديقنا «أسامة» أكثر من نصف ساعة، غاب على إثْرها عن وعيه، لكن الجلادين استمروا بالضرب، إلى أن وصل الخبر إلى المساعد «أبي جهل»، الذي قدِم من فوره، ليبارك للجلادين فعْلتَهم، وكانت أنفاسُ صاحبنا في نزْعها الأخير، وحين وصل المساعد وتوقفوا عن الضرب، كانت روحه مصعَّدةً في السماء، وكان جسده مسجًّى يحكي تفاصيلَ الحكاية بكسور وتهشيمٍ في أنحاء وجهه وجسده، ودمٍ نزف من كل طرفٍ من أطرافه.

لم تهدأ نفوسُ الجلادين وقائدهم بقتل صديقنا «أسامة» وحسب، فانعطفوا على المهجع يسومونا سوء العذاب والجَلد. وفي المساء، حين استلقى الجميع طلباً للنوم، قدِم إلينا المساعد وبعض الزبانية من السطح، فأيقظونا عبر النافذة العليا وأمرونا بخلع ملابسنا، وأمروا رئيس المهجع أن يأتي بجميع حاويات الماء التي لدينا، ويُريقها جميعاً على رؤوسنا ونحن وقوفٌ على ساقٍ واحدةٍ، وأيدينا جميعاً مرفوعة إلى الأعلى مبتعدين مقدارَ نصف مترٍ عن الجدار؛ والويل والثبور لمن يُضبط وقد أنزل قدمَه أو إحدى يديه، أو استندَ إلى الجدار.

سنبقى وقوفاً هكذا، مبلّلين حتى الصباح، ساعة إدخال الفطور، حيث سيدخلون علينا مرةً أخرى ويُشبعوننا ضرباً وركلاً، وحين ينصرفون سنُمضي سحابة يومنا ونحن نعصر ملابسنا وبطانيات المهجع جميعاً من الماء الذي سُكب علينا الليلة الفائتة.

* * *

٤١ ـ الأحداث يُعدمون

مجموعة «بكري فتى نحاس» سيذْكرها كثيرون ممن عاشوا في سجن تدمر وشهدوا حفلات الإعدام الكثيرة، وهي مجموعةٌ صغيرةٌ من تلاميذ الشيخ «أبي النصر البيانوني»، لكنَّهم جميعاً من مواليد ١٩٦٢، وهذا يعني أنهم في سنة اعتقالهم كانوا في سن الثامنة عشرة. وتمّ الحكم عليهم بالإعدام لمجرد علاقتهم بشيخهم «أبي النصر»، مع العلم أنهم لم يشاركوا في أي عملٍ سياسيٍّ أو عسكري، وكان قتْلهم محضَ انتقام.

في ذلك المساء نودي على أسماء مَن سيتمّ إعدامهم في صبيحة اليوم التالي كما جرت العادة، وكان «بكري» ومَن معه ضمن هذه القائمة.

وفي الصباح، بينما كانت أعواد المشانق تُنصب، ونحن جلوسٌ ننتظر صيحاتهم التي حفظناها كلاحقةٍ لأسمائهم، لم تمضِ سوى دقائق قبل أن نسمع تلك الصيحات البطلة، التي تنطلق من حناجر لا تُقِيم للموت وزناً، وها هو «بكري» يصرخ بملء حنجرته: «فزتُ وربِّ الكعبة»، ويليه «عزّ الدين نعساني» الذي صرخ: «طاب الموت يا عرب». وتوالت الصيحات، وكنّا نراهم عبرَ ثقوب الباب صقوراً تفلت من قبضة الظالمين إلى عالمٍ رحبٍ طالما تاقتْ له أرواحُنا.

ليس للكلمات أن تطاول فظاعة المشهد الذي كنا ننظر إليه بقلوب واجفة، كانوا يُساقون للموت بأنفُس مطمئنةٍ وبأقدام متينة، لم يسترحم أحدٌ منهم جلّادَه ولم يُظهر ضعفاً. كانوا مئةً وعشرين سجيناً، تمّ إعدامهم

في أقلّ من خمسين دقيقة، وحُملوا إلى حيث يثوي مَن سبقَهم.

في ذلك اليوم حدث حادثٌ مفجعٌ، سيرِدُنا خبرُه مع الأصدقاء الذين سيُعرضون على المحكمة بعد حفلة الإعدام؛ ففي المهجع الرابع من الساحة الأولى، كان من بين السجناء سجينٌ حمويٌّ هو الدكتور «مخلص قنوت»، وكان إنساناً موسوعيَّ الثقافة، تحسَبه من الأطباء الذين عاصروا «الحسن بن الهيثم» و«ابن سينا» وأشباههم، لكثرة إلماماته ومواهبه التي تتجاوز اختصاص الطب، وكان مصاباً بطلْقٍ ناري في ساقه ساعةَ اعتقاله من دمشق، وقد تركوا ساقه من دون علاج، الأمر الذي سبّبَ له إعاقةً في الحركة.

وفي صبيحة يوم الإعدام قُرئ اسمُه، وكان محكوماً بالإعدام، فخرج من مهجعه حبواً، وأمرَه الرقيب «مرهج» بفظاظته المعهودة أن يقف ليتمّ تكتيفه وعصْب عينيه، فرفض، ونظر إليهم بتحدٍّ وأغلظَ لهم في السُّباب، وحين اقترب منه الرقيب «مرهج» ليضربه، دافع عن نفسه بأطرافه الأربعة، فما كان من «مرهج» إلا أن طلب من الحرس أن يلقّم بندقيته، وطلب من بعض عناصره سكيناً فأحضروها على عجلٍ، واجتمعوا عليه وقيّدوه وثبّتوه إلى الأرض، فاقترب منه «مرهج» وقام بذبحه وجزّ عنقه بالسكين ـ بالطريقة ذاتها التي يفعلها عناصر تنظيم (داعش) ـ وبقيَ واقفاً وهو يضغط بقدمه على رقبة الذبيح حتى فارق الحياة، فحمَلوه إلى ساحة الإعدام لكي يُرمى إلى جانب باقي جثث أصحابه. وكما توقّعنا، فقد تمّتْ مكافأة الجزّار «مرهج» والثناء عليه أمام الضباط، ومنْحه إجازةً طويلةً ليتمتع بها مع أسرته.

لقد قرأتُ كتباً عديدةً عن سجون النازيين وسجون الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، لكنني لا أذكر أنني وقعت على فظائعَ بهذا القدْر المروّع من الوحشيّة والانحطاط الإنساني والتوحّش المفْرط في وحشيّته، باستثناء المحرقة التي تمتْ بحقّ ضحايا النازية.

سنبقى نذكر «مخلص قنوت» كلَّما سمعنا صوت الجزار «مرهج» أو

مرَّ ذكره السيئ، وربما تجود الأقدارُ ذات يوم ليكون للكثيرين ممّن شهد فظائعَه وجرائمه دورٌ مهم في الشهادة عليه في محكمةٍ يحلم جميعُ مَن عرفوه أن يُساق إليها، هو وأمثاله من الوحوش أشباه البشر.

سيحدّثني فيما بعد صديق السجن «نادر»، وكان مكتبه في مدينة طرطوس، أنه التقى بالرقيب «مرهج» ذات يومٍ في إحدى الدوائر الحكومية، وكان «مرهج» قد عُيّن موظفاً فيها بعدَ أن سُرِّح من خدمته العسكرية، وأصبح صديقي يمرّ بدائرته بين الفينة والأخرى لضرورات العمل، فيجده جالساً خلف طاولةٍ قديمة موظفاً من الدرجة الثالثة لا يأبه له أحدٌ، ممن يُعيَّنون كمكافئة لهم لتَسَلُّم المرتّب وحسب، ولا يمارس أيَّ عملٍ يذكر.

وكانت ترتعد فرائصه وتعلو وجهَه صفرةُ الموت كلما مرّ صديقنا أمامه وألقى عليه بالتحية، ولم يكن يجرؤ على سؤال صديقنا عن مصدر معرفته به، ولم يكن صديقنا يجرؤ على الحديث معه، فلا تزال دولة العصابات الأمنية تُحْكم قبضتها على أعناق السوريين في كل مكان.

ما يدهشني أن صديقي لم يفكر للحظةٍ واحدةٍ بالانتقام من هذا المجرم، على الرغم من قدرته على ذلك بطرائق خاصة، وسأدرك بعدَها أن جميع مَن خرجوا من سجون «حافظ الأسد» لم يكن في نفوسهم أدنى منزعٍ للانتقام، لم تُسجل حادثةُ انتقامٍ واحدةٍ قام بها سجينٌ تدمريٌّ تجاه جلّاديه.

* * *

٤٢ ـ مسؤول الصوت

لكل تفصيلٍ من تفاصيل حياتنا الداخلية مسؤولٌ ينظّمه، فهناك مسؤول البخشة (التواليت)، ومسؤول النوم (مَن ينظم أماكن النوم)، ومسؤول الطعام (الذي يشرف على توزيع حصص الطعام بالقسط)، والمسؤول الصحي (وهو أحد الأطباء الموجودين)، واللجنة المالية (التي توضع جميعُ الأموال لديها وهي تنفقها وفق الضرورة على شراء الدواء إنْ توفّر، وبعض الضروريات التي كانت تسمح إدارة السجن بشرائها عن طريقها، بين الفينة والأخرى).

لكن المسؤولية الأكثر امتداداً على مساحة اليوم هي المسؤولية عن الصوت، والمسؤول عنه هو واحدٌ من ستة مسؤولين يتناوبون، إذ يُمضي كلّ واحدٍ منهم فترة مناوبته، التي تكون عادةً ساعتين، من أصل اثنتي عشرة ساعة يكون فيها المهجع في وضع الاستيقاظ. كان واجبه أن يمشي بين الجموع وينبّه كل مَن ارتفع صوتُه عن الحدّ المسموح، فالمهجع يضمّ بين جنباته الضيقة مئة وأربعة وتسعين متحدثاً، ولنا أن نتخيل هذا الدويَّ الهادر الذي يُحْدثه صوتُ هذه الجموع.

ومن عادةِ الحرس نهاراً أن يقترب من نافذة المهجع، ويهدّد رئيس المهجع بعقوبةٍ شديدةٍ إنْ هو سمع صوتاً مرتفعاً يصدر عن مهجعنا، ولطالما عوقبنا بسبب ارتفاع الصوت. وبالطبع فإن دوام الممارسة ستُكسِب هذا المسؤول خبرةً واسعةً بالأشخاص الذين يتمتعون بنبرة صوتٍ عالية ـ وكنتُ أنا أحدهم ـ فكان يخصّهم بتكرار التنبيه، وإذا اقتضى الأمر

سيُلزمهم بالصمت لمدة تقارب ساعةً أو أكثر، وربما تمتدّ لصمتِ يوم بتمامه، وسيمتثل الجميع لتنبيهات مسؤول الصوت، وسيكون ضبطُ الصوت أيسرَ قبل الخروج للتنفس الصباحي، لكن بعدَه تكون النفوسُ نشِطة، وبها حماسةٌ يصعب ضبطها.

وحين ينفلت الأمر عن سيطرة مسؤول الصوت، يتدخل رئيسُ المهجع منبّهاً بشكلٍ أشدّ حسماً، وقد يكون الحل بعد تنبيهاتٍ متكررة أن يُلزَم المهجعَ كاملاً بالصمت حتى صبيحة اليوم التالي.

في مثل هذه الحالة سينشغل الجميع بشأنٍ فرديّ، وتتوقف الحركة تماماً، إلّا مِن عابرٍ باتجاه الحمام أو ما شابه ذلك، وسيتمّ التغاضي عن همسةٍ هنا وأخرى هناك للضرورة القصوى، كأن يطلب أحدٌ مِن جاره حاجةً ملحّة، أو يسأله عن آيةٍ من القرآن يُعيد تلاوتها، لكن أحدهم قد يستغلّ هذا الهامش الاستثنائي ليُجري حديثاً يُخرجه عن ملله مع جارٍ له، فيبادره مسؤولُ الصوت سائلاً إيّاه عن سبب كلامه، وعادةً يجيب أنه يسأل عن آيةٍ من القرآن أو حديثٍ نبويّ، فيتغاضى عنه.

لكن إن لحظَ مسؤولُ الصوت تمادياً في الأمر، فسيسأله أمام المجموع وبصوتٍ مسموع:

«هل هذا قرآن كريم؟».

فيجيبه بصدق: «لا».

فيكرر السؤال: «هل هو حديث شريف؟».

فيجيبه أيضاً: «لا».

فيقرّر بتهكّم: «إذاً هو حديث غير شريف».

وينفجر المجموع بالضحك.

* * *

٤٣ ـ جائحة الكوليرا

في أواخر شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٨١، اجتاحت الكوليرا البلاد وبدأت أعداد المصابين ترتفع، أما في سجن تدمر، فلم تكن الكوليرا جائحةً وحسب، لقد كانت تشبه الطوفان الذي لا يُبقي ولا يذَر، فقد كانت تحصد الأرواحَ كلّ يوم، وكنا نعدّ الأموات المحمولين من مهجعنا، ومن المهاجع الأخرى، إلى مهجع المستودع في صدر ساحتنا كلَّ يوم: اليوم خمسةٌ وعشرون، البارحة تسعة عشر، غداً سيكون العدد أكبر.

لم تعُد المجموعات الصحية من داخل مهاجعنا تكفي لرعاية المرضى داخل المهجع، إضافةً إلى أن وجودهم في الداخل كان يعرّض الآخرين للعدوى. تجاوبَ الممرض «أبو رشيد» وأمرَ بأن يُنقل المصابون إلى الساحة أمام المهاجع، بينما يتولّى أفرادٌ متطوّعون مع أطباء من المهجع ذاته العنايةَ بهؤلاء المرضى، وكنا نتلقّى بين ساعةٍ وأخرى نبأ وفاةِ صديقٍ لنا من هؤلاء المرضى.

يذكّرني مشهدُ المرضى الممدَّدين أرضاً في ساحة التعذيب وقد عُلِّقت بأذرعهم أكياسُ (السيروم) بساحات القتال والمستشفيات الميدانية في الحرب العالمية الثانية، غيرَ أنّ تجهيزها كان أفضل من تجهيز ساحاتنا بفارقٍ كبير.

كان المساعد «أبو رشيد» يغطّي وجهَه بكمامةٍ كبيرة وهو يتجوّل مسرعاً بين المرضى، وكنا نلمس في روحه الإحساسَ العالي بالمسؤولية

والأمانة التي يلتزمها تجاه هؤلاء المرضى، بينما يبتعد عناصرُ السجن والجلّادون إلى آخر الساحة، وقد وضعوا قبّعاتهم الحمراء على وجوههم خوفاً من أية إصابة.

لقد كان اهتمام إدارة السجن بنا في تلك الآونة أشبَه باهتمامِ أمينِ مستودعٍ بمواده المستودعية. صحيحٌ أنهم لم يكونوا ليكترثوا بموت عشرةٍ أو عشرين منا، أو إعدامِ ضعفي هذا العدد، لكنهم لم يكونوا ليسمحوا أن نموتَ مرضاً، وبأعداد كَبيرةٍ خارجةٍ عن سيطرتهم؛ هم يريدون للموت أو القتل أن يكون إمضاءً لنزعتهم في القتل والانتقام، لا أن يكون بفعلِ جائحةٍ مَرَضية؛ أو كما عبّرَ أحدُهم: هم لا يريدون ليَدِ الله أن تتخطّف منهم رعاياهم!

لم تبارحْنا الكوليرا حتى حصدتْ مِن أرواح السجناء المئات. كان حزنُنا عليهم كبيراً، يُخالطه تسليمنا أنهم في راحةٍ من هذا الشقاء اليومي، وكلنا نعلم أننا في سرّنا كنا نتمنى خلاصاً عاجلاً كخلاصهم.

ولم تنتهِ الكوليرا بفعلِ الرعاية الصحية المبذولة من إدارة السجن، التي لم تقدّم لنا سوى أكياسٍ من السيروم وبعض الظروف التي تحوي أملاحاً لتعويض السوائل وحسب؛ إنما انتهت بفعل الخبرة العالية لأطبائنا في التعامل مع الجائحة، وتطبيق أعلى حدٍّ ممكنٍ لإجراءات الوقاية، وحثّ المريض على التماسك والمقاومة، وإجباره على تناول المزيد من السوائل، الأمر الذي يعصمه من الجفاف ويبعده عن التهالك أمام عُصَيّة (الهيضة ـ الكوليرا). وهذا هو الإجراء الأهم.

وكما تهبط المصائب فجأةً فإنها تختفي فجأة. وهكذا انجلَتْ غمّة الكوليرا، بعد أن حصدتْ ما استطاعت منا، وتركتْنا لطاعون التعذيب اليوميّ الأسود.

* * *

٤٤ ـ مهجع النساء

في هذه الآونة قدِمتْ مجموعةٌ غريبة إلى الساحة السادسة، لم نستطع تمييزَها بشكلٍ جيد، إلّا أننا لاحظنا أمرين اثنين: الأول أنهم كانوا يسوقون هذه المجموعة دون ضربٍ أو صياح، والثاني أن المجموعةَ بالكامل كانت ترتدي شيئاً أسود. لم يتّضح الأمر حتى اقتربوا، وكان الرائد «فيصل غانم» يسير في مقدّمتهم؛ لقد كانت هذه المجموعةُ نساءً. يا لرحمة السماء، نساءٌ في هذا الجحيم! ماذا تفعل النساء في تدمر؟

اقترب السائرون ودخلوا من الباب الواقع إلى يسار مهجعنا، إنه باب المهجع المسمّى مستوصفاً، دخلوا ودخل معهم الرائد «فيصل» ومعه رهطٌ من الجلّادين، سمعناه يتحدّث بصوتٍ متبجّحٍ يُملي عليهنّ التعليمات، ثم ما لبث أن انصرف، وسمعنا صوت ارتطامِ باب المستوصف، الذي لم يكن يُفتح من قبل. واستطعنا أن نعدّ بضعاً وعشرين امرأةً، جميعهنّ يرتدين السواد.

كيف لنا أن نتخيل أنّ جمْعاً من النساء سيكون مقامهنَّ في هذا السجن الرهيب؟ صحيح أننا قرأنا كثيراً عن فظائعِ ما لاقتْه النساءُ الأوروبيات في سجون النازية وغيرها، إبّان الحرب العالَمية الثانية، لكن أن ترى بأمّ عينك نساءً من مدنٍ سوريّة، هنَّ أمهاتٌ وشقيقاتٌ، يُسَقْنَ إلى أعتى معتقلٍ في سورية، إنَّ هذا يصيب الروحَ بالشلل ويقتلها كمداً.

لست أنسى مهجع النساء الذي كان في جناحنا في السجن المركزي

بحلب، ولأن الأوضاع آنئذٍ لم تكن مستقرّةً لصالح النظام، فقد كنَّ يُعامَلنَ معاملةً حسنة، قياساً لمعاملتنا نحن الرجال.

بعد أسابيع، سنكتشف من حركة «أبي رشيد» الممرض، والكلمات التي يصرخ بها طالباً أشياء معينةً من الرقيب وزمرة الجلادين بسرعةٍ ونزق، أن هناك مولوداً جديداً في مهجع النساء، فإحداهنّ دخلت السجن وهي حامل، وحان أوانُ وضعها، ومن حسْن حظها أن طبيبةً نسائيةً كانت بينهن في المهجع ذاته قد تولّتْ أمرَ ولادتها والعناية بها وبطفلها المولود، وكانت تطلب من «أبي رشيد» ما يلزمها لقصّ الحبل السريّ وإيقاف النزيف، وأشياء تلزم للوليد الجديد من ملابس وأدوية مغصٍ وغيرها.

من يومها، ونحن نسمع ليلاً مع هدأة السجن صوتَ بكاءِ الصغير، فتختلط المشاعرُ المتضاربة، نبكي ساعةً ونضحك أخرى، لن نبقى نتكلم عنه بضمير الغائب، لا بد أن يكون له اسم.

ستكثر المقترحات حول اسمه، الغريب منها والطريف، وسيحسم أحدُنا أمر الخلاف: سيكون اسمه «أسير»، وسيناديه بعضنا بـ«الأسير الصغير»، وهو اسمٌ على مسمّى.

وسنسمع بكاءه في أحرج الأوقات، حتى كان يخيّل إلينا أن أمه تُلجئه إلى البكاء حين نتعرّض لتعذيبٍ شديد، كأنها تهيب بنا أن نبدي قسطاً أوفر من الصمود، فهذا «أسير» الذي لم يبلغ الأشهر بعد يشاركنا هذا الجحيم.

* * *

٤٥ ـ «أبو حِجر»

من جملة النشاطات الثقافية في مهجعنا كانت هناك حلقةُ مسابقات تجري عصرَ كلِّ يوم جمعة، يكون فيها فريقان متقابلان تُطرح عليهما الأسئلة بالتناوب، وحين يعجز فريقٌ عن الإجابة يُحال السؤال إلى الفريق المقابل، وإذا عجز الفريقان يحال السؤال إلى الجمهور، وغالباً ما تتم الإجابة عنه. وبالطبع سيكون لدى مقدّم المسابقة الإجابةُ الوافية عن هذا السؤال.

في عصر أحد الأيام، كان السؤال الأصعب في المسابقة: عرّفْ بعبارةٍ موجزة كلّاً من الأسماء التالية:

ـ «محمد أسد»، صاحب كتاب (**الطريق إلى مكة**).

ـ «محمد الخضر حسين»، من مشايخ الأزهر وصاحب كتاب (**الحرية في الإسلام**).

ـ «محمد فياض الجاسم».

استطاع الفريق الأول الإجابة عن الشخصيتين الأوليين، وعجز كما عجز الفريق الثاني عن تعريف شخص «محمد فياض الجاسم».

أُحيل السؤال على جمهور المهجع، ولم يستطع أحدٌ معرفةَ شيءٍ عن هذا الاسم المجهول. في نهاية الحلقة طلب مديرُ المسابقة من «محمد فياض الجاسم» أن يقف معرّفاً بنفسه، ويا لدهشتنا! إنه الطريف «أبو

حِجر» الذي يملأ المهجع كلّ ساعةٍ بطرائفه ومفرداته الجميلة، وكان يجهد إلى أقصى درجات الإجهاد وهو يحاول التحدّث بلغةٍ عربيةٍ فصيحة على نهج السنةِ الأولى، فهو يحاول حشدَ معظم أدوات الجزم والنصب وأحرف العلّة والمبني للمجهول، مع أفعال المقاربة والرجاء والشروع، في جملةٍ واحدةٍ، مبالغةً منه في تحرّي فصاحتها المبتغاة، فتخرج جملة لم تسمع بها العرب من قبل، لكننا كنا نفهمه عبر لغة الجسد التي يتحلّى بها، والتي لا تقلّ فصاحةً عن جملته العربية.

لم يكن يمرّ يومٌ واحدٌ دون أن يطْلع علينا «أبو حِجر» بدعابةٍ أو روايةٍ أو منامٍ مرّ به منذ سنوات، وبعض رواياته قد ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد، عن أحد أولاد عشيرته «عشيرة الهيب» في الشمال السوري. ولم يكن «لأبي حِجر» أية خصومةٍ مع أحد، وكان يتفانى في تقديم خدماته ومساعدته للآخرين، يمكنك أن تعتبره النموذجَ الأمثل للإنسان الفطريّ، المفْرط بنقائه وبساطته.

لكن لم يبادر أحدٌ منّا، ولو لمرةٍ واحدةٍ، لسؤال «أبي حِجر» عن اسمه، «أبو حِجر وكفى»، وهل بعد هذا الاسم من معرفة؟! وضجَّ المهجع ضحكاً، إذاً «محمد فياض الجاسم» هو «أبو حِجر»! صاحبنا الذي لا ينكره أحد.

وفجأة اكتشف العديدون أنهم يجهلون أسماء العشرات منا، ممن يشاطروننا الطعام والشراب والنوم والتعذيب، يتنادون بالكنى بدلاً من الأسماء، ولم يكن يلزمنا معرفة اسمه أو لقبه، لقد أيقظ فينا «أبو حِجر» السؤال الذي أهملناه طويلاً: «ما اسمك الكامل يا صديقي؟».

وكطرافة «أبي حِجر»، انتشر السؤال بيننا، وصرنا نسأل بعضنا بعضاً عن أسمائنا، بعد مرور أكثر من عشرين شهراً أمضيناها في مهجعٍ واحد!

في أحد الأيام، نودي على السخْرة، وهم الفريق المنوط به إدخال الطعام من خارج المهجع إلى داخله، حيث يكون الفريق الآخر قد جهّز

بضعة أكياس من النايلون، يسكب الأرز أو البرغل المطبوخ فوقها، ويُخرج الوعاء الفارغ فوراً، وكان «أبو حِجر» في مقدمة عناصر السخرة في هذا اليوم، فأدخل وجبة البرغل وأفرغَها أرضاً، ورمى بالوعاء الفارغ خارجاً ودخل مسرعاً، وما هي إلا دقائق معدودة ـ وكانت السخرة لا تزال توزع الطعام على الصحون ـ حتى فُتح الباب على عجلٍ، وصوت الكرابيج والجنازير يلعلع، طلباً لهذا الحقير الذي أعاد وجبةَ الدوسير، «مَن الذي تجرأ على رفض استلام وجبة الدوسير المفروضة من الإدارة؟».

خرج رئيس المهجع من الصف وتكلّم مع الرقيب الغاضب، وأكد له أن مهجعنا لم يتسلّم اليوم وجبة الدوسير على غير العادة، فقبض عليه كبيرُ الجلّادين من رقبته، وأخرجه خارجاً: «انظر يا حقير»، وأعقبها صفعة من يده على وجه رئيس المهجع، الذي ينظر كالمشدوه إلى وعاءٍ فارغ، ليس فيه أثرٌ للدوسير. صرخ الرقيب به: «ارفعه للأعلى»، فرفعه، وإذا به وعاءٌ داخل وعاء، وبينهما أربع موزات سوداوات ملتصقات ببطن الوعاء، ومهروسات بفعلِ ضغط الوعاء الأعلى، لهذا لم يستطع «أبو حِجر» تمييزها ولا تمييز وزنها، واعتبره الجلادون تمرّداً وعصياناً للأوامر.

نودي على «أبي حِجر» وأُغلق الباب، وبقي صديقنا مع جلّاديه، الذين لا يوفّرون أية فرصةٍ لإنزال العقوبة بنا.

نال «أبو حِجر» ما يزيد على مئتي جلدةٍ، كي يكون أكثرَ انتباهاً وحرصاً على فاكهة الموز الأسود!.

❊ ❊ ❊

٤٦ ـ الساحة السابعة

بشكلٍ أسبوعيّ وغير منقطع، كانت قوافل المعدومين تخلّي أماكنها في مهاجعنا لوافدين جدد، ولا يزال النظام البوليسي «الأسديّ» يلاحق كلَّ مَن له أدنى صلةٍ بمعتقلٍ سابقٍ أو قتيلٍ أو مطارَدٍ أو مطلوب، وكانت العربات والشاحنات العسكرية تنقل كلَّ أسبوع عدداً يماثل أو يزيد قليلاً على عدد مَن أُعدموا، وكان على المهاجع أن تبقى مكتظةً، وجاهزةً لتقديم المزيد من القرابين لهذا الفرعون المتربّع على صدر السوريين، هو وعصابته الحاكمة، الأمر الذي دفع بإدارة السجن أن تُحْدث مهاجعَ جديدةً تستوعب هذا الفائض من السجناء الجدد. وعليه فقدْ تمّ بناء ساحةٍ سابعةٍ تضمّ أربعة مهاجع، بسعةٍ تقديريةٍ تصل إلى مئتي سجين في كل مهجع.

وفي يوم خريفيٍّ باردٍ، تم إبلاغ رئيس المهجع أن نتحضَّر للانتقال، وحزمَ كلُّ واحدٍ فينا متاعه القليل، وتم نقلُنا إلى الساحة السابعة. وكان نصيبنا أن ندخل المهجع (٣٦)، وجِيءَ بمهجع الأحداث الثاني وأُدخلوا للمهجع (٣٧)، ونُقل آخرون لا نعلمهم إلى المهجع (٣٥) والمهجع (٣٨).

كانت الساحةُ إسمنتيةً جديدة، أرضُها شديدة الخشونة، وأبوابُ المهاجع فيها ضيّقة، والساحة بمجملها صغيرة. وهذا يعني أننا سنكون قريبين من الجلّادين في ساعات التنفس، وهذا يزيد الأمر سوءاً. كما أننا سنتوزّع أماكننا من جديد، وهذا أصعب من إعادة تجميع لواءٍ عسكريٍّ في غابةٍ كثيفة.

من الغريب أننا ـ وفي هذا المعتقل الرهيب ـ نتلمّس جمالية الجديد وتبتهج له نفوسنا! ولطالما ذكَّرني هذا بطفولتي، حين كانت والدتي تُعيد ترتيب أركان البيت وأثاثه بشكلٍ مختلفٍ عن سابقِ عهده، فتُضفي على المكان جِدَّةً محبّبة.

لن نعرف إلّا بعد حين هل سيكون انتقالنا إلى هذه الساحة الجديدة نعمةً أو نقمةً؟ لكننا سنكتشف عاجلاً أننا أصبحنا في أقصى طرف السجن من جهة البلدة والمدرسة القريبة، التي كنا نسمع فرح أطفالها وهم يخرجون إلى فرصتهم، وسيصبح صوتُ نهيق الحمار الذي كان يحمِّله بائعُ الخضار بأصناف شتّى أقربَ من ذي قبل. والأهم من ذلك كله، صوتُ رنين مكبس القرميد، الذي سيبقى أوفى الملازمين لنا طوال تلك السنوات في السجن.

وستكون نافذةُ المهجع الخلفية مطلّةً بشكلٍ مباشرٍ على ساحةٍ خلفية، يجتمع فيها عناصرُ سريّة التأديب، وتُعقد فيها الاجتماعات الصباحية، حيث يتلقّون التعليمات اليومية، كما تقام فيها لقاءات توجيهيّةٌ عقِبَ كل حدثٍ مهم.

سيجعلنا هذا كله على درايةٍ وافيةٍ بما يدور من حولنا.

* * *

٤٧ ـ دخول الجريدة

في منتصف عام ١٩٨٢، وفي يوم صحراويٍّ عاصفٍ ثار الغبارُ فيه، واصلاً الأرضَ بالسماء، وحاجباً الرؤية بشكلٍ كاملٍ، وسط صياح حراس السجن الذين أربكتْهم العاصفة وأعمى أعيُنَهم العجاجُ المنبعث من الصحراء. وكنّا سعداء بهذا العاصف الترابي، لعلْمنا بما يسبّبه من تعطيلٍ لفرق التعذيب وعصابات الجلّادين، وهذا سيجعلنا بمأمنٍ منهم، ما دامت الأجواء مضطربة والرؤية متعذّرة.

وبرميةٍ من غير رام، تتجمّع بعض العوالق الطائرة بفعل العاصفة الغبارية، من أكياس وأوراق وشطرِ جريدةٍ صفراء، في الشبك الحديدي الذي يحيط بالنافذة العلوية للمهجع، وكعادة السجين المتربّص أبداً، والذي لا يفوّت ثانيةً أو فرصةً إلّا ويبتدرها، خلال ثوانٍ معدودة كان هناك برجٌ بشريٌّ ينتصب بشكلٍ عموديّ، قاعدته خمسةٌ من متيني البنية تشابكتْ أذرعُهم وتراصّتْ أكتافهم، يقف على أكتافهم ثلاثةٌ أكثر رشاقةً، وفوقهم اثنان يمسكان كتفَي بعضهما بثباتٍ كافٍ، ويتسلّق هذا البرجَ العجيب فتًى مِن أصغرنا سناً وأخفّنا وزناً، ليصل إلى تلك القضبان فيحرّر شطرَ الجريدة التي أنِسَتْ للتوقف في مهجعنا.

وبالسرعة ذاتها التي انتصب خلالها هذا البرجُ الآدميّ، تم تفكيكه وعاد الجميع إلى مواقعهم غانمين.

من الصعب التكهّن بمدى السرور الغامر الذي أرخى سدولَه على

مجموعنا، لقد ساقت الرياحُ لنا اليومَ نافذةً إلى عالمٍ غابَ عنا، وغبنا عنه زمناً طويلاً.

في الصفحة الأولى، كانت هناك صورةٌ تجمع الرئيسين الأمريكيين «رونالد ريغان» ونظيره «جيمي كارتر»، في الشطر الأيمن من الصورة يقف «ريغان» وقد أطرق برأسه للأمام، بينما وقف في الشطر الآخر «كارتر» وهو ينظر حزيناً إلى البعيد، وتحت الصورة كان التعليق بالبنط العريض: «(ريغان).. إحناء الرأس للاحتكار». عرفنا يومها أن «رونالد ريغان» أضحى رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية وانهزم منافسه «جيمي كارتر».

كان العدد مؤرَّخاً بيوم ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨١، أي إن الصحيفة وصلتنا بعد عامٍ ونصف من تاريخ صدورها. وهي ورقةٌ واحدة تشمل أربع صفحات من صحيفة **تشرين**، وهي أكذبُ الصحف الرسمية لدى حزب البعث الحاكم.

ويحكى أنَّ قريةً مسيحيةً في جبال سورية تضمّ ديراً قديماً يحوي مئة جرس، ويومياً تُقرع أجراسٌ بعددِ مَن كذبوا واعترفوا في هذا اليوم، دون الإشارة إلى أسمائهم. وتستيقظ القرية في أحد الأيام على أصوات نواقيس الدير وهي تقرع بكامل عددها، فيسأل سائلهم مستغرباً: «ما الذي حصل؟»، فيأتيه الجواب: «لقد حضرت صحيفةُ **تشرين** إلى قريتنا».

لقد أحدث دخولُ هذه الجريدة إلى مهجعنا هرجاً شديداً، وتم ترتيبُ دورٍ منظّم لتصلَ إلى جميع الأيدي، وأذكر أننا بقينا نتداولها أشهراً في غفلةٍ عن أعين الحرّاس، لا نملّ منها، إلى أن تعاورَها البِلى من كثرة ما تناقلتْها الأيدي.

* * *

٤٨ ـ تحية لحماة

في مطلع شهر شباط/فبراير من عام ١٩٨٢، اشتدَّ التعذيب علينا بطريقةٍ غير مسبوقة، فكانوا يُسرفون في التعذيب لدرجة الموت مراتٍ متكررةٍ يومياً، وكانوا يُكثرون من سؤالنا خلال التعذيب عن المدينة التي أتينا منها، وكانوا يغلظون في الضرب إلى حدِّ الجنون عندما يجيبهم المسؤول أنه من حماة أو من حلب. وكنّا نخال هذا من دواخل حقدهم القديم على مدينتين اشتهرتا بعدائهما لـ«حافظ الأسد».

وفي ليلةٍ ليلاء، وكنا قد عدْنا لتوِّنا من حفلةِ تعذيبٍ ليلية، وقد استلقى كلٌّ واحدٍ منا في موضعه، ارتفع صوتُ مذياع الثكنة العسكرية بأغانٍ وطنيةٍ وعسكرية، ومن خلال المذيع كان واضحاً أنهم ينتظرون كلمةً لسيد الوطن «حافظ الأسد».

كان صوته يلعلع عبر الميكروفونات المنبثّة في كل ركنٍ من الثكنة العسكرية، لم تكن كلماته واضحةً، باستثناء جملةٍ واحدةٍ كرّرَها عشرات المرات: «تحيةً لأبطال حماة.. تحيةً لشهداء حماة»..

كان واضحاً أن حدثاً جللاً قد حصل في حماة، لكن ما مِن منْفذٍ نتنسّم منه الأخبار. كانت نفوسُنا، ونحن نسمع مجرمَ سورية الأكبر وهو يتحدث عن حماة، شديدةَ الانقباض، تتحسّس رائحةَ فجيعةٍ مروّعة تحصل الآن، ولاسيما أن التعذيب الذي نتذوقه يومياً قد تضاعف أضعافاً مضاعفة، وغدَا العديد من التصرفات التي لم نَعِ سببها في وقتها واضحةً كلَّ الوضوح.

لم يكد خطاب «الأسد» ينتهي حتى عقَّب عليه المذيع «مهران يوسف»، ثم انطلق صوتٌ عالٍ جداً لجموعٍ هادرة، يخترقه بصوتٍ حادٍّ تعليقٌ للمعلق الرياضي الأشهر (عدنان بوظو): «أوووووفر للنص، وهدف هدف».

ليس بالمستطاع تقدير فداحة الخيبة وهبوط العزيمة ونحن نسمع إثرَ حديثٍ رئاسيٍّ عن ويلاتٍ تنصبُّ على مدينة حماة، ثم نسمع الآلاف تهدر أصواتُهم في ملعبٍ لكرة القدم! أيُّ بؤسٍ هذا وأيّ خذلان؟ آلاف الشباب هنا يُعذّبون يومياً ويُقتلون، وقومنا غارقون في ملاعب كرة القدم! لم ينبس أحدُنا ببنتِ شفةٍ بعد هذه المفارقة الحادة التي تختلط لقسوتها المعاني وتضيع الكلمات.

لم يطُل انتظارنا طويلاً؛ فبعد أسابيع قليلة ستتوافد قوافل المعتقلين من مدينة حماة، وسيبْلُغُنا العجب العجاب، من فظائع التنكيل التي شهدَها أصدقاؤنا الجدد. ستكون هناك أحاديثُ طويلةٌ عن مجازر القتل والسحل في الشوارع، وعن مناشر الخشب التي نُشرت فيها أعناقُ آلاف الرجال، وعن الضباط الذين طالما تفاخرَ واحدُهم بعشرات الآذان والأنوف المقطوعة التي علّقَها عقداً حول عنقه، وعن استباحة المدينة وحرماتها جميعاً، كجيشِ احتلالٍ من العصور الوسطى.

بات واضحاً الآن لمن كانت تلك التحيّات «الأسدية»؛ إنهم يدمّرون مدينتنا حماة ويقتلون شبابها.

* * *

سبق أن تعرضت مدينة حماة لحملاتٍ متكررة، راح ضحيتَها المئات من الشيوخ والأعيان والنساء والأطفال، خلال عامي ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.

لكن في تاريخ ٤ شباط/فبراير ١٩٨٢ أقدم النظام، ضمن حملة قتلٍ جماعيّ، على ارتكاب جريمة إبادةٍ جماعيةٍ بحقّ سكان المدينة جميعاً، ودمّر وأبادَ مناطق وأحياء بكاملها، كما قام بتصفية عائلاتٍ حمويّة بجميع

أفرادها. وتذرّعَ النظام بوجود عناصر مسلحة في مدينة حماة يمثّلون ما تبقّى من الطليعة المقاتلة أو الإخوان المسلمين. وواقع الأمر أن العناصر الذين تحدّث عنهم النظام لم يتعدَّ عددهم الثلاثمئة وخمسين عنصراً على أبعد تقدير، لكنَّ النظام كان قد بيَّتَ أمر تدمير مدينة حماة وإبادة الشطر الأكبر من أهلها، وهذا ما تُبيّنه شهادة أحد المسؤولين في نظام الأسد، حين قال:

«أثناء أحداث حماة، زارني أحد الأصدقاء المقرّبين من السلطة، وكان قلقاً من الحدّ اللامعقول الذي وصلت إليه السلطة في قمع المدينة، لما سيترتب على ذلك من نتائج مستقبلية خطيرة، وكان قد اجتمع مع بعض ضباط سرايا الدفاع، وهؤلاء حدّثوه عن حضورهم اجتماعات قيادية في مدينة حماة، وقبل عدة أيام من المذبحة، وبالتحديد في الثامن والعشرين من كانون الثاني، عرض عليهم فيها الضابطُ المسؤول خرائطَ ميدانيةً مُعدّة مسبقاً لاقتحام المدينة من كافة جهاتها وشوارعها. وقد سأل بعض الضباط أثناء الاجتماع: هل هي معركة مع أهالي المدينة؟ أم مع ما بقي من المعارضة؟ فأجاب الضابط المسؤول حرفياً ـ ويدعى «علي ديب» قائد اللواء المتحرك التابع لسرايا الدفاع، والمتواجد داخل المدينة ـ: لقد أعطانا الفريق «حافظ أسد» أوامرَ صريحة بضرب كامل المدينة ـ الأهالي قبل المقاتلين ـ وعلينا تنفيذ هذه الأوامر، والغاية قتل وتهجير أكبر عدد ممكن من أهلها».

فقد قادت قوّات سرايا الدفاع بقيادة «رفعت الأسد» الحملة العسكرية الدموية، التي انطلقت الساعة الثانية صباحاً يوم ٢ شباط/فبراير ١٩٨٢، واستمرت مدة سبعةٍ وعشرين يوماً، ووُضِع تحت قيادته نحو اثني عشر ألف جنديٍّ من مختلف الكتائب: ما بين سرايا الدفاع، واللواء سريع الحركة التابع لسرايا الدفاع، واللواء ٤٧ دبابات، واللواء الميكانيكي ٢١، وفوج الإنزال الجوي ٢١ (قوات خاصة).

وقد لقيَ آلاف الحمويين من سكّان المدينة حتْفهم على أيدي تلك

القوات، لتصبح المدينة منطقةَ عملياتٍ عسكرية واسعة، وتم قصف المدينة بنيران المدفعية وراجمات الصواريخ بشكلٍ عشوائيٍّ، مدة أربعة أسابيع متواصلة، في الوقت الذي أُغلقت فيه منافذها الأربعة، أمام مَن يحاول النجاة من وابل النيران.

خلالها أقدمت قواتُ النظام على تنفيذ سلسلةٍ من المجازر، التي سبق التخطيط لها في وقتٍ سابق، وكان من أشهرها:

- مجزرة حيّ «حماة الجديدة»:

التي نفذتها قوات سرايا الدفاع، في اليوم الثالث من اجتياح مدينة حماة (٤ شباط/فبراير ١٩٨٢)، فعمدت قوات السرايا إلى جمع سكان الحي وأطلقت نيران الرشاشات عليهم، بعدها تمّت مداهمة البيوت وقتل من فيها دون تمييز، وتمَّ نهب الممتلكات، وتقدّر بعض المصادر ضحايا مجزرة الحيّ بنحو ألف وخمسمئة قتيل.

- مجزرة حيّ «سوق الشجرة»:

إذ شهد اليوم الخامس من الاجتياح قصفَ الحيّ بشدةٍ، واستباحَتْه قوات النظام، وأطلقت نيرانها على الشباب والشيوخ في الشوارع، ولاحقت من هربوا إلى المساجد، فأجهزتْ عليهم، وقتلت بعضهم رمياً بالرصاص، وبعضهم طعناً بالسكاكين، كما توفي بعضُهم تحت الأنقاض، جرّاء القصف وتفجير البيوت بالديناميت. كما أقدمت قوات النظام في اليوم ذاته على قتل ما يزيد على ٧٠ مواطناً، بينهم نساء وأطفال، بعد حشْرهم في مخزنٍ لتجارة الحبوب، وأضرمت النيران فيه، لتقضي على من بقيَ منهم على قيد الحياة حرقاً.

- مجزرة العميان:

داهم جنود سرايا الدفاع مدرسةً للمكفوفين في منطقة المحطة، يقوم على التدريس فيها شيوخ عميان مقيمون، لم يجد الجنود في داخلها سواهم، ومعظمهم ناهز الستين من العمر. كان الجنود يضربون الشيوخ

بالجنازير. . فتسيل الدماء من رؤوسهم وأيديهم، حتى يتوسّل المكفوفون، لكن الجنود لم يتوقفوا عن الضرب، إلا بعد أن يؤدي هؤلاء المساكين رقصاتٍ لإمتاع الجنود، وبعدها كانوا يشعلون النار في لحاهم، ويهدّدهم الجنود من جديد: إما الرقص وإما الموت حرقاً؛ فيرقص الشيوخ العميان، والجنود يستغرقون في الضحك، وحين تنتهي المسرحية يتقدم الجنود بكل بساطة ويشعلون النار في ثياب المكفوفين، ثم يطلقون الرصاص، ويخرُّ العميان صرعى، بينما يتلذّذ الجنود القتلة بمشهد الموت حرقاً.

- مجزرة الأطفال:

في نهاية شارع الثامن من آذار، حيث يتقاطع مع سوق الطويل، وقعت مجزرةٌ رهيبة بعد أربعة عشر يوماً على بداية اجتياح المدينة، كان الناس قد طفقوا يخرجون قليلاً إلى الأحياء، لقضاء بعض احتياجاتهم، طلب الجنود من الأهالي التوجّه نحو سيارات الخبز في طرف الشارع، أسرع عددٌ كبيرٌ من الأطفال، وكانوا بالعشرات، حملوا الخبز وقفلوا عائدين، اعترضهم الجنود، طلبوا إليهم الدخول إلى الجامع الجديد، وهناك فتحوا عليهم النار، وسقطت الأجساد البريئة، واختلطت دماء الأطفال بالخبز.

- مجزرة الفتيات:

كان الجنود يدخلون إلى الملاجئ، وينتقون الفتيات الصغيرات، ويمضون بهن إلى مكانٍ مجهول، ولا يعرف الأهل بعد ذلك عنهنّ شيئاً. في حمام الأسعدية الكائن في منتصف سوق الطويل وُجدت جثثٌ كثيرةٌ لفتيات معتدى عليهن ومقتولات.

- مجازر المشفى الوطني:

وهذه المجازر فاقت الوصف والتصوّر، فداخل المشفى الوطني تمركزتْ واحدةٌ من أفظع فرق الموت، التابعة لسرايا الدفاع، بصورةٍ دائمةٍ

طوال فترة الاجتياح، وكان عملها أن تجْهز على الجرحى من الأهالي، إذ كان الوضع في داخل المستشفى رهيباً فظيعاً، القتلى بالعشرات يملؤون الممرات والحديقة الخارجية، وفي بعض الأماكن تكدّست الجثث فوق بعضها، وبدأت تفوح منها روائح الأجساد المتفسخة. معظم هؤلاء القتلى كانوا من المرضى والمصابين، الذين يرسلهم المُعتقل المجاور للمستشفى، في المدرسة الصناعية، حيث يموت كل يومٍ عشراتٌ منهم.

وتوالت المجازر كلَّ يوم: مجزرة حي البياض، مجزرة سوق الطويل، مجزرة حي الدباغة، مجزرة حي الباشورة، مجزرة حي العصيدة، مجزرة حي الشمالية، مجزرة حي الشرقية، مجزرة حي البارودية، مجزرة الجامع الجديد، مجزرة مقبرة سريحين، مجزرة معمل البورسلان..

معظم الجثث كانت مشوّهةً، أو مقطّعةً، أو مهروسةً أحياناً، وكان من الصعب التعرّف على أي واحدةٍ منها. تُجمع كلَّ يوم مئات الجثث في شاحنات النفايات، وهناك تنقلها الشاحناتُ إلى المقابر الجماعية.

أحياناً كان يفِد إلى المستشفى بعض الجرحى. لم يكونوا محتاجين إلى طول الانتظار، ففرقةُ الموت تباشر عملَها بهمّةٍ ونشاط، وبالسكاكين والسواطير تعمدُ إلى تقطيع الجسد الجريح. وحصل أكثر من مرة أن قتلوا جريحاً وأخرج أحدُ الجنود قلبَه بعد أن شقّ صدره بسكينه، ليتباهى بجريمته أمام باقي المجرمين!

ولقد مرّتْ عمليات التدمير بمراحل ثلاث: القصف العشوائي، ثم القصف المركَّز ضد أهداف محددة، ثم التدمير بالتفجير أو بجرْف الأبنية. وقد استخدَمت القواتُ المدافعَ والدبابات وراجمات الصواريخ والبلدوزرات والمتفجّرات، في عمليات التدمير المنظم.

لم تُراعِ السلطات السورية حرْمةَ دُور العبادة، فشملت عمليات التدمير والهدم المتعمّد المساجدَ والكنائس، فقد بلغ عدد المساجد التي كانت هدفاً لعمليات الهدم والتدمير ٦٣ مسجداً، دُمِّر ٧٦ بالمئة منها بشكلٍ كليّ. كما تهدّم جزءٌ من مدرسة الراهبات المسيحية، فقد طال

التدمير الكنائسَ أيضاً؛ إذ كان يوجد في حماة أربع كنائس قديمة زمن الاجتياح، نسفتْ قوات النظام اثنتين منها، وهدمتْ جزءاً من الثالثة، ونهبَت محتويات الرابعة. ووقعت الأحداث متزامنةً مع استعداد مسيحيي حماة لتدشين الكنيسة الجديدة، التي استغرق بناؤها ١٧ عاماً، بذل الأهالي الكثير من أجل أن تكون هذه الكنيسة تحفةً معماريةً فريدة، فنهبتها قوات النظام ونسفتها بالديناميت كلياً.

كما قضت عملياتُ التدمير والهدم على أهم معالم مدينة حماة الأثرية، وأحيائها القديمة ذات الطراز المعماريّ المميز والقديم، وكان حيّ «الكيلانية» القديم ضمن المناطق التي دُمِّرت كلياً بفعْل عمليات القصف والتفجير والتجريف. وتعتبر الكيلانية أحد معالم سورية السياحية، لما تحويه من الفنون ومظاهر الإبداع في العهد الأيوبي والمملوكي والعثماني، وتمثّل كذلك مركزاً ثقافياً معترفاً به دولياً. وتعود بعض أبنية الحي إلى عام ١٢٩٠م، ويضمّ الحيُّ عدةَ قصورٍ قديمةٍ، كقصر الحمراء الذي شُيّد في العهد العثماني سنة ١٧١٦م، وقد كان معْلماً من أجمل معالم المدينة.

كما صاحبَ عمليات الاعتقال الواسعة الإجهازُ على الكثير من المواطنين، إما ساعة الاعتقال أو في الحبس المؤقت. ولا يزال الآلاف من المعتقلين في عداد المفقودين ولا يُعرف عنهم شيء، ولم تقدّم السلطات إيضاحاً بأوضاعهم حتى يومنا هذا، على الرغم من مرور ثمانيةٍ وثلاثين عاماً على المجزرة.

وشملت عملياتُ القتل والاعتقال العددَ الأكبر من الشباب والرجال من مختلف تكوينات السكان في المدينة، بما في ذلك النساء؛ إذ تعرّضت عشرات النساء للاعتقال والتعذيب والقتل أثناء الحبس، فمنهن مَن قُتلن في بيوتهنّ جراء القصف أو إطلاق الرصاص بشكل مباشر، ومنهن مَن قُتلن إثرَ تعرّضهنّ للتعذيب الشديد، ومنهن مَن قُتلن أثناء محاولتهنّ إسعاف المصابين خلال عمليات القصف والهدم.

وتشير بعض المعلومات إلى أنَّ تصفية كثيرٍ من المعتقلين تمّتْ حتى بعد انتهاء المواجهات المسلحة، حيث بدأتْ حملةُ اعتقالات واسعةٍ، صبيحةَ يوم الجمعة ٢٦ شباط/فبراير. وبعد انتهاء التحقيقات، سِيقت مجموعاتٌ منهم إلى أماكن مجهولة، تقدّرها بعض المصادر بنحو ١٥٠٠ معتقل، بينهم أهمّ وجهاء المدينة وكبار رجال الأعمال فيها، ولم تَرِدْ أخبارٌ بشأن مصيرهم حتّى يومنا هذا.

ونظراً لكثرة عدد المعتقلين والمعتقلات، لجأت السلطات إلى استخدام العديد من المؤسسات العسكرية والمدنيّة لاستقبال الآلاف منهم، كما استخدمت السلطة معتقل اللواء (٤٧)، ومعتقل الثكنة، ومعتقل المطار، والمحلجة الخماسية، والمنطقة الصناعية، ومدرسة غرناطة، ومدرسة الصناعة، ومعمل البورسلان، ومعتقل المخابرات العسكرية، ومعتقل الأمن السياسي، ومعتقل أمن الدولة، ومعمل الغزل، ومعمل البلاط، ومركز الدفاع المدني، كمراكز للتوقيف وقتلِ المعتقلين.

تشير التقارير أن بعض هذه المقرَّات استقبلت أعداداً كبيرةً، لا طاقةَ لها على استيعابها؛ فقد تجمّعَ في مدرسة الصناعة ذات الـ (٥٠) غرفة و(١٠) ورش قرابةُ ١٥ ألف مواطن، أمّا محلجة أبي الفداء (المحلجة الخماسية) فقد ضمّتْ ما بين ٧ إلى ٨ آلاف معتقل، حُبسوا لفترةٍ مؤقتة، ويُعتقد أن معظمهم تمّتْ تصفيته جسدياً، بينما نُقل آخرون منهم إلى سجن تدمر، حيث التقينا بالمئات منهم.

ولقد عانى المعتقلون صعوباتٍ شديدة، بسبب الازدحام ونقص الغذاء والكساء والرعاية الصحية، هذا إضافةً إلى التعذيب الجسديّ بمختلف الوسائل اللاإنسانية. وبحسب ما حكاه لنا بعض المعتقلين الذين التقينا بهم، فإن السلطات استخدمت وسائل قرض الأصابع بآلات حادة، والتعذيب بالملزمة، إذ يتم الضغط على الأطراف العلوية والسفلية للمعتقل حتى يتمزّق لحمه وتتهشّم عظامه؛ كذلك النشر بمناشر الأخشاب، فقد كانت الضحية تُنشر إلى شطرين من رأسها حتى نهاية جذعها.

ومن ألوان التعذيب المكبسُ الحديديّ للضغط على الرأس، ومنها الخازوقُ الذي كان يُجلَس عليه المعتقل حتى يسيل الدم من دبره، ومنها تعليقُ المعتقل من يديه ورجليه في سقف الحجرة مع تجريح بطنه وظهره بآلةٍ حادة، ومنها كذلك الصعق بالكهرباء في المناطق الحسّاسة والكيّ بالحديد المحمّى والضرب بالعصيّ والسياط.

* * *

وفي تاريخ ١٥ شباط/فبراير، أي بعد أحد عشر يوماً من القصف المكثّف، أعلن وزير الدفاع اللواء «مصطفى طلاس» انتهاء الحملة العسكرية، وأنَّ انتفاضة مدينة حماة قد تمّ قمْعها. غير أن المدينة ظلّت حينها محاصرة، وجرى عزلها عن العالم الخارجي.

يختلف عدد ضحايا المجزرة باختلاف المصادر والرواة، ولا أحد يعرف الحصيلة النهائية لعدد القتلى خلال ذلك الهجوم؛ إذ وثّقت بعض منظمات حقوق الانسان مقتل أربعين ألف مدني، معظمهم قضوا رمياً بالرصاص بشكلٍ جماعيّ، ثم تمّ دفن الضحايا في مقابر جماعية.

أمّا «روبرت فيسك»، الذي كان موجوداً في حماة بعد المجزرة بفترةٍ قصيرة، فيقول إن عدد القتلى كان ١٠ آلاف شخص تقريباً. وقد ذكرت جريدة «**الإندبندنت**» أنَّ عدد ضحايا مجزرة حماة وصل إلى ٢٠ ألفاً. ويذكر الصحفي والكاتب الأمريكي «توماس فريدمان» أنَّ «رفعت الأسد» قام بالتباهي بأنه قتل ٣٨ ألفاً في حماة.

* * *

٤٩ ـ الضحك سلاحنا الأمضى

في ختام رواية (**اسم الوردة**) للروائي الإيطالي «أمبيرتو ايكو»، يكشف الراهب «خورخي بورخيس»، المتوجّس من السلطة التخريبية للعمل الضائع لـ«أرسطو»، عن الضحك والكوميديا، والذي يسأل شارحاً: «ماذا سيحدث إذا ما سُمح بالضحك على كل شيء؟ فالكتاب بإمكانه أن يقوض بنية القداسة».

إنها سلطة الضحك والسخرية، التي تزرع بذور الشكّ الذي يهدّد سطوة اليقين، ويثقب جدران الصمت، تلك التي يتحصّن بها أرباب السلطة، الزمانية والمكانية.

والضحك وما يُفضي إليه أدواتٌ للمقاومة والتثقيف، وهذا ما نجده جليّاً في أعمال الكاريكاتير، تلك التي تهزأ كلَّ صباح من الأنظمة القمعية ومن المتغطرسين، وتعرّي أعمالهم. وهذه صور أعتى المتغطرسين تطالعنا عبر الإعلام العالمي والعربي بشكلٍ يوميّ.

هكذا كنا نواجه الموت والتعذيب في ساحات تدمر بشكل يومي، كما نواجه المدى مفتوحَ الأمد للاعتقال التعسفيّ، الذي لا تلُوح له نهايةٌ ولا يمنح فسحةً لأيّ أمل. كنا نواجهه بالإيمان العالي، وبمزيدٍ من السخرية واجتراح المشهد الساخر.

وكان للسخرية والنكتةِ المرّة أربابُها، الذين ننتظر منهم دائماً كل جديد. وما إن تخرج النكتة من فم صاحبها، حتى يتناقلها الرواةُ ساكبين

عليها من نكهاتِهم وتوابلِ مطابخهم الخاصة ما أتاحتْه لهم فسحةُ النقل العجْلى، فإذا بها مجموعةٌ من النكات المختلفة، صُبّتْ في قوالب متقاربةٍ تتقاطع في الصدر أو العجز.

وكدأبِ صاحبنا الراهب «خورخي بورخيس»، كان هنالك دائماً سدنةٌ لهذه الهياكل، التي تُعلي قيمة الوجوم والصمت، وتزدري الضحك والضاحكين، إلا أن رقّة الماء أقوى من صلابة الصخر، فلا تلبث الضحكات أن تخترق عتمة الوجوم، وتطبع الرماديَّ برائحة الفرح.

وفي وجه الطامات الكبرى، التي تُحيق بنا ربما، يكون أحد منافذ النجاة أو جسور التجاوز يكمن في اجتراح الكوميديا والضحك، والتمرّس على حضورهما الشافي، وإلّا ستنكسر الأرواح وتنغلق منافذ الأمل، ويطغى عالمٌ ممتدٌّ من الصفْن الخاروفيّ ـ وهو مصطلحٌ اجترحهُ صديقنا «أبو عبدو الحموي» ـ تعبيراً عن اللاشيء، الذي كتب عنه «إرنست همنغواي».

* * *

أتذكر مما قرأت، حين دهمتْ مأساةُ التأميم التي أدارها نظامِ «عبد الناصر» في سورية، أثناء الوحدة بين القطرين، والتي كانت وبالاً على سورية، يومها شملَ التأميم حفنةً من الدراهم كان قد ادّخرها علّامةُ حلب «خير الدين الأسدي»، صاحب الموسوعة الأشهر عن حياة حلب وساكنيها **(موسوعة حلب المقارنة)**.

يومَها عاد «الأسديّ» المفجوع بضياع تحويشة العمر ضربةً واحدةً، بيَدِ رائد القومية العربية ورمزِها الأوحد آنذاك الرئيس المصري «جمال عبد الناصر»، وما إن دخل بيته، حتى استقبله ظلُّه في المرآة المتصدّرة غرفته الخاصة، فما كان منه إلا أن بادرَ ظلَّه المنعكس بالمرآة بالحديث، متبرّماً وساخراً كعادته:

(مرحبا خيرو..

أهلين. .

أراك متجهّماً ما الأمر؟

لقد أمّموا لي كل ما أملك. . ضاعت تحويشة العمر!

وماذا ستفعل؟

هل عرفت ما حلَّ بـ«أبي محمود»؟ لقد توقّف قلبه من ثقل الخبر وأودعوه مقبرة الصالحين. و«أبو مصطفى» بقيَ أياماً يهيم على وجهه في الشوارع، محدّثاً نفسه وشاتماً «عبد الناصر»، إلى أن أودعوه «العصفورية» ـ مصحّة المصابين عقلياً في ريف حلب ـ).

يتابع مسترسلاً واجماً:

(والعمل خيرو؟

الحل أن تضحك. .

أضحك وأنا في هذه الحال؟ قلبي يوشك على التوقف.

نعم فلتضحك، هذا هو حلك الوحيد. .

حسناً أضحك). .

ويُصدر صوت ضحكةٍ خافتةٍ، يستنكرها ظلُّه:

(ما هذه الضحكة الصفراء الباهتة؟ هذه تزيد الغمّ بدلَ تبديده).

يعاود الضحك بصوتٍ أعلى، وضحكةٌ أخرى، وضحكةٌ خامسة تنجح. . ويستمران بالضحك قرابة خمس دقائق، وتصلح الضحكاتُ بين «خيرو» وظلِّه ما أفسدَه مبضعُ التأميم.

* * *

في غياهب المعتقل الرهيب، اجترح صديقُنا الملقب بـ«الباشا» ـ وهو لقبٌ أدنى من قامته بقليل ـ فكرةً لحزبٍ، أطلقَ عليه اسم (حزب الحمير)،

لِما وجدَ في حيواتهم (الحميريّة) من طرافةٍ وفطنة وخبرةٍ عملية تتجاوز الكثير من أقرانهم البشر.

وإذا ما انعطفنا إلى مملكة إدلب القلقة، واقتربنا جيداً من البيوت التي تضيئها الشموع والضحكات ليلاً، سنلمس بوضوحٍ ارتفاع معدلات السخرية المرّة، المصحوبةِ بقدرٍ وافٍ من الضحكات، التي تطفئ أوارَ القلق أو تعبّر عنه. والجدير بالذكر أن مدينة إدلب بقراها الصغيرة المتناثرة تتميز بنكتتها الطبيعية والغنية، التي هي حالُ بعض الظرفاء فيها، وما أكثرهم، إلا أن هذه النكتة أخطأتْها أو أهملتْها يدُ المروّجين، فباتت كالخمرة المعتّقة بجِرارها، لا يحتسيها إلا أصحابها.

* * *

٥٠ ـ الرائد «عثمان أصفر»

منذ الأيام الأولى في الساحة السابعة كنا نشهد المساعد «أبا أمجد» في الفترة المسائية قبيل الغروب، يأتي بصحبة رقيبٍ واحدٍ وينادي سجيناً من مهجع ٣٨، ويقف وإيّاه منفردين ليدور بينهما حديثٌ طويل، ربما امتدّ في بعض الأحايين إلى ساعةٍ أو أكثر. وفي مراتٍ قادمة كان المساعد يصحب هذا السجين مشياً في أطراف الساحة، حتى ليخال الناظرُ من بعيد أنهما صديقان يتجاذبان أطراف الحديث. مع ملاحظتنا أن السجين هو من كان يتحدّث طوال الوقت، والمساعد يصغي باهتمام.

ستكشف الأيام القادمة، وعقب لقاءات في مهجع الجرب بين أفراد من مهجعنا بأفراد من مهجع (٣٨)، أنَّ هذا السجين هو الرائد «عثمان أصفر»، الذي كان يُعرف بلقبه (الصاروخ الخامس). ومرَدّ هذا اللقب أن «عثمان أصفر» كان في حرب تشرين ١٩٧٣ قائداً لسرب مقاتلات من طراز (ميغ ٢١)، وقد نفّذَ وسربُه مهمةً من أهم المهمات العسكرية يومها، هي قصف مصفاة حيفا، وتمّ ذلك بنجاحٍ تام. وبينما هم في طريق العودة تم إسقاطُ طائرته في الأراضي الفلسطينية، وأسْرُه من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلية.

وفي مقابلةٍ تلفزيونيةٍ أو إذاعيةٍ، أجرتْها معه هيئةٌ إسرائيلية، سُئل الرائد «عثمان أصفر» عن عدد الصواريخ في طائرته، فأجاب من فوره: «إنها خمسة»، فاستدرك عليه السائل أن طائرة الميغ ٢١ تحمل أربعة صواريخ وحسب، فأجابه بطلنا: «أنا الصاروخ الخامس».

كان المساعد «أبو أمجد» يأتي بين فترةٍ وأخرى، ليستمع إلى تجربة الصاروخ الخامس خلال أسره في فلسطين، وكان بطلُنا يُسهب له في الشرح، علَّه يعي كم هو الفارق الإنسانيُّ بين جيش الاحتلال الإسرائيلي العنصريّ، وجيش الاحتلال «الأسديّ»، الذي يستبيح القتل والتعذيب، ويبرع فيهما.

فلم يتلقَّ الرائد عثمان خلال التحقيق معه من قِبل الضباط الإسرائيليين إلّا صفعةً واحدةً، حين سأله عن موقعٍ في مدينة اللاذقية، ولم يكن يومها يعلم ماهيّة ذلك الموقع وأهميته العسكرية.

سألتقي بالرائد «عثمان أصفر» بعد سنوات في المهجع (٣٠)، وسأسمع منه طويلاً عن تجربته الغنية، وكيف يكافئ نظام «الأسد» أبطالَه.

* * *

٥١ ـ قتْل الطبيب «زاهد داخل»

في نهاية السبعينيات، كان هناك زميلان في كلية الطب بمدينة حلب، أحدهما حلبيّ الأصل، اسمه «زاهد داخل»، والآخر من مدينةٍ ساحليةٍ، واسمه «يونس». وكانت هناك فتاة حلبيةٌ تدرس الطب معهما، استهوت الاثنين معاً، لكنها كانت أميلَ إلى «زاهد داخل»، وكانت النتيجة أن تزوجت من «زاهد» وأنجبا طفلةً جميلة، ولم يَرُقْ هذا لـ«يونس»، فأضمرها في نفسه.

وتشاء الأقدار أن تشتعل الأحداث في مطلع الثمانينيات في مدينة حلب، وكان «د. زاهد» وزوجته مسجّلَين في نقابة أطباء مدينة حلب في عام ١٩٧٩. وكان للطبيب «يونس» شقيقٌ برتبة ضابطٍ في المخابرات العسكرية، فأغرى أخاه ليتم اعتقال «د. زاهد» بتقريرٍ كيديّ، سِيق على إثره إلى سجن تدمر، وهناك كان الطبيب «يونس» بانتظاره، فقد تم تعيينه بوساطة أخيه طبيباً لسجن تدمر العسكري.

ولطالما جرّعَنا الطبيب «يونس» أصنافاً مُرّةً من العذاب، كان يطلب من مهجعنا أن يُخرج المرضى ويصطفّوا إلى الجدار، ويأمر رئيس المهجع بجلب الأدوية من الصندوق الموضوع في آخر الساحة، وحين يُحضر رئيس المهجع الصندوق يجده مليئاً بالكابلات والكرابيج، فيخرجها الجلّادون ويوْقعون بنا أشدّ العذاب، بينما يقف الطبيب «يونس» ضاحكاً مع بعض الرقباء، ليؤكد لنا أنه هو مَن اقترح هذا العلاج النافع. وبعد أن تنتهي جولةُ التعذيب الطبية، كان يعاود السؤال: «هل هناك من مريض؟»، فيتلقى جوابَه عبر صمتنا.

وبمساعدة إدارة السجن، استطاع الطبيب «يونس» أن يعرف أن زميله

الطبيب «زاهد داخل» موجود في المهجع (٦/٥) ـ وهما مهجعان جُمِعا في مهجعٍ واحد ـ وكان يعرفه شكلاً فيشير إلى الجلادين أن يخصّوه بعذابٍ مضاعف، وكان صديقنا «زاهد» يحسّ أن هناك من يعتني به.

في يوم صيفيٍّ حار، دخل إلى مهجعنا العريف «فواز»، وكان مشهوراً بشدّة قسوته في التعذيب، لدرجة أن قلوبنا كانت ترتجف في صدورنا حين سماع صوته، وكنا نعلم ساعتها أن طاعوناً أسود من العذاب قادمٌ برفقته. دخل المهجع وبصحبته ثمانية جلّادين يُرافقهم الطبيب «يونس»، توقّف الطبيب خلف صديقه «زاهد»، وطلب منه أن يستدير وينظر في وجهه ففعل، وكم كانت دهشةُ صديقنا «زاهد» كبيرةً ومؤلمة، فقد قرأ في عيون زميله «يونس» ما توعّدَه به.

سأله (يونس): «هل تذكرتني؟»، فأومأ برأسه بالإيجاب. لكمَهُ لكمةً بين عينيه، وأردفها بركلةٍ بين ساقيه جعلتْه يئنّ ويسقط مغشيّاً عليه، ثم انصرف بعد أن أشار بيده إلى رقبته، وهو يومئ بها إلى زميله الطبيب «زاهد داخل»، وانكبّ العريف «فواز» ومَن معه من عتاة الجلادين يضربون رأس «زاهد داخل» بوحشيّةٍ معهودة ومألوفة منهم، إلى أن سمعنا صوتَ تكسُّرِ جمجمته، وشمَمْنا رائحة الدم وهو ينزف غزيراً من رأسه، وسقط أرضاً وهو ينزف ويتأوّه بصوتِ مَن يفارق الحياة.

وما هي إلّا دقائق حتى كانت جثّته غارقةً بدمه، وروحُه تتصعّد في السماء.

من يومها ونحن نتذكر صديقنا الطبيب «زاهد داخل» كلّما سمعنا صوت قاتلَيه: الطبيب «يونس» والعريف «فواز».

لقد قدّم المهجع (٦/٥) مئات الضحايا الأبرياء، ومعظمهم من القامات العلمية، التي كانت لتنهض بهذا البلد لو خلِّي بينها وبينه، لكن مشروعاً قذراً كان مهندَساً بعنايةٍ فائقة، يديره «الأسد الأب»، وسيكمله «الأسد الابن» في تريف سورية، وجعْلها موطناً للتخلّف والاستبداد، ليحتكر المواقع الفاعلة والفضاء العام بطائفةِ مواليْهِ ومناصريهِ وحسب.

* * *

٥٢ ـ إعدام المقدّم «عبد الرزاق» مراتٍ عدة

من المعروف أنَّ لِحكْم الإعدام نصّاً يصدر وفقه، على النحو التالي: «الإعدام شنقاً حتى الموت»، إلّا أن أشياء فظيعةً تصدر عن بعض المجرمين، تخلّد فظاعتَهم ووضاعتَهم ومدى تشرّبهم بالحقد الرخيص.

فقد كان من بين الضباط الذين عايشناهم المقدم «عبد الرزاق»، الذي كان محكوماً بالإعدام، وقد أُعدم زهاء عشر مرات أو يزيد! لقد كان على عداءٍ شخصيٍّ مع شقيق «حافظ الأسد»، قائد قوات سرايا الدفاع «رفعت».

وكان «رفعت الأسد» مكتملِ القماءة في كل تفاصيله، فإضافةً إلى غطرسته وروحه النزّاعة للقتل وتمكُّن الحقد من قلبه بشكلٍ أرعن تجاه كلّ مَن خالفه، كان يتلذّذ بتعذيب مخالفيه ومعارضيه، وقد صدر الأمرُ عنه أن يُعدم المقدم «عبد الرزاق» مراتٍ متوالية دون أن يصل إلى حدّ الموت.

في بداية وجودنا في سجن تدمر كان تنفيذ حكم الإعدام بالعسكريين يتم رمياً بالرصاص، في منطقةٍ قريبة من السجن العسكري في ظاهر صحراء تدمر، وكانوا يصحبون صاحبنا «عبد الرزاق» فتُعصب عيناه، شأنه شأن باقي العسكريين المحضّرين للرمي في تلك الصبيحة. وبالفعل يتم رميُ الجميع بالرصاص، ويُستثنى وحدَه من الرمي، وهو معصوب العينين لا يعلم سببَ عدم وصول الطلقات النارية إلى صدره كما الآخرون.

وبعد الانتهاء، يأمر العقيد «شمس»، رئيس جهاز الشرطة العسكرية،

أن تتم إعادته ليُعدم لاحقاً مع قائمةٍ تالية، فيعود صاحبُنا وقد وقف على بوابات الموت وودّع حياته، لكن لم يؤذن له بالعبور، فيبقى على حالةِ الانتظار الرهيبة، لا يعرف متى تحين نهايتُه.

في المرة الثالثة، خرج المقدم «عبد الرزاق» وهو على يقين أنه ميتٌ لا محالة، وما هي إلّا ساعاتٍ حتى عاد متسربلاً بدمه من رأسه حتى قدميه، لقد كان بين المُساقين إلى ساحة الإعدام العميد الركن «سحبان»، وهو بطلٌ من مدينة «دير الزور»، وكان رجلاً قوي الشكيمة ثابت الجنان، لا يقِيم للموت وزناً، فاقترب منه العميد «شمس»، وكان من القطعة العسكرية ذاتها في بداية خدمته العسكرية، حين كان العميد «سحبان» متقدماً عليه حينها، ومعلومٌ أنّ المتقدمين يشرفون على تدريب المستجدّين ويعاملونهم بقسوةٍ مضاعفة، بُغية تشريبهم الروح العسكرية، التي تقوم على استساغة المذلّة والمهانة واستمراء الخنوع والخضوع لمن هم أعلى رتبة.

اقترب العميد «شمس» من صاحبنا «سحبان» وسأله:

- هل تتذكرني؟

- بكل تأكيد، أتذكرك وأتذكر ضعفك البادي أيام قدومك إلى الكلية الحربية.

- لماذا كنت تبالغ في قسوتك عند تدريبنا؟

- كي نصنع منكم رجالاً.

ويبدو أن العميد «شمس» أحبّ أن تُذكر له مكرُمة، أو أن يُظهر لمتقدّمه العسكري مبلغ سلطته الآن ومدى سطوة أمره، فسأله:

- هل لك مطلبٌ أخيرٌ أحققه لك، قبل أن يطلقوا عليك النار؟

وكما هو معلوم، فإنَّ هذا العرض بتلبيةِ الطلب الأخير للمحكوم بالإعدام هو عرفٌ جرتْ عليه عادات مَن يملك الأمر، ويُعدُّ هذا من نبْل القاتل وتمكّنه من ضحيته.

فأجابه العميد «سحبان»: لا أريد من هذه الحياة التافهة إلّا شيئاً بسيطاً جداً، لكنك لن تستطيع إنجازه.

وكانت هذه العبارة الأخيرة محض تحدٍّ واستخفافٍ بسلطة العميد «شمس»، الذي وجدَ في هذا إهانةً له ولما يتمتع به من سلطات، فأصرَّ على الإفصاح عن هذه الرغبة البسيطة، فما كان من صاحبنا المُقْدم على الموت إلّا أن طلب أن يحضر له كرسياً وطاولةً صغيرة وفنجانَ قهوةٍ يحتسيه قبيل موته، وطلب أن يُرمى بالرصاص وهو يتناول رشفتَه الثالثة من هذا الفنجان.

استهجن العميد «شمس» هذا الطلب، ووجد به عبثاً غير مفهوم. وأمام إصرارِ صاحبنا، أمر العميد «شمس» بتلبية طلب السجين؛ فأُحضرتْ ركوةُ قهوةٍ من السجن القريب وجيء بكرسيٍّ وطاولة، وجلس العميد «سحبان» على كرسيه وارتشف رشفاته الثلاثة بكلِ هدوءٍ وهو ينظر إليهم باستخفاف، وتم إطلاق النار عليه وهو يرتشف رشْفته الثالثة، وكان مصورُ الفيديو يوثّق هذه اللحظات، التي تُنقل كما جرت العادة إلى القصر الجمهوري في دمشق.

حين انتهوا من رمي الضباط المحكومين بالإعدام، تنبّهوا إلى فداحة الاستخفاف الذي قابلهم به العميد «سحبان»، وأدركوا مقدار التعنيف الذي سيصلهم من القصر الجمهوري لهذا الفعل غير المدروس؛ لقد استقبل رصاصَهم وهو يرتشف فنجان قهوة! لم يكن ليخطر ببالنا ونحن نصغي إلى المقدم «عبد الرزاق» وهو يقصّ علينا ما شاهدَه وسمعه بأمّ عينه وأذنيه أنَّ هناك ازدراءً للجلّاد فوق هذا الازدراء، وكيف ثارت ثائرةُ ضباط القصر الجمهوري المشاركين في حفلة الإعدام هذه على العقيد «شمس» الذي سمح لضحيته أن يُهينهم جميعاً وهو يستقبل الموت باستخفافٍ عزَّ نظيره.

وبتوالي الأيام، علمنا أن جهاز الأمن الخاص بالقصر الجمهوري قد أبدى غضباً شديداً لما حصل في حقل الرمي مع العميد «سحبان»، وأصدر قراره بوقف إعدام العسكريين رمياً بالرصاص، كما نصّتْ القوانين،

والشروع بإعدامهم بحبل المشنقة شأنهم شأن جميع المحكومين المدنيين بالإعدام.

وكان صاحبنا «عبد الرزاق» يهيّئ نفسه كلّ أسبوع لينضم إلى قافلةِ مَن سيتمّ إعدامهم، فيخونه الحظُّ كلَّ مرةٍ على مدى أشهرٍ سبعة، يئسَ بعدها من أن يكون فعلاً ممّن سيُعدمون في هذا السجن.

في نهاية عام ١٩٨٤، وبعد خروج «رفعت الأسد» من سورية، تم إعدام المقدم «عبد الرزاق»، وانتهت بموته صفحةٌ مهولةٌ من التعذيب بالشنق دون بلوغ حدِّ الموت.

* * *

٥٣ ـ مهجع الضبّاط (٣٤)

طالما كنا نسمع عن مواقفهم وبطولاتهم، في المحكمة وفي ساحات التعذيب، ولحظةَ استقبال الموت في ساحة الإعدام. كانوا مميزين بصوت الضّابط الذي يقدِّم الصَّف عند فتح باب المهجع وغلْقه، فقد امتازَ هذا المهجع عن أقرانه بكثرة عدد الضبّاط الذين سُجنوا فيه، وكان رئيس المهجع دائماً ضابطاً من هؤلاء الضبّاط، وكثيراً ما كان صوتُ أحدهم يفاجئ الرقيب الذي يفتح الباب، فيصاب بالخوف من قوة الصوت وثباتِ النبرة، فيواري خوفَه بمزيدٍ من الضرب والتعذيب. وكانت سَرِيّة التأديب بمجْملها تتهيّب لقاءهم، وحين تَخرج من مهجعهم قائمة للمحكمة أو الإعدام، كانوا يحسبون لها ألفَ حساب.

في شتاء سنة ١٩٨٢، خرجت مجموعةٌ من هؤلاء الأبطال للإعدام، ويبدو أن رقيباً جديداً قد استخفّ بهم، فما كان مِن أحدهم، وهو «أبو عبيدة حردان» من مدينة حلب، إلّا أن هاجمَهم بعد أن كبّلوا كلتا يديه إلى الخلف، وصاح مكبّراً فكبّرَ معه كلُّ مَن خرج للإعدام، وتلاقتْ أصواتُهم بأصواتِ مَن سبقَهم إلى مهجع المستودع تحضيراً لإعدامه، فضجّت الساحةُ بالتكبير الذي أوقع الهلعَ في نفوس الجلّادين والضبّاط الحاضرين، فتجمّعوا مذعورين في زاوية الساحة السادسة، ونحن ننظر إليهم يتراكضون كالفئران الهاربة.

خلال ذلك، كان الحرسُ بأعدادهم الكبيرة قد تجمّعوا على سطح المهاجع من جهة المهجع (٣٤)، وذخّروا بنادقَهم ورشّاشاتهم. ربما كانت

عشرات الثواني، إلّا أنها مرّتْ كساعاتٍ طِوال، سكَنَ فيها البطلُ «الحردان» ورفاقُه عن الحركة، وبقيتْ أصواتُهم تدوّي في أرجاء الساحة.

تنَبّهَ الجلادون والضباط إلى أن السجناء الذين يكبّرون كانوا جميعاً مكَبّلي الأيدي، وأنَّ خوفهم وهلعَهم منهم مجلبةٌ للسخرية، فما كان منهم إلّا أن أشاروا إلى الجلادين، فانقضّوا عليهم ضرباً قاتلاً إلى أن أنهكوهم، وساروا بهم واحداً واحداً إلى حبل المشنقة، فاعتلوها غيرَ آبهين.

كان ذلك اليوم هو يوم (الأربعاء الأسود)، لكثرة عدد الأبرياء الذين أُعدموا فيه ظلماً، إذ بلغ عددُهم يومها ١٨٥ سجيناً، تمّ إعدامهم خلال ساعةٍ ونصف. ربما تكون هذه المجزرة هي الأكبر والأطول في زمن التنفيذ، لشدّة المقاومة التي أبداها أبطال المهجع (٣٤)، وكانت السماء يومَها قد مُلِئتْ بسحبٍ سوداء، ما لبثَتْ أن انهمرت لساعاتٍ طويلة، كأنها تبكيهم وتبكينا.

لأسباب متعددة، أعادتنا حفلةُ الإعدام هذه إلى حزن البدايات، حين كنا نحزن يوماً كاملاً على مَن أُعدم في ذلك اليوم، لقد فقدْنا بموتهم نخبةً من خيرة الرجال، عسيرٌ على الأيام الإتيانُ بمثْلهم. لقد اختار الموتُ يومَها أحبَّ مَن رأتْ عيونُنا، واختار مِن صفوفنا الكبار، اختارَ مِن صفوفنا الرجالَ صانعي النهار.

في اليوم التالي، وبينما يجري التعذيب اليوميّ في جميع الساحات في وقتٍ واحد، وأصواتُ السياط وصرخات المعذبين تشقُّ عنان السماء، كانت نقرات إشارات (المورس) عبر الأنابيب المعدنية تنقل بين المهاجع أسماءَ مَن تم إعدامهم، وكلماتهم الأخيرة.

في هذه الأثناء، وفي ضحوة أحد الأيام الشتائية ـ تحديداً في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٨٢ ـ نوديَ على قائمةٍ مطلوبةٍ للمحكمة، وكان من بين الأسماء اسم «أحمد برّو بن خالد»، فظنَّ الجميع أنني الشخص المطلوب، وأنهم أخطؤوا بالاسم بين «محمد» و«أحمد»،

وحين تحدث رئيسُ مهجعنا إليهم، تحقّقوا من سنة الميلاد، فذكرَ لهم أنني مولودٌ في عام ١٩٦٣ فرفض الرقيب قبول الاسم، لأن المطلوبَ هو «أحمد برّو بن خالد» من مواليد عام ١٩٦٤.

وحين انصرفوا، بعد أن أصدروا أمراً أن يتحضّر كلُّ مَن وردَ اسمُه في القائمة، ولم يعودوا مرّةً ثانيةً لطلب اسم مفقود، تأكّدنا أنهم وجدوا الشخص المطلوب، علمتُ ساعتَها أنه شقَيقي الأصغر «أحمد»، وأنه موجودٌ في هذا السجن منذ زمنٍ ليس بالقصير، تهالكتْ روحي كأنني اعتُقلت لتوّي، وكان حزني عميقاً، فقد تخيّلتُ والدتي وحزنَها الطامي، فما كادت تألَف اعتقالَ نجْلِها وغيابَه، ويسْكن ألمُها وحزنُها قليلاً، حتى نكَأَ لها نظامُ العصابات جرحَها بشكلٍ مروَّع، فاعتقل ابنها الثاني.

غامت الرؤى واكفهرَّ الفضاء، وعقدَ الحزنُ لساني، فلم أعدْ أعي ما يدور حولي. لم يوفّر الأصدقاء لحظةً واحدةً، فسارعوا لتوصيةِ مَن سيخرج بعدَ قليلٍ إلى المحكمة، ولقّنوهم كلَّ ما يلزم من معلوماتٍ عني، يجب إيصالها إلى شقيقي «أحمد» الذي سيلتقونه في المحكمة، وكان كثيرٌ منهم يعرف عن شقيقي «أحمد» وعن إخوتي وعائلتي الكثير الكثير، فالسجناءُ ـ إضافةً إلى مدارستهم اليومية لشتى المعارف التي يحوزونها ـ فإنهم يتحدثون عن أدقِّ تفاصيل حياتهم وعن أسرتهم، بشوقٍ كبيرٍ وتكرارٍ يسهُلُ معه حفظُ الكثير منه.

لم تمضِ إلّا ساعاتٌ قليلة حتى عاد سفراؤنا من المحكمة وفي جعبتهم الكثيرُ مما ننتظره، لقد التقى أحدُهم بشقيقي «أحمد» وهمس بأذنه أن شقيقه «محمد» موجودٌ في المهجع (٣١)، وكم كانت دهشةُ شقيقي عارمةً، فكلُّ مَن يعرفني مِن الأهل كان مُوْقناً بموتي في مجزرة تدمر، كوني اعتُقلتُ قبل حدوثها بشهرين تقريباً. تهلّلَ وجهُ شقيقي، وأبلغ محدّثَه أنه معتقلٌ منذ نهاية سنة ١٩٨١، وأنه موجود في المهجع (٢٢) في الساحة الرابعة، وقد اعتُقل من الفرع ذاته الذي اعتقلني، وليست هناك قضيةٌ أو تهمةٌ مهمة بحقِّه، فقد وردَ اسمُه عرَضاً في إحدى الرسائل، دون أن يكون له أيّةُ صلةٍ تنظيميةٍ أو غيرها.

وكان قد اعتُقل مع مجموعةٍ من أقرانه، ووصل المحققون إلى قناعةٍ تامةٍ ببراءتهم، فأخلوا سبيلَ شطرٍ منهم، وأرجؤوا الباقين لحين تسويةِ أوراقهم وإجراءاتهم الروتينية.

بعد يومين، تعرَّضَ ضابطٌ من الفرع ذاته لطلْقٍ ناريٍّ في كتفه، فأمرَ رئيس الفرع في ساعة غضبٍ بنقلِ جميع السجناء من هذا الفرع إلى سجن تدمر، ريثما يتم البتُّ في مصيرهم. وبعد عام تقريباً، عُرضوا على المحكمة الميدانية، التي سرعان ما حكمتْ ببراءتهم، وعلى الفور تم تصديق الحكم ببراءته، وأُطلق سراحه بعد أحد عشر عاماً!

(ألم يؤكد قائدُ السجن العسكري أنه من المحال أن تُظلم قيدَ شعرة، وإن كنتَ بريئاً ستخرج، ولو بعد مئة عام؟!).

لم يعدْ هناك ما يشغل بالي من ساعتها سوى همّي المتواصل وحزني على والدتي، وتخيُّلي مدى العذاب الذي تعيشه، ورغبتي الحثيثة في السعي للانتقال إلى المهجع الذي يعيش فيه شقيقي «أحمد».

* * *

٥٤ ـ بيت عليّان

في نهايات عام ١٩٨٢ توالت الزياراتُ الخاصة، فقد كان محظوراً من القصر الجمهوري ـ وبشكلٍ صارمٍ جداً ـ الإدلاءُ بأية معلومةٍ عن معتقلٍ من معتقلي تدمر، أو السماحُ لأهله بمعرفةِ مكانه، أو منْحهم إذناً لزيارته. وكان «حافظ الأسد» يمْعن في إرهاب الشعب السوري بكل شرائحه، عبرَ ما يتسرّب من قصصٍ مريعةٍ عن هذا السجن الرهيب، ويبدو أنه أراد في مرحلةٍ ما أن يسمح ببعض الزيارات الخاصة لهذا السجن، بإشارةٍ خفيّةٍ تلقّفَها مديرُ السجن «فيصل غانم»، ليقوم ببيع أذونات الزيارات الخاصة لمن يتمكّن من دفع قيمتها.

كانت هذه العملية السمسارية تُدار من قريته (بيت عليّان)، حيث كان أبوه وأمه يستقبلان مَن ابتسم له الحظ، فيأخذان منه ما أحضرَ لهما من الذهب الذي تحصَّلَه بشقِّ الأنْفُس، على ألا يقلَّ وزنُه عن مئتي غرام من عيار ٢٤! فيمنحانه قصاصةَ ورقٍ صغيرة كُتب عليها بخطٍّ سقيمٍ يعرفُه ابنهما «فيصل» عبارة: «اقضِ لحامل هذه الرسالة حاجته»، ليمضيَ بها الأهلون بين مصدّقٍ ومكذِّبٍ، هل ستفلح هذه القصاصةُ الهزيلةُ في جمْعهم مع ولدهم بعد غياب سنوات؟ وهل سيجدونه سليماً، إن وجدوه حيّاً؟!

وحين يكثر عدد القادمين إلى بيت «أم فيصل» ـ الذي أصبح شأنُه شأن إدارة المعتقلات والسجون حيث تُمنح أذونات الزيارات ـ كانت تصرخ بهم وتشتُمهم وترميهم بالحجارة وتطردهم، ولا تستقبل منهم إلا عدداً محدوداً يسمح به ولدُها، الحاكم بأمر سيّدِه.

وكان بعض الأهالي يصلون إلى «فيصل غانم» عبر بوابات مختلفة، منها وزير الدفاع العماد «مصطفى طلاس»، الذي كان يتحصّل على نصيبه من هذه الزيارات، وكثيراً ما كان ثَمَنُ زيارةٍ واحدةٍ لا تتجاوز مدتها عشر دقائق يصل إلى سيارة (مرسيدس) أو (بي إم دبليو) من الطراز الأحدث.

أحدثتْ هذه الزيارات نقلةً نوعيةً على كلِّ الصعد في سجن تدمر، ما عدا التعذيب والإعدامات التي لم تتغيّر قيدَ أنملة. فمن جهة الأهالي الزائرين، كانوا يعرفون ذلك الكمّ الهائل من المعتقلين الذي تضمّه هذه الجدران المرعبة، ويعلمون مدى حاجاتهم للملبس والدواء، فكانوا يحْضرون لابنهم أو أبيهم ملابسَ تكفي لكسوةِ خمسين سجيناً، وفي حالات عدّة تكفي لمئة سجين. ونفياً للالتباس، كانوا يهمسون في أذن ولدهم: «هذه للجميع». كما كانوا يعطونه مبلغاً كبيراً، قد يصل إلى خمسة آلاف دولار، يزيد أو ينقص حسب سعة الحال. وكانت تلك الملابس والأموال تُسلّم فورَ دخولها للمهجع إلى لجنةٍ خاصةٍ، توزّعها للأمور الأكثر ضرورة.

ولم يكن صاحبُ الزيارة يحظى بامتيازٍ أكثرَ مِن أن ينتقي من المجموع القطعةَ التي يختارها لنفسه، وكان المال جميعُه يوضَع في صندوق المهجع لِتُنفقهُ اللجنة المختصة، في شراء دواءٍ أو حاجاتٍ ضرورية للجميع.

* * *

٥٥ ـ «أبو عوض»

كان «فيصل غانم» يستعين يومَها بمساعدٍ جزّار اسمه «محمد الخازم»، وهو بمنزلة مديرٍ تنفيذيٍّ للسجن، متعتُه الخالصة وإدمانه اليومي هو تعذيبُ السجناء على مرأى منه، والتنكيلُ بهم.

في شهر آذار/مارس من عام ١٩٨٣، حدثَ أن لمحَ «محمد الخازم» بين السجناء أثناء التعذيب رجلاً يعرفه جيداً، إنه السجين «أبو عوض»، الذي سيُشتهر اسمه لسنتين على الأقل. اقترب منه، وبعد أن تحقّقَ أنه السجين نفسه الذي سبقَ أن كان في هذا السجن سنة ١٩٧٤، حين كان «محمد الخازم» عريفاً فيه، أمر بجَلْده جَلداً مُبرحاً، ثم سأله بأيّ تهمةٍ تمّ اعتقاله، فأكّد له السجين «أبو عوض» أنه هنا بتهمةِ تهريب السلاح؛ وبالفعل كان كذلك. فوعدَه أن يتحقق من صحة مزاعمه، فإن وجده متّهماً بالانتماء إلى الإخوان المسلمين فسيقتله بِيدِه، وإن كان غير ذلك فسيكون له معه شأنٌ مختلف.

بعد عدة أيام، قدِم المساعد «محمد الخازم» وأخرجَ صاحبَنا «أبا عوض» من المهجع، واقترح عليه أن يدير ندوةً للسجن، يوزّع من خلالها الشاي الساخن على المهاجع عبر (مطربانات) بلاستيكية بسعةِ لترٍ واحد، لقاء مبلغٍ ماليٍّ للمطربان الواحد، وكان هذا سبيلاً سهلاً لجمْع تلك الأموال الّتي وردتْ للسجناء خلال بعض الزيارات.

اختار «أبو عوض» بضعة شبابٍ من مهجعه، لمساعدته في تحضير

الشاي وتوزيعه على المهاجع، فكان يمرّ عصراً بعد انتهاء جولات التعذيب، ويسجّل على دفتره الصغير رقمَ المهجع وعددَ المطربانات المطلوبة، ويأخذ ثمنها فوراً، وبعد ساعةٍ أو أقل قليلاً يصل مساعدو «أبي عوض» محمّلين بالمطربانات الذهبية.

لأول مرة منذ ثلاث سنوات نتذوّق شاياً نظيفاً وساخناً ومحلّى بطريقةٍ مقبولة، ثم تطوّرَ الأمرُ إلى السماح بالتهادي، وشراء مطربانات الشاي وإرسالها إلى شخصٍ محدد في مهجعٍ آخر، ثم بات من الممكن نقلُ بعض الملابس التي وردتْ بزيارات البعض إلى مهاجعَ لم تنلْ حظَّها من ذلك، لقاءَ أجرٍ يدفعُه مرسلُ تلك الملابس إلى صندوق الندوة، التي يعود كامل ريعها للمساعد «محمد الخازم» ومن خلفه.

وعلى الرغم من انضباطه المتين بالأوامر العسكرية، إلّا أن «أبا عوض» كان واحداً منا، إضافةً إلى روحِ مهرّب السلاح المغامِرة التي تسْكُنه وتطبعُ حياتَه، فكان يسرّب الرسائل بين المهاجع مع مطربانات الشاي، وينقل شفهياً شطراً آخر من هذه الرسائل.

بفعل هذه الحركة اليومية الجديدة، استعدْنا بعضاً من إنسانيتنا المطموسة. ربما يضارع هذا الحدثُ في روحه ما يشعر به الإنسان المُترَف حين يجلس في مقهى فاخرٍ يتناول فنجانَ قهوةٍ مع بعض صحبه.

أما المطربانات الفارغة، فكنا نلفّها ببعض مزق الملابس التي نحرص عليها، ونبلّلها بالماء بعد ملء المطربان منه، ونعرّضها للهواء كي تبرد، كعادة البدو في تبريد الماء.

بمرور الأيام، تطوّرت الخدمات التي يقدّمها مسؤول الندوة «أبو عوض» إلى تلبية طلبات النقل من مهجعٍ إلى آخر، مع تبيان سبب النقل، وغالباً يكون هذا الطلب معلّلاً للاجتماعِ بين الإخوة أو الأقارب، ويكون الطلب مشفوعاً بمبلغ خمسمئة ليرة سورية، وكان هذا مبلغاً كبيراً على سجناءَ ليست لديهم أيةُ موارد منتظمة. وهكذا استطاع مدير السجن ومساعده نقلَ الأموال من جيوب السجناء إلى جيوبهم الخاصة.

إضافةً إلى ذلك، فُتحَ السبيل إلى طلب فاتورةٍ نصف شهرية من مواد محددةٍ، مثل الزيت والطحينة، وبعض اللوازم الضرورية من دواء وملابس قطنيّة، كانت تؤمّنها الإدارة بأسعار مضاعفة، إلى أن نفدتْ جميعُ الأموال التي حازَها السجناء مِن زياراتهم القليلة.

* * *

٥٦ ـ في المهجع (٢٢)

أشهر عديدةٌ مرّتْ وأنا أتحيّنُ الفرصةَ للانتقال إلى المهجع (٢٢) في الساحة الرابعة، حيث يقيم شقيقي «أحمد»، الذي لم أَرَهُ منذ ساعة اعتقالي مطلع شهر أيار/مايو عام ١٩٨٠.

وبظهور «أبي عوض» كلاعبٍ يوميٍّ في حركة سجن تدمر، بات من الممكن ثقبُ جدار الاستحالة هذا، فكنت أرسل بعض مطربانات الشاي إلى شقيقي، وأتبادل معه رسائل شفهيةً ينقلها بعضُ سُعاة «أبي عوض»، إلى أن وصلتُ في نهاية الأمر إلى تقديم طلبٍ لنقلي إلى المهجع (٢٢)، وكان الردُّ سريعاً، فشفاعةُ مبلغ خمسمئة ليرةٍ سورية لا تُرَدُّ في هذه الأرجاء.

حضر الرقيبُ المشرف على تنفيذ النقولات ـ التي تكرّرتْ في تلك الآونة ـ وأبلغني بإنهاء علاقتي بمهجعي، وسلّمَني لشرطيٍّ نقلَني جرْياً إلى المهجع (٢٢). وحين دخلتُ، وجدت شقيقي «أحمد»، وقد اشتدَّ عودُه ونحُلَ جسده، واقفاً في صدر الحجرة الأولى للمهجع، ويحفّ بنا جمعٌ كبيرٌ من رفقاء هذا السفر الطويل، لا أدري كم طالَ عناقُنا وبكاؤنا، وبكاءُ مَن حفّوا بنا، إلّا أنني أذكرُ وجوهَهم الآن وكأني فارقتُهم البارحة.

وعبر عشرين شهراً سأُمضيها في هذا المهجع وكأنها دهرٌ طويل، سأودِّع فيها بشكلٍ أسبوعيٍّ بعضاً منهم وهم يُساقون إلى أعواد المشانق، وكأنني الساعةَ أنظرُ إلى وجوههم المطمئنّة، وهم يُنهون رحلةَ العذاب ويصعدون إلى بارئهم. ولا يزال في سمعي رجْعُ حديثهم ودفْقُ كلماتهم وهم يُواسوننا بغيابهم وبقائنا في رحلةِ الجحيم تلك.

سأُمضي ساعاتٍ طويلة أسمع من شقيقي ما حلَّ بأسرتي خلال عامٍ من غيابي؛ كان شقيقي خلالها بينهم، وهم يُخْفُونه تارةً ويعودون به للبيت تارةً أخرى، خشيةَ تعرُّضه للاعتقال التعسفيّ، كما كان يجري مع آلاف الشباب.

وسيحكي لي قصةَ اعتقاله، ومسيرةَ ثلاث سنواتٍ أمْضاها بين سجون حلب ودمشق وتدمر، وسيقصُّ عليَّ بحزنٍ عميقٍ فَقْدَهم للشابّ الحورانيّ «نبيل السعدي»، وكيف كان «نبيل»، المهندس الزراعي، شعلةً من الذكاء والثقافة، كيف طبَعهم بروحِه الرقيقة ورؤيته المتوقّدة للحياة، وكيف سِيق إلى الإعدام بصحْبة رفاقه، قبيل قدومي للمهجع (٢٢) بيومٍ واحد.

ستطول الحكاياتُ ويتشعّب السرد، وتتوالى الأيام وتختلف الوقائعُ الداخلية، فالانتقال مِن مهجعٍ إلى مهجعٍ في سجن تدمر أشبَهُ بالانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ بعيد. أما الانتقال من مهجع الأحداث إلى أحد مهاجع الكبار، فكان أشبَه بالانتقال إلى عالمٍ آخر، لحدّةِ الفوارق وتبايُنِ الأنماط، وفرادةِ الحكايات وأصحابها، وبروزِ الفوارق الشخصية بشكلٍ كبير؛ ففي مهجع الأحداث لن يتعدّى الفارقُ سنتين أو ثلاثَ سنواتٍ، وسيكون فارقُ التحصيل العلميّ بالحجم ذاته؛ أما في مهاجع الكبار، فيمكن أن يكون الفارقُ خمساً وثلاثين سنةً بين جيلٍ وجيل، ويمكن أن تجدَ لواءً في الجيش إلى جانب عريفٍ أو مجنّد، كما يمكن أن تجدَ طبيباً أو قاضياً مع آخرين أمّيين كانوا يتعلمون الأبجديةَ الأولى في هذا السجن، على يدِ رفقاء لهم يعكفون على تعليمهم كلَّ يومٍ دونما كلل.

وسنشهد حالاتٍ مدهشة مِن تفوُّقِ هؤلاء الذين لم تسمح لهم ظروفُهم الخاصة بالتفرغ للتعليم أسوةً بأقرانهم، لكن ما إنْ أُتيح لهم ذلك حتى بذّوا أقرانَهم بسرعة التعلم، وربما فاقوهم شغفاً.

لا يحسن المرور بالمهجع (٢٢) دون التوقّف عند المقدم «عزّ الدين عصيدة» من بلدة «عين منين» في أطراف دمشق، وقد كان في حرب ١٩٧٣ قائدَ كتيبة مدفعية ميدان، وسبق له أن شارك في أكثر من محاولةٍ انقلابية. وكان شديد العداء لـ«عبد الله الأحمر»، الأمين القطري المساعد لحزب البعث الحاكم، وكانت له صلاتٌ قديمةٌ بتيار البعث اليميني المؤيد لـ«صدام

حسين»، لكنه قبيل اعتقاله بسنوات تخلّى عن هذه الصلات بشكلٍ حاسم.

كانت جعبتُه دائماً حافلةً بألف قصةٍ جديدة وطريفة، وإنّي إنْ نسيتها كلها فلن أنسى حكايته عن ليلةٍ كان فيها يتسامر مع نائب الرئيس العراقي «صدّام حسين» وعضو القيادة القومية في حزب البعث العراقي «طه ياسين رمضان»، وكان مغرماً بالشعر الجاهلي، وبعد ساعةٍ من المنادمة وقد انتصف ليلُ بغداد وضع «طه ياسين رمضان» الكأس من يده وقال لصديقنا «عز الدين عصيدة»: «بتعرف يا (أبو إياد) أنَّ العرب الجاهليين كانوا أذكى منّا بأشواط؟»، فسأله أبو إياد: «لماذا؟»، فأجاب: «العرب الجاهليون صنعوا إلهاً من تمرٍ فعبدوه، ولمَّا جاعوا أكلوه، أمّا نحن ـ ويشير إلى حزب البعث ـ فقد اتخذنا إلهاً من خراء، فلا ينفع أن نأكله، ولا ننجو من قبح ريحه».

أمضى «أبو إياد» في سجنه ما ينوف على أربع وعشرين سنة، ثمَّ خرج إلى حياةٍ لم يعدْ له فيها مِن وطر، أمضى بعد خروجه بضع سنواتٍ يرقب عمراً مضى كمن ينظر إلى شمسٍ آذنت بالغروب، إلى أن حان أجلُه ولم يجْنِ من دنياه إلا ظلماً مضافاً إلى ظلم.

الحديث عن المقدم «عزّ الدين عصيدة، أبي إياد» يسوقني لتذكّر إعدام العميد «أحمد غنوم» عام ١٩٨٦، أستاذ النظام المنضمّ في الجيش السوري، والذي اعتُقل منذ عام ١٩٨٠ وظلّ طوال تلك السنين يعاني عذاباً مضاعفاً من الشرطة الحاقدين الذين كانوا يتلذّذون بتعذيبه، ويشعرون بالنشوة وهم ينظرون إلى أنفسهم كيف يتحكّمون بهذه الرتبة العسكرية العالية ويقومون بتعذيبها، وهم مجرد أفراد مجنّدين في أسفل هرم التسلسل العسكري. ويعرف رئيس السجن العسكري يومها أنه يحتجز العميد الذي درَّب «حافظ الأسد» على النظام المنضمّ، وبلغ من شدة تنكيلهم به أنهم كانوا يمتطون كتفيه، ويأمرونه أن يطوف بهم في أرجاء ساحة التعذيب، وهو رجلٌ متقدمٌ في السِّن، وقد أنهكه مرض السكر.

كان الانتقالُ إلى الساحة الرابعة ـ حيث مستقرّ الحياة الجديدة بالنسبة إليّ ـ نقلةً نوعيةً في نمط الحياة اليومية، ونمطِ التواصل بين المهاجع،

وشكلِ تلمُّس الحركة العامة في السجن، وطبيعةِ الأخبار التي ترِد. أبوابُ المهاجع جميعها تنفتح على صندوق الساحة المربع، وتتقابل بعض المهاجع بنظيراتها في الطرف المقابل، الأمر الذي يتيح حظاً أوفرَ من رؤية الآخرين وهم يطوفون في ساحة التنفس، وكثيراً ما كانت المجازفات تتخطّى حدود المعقول، فربما رمى أحدُهم قصاصةَ ورقٍ تحمل خبراً ما، وربما أشار بيده مسَلّماً على صديقٍ يعرفه.

في هذه الفترة، وتسهيلاً لخدمات الندوة التي يديرها صديقنا «أبو عوض»، تمّت الموافقة على أن تُترَك أبوابُ المهاجع مفتوحةً طوال فترة ما بعد العصر، حيث كانت الحركةُ على قدمٍ وساقٍ في نقل الشاي وأشياء أخرى بين المهاجع. هذه الحركة النشطةً سهّلتْ سيولةَ الأنباء الداخلية والخارجية بين أرجاء السجن، الأمر الذي كسَر قليلاً من حدّة الجمود وقتامة الصمت المطبق علينا.

وكان المهجع رقم (١٧) يقع في مدخل الساحة، وكان يضمّ في جنباته معتقلين مرفّهين، يتميزون عن بقية المهاجع بزيارات دوريّة، ويلبسون لباساً نظيفاً جديداً، كما أنهم يحظون بمعاملةٍ حسنة، فلا يتعرضون للشتم أو التعذيب. سنعرف بمرور الأيام أن هؤلاء معتقلون بتهم قديمةٍ قبل أحداث ١٩٨٠، بعضهم متّهمٌ بالاشتراك بمحاولة اغتيال «عبد الحليم خدام» الذي كان وزير خارجية سورية بين ١٩٧٠ و١٩٨٤ ثم نائباً شكليّاً للرئيس وأحد أهم الشركاء في قمع ربيع دمشق ـ وقد تمت تلك المحاولة في أبي ظبي وقُتِل على إثرها وزير خارجية دولة الإمارات «سيف سعيد غباش» ـ وبعضهم الآخر على علاقةٍ قديمة مع قيادات من البعث العراقي، تم استثناؤهم من مجزرة تدمر، وهم الوحيدون الذين نجوا من تلك المجزرة.

وبحكم زياراتهم الرتيبة، وتوفُّر الراديو في مهجعهم، فقد كانوا يسرّبون لنا العديد من الأخبار عن مرض الرئيس، أو عن خلافاتٍ في القيادة، وغيرها من الأخبار التي كنا نبني عليها تحليلات لا تنتهي، جميعها تُفضي كما نتمنّى إلى قُرب خروجنا من السجن.

٥٧ ـ «يشار شوقا»

كانت الحياة في المهجع (٢٢) مختلفةً جذرياً عن حياتنا في مهجع الأحداث، فههنا توجد خلافات جوهريةٌ في الاتجاهات، والسجناء منقسمون لأكثر من تيارٍ فكري. لكن الانقسام الأكبر كان بين التيار العام للإخوان المسلمين، وتيارٍ جديد عُرف باسم صاحبه «يشار شوقا»، وهو حقوقيٌّ شركسيّ من مواليد ١٩٤٣، من قرية المنصورة في مدينة القنيطرة، تلك القريةُ البطلة التي دُمّرتْ بشكلٍ كامل في حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧، ونُهبت جميع بيوتها وسُرقتْ سقوفها القرميدية.

وكان «يشار شوقا» واحداً من ثلاثة أبطالٍ من أبناء تلك القرية كانوا قد أوقفوا الزحفَ الإسرائيلي عام ١٩٦٧ بمفردهم، بأسلحةٍ فرديةٍ ورشاشٍ عيار ٥٠٠، لمدة أربع ساعات، حين هرب الجيش والشعب من الجولان. ومن غرائب القدر أنَّ أحد الثلاثة قُتل في مذبحة تدمر، وهو «أديب مصطفى»، والآخر ـ واسمه «نزهت» ـ أُصيب بالجنون، بينما بقي «يشار» لأعوام طوال في سجون الأسد، ليؤسس مدرسةً فكريةً حملت اسمه. وقد كان فيٍّ بداياته متأثراً بفكر الشيخ «جودت سعيد»، لكنه اختطَّ نهجاً مختلفاً عنه فيما بعد.

كان الرجلُ متمكّناً من أدواته المعرفية، فإنْ تحدَّث، تحدَّث عن علم متين، وإن التبسَ عليه أمرٌ، يُمْسك عنه ويقول جملته الشهيرة: «لا أقولُ فيه شيئاً». لكن جملته الأشهر، والتي يحسم فيها أيّ نقاش، كانت: «نقطة. . انتهى»؛ أي ليس بعد هذا القول شيء. وكان متمثّلاً بحميد

الأخلاق إلى أقصى درجة، الأمر الذي أمال القلوبَ إليه وجمَعَ إليه شطر المهجع، وكان يُلزِمهم بحميد الأخلاق وبأعلى درجات الانضباط في السلوك.

كان موضعُ خلافِه مع التيار الإخواني أنه يؤكد على كُفْر مَن لم يحكم بما أَنزل الله، ويعتبره ركناً عقيديّاً لا مندوحةَ عنه، وأساساً مهماً يبرّر الخروج على النظام ويشرّع قتاله، وهو يستند في رأيه إلى تفسير الجاهلية لدى «سيد قطب» في كتابه الأشهر (**في ظلال القرآن**)، وإلى ورود نصٍّ محْكم في ثبوته ودلالته كما يرى، في الآية (٤٤) من سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

كان متينَ الحجة أمام خصومه، فضلاً عن قدرته العالية على الإقناع، وربما يمكن القولُ إنَّه فاقهم علماً بأشواط، الأمرُ الذي جعلهم واهني الحجة أمامه.

سيعتزلنا هو وفريقه في صلاة الجماعة، على خلفيةٍ تكفيرية، وسيكون لهم موقفٌ واضح جداً «أننا لا نكفّر مَن كفّره الله»، والقاعدة لديهم «أنَّ مَن كفّر مسلماً فقد كفَر، كذلك مَن نَسَبَ الإسلام لكافر».

على الرغم من هذا الموقف الحادّ عقديّاً، إلّا أنهم لم يكونوا ليتخلَّفوا عن موقف الفداء أو بذْل النفس أو الإيثار، وكان الناظر إلينا من علٍ، لا يكاد يميّزنا عنهم، أو يميّزهم عنّا، إلّا في صلاة الجماعة.

تطوَّر هذا التيار في مواقفه اليومية من الشركاء في المهجع، إلى أن وصل إلى ما يسمى «المفاصلة والعزلة الشعورية». وكانوا يتمثّلون قولَه تعالى في الآية (٢٢) من سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وكانوا لا يتحدثون إلينا إلّا بمقدار الضرورة، أو للحوار، وهذا أمرٌ مشروعٌ مع الكافرين!

وبمرور الأيام، وتناقُص الأعداد في المهجع إلى حدٍّ كبير بفعل الإعدامات المتكررة، تمّ تفريقُ ما بقيَ من هذا المهجع، وتوزيعُه على مهاجع شتّى، وكان نصيبُ صاحبِ التيار، أو مرْجِعِه الأساسي، «يشار شوقا» أن ينتقل إلى المهجع (٢٠)، وكان هذا المهجع يضمّ قاماتٍ علمية استطاعت محاورتَه وتكوينَ تيارٍ يضارعه في قوة الحجّة ورجاحة الرأي، الأمرُ الذي خفّفَ إلى حدٍّ كبيرٍ من حدّة تلك الآراء، وقدرتِها على الانتشار. أما الأفراد الذين كانوا يتحلّقون حول «يشار»، فلم يكونوا يملكون قدرته على نشر أفكارهم، فمنهم مَن ضَرب عنها صفحاً، ومنهم مَن كتَمها في نفسه، فلم تَرْقَ إلى تكوينِ تيارٍ كما حصل في سجون «جمال عبد الناصر»، حين تشكَّلَ تيارُ «شكري مصطفى»، الذي سمّى نفسه جماعة المسلمين، والذي سمّاه الرئيس المصري «أنور السادات» تيارَ التكفير والهجرة، لأنهم كفَّروا السلطة الحاكمة لارتضائها الحكْم بغير ما أنزل الله، وكفّروا الشعب الذي قبِل بهكذا حكومة، ودعوا إلى هجْر المساجد التي تشكّل مؤسساتٍ تابعةً لنظامٍ جاهليّ. وعلى الشاكلة ذاتها، وُجِد مِن تيار «يشار شوقا» مَن يعتبر المساجد زمن حكْم «الأسد» مؤسسات جاهلية، كونها تمجّد هذا الحاكم وتقبَل سيادته عليها.

بالمقابل، كانت هناك شخصيات تمثّل الإخوان المسلمين، لا تقلُّ تشدّداً في اتجاهٍ مختلف، فقد كان بعضهم يؤكد مراراً وتكراراً أنّ تنظيم الإخوان المسلمين هو الاسمُ الحركيّ للإسلام.

من المؤكد أن الظلم الذي وقَع على الشعب السوري عامةً، وعلينا كمعتَقلين بشكلٍ أجلى، كان له كبيرُ الأثر في ظهور هذه النزعات التكفيرية، بالضبط كما حصل مع تيار «شكري مصطفى» في سجون «عبد الناصر». مع الفارق الجوهريّ المتجلّي بأنَّ هذا التيار في سجون «حافظ الأسد» لم يكنْ له أيَّة استطالاتٍ فكريةٍ أو مسلكيّةٍ في الفضاء العام خارجَ

إطار التصوُّر الاعتقادي؛ بعبارةٍ أقرب، لم يكن لديه دعوةٌ لقتالٍ أو لحمْل سلاحٍ أو لأيّ شكلٍ من أشكال العنف. وهو أقربُ في هذا إلى تيارِ السلفيّة العلميّة، التي تتمحور حول صحة الدليل ونفيِ الروايات والأحاديث الضعيفة والاجتهادات المشتطّة، وحتى تكفيرِ مَن يقول بخلافهم في بعض مسائل العقيدة، وهي بعيدةٌ كلَّ البعد عن المشروع السياسي الذي تحمله السلفيّة الجهاديّة.

سألتقي بعد أعوام من خروجنا بأبي أحمد «يشار شوقا»، وسأزوره مراتٍ في بيته الدمشقي، وقد تقدّمتْ به السنون، لكنها لم تقْوَ على شباب قلبه وقوةِ عزيمته، وسنتحدث بودٍّ عالٍ، بعيداً عن أيّ حديثٍ يمتّ إلى موقفه القديم، ولا أخالُه تخلّى عنه كلياً، لكنني كنت ألمسُ أثرَ الاعتدال، الذي أحدثَتْه حواراتُ ما بعد المهجع (٢٢)، فهو يملك من الجرأة والنزاهة ما يُلزِمه للإفصاح عن التغيير، إن هو حصل.

لم يُكتب لهذا التيار الانتشار أو البقاء متماسكاً خارج جدران مهجع (٢٢)، وأرجّح أن السبب الرئيسَ هو بنْيةُ الإسلام الشاميّ ـ نسبةً إلى بلاد الشام ـ المرنة، والتي تطْبع مسلِمي سورية عامةً.

ستظهر بضعةُ تياراتٍ متناهيةٍ في صغَرها، قد لا يتعدّى عددُ أفراد بعضها شخصين أو ثلاثة، عُرِف بعضها باسم القرآنيين، أي الذين يقولون بحجيّة القرآن وحدَه في إنشاء الأحكام وعدم القبول بأي حجةٍ سواه، وهم بهذا يضربون بمدرسة الحديث النبويّ عرضَ الحائط. ولنا أن ندرك مقدار الاستعداء الذي يثيرونه نحوهم مِن جموع المخالفين لهم. لكنَّ دعوتَهم هذه لم تُكتب لها الحياة لأسباب عدّة، أهمها ضعفهم الشديد بأدوات البحث الإسلامية، إضافةً إلى الحدّة الفكرية التي تطبع معظمهم بالتعامل مع الآخرين، وجرأتهم على تكفير مَن خالفهم.

خلاصة القول، إن التيار العام الذي طبَع الاتجاهَ الإسلامي في تدمر كان متناغماً إلى حدٍّ كبير مع الإسلام الشامي، وتأثير المشيخيّة السورية، التي كانت حاضرةً بقوةٍ واضحةٍ ببعض الرموز أو الأتباع، يضاف إلى ذلك

كله إيقاعُ الحياة اليومية، فالتعذيبُ مستمرٌّ والموتُ حاضرٌ وواقفٌ في كل منعطفٍ يوميّ، الأمرُ الذي يكسر الجرأةَ التي يحتاجها المرءُ للخروج عن الاتجاه العام، خاصةً في مسألةٍ دينيةٍ تملك من الحساسية والقدرة على تحشيد المنافحين عنها ما لا يتأتّى لغيرها.

هذا المناخ الفكري خلق ضجيجاً بحثياً، وطفتْ على السطح مسائل إشكاليّةٌ، لم يكن الكثيرون قد سمعوا بها أصلاً، كحجية خبر الآحاد في الحديث الشريف، ومسألة كفر دون كفر، التي رُويت عن «ابن عباس» واعتمدها كثيرون من بعده، وكانت للبعض ذريعةً في ممالأة حكّامٍ ظلَمة مثل آل الأسد، ومداهنتهم المخزية.

❊ ❊ ❊

٥٨ ـ السرطان و«عبد اللّه برد»

كان المسؤول الصحي في مهجعنا الجديد هو الدكتور «يوسف»، وهو طبيبٌ بارعٌ من مدينة دير الزور، ودمثٌ في تعامله مع المرضى. وكان يتعاون مع الدكتور «كامل»، الذي كان بدوره مرجعيّةً في الطب الداخلي، وأحدَ المشاركين في ترجمة واحدٍ من أهم المراجع الطبية الأكاديمية عالمياً وهو (مرجع «هاريسون» في الطب الباطني).

كان «الدكتور يوسف» لا يفتر عن استشارة «الدكتور كامل» كلما التبسَ التشخيص أو تعقّدَت الحالة. ربما كان «د. كامل» أوسع خبرةً، لكن «د. يوسف» كان أطولَ باعاً في إقناعِ المرضى، والترفُّقِ بنزعاتهم المادية التي لا يمكن تلبيتها في معظم الحالات، فالرجل الكبير «أبو أحمد» يغضب أشدَّ الغضب لأن الطبيب «يوسف» يعطيه حبة (بريمبيران) لمعالجة المغص والغثيان وآلام المعدة، وهي حبيبة متناهية الصغر، بالكاد يمكن حمْلها أو رؤيتها بالعين المجردة، بينما يمنح مريضاً أصغر منه بخمسين سنة حبةَ (سيتامول) كبيرة، فتثور ثائرته لهذا الحيف؛ ألا يقدّر الطبيب للسنّ المتقدّم قدْرَه! فما يكون من طبيبنا «يوسف» إلّا أن يمنحه حبة (كلورامفينيكول)، وهو مضادٌ ميكروبيّ كابحٌ للجراثيم، هذه الحبة سبقَ أن تمّ تفريغُها من محتواها، ومُلئتْ ملحاً لهذه الأغراض تحديداً، فيبتلعها راضيَ النفس ساكن البال. وهكذا كانت تجري الأمور في بعض نواحيها.

وكان من بين المرضى المزمنين صديقنا «عبد الله برد»، الذي تأتيه

نوبات الربو الحادة فلا ينفع معها أي مهدّئ أو مسكن، ويوماً بعد يوم، يشتد هزاله وتتقارب نوباته الربويّة فيما بينها. كان «عبد الله» في البدء يعاني من نوبةٍ حادةٍ كلّ عشرة أيام، ثم أصبحت تأتيه كلّ أسبوع، ولم يكن (الأمينوفيلين) لِيُجدي معه نفعاً، وهو عقارٌ كيميائي موسِّعٌ للشُعب الهوائية، وكان الدواءَ الوحيد المتوفر بندرةٍ بين أيدينا. وكان «الدكتور يوسف» و«الدكتور كامل» يعلمان أنه مصابٌ بسرطانٍ في حنجرته، لكنهما يكتمان الأمرَ عنه، كيلا ينهار رعباً من مرضه.

بعد عدة أسابيع من الصراع المنفرد مع المرض، ودون توفُّر أدنى عنايةٍ صحيةٍ مناسبةٍ لهذه الحالة، تحدَّث مسؤولنا الصحيّ مع طبيب السجن ـ الجلّاد «يونس العلي» ـ فطلب الأخيرُ أن يَحضر المريض كي ينظر إليه، وحين حضر مريضنا «عبد الله» ووقف أمام الطبيب، وهو بادي الهزال وقد فتكَ السرطان بجسده، ركلَه الطبيب «يونس العلي» بقدمِه، وصاح فيه متهكّماً ضاحكاً: «ولاك حقير.. أنت معك سرطان حنجرة.. بدك تموت هون متل الكلب»! ثم ركلَه ثانيةً فألقاه أرضاً، وقهقهَ ضاحكاً وهو ينصرف بِلا مبالاة.

دخل «عبد الله» المريض وهو حزينٌ ومتألم، وقد بدتْ علائمُ اليأس على محيّاه الشاحب، نظرَ إلى طبيبنا «يوسف» وقال: «هل كنتَ تعلم أنني مصابٌ بالسرطان؟». أطرق الطبيب حزناً، ومضى «عبد الله» إلى زاوية المهجع، حيث ينزوي معظم يومه.

في هذا اليوم، واليوم الذي تلاه، تعرض «عبد الله» لأربع نوباتٍ حادةٍ، كانت الرابعة هي القاضية، فمات على إثرها، ومات فينا معه ـ وللمرّةِ الألف ـ كلُّ بصيصٍ للأمل بالنجاة.

تم إبلاغ الإدارة عن وفاته، وكان الردُّ المعتاد أنهم يعلمون.. «اتركوه بينكم».

وعند توزيع طعام العشاء، سيطلبون منا أن نُخرجه ملفوفاً ببطانيته، ليتمّ حمْله ليلاً كأيّ متاعٍ بالٍ، فيُنقل إلى حفرةٍ تنتظره، وتنتظرنا ذاتَ مساء.

لم تكن ممارسة الطب والرعاية الصحية في سجن تدمر تشبه مثيلاتها في أي مكانٍ آخر من العالم، فهي تجْمع بين الندرة الشديدة للدواء والمواد الطبية المساعدة، وبين الإنهاك المُريع يومياً للسجناء في ساحات التعذيب، دون تمييزٍ بين صحيحٍ ومريض، الأمرُ الذي يضاعف من شدّة المرض، ويُضعف الجسدَ المريضَ، فيُفقِده أدنى قدرةٍ على المقاومة.

كان هذا كلُّه محمولاً على الرغبة الوحشية لدى الجلادين في قتل المرضى وزيادة التنكيل بهم للتعجيل بموتهم، وفي مقدّمهم طبيبُ السجن الملازم «يونس العلي»، يساعده في ذلك الرقيب أول «فيصل كحيل» الذي تلطّختْ يداه بمئات القتلى والضحايا، الذين أورثَهم بتعذيبه آفاتٍ وإعاقات جسديةً ستُلازمهم طوال حياتهم.

* * *

٥٩ ـ العريف «فوّاز»

سنذكر في المهجع (٢٢)، وستتذكر الساحةُ الرابعة، بأسًى وحزنٍ عميقين، صرخات الشاب الحمصي «عماد حاكمي»، الذي كان كالنسمة التي تسري في المهجع فلا يشعر أحدٌ بوطأتها. ففي يومٍ من أيام التعذيب الشديد، اقترب منه أحدُ العرفاء، وكان غليظَ الخلْقِ والخلُق، شديدَ البأس، لا يكلّ ولا يملّ من تعذيب السجناء بيديه، إنَّه العريف «فوّاز»، الذي سيسطّر في ساحات تدمر فصولاً متفرّدةً في وحشيّتها في أساليب قتل السجناء.

اقترب العريف «فواز» من صديقنا «عماد حاكمي»، وضرَبه بعصا غليظةٍ يحملها على أمّ رأسه، فصرخ صديقُنا ألماً. طلب منه العريف أن ينظر في وجهه، ففعل وهو يرتعد خوفاً، فمثل هذا الطلب لا يكون إلا مقدمةً لشيءٍ في غاية السوء. نظر صديقُنا «عماد» إلى وجه العريف الذي ضربَه، فعرفَ فيه صديقَه «فواز»؛ إنه ذلك الفتى من مدينة بانياس، الذي درس معه في المعهد في مدينة حمص، والذي كان يأتي إلى منزله فيدرسون ويتناولون الطعام ويسمرون، وكثيراً ما كانت دراستُهم تستمر إلى ساعةٍ متأخرة من الليل، فيبيت «فواز» في منزل عائلة «عماد حاكمي».

نظر إلى وجهه وهو يحار في أمره، هل سيترفّق به صديقُه القديم ويكون سبباً في تخفيف التعذيب عنه؟ أم سيكون سبباً في قتله؟

لم يكن من السهل أبداً توقُّع أيِّ فعلٍ حسَنٍ من أفعال الجلادين

ورؤسائهم، لكن هذه التساؤلات لا يطول انتظارُ صداها، فقد أمرَ صديقُه العريفُ مجموعةَ الجلادين الحاضرين، فانهالوا عليه ضرباً قاتلاً، وكنا نعرف من طريقة الضرب إنْ كان يُراد منه التعذيب، أم أنه ضربٌ ممهِّدٌ للقتل.

كانت خيبةُ صديقنا «عماد» كبيرة، فقد كان يقتسم مع صديقه «فواز» طبقَ الطعام وفرحة الأيام، وها هو ذا اليوم ينال أقسى تعذيبٍ يوميٍّ من هذا الصديق. وكما يبدو، فقد لمح «عماد» في عيني العريف «فواز» نيّتَه في القتل، فقد عكفَ بعد هذا اللقاء الكارثيّ على تلاوة القرآن والإكثار من الصلاة، وكأنه ينتظر ساعةَ مقتله.

وفي صبيحة يومٍ أسود، وبعد أن نالنا من حفلة التعذيب أضعافَ ما نلقاه كلَّ يوم، تمّ إدخالُنا إلى المهجع بطريقةٍ همجيّة، تحت وقعِ السياط والعصيِّ الغليظة التي تنهال على أجسادنا كيفما اتّفق، فتكسِر كَتفَ هذا وتُدمي أذنَ ذاك، ويسقط العشراتُ بين الأقدام المتراكضة هلعاً، وتعلو صيحاتُ الألم والاستغاثة. يتوقف الجمْع الهادر، والسياطُ تلسعُ ظهورَنا ووجوهَنا، ينحني عشرات الشباب ليلتقطوا مَن سقطَ أرضاً، ويدخل الجميع وقد تضرّجَ معظمنا بالدماء.

ثوانٍ عدّةٌ مرّتْ قبل أن ينتبه أحدٌ لما حصل، لقد أمسك العريف «فواز» صديقنا «عماد» من كتفه واستبقاه خارج المهجع، ثم ما لبث أن أشار لخمسةٍ من الجلادين، فانقضّوا عليه كضباعٍ نهِمة، جَلداً وركلاً وضرباً وحشيّاً، وهو يتلوّى بين أيديهم ومقارعهم، كطائرٍ مسكينٍ تنزف روحُه قبل جسده.

ليس صحيحاً ما نراه في أفلام هوليوود، أن البطل يضرب ضحيّتَه ضربةً واحدةً على عنقه، فيتركُه جثةً هامدةً، أو أنه يلوي عنقَه بكلتا يديه، فيسقط ميتاً للحظته، ففي المرات الكثيرة التي شهدْنا بها الجلادين وهم يقتلون رجلاً منّا، كان قتْلُه يستغرق ساعةً من التعذيب الفظيع، إلى أن يلفظ أنفاسَه! ونادراً ما يحصل هكذا، ففي معظم الحالات، كان يُترك

وهو في نزْعه الأخير، ليلفظ أنفاسَه داخل المهجع بين أيدينا، ليكون وقْعُ الإرهاب والخوف أمضى.

مضت ساعةٌ من التعذيب ونحن نصْغي إلى كل صيحةٍ وصرخةٍ وتأويهةٍ تندُّ عن صدر أخينا «عماد»، متكوّرين على أنفسنا، وألسنتُنا تلهج بالدعاء أنْ تَخرج روحُه إلى بارئها في أعجلِ لحظة، لينتهي من هذا التعذيب الذي يفوق الموت هولاً بآماد.

ليس للبلاغةِ، مهما بلغتْ في مدى وصفها، أن تستطيع نقلَ حقيقةِ ما كنا نراه ونحسّهُ في تلك اللحظات الدامية، تحت وطأة الأسى الطاغي والعجزِ المطْبق، حتى كنّا نسمع وجيبَ قلوبنا وهي تعدو في صدورنا ألماً وخوفاً وقهراً، ومِن أعجب العجب أننا في تلك الساعة لم نمُتْ، ولم تتوقف قلوبُنا مِن شدّة القهرِ وحدَّة البأس.

يبدو أن الجلّادين كَلّوا من شدة التعذيب، وأُنهكتْ سواعدهم، فأشار إليهم العريف المجرم ـ ونحن نرْقبه من شقوق الباب ـ أن يحملوه إلى حافة المهجع، حيث ترتفع بضعةُ أحجارٍ عن مستوى أرض الساحة لتُشكّل رصيفاً لمهجعنا، فوضعوه أمامَها، ورفعوا رأسه على الحافة الحجرية، وأحضروا للعريف (تنكةً) مليئةً بالإسمنت، فحملَها ورماها فوق رأس ضحيته مرّاتٍ عدة، إلى أن سمعْنا تحطُّمَ جمجمته وعظام صدره، وعلمْنا أن روحَه تسبح الآن خارج أسوار هذا السجن البغيض.

بعدها تقدّم المجرم «فواز» وداسَ بقدمه القذرة على عنق ضحيّته ليطمئنّ إلى تمام موتها، وينصرف بعدَها بنفْسٍ مطمئنةٍ إلى أن الشاهد على إجرامه اليومي، في ساحات تدمر، قد قضى نحْبَه، جاهلاً أن للأيام شواهدَ وعيوناً، وأنه سيُمضي حياتَه الباقية مجرّدَ مسخ بشريٍّ في هيئة إنسان، تُطارده عيونُ ضحاياه في كل منحنى، وتسكن أحلامَه، لتصبح أيامُه سلسلةً لا تنتهي من الكوابيس.

كثيراً ما كنا نستعيد تلك الصور في جلساتنا، في السجون التي سننتقل إليها تالياً بعيداً عن ساحات تدمر، ونعيد التساؤل: كيف تسنّى

لهذا الإنسان الذي كان يعيش مع صديقه في بيتٍ واحدٍ ويشاطره كلَّ تفاصيل حياته الطبيعية، أن يستحيل إلى وحشٍ قاتلٍ لا يرتوي من رائحة الدم؟

وأتذكر قصة الجلّاد «هوشابا» الذي قتل صديقنا «أحمد طوير» بالوحشية والبربرية ذاتها التي قَتل فيها العريف «فواز» صديقَنا «عماد».

إنه جوهر هذا النظام المجرم، الذي يخلِّق الوحوشَ من البشر، ويقتل كلَّ منزعٍ إنسانيٍّ في روح مناصريه، ويغسل أدمغتَهم، فيصوِّر الآخرين على أنّهم مجرمون، وعينُ الفضيلة تكْمن في قتلِهم وتعذيبهم، وتخليصِ البلاد من شرورهم!

ستبقى سورية مملكةً للصمت وصحراءَ للظلام، وجداراً للرعب يحيط بالأروح قبل الأجساد، ما دام هذا النظام يجثم على الصدور، وينفث سمومَه في كلِّ تفاصيل حياتنا وحياة أبنائنا.

لكن الأدهى والأمرّ أننا كنا نكرر مراراً ـ وكأننا ننظر إلى المستقبل القريب بعيون القلب ـ أن مِن أخطر منجزات الديكتاتور أنّه يجعل من عملية اجتثاثه واقعاً أسوأ بمراتٍ من استمرار بقائه، وكنا ندرك متيقّنين أنَّ هذا اليوم آتٍ لا محالة، ولن يكون زوال نظام «الأسد» إلّا عبر بحرٍ من القتل والدم، تغرق فيه الملايين.

* * *

٦٠ ـ هوَس التحقُّق

من أكثر التصرفات التي كنا نتندّر بمتابعتها يومياً ما كنا نسمّيه مجازاً (هوَس التحقّق)، وذلك لحجم الرعب المسيطر على عناصر السجن، من شرطةٍ وحرّاس وجلّادين. وقد اشتهر لدى بعضهم، لدرجة أننا كنّا نتحضّر لحفلةٍ ممتعةٍ من ذلك الهوس العصابيّ الذي يلازم بعض الشخصيات منهم.

وكان ممن اشتهروا بذلك الرقيب «كاسر»، وهو اسمٌ كان يناديه به زملاؤه في الساحات، وحين كان يعترض مشيراً إلينا، لأنه لا يريد لاسمِه أن يُعرف، كانوا يؤكدون، لتطمينه، أنَّه لن يخرج أحدٌ منّا حياً من هذا الجحيم.

كان «كاسر» قصير القامة، شديدَ البدانة، غليظَ عظمِ الساعد، إذا ضربَ أسالَ دماء ضحيته من أول ضربة، وكان غليظ الصوت، كأنه مدمنٌ على التدخين منذ زمنٍ بعيد.

ما إن يدخل الرقيب «كاسر» إلى الساحة بعد الغروب لتفقُّدِ أقفال المهاجع، إيذاناً بانتفاء الحاجة إلى فتحها حتى الصباح، ويصرخ صرخته المعهودة «حقراااء»، حتى يقترب مِن كل بابٍ من أبواب المهاجع، ويُمسك القفلَ بكلتا يديه ويجذبه إليه جذباً شديداً، وكثيراً ما كان يستعين بقدمه اليمنى، فيدفع بأخمصها الباب وهو يجذب إليه القفل، ليتحقّق بشكلٍ قاطع أنه مُقفَلٌ ولن يتزحزح من موقعه ولو حرّكتَه العفاريت!

ثم ينتقل إلى الباب التالي، ويكرر الفعل ذاته لمرات، وبعد أن ينتهي من الباب الثالث، يعود مجدّداً إلى الباب الأول فالثاني فالثالث، ليطمئن للمرة الأخيرة ـ كما كنا نظنّ ـ ثم يكمل إجراءاته الاحترازية، إلى أن يصل إلى الباب الثامن في الساحة، وهو ملاصقٌ لباب الساحة الخارجيّ، وما عليه إلّا أن يخرج منها بخطوةٍ واحدةٍ، فيعود وبشكلٍ عكسيّ، ليُمسك بكل قفلٍ ويهزّه هزاتٍ عنيفة، ليطمئن للمرة العاشرة أنه مقفلٌ بإحكام، ثم يغادر بخطواتٍ سريعة. وما إن ينعطف باتجاه المخرج، ويختفي عن زاوية الرؤية، حتى يطلّ برأسه ثانيةً كالمتلصّص، لينظر إلى الساحة نظرةَ اطمئنانٍ أخيرة.

كان الرقباء الآخرون يمرّون بهذه الجولة اليومية خلال دقيقتين أو ثلاث دقائق على أكثر تقدير، وينتهون من جميع الساحات في مدةٍ أقصاها نصفُ ساعة، بينما كان صاحبنا «كاسر» يختصرها بشكلٍ عاصفٍ وسريع في مدةٍ لا تقلّ عن ساعتين، إن هو حالفَه الحظُّ ولم يستيقظ وسواسُه القهريُّ مرةً أُخرى.

وكنا نمسك أفواهَنا من الضحك ونحن نرقبه ونسمع همهماته ولعناته وهي تتنزّل على أبواب مهاجعنا، بينما يقوم بعضُنا بتقليد حركاته من الداخل، ولو فتح النافذةَ علينا، لَوَجَد بضعة أشخاصٍ ساخرين يقلّدون حركاته المجنونة.

وكثيراً ما كان يلتفت فجأةً إلى جهةِ مهجعنا، وكأنه يحسّ أن بعض المتلصّصين يراقبونه، فينهال شتماً ولعناً، ونزداد سخريةً وضحكاً، وما إن نسمع صوتَ باب الساحة يُقفل، حتى نسمع دويّاً من الضحكات المكتومة تصدر عن أركان الساحة كلها، فخلْف جميع الأبواب يجلس متلصّصون مثلَنا، يستمتعون بهذا الوسواس القهريّ الذي يُنهك صاحبَه ويعذّبه.

ولم تكن هذه الجولة الوحيدة التي يخوضها الرقيب «كاسر»؛ ففي اليوم نفسه يكون دورُه في إجراء التفقّد اليومي، الذي يكون في منتصف النهار، وعليك أن تشاهد الشرطة والجلّادين كيف يسخرون ويتبرّمون من

بطْئه، وتكراره لعملية العدِّ التي ربما يعيدها لمراتٍ في المهجع الواحد.

من الصعب، أو ربما من المحال، تخيُّل حجم التناقضات التي تحويها تلك الحياة الكثيفة والغنية في آنٍ معاً، فاليوم الواحد يحتوي جملةً من الأحداث المبكية والمضحكة، وباختلاطٍ عجيب. وربما تمرّ الساعة الواحدة ونحن نُعذَّبُ في شطرِها الأول، بينما نمضي شطرَها الآخر في الضَّحك، سخريةً من فعْل أحدِ الجلّادين، أو من فصلٍ ترفيهيٍّ أو مقطعٍ مسرحيٍّ ساخر.

ولستُ أنسى صديقنا «أنس نينو»، الذي كان رئيساً لمهجع الأحداث (٣٧)، حين كان يباغت الرقباءَ والجلادين بسيلٍ من العبارات المبهمة، والأوامر الصارمة السريعة التي يصْدرها لعناصر مهجعه، فيلتبس الأمرُ على الرقباء والجلّادين، ويسحب منهم زمامَ المبادرة، ويبالغ في إرباكهم، فلا يترك لهم من خيارٍ إلا ترْكه ومهجعه، والانتقال إلى مكانٍ آخر، وربما أخطأ أحدُهم وصار عُرضةً لعقوبةٍ شديدةٍ من الجلّادين، فيسارع لتعنيفه ومعاقبته بشكلٍ تمثيليّ، فيقطع عليهم السبيل إلى عقوبته.

كلُّ هذا يشير إلى مدى القدرة الهائلة التي يملكها الإنسان، والتي من المحال اكتشافُها إلّا عند الحافة، وعند الحدود القصوى للضغط الذي يقاومه. وكثيراً ما كنّا نتندَّر مندهشين من قصةٍ عن أحد الأصدقاء النّاجين، وكيف أنه استطاع النجاةَ بعد أن تعرَّض لذلك القدر الهائل من التعذيب المكثف، ثم ما نلبث أن نستغرب من دهشتنا تلك، بعد أن نتذكر كم مررنا بمثلها، ونجَونا!.

* * *

٦١ ـ زيارة من دمشق

في هذه الفترة، كانت الزيارات التي توفّرُها أم «فيصل غانم»، نظيرَ أساور وعقود من الذهب الخالص، لا تزال تترى، وكانت السبيلَ الوحيد للحصول على بعض الملابس الجديدة، بدلاً من ملابسنا البالية والممتلئة رُقعاً، حتى إننا كنا نتبارى فيما بيننا في تحديد القطعة الأصلية في هذا القميص والقطع التي أُضيفتْ للترقيع، ونادراً ما كنا نصيب الحقيقة. وحين عودتنا من التعذيب الصباحي أو المسائي، كنا نحمد الله أن التمزّق حصل في جِلد أحدِنا لا في ثيابه، لأن الجلد يتجدّد تلقائياً، أما الملابس، إنْ هي مُزّقت، فلا تعويض لها.

كان «غطفان» رجلاً دمشقياً جاوز الخامسة والأربعين من العمر، وكان رقيقاً، شديدَ الاتزان، طافيَ الحزن، فلا يغادر محيّاه أبداً، ولطالما مررتُ به لأُخرجه من شروده وذهوله، وهو يسبح في خيالاته المُترعة بالأسى. إنها العائلة، همّه الوحيد، هي كلُّ ما لديه وكلُّ ما يعنيه من هذه الحياة، التي لم يكن يعدّها حياةً أصلاً.

كان «غطفان» متزوجاً من سيدةٍ يحبها حباً عظيماً، وهي قريبةٌ من وسَطه الاجتماعي، وله منها طفلةٌ جميلة اسمها «ندى»، طالما كان يحلم أنه يضمّها بين يديه، وهو عائدٌ إلى بيته من جديد، وكان بين الفينة والأخرى يغلبه حزنُه لفراق أسرته، فيُطيل الصمت والتفكير في مصيرهم ومصيره. وهو مثل الجميع، لا يرى أيّ بصيصِ أملٍ للخروج من هذا السجن اللعين، ويعرف عن قُربٍ مدى تغوّل هذا النظام وتغلغله في

تفاصيل حياة السوريين، وكم هو ممسكٌ بكل مفاصل القوة، مهما قلَّ شأنُها. الأمرُ الذي سيجعل من إزاحته أمراً بالغَ الصعوبة، وربما أقربَ إلى المحال.

في المرات العديدة التي تنتابه فيه موجات الحزن هذه، كان يفكر بشكلٍ جادٍّ بإبلاغ زوجتِه رغبتَه في الانفصال عنها، ومنْحها الحرية لتُمضي بقية حياتها دون الاضطرار لانتظاره إلى مدًى غير منظور، وهو يعلم ما يترتّب على هذا الانتظار من أسًى مستمر، وحضورٍ متكررٍ ورتيبٍ للمأساة، التي ستتبدّى في كلّ تفاصيل حياتها اليومية، خاصةً أن الطفلة «ندى» قد جاوزت عامها العاشر، ولديها الحقُّ في أن تحيا حياةً طبيعية، بعيداً عن الذِكر اليوميّ لذلك الأب الغائب، والميؤوس من عودته. وهو لا يعلم على وجه الدقة، هل سيكون هو نفسه حين عودته؟ وهل ستتواءم أسرتُه، أو زوجته وطفلته، مع هذا الشخص العائد من ذلك العالم الأسود، بما يحمله من تغيّرات وتحوُّلات؟

أسئلةٌ كثيرةٌ لم يكن يملك لها جواباً، لكنه كان يَجدُ في منْحها حقَّ الانفصال ومتابعة حياتها الطبيعية أمراً منطقياً، ويحمل بُعداً أخلاقياً من طرفه. وربما كان يدرك مقدارَ ما أحدثتْه السنوات الخمس في شخصه من تغييرٍ عميقٍ على جميع الصعد، وكم سيكون هذا التغيير كبيراً حين خروجه، بعد سنوات لا يُحصي لها عَدّاً، إضافةً إلى ما ستُحدثه سنواتُ الفراق تلك، والتي ستنوء بثقل العذابات التي سبّبَها غيابُه؛ فهل ستغفر له زوجته وطفلته غيابَه عن حياتهما؟ وهل سيجدونه مُصيباً فيما مضى إليه؟

عشرات الأسئلة التي كانت تتعاور سَكينتَه، فلا تُبقي له مستقرّاً. كلُّ هذا كان يعزّز لديه الرغبةَ بتحريرهما من الانتظار.

وكانت زيارة هذا اليوم من نصيب صديقنا «غطفان»، وهو ابنُ رجلِ أعمالٍ دمشقيّ، استطاع تأمينَ زيارته الأولى لنجْله بعد مساومةٍ مع أحدِ وسطاء «فيصل غانم»، وكان الثمن سيارة «مرسيدس» حديثة، لقاءَ السماح لعائلته بزيارة ابنهم الوحيد مدةَ خمس عشرة دقيقة لا غير.

وحين أحضروا السجين إلى الغرفة الصغيرة، التي تتمّ فيها مقابلات

السجين بذويه، كان صاحبُنا شديدَ النحول، شاحبَ الوجه، يرتدي أسماله البالية، وتتقدّمه رائحةٌ شديدةُ النفاذ، جرّاء التخمّرات المتراكمة عبر سِنِي السجن في مهاجع تكتظّ بساكنيها، وينْدر فيها توفّرُ الماء والصابون اللازم للاغتسال.

في كل خطوةٍ تقرّبُه إلى حجرة الزيارات، كان يراجع في ذهنه كلَّ التفاصيل التي عاشها معهم، وكلَّ القرارات التي أزمعَ أن يبلغَهم بها، وفي مقدّمتها قرارُه بالانفصال عن زوجته.

كان الحزنُ الشديد يعتصر قلبَه، لتخيُّله مقدارَ الأسى الذي ستوْقِعه كلماتُه في نفس زوجته، تلك المرأة التي طالما أحبَّها وأحبَّته، وهي الآن تزوره في سجنه بعد سنوات الانتظار، ليبلغها قرارَ الانفصال. ما أقسى بعض المواقف التي تضعنا في مواجهتها الأيام!

ما إن وصل إلى الساحة الأولى، حتى استوقفَه الرقيبُ الذي جاء به من مهجعه، وهدّدَه بما سيناله إنْ هو نبَسَ ببنت شفةٍ عن أيّ تفصيلٍ يخصّ الحياة والتعذيب في تدمر، فهزَّ رأسه مُذْعناً. لقد كانت روحُه في مكانٍ آخر، كيف سيعانقهم وكيف سيتحدّث إليهم، كيف سيبلغهم قرارَه الصادم، وهو أعجزُ من أن يتَّخذَ أيَّ قرار.

دخل الغرفةَ وهو لا يكاد يستبين ملامحَ مَن شاهدهم، وما إن اقترب منهم، حتى لمحَ على نحوٍ خاطف وجْهَ زوجته وهو ينكمش ويزورُّ للخلف، من وطْءِ رائحته الكريهة وشكلِه المخيف، لم تكن لتتخيّل أنها ستلتقي هذا الكائنَ الغريب على أنه زوجُها الذي طالما انتظرت لقاءه.

عانق والديه، واحتضن طفلتَه «ندى»، ووقف غيرَ بعيدٍ عن زوجته، التي لم يجرؤ على الاقتراب منها، بعد أن أحسّ بالقشعريرة تسري في جسدها من هولِ ما رأتْ وأحسّتْ. لا يدري كيف مضتْ تلك الدقائقُ الثقيلة. وعلى الرغم من كلّ الاستعدادات التي أجراها عبر سنواتٍ لاستقبال هذه اللحظة، إلّا أن جميع أوهامه وخيالاته التي نسجَها تبدّدَتْ في لحظةٍ واحدة، حين لمس إنكارَ وجهها، وبتعبير أشدّ فجاجةً: بعد أن أحسَّ قرَفَها من رائحته وشكله.

لم يكن يحتاج إلى مزيدٍ من الجهد ليبلغها قراره بالانفصال، وأن تبقى «ندى» بصحبتها إن هي رغبتْ في ذلك. أوكلَ إلى والده الشروعَ بإجراءات الطلاق، وأن تُنقل كلُّ ممتلكاته إليها وإلى طفلتهما.

عانقَ والديه، وقبّلَ طفلتَه وهو لا يكاد يراها، لفرْطِ ما نزفتْ روحُه وأمطرتْ عيناه. ومع كلِّ الوحشيّة التي يبديها الجلّادون في تعذيبنا اليومي، إلّا أن الرقيب الذي رافق صديقنا إلى زيارته رقَّ لحاله، ولم يملك نفسه من مواساته ببضع كلمات.

دخل «غطفان» إلى المهجع، وهو محمّلٌ بكمياتٍ وافرةٍ من الملابس والحلوى والنقود، يتبعه رتلٌ طويلٌ من (البلديات) الذين يحملون ما أتى به الأهل من متاع. رمى ما يحمله إلى الأرض دفعةً واحدةً، ومضى ساهماً شديدَ الحزن إلى ركنِه المظلم من المهجع. لم يقترب منه أحد، فقد كنا على العموم نعلم مقدار الحزن الطامي الذي يغشى روحَه في هذه الظروف.

ليس هناك ما هو أقسى على مَن تفطّرت روحُه ظمأً من أن يمرّ بجانب نهرٍ عذبٍ، فيسمع خريرَ مائه، ولا يستطيع أن ينهل منه ولو شربةً صغيرة.

بعد ساعةٍ من الزمن، استطاع بعضُنا الاقترابَ من «غطفان»، ومسْحَ بعض العناء الذي يصبغ وجهه، ومواساته بما حصل معه.

سيحتاج صديقنا سنواتٍ من محاولة النسيان ومجالدة الذكريات لتخفيف وطأتها، لكنه لم يكن لينسى، ومن دون أيِّ ضغينةٍ، تغضُّنَ وجهها قرفاً حين نظرتْ إليه.

كلما تذكّرتُ صديقي «غطفان»، كنت أحمدُ الله ألفَ مرةٍ أنني دخلت السجن وأنا بعدُ غرٌّ صغير، فلا أحمل عبْءَ مَن تركتُ خلفي من زوجةٍ وأبناء، وكنتُ شديدَ الرّثاء للمتزوجين، الذين يضمّون إلى عذاب السجن الذي لا يُطاق عذاباتٍ أخرى، وهم يفكّرون ويحزنون لمصير زوجاتهم وأبنائهم.

٦٢ ـ أمواتٌ يواسون الأحياء

ليس بالإمكان تذكُّر الساحة الرابعة دون تذكُّر ملاحم التعذيب المستمرة التي لا تقْطعها إلا ملاحمُ الإعدام..

كيف للضحية الهالكة أن تواسي الحيَّ الباقي؟ كيف لمن سيخرج بعد دقائق ليُعلَّق على مشنقة الإعدام أن يواسي مَن سيبقى بعده حياً؟

لست أنسى ذات صباحِ حين نُودي على الأسماء، كانت أسماءَ ثمانيةِ شباب، وكان بينهم ثلاثة عدلاء ـ متزوجين من ثلاث أخوات ـ وعمّهم والد زوجاتهم، وكان بينهم الصقر «عبد الحيّ الدروبي»، شابٌّ يحقّ لمدينة حمصَ أن تفخر بمثله، حين نودي على اسمه لينضمّ إلى قافلة الإعدام لم يهتزّ له جفن، وبادرَ من فوره يبحث عن شقيقه الأصغر بين جموع المودّعين، حضنَه وداعبَ رأسه معتذراً، فهو مُرغمٌ على ترْكه هنا بيننا. كانت ساعةً للتوديع لا تشبه مثيلاتها، سيحار الناظرُ إليها من بُعدٍ، هل هذا وداع الماضين للموت شنقاً بعد دقائق، أم هو احتفاليةٌ بحدثٍ محبَّبٍ إلى النفوس؟ كان الحزن الطاغي يغمر أرواحَنا، ويمتحن وجوهنا ونحن ننظر إليهم.

كانت وجوههم تتهلّل فرَحاً، لقد آذنتْ رحلةُ الشقاء هذه على الانتهاء، وما هي إلّا بضع دقائق وتكون أجسادُهم معلّقةً على أعواد المشانق، بينما تصعد الأرواح المحررة إلى السماء. ويا لتعسنا، نحن الباقين في هذا البرزخ الرهيب، فلا الحياةُ تُبقينا، ولا الموت يقْبلنا،

وجلّادُنا لا تفترُ عزيمته، وكلَّما كَلَّ فريقٌ من الجلّادين، حلَّ مكانَه فريقٌ أشدُّ بأساً.

يقف العدلاء الثلاثة وعمُّهم في وسط المهجع متحلِّقين، يتعانقون وكلهم يقينٌ أنهم سيلتقون بعد دقائق في رحاب السماء، نتوافد عليهم ونُعانقهم فرداً فرداً، يستأذنون الجمْع ليصلّوا ركعتين، يستقبلون بهما حياتهم الجديدة ويودّعون هذا العالم البائس. تستمر لحظاتُ الوداع والعناق والدموع، وشهقات البكاء من صدورٍ أتعبَها البقاء.

تبدأ أصوات الأبواب الحديدية بالإعلان عن بدء إخراج المعنيين إلى ساحة الإعدام، يتمسّك الشقيق الأصغر لـ«عبد الحي الدروبي» بتلابيبه، بغيةَ استبقائه، يتوقّف الزمن طويلاً عند هذه اللحظة الرهيبة، الجميع ثابتٌ في مكانه، والرقباءُ والجلّادون في الباب، ينتظرون خروج المقبلين على الموت، و«عبد الحي» ممسكٌ بكتفيّ شقيقه، يحثّه على التماسك. يهمُّ بالتحرّك مغادراً، ينظر إلى شقيقِهِ نظرةً أخيرة، ثم يصيح فيه بملْءِ صوته: «خلِّي أمك تصبر». مازال رجْع الصوت يتردّد حتى هذه الساعة، كيف يودّع المقبلون على الموت مَن خلفهم من الأحياء، كيف يؤلمهم حزن أمهاتهم بعدهم؟!

في تلك اللحظة، ذُهلنا عن الخارجين إلى ساحة الإعدام، صفعتْنا وصيةُ «عبد الحي» لأخيه، كيف لنا أن ننسى ما تعانيه الأمهات من فقْد الأبناء؟

ويخرج من المهجع، ويخرج الباقون خلفه، ليتسلّمه فريقُ الجلادين فيقيّدون يديه خلفَ ظهره ويعصبون عينيه. ينهار الشقيق الأصغر، ويرينُ على المهجع صمتٌ حزين، وما هي إلّا دقائق حتى نسمع أصواتهم وهم يكبّرون ويهلّلون، ويستقبلون الموت بصيحاتٍ تهزّ أركان الساحات، تتبعها أصواتُ ارتطام أعواد المشانق بالأرض الإسمنتية، في الساعات الأولى للصباح، والمدينة ما زالت في سُباتها العميق، وصوتُ مكبس القرميد كما هو، لم تتغيّر معزوفته الحزينة منذ سنوات، ولم يتوقّف عن الأنين.

ستمرّ بنا أيامٌ طوال قبل أن تنجلي علَّةُ ذلك التحوّل الحاد والغريب، أصوات التعذيب لا تتوقف ليلَ نهار، وعناصرُ الحرس لا تفْتر همّتُهم وهم يتناوبون على تعذيبنا من النوافذ العليا للمهجع، وهم يمرّون بساحتنا ساعةً أو ساعتين، يُخرجون مهجعاً أو مهجعين إلى التنفس ثم ينصرفون، لكن أصوات التعذيب في الساحات الأخرى لا تتوقف، وكذلك أصوات فتح الأبواب الحديدية وغلْقها.

مرَّ أسبوعان على هذه الحال، لم نخرج فيهما إلى التنفّس سوى أربع مرات، وهذا أسوأ من التعذيب ألفَ مرة؛ فالانتظار وسماع أصوات الآخرين وهم يُعذّبون، بينما ننتظر أن يحين دورنا، عذابٌ لا يُطاق وقلقٌ لا ينقطع.

وكانت الليالي تمرُّ إثْرَ الليالي، ولا يهدأ لنا بال، فالتعذيب مستمر، ويمكن لهم أن يباغتونا في أيِّ لحظة ونحن نيام. حتى في أحلامنا كان التعذيب هو القصة اليومية الوحيدة التي نُهَمْهِمُ بها لبعضنا.

بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على هذه الأجواء المرعبة، عاد إلى مهجعنا صديقنا «معن»، الذي سبق أن نقلوه إلى فرع التحقيق بحمص، لسببٍ نجهله حينها، وحين دخل المهجع وقصَّ علينا ما لاقاه في حمص من تحقيقٍ وتعذيب، طفقَ يسألنا منذ متى وهذه الأصواتُ تملأ فضاء السجن؟ فاجأَنا سؤاله، وهو يؤكد أنه مرَّ بخمس ساحاتٍ، قبل أن يصل إلى ساحتنا الرابعة، دون أن يكون هناك أيّ مهجع يُعذَّب في تلك الساحات، وأنه أحسَّ أنَّ هذه الأصوات تنبعث من الميكروفونات المنبثّة في أكثر من ركن. هذا ما دفعَنا للإنصات بشكلٍ أدقّ. وبالفعل، فقد استطاع منشدُ المهجع «سمير» أن يلتقط بداية المقطع ونهايته، إذ يتكرّر باستمرارٍ كلَّ عشرين دقيقة تقريباً.

ثلاثة أسابيع مضتْ ونحن نُشوى على نارٍ هادئة، دون أن يطْرف للمجرمين جفن. ثلاثة أسابيع من التعذيب المستمر، أمضينا معظمَ ساعاتها البطيئة ونحن ننتظر قدومَ الجلادين في كلِّ لحظة. سنعرف بعد

عدة لقاءاتٍ في المحكمة، ومن أصدقاء لنا في مهاجع أخرى، أنهم أدركوا من خلال سماعهم لضباطٍ يتحدثون اللغة الروسية، أنها تجربةٌ لبرنامجٍ محددٍ من التعذيب عبر المؤثرات الصوتية، يمكن من خلاله لإدارة المعتقَل أن تهيمنَ على آلاف المعتقلين وتعذِّبهم دون الحاجة لجموع الجلّادين.

من طرائف الأحداث أننا اكتشفنا سرَّ اللعبة حين انتهت. ففي اليوم التالي لقدوم صديقنا «معن»، عادت ساحاتُ سجن تدمر إلى إيقاعها السابق، وعاد التعذيبُ الفعليّ صباحَ مساء، ليحلَّ محلّ التعذيب بالأصوات. وعادت أغنيةُ (صبر أيوب) لـ «فؤاد غازي» ـ أحد نجوم الأغنية الهابطة في الفن السوري ـ تلعلع صباحَ مساء، تبشّرنا بقدوم الكرابيج والدواليب للتعذيب، مع أن صوت «غازي» ورداءة موسيقاه قد يكونا أسوأ لدى البعض من الجَلد بالسياط.

على الرغم من كل هذا، كانت حلقات التعليم والمثاقفة لا تتوقف، من الصباح حتى المساء. وكان الشيءُ الجديد في هذا المهجع (٢٢) هو حلقات البحث، التي تتألف من مجموعات شبابية لا تتعدّى أربعة أفراد، يعكفون على مسألةٍ أو قضيةٍ محددة، فيعملون على جمْعِ ما يتوفّر من معلوماتٍ متناثرة هنا وهناك، ويقارنون الروايات والأقوالَ، ويحاكمون المختلف والمؤتلف منها، ليخلصوا إلى مدوّنةٍ مقتضبةٍ توجز هذا البحث. وكان التأثّر واضحاً بمنهج المفكر الجزائري «مالك بن نبي» في ترقيم الأفكار وتنقيطها، بحيث تخرج مرتبةً متسلسلةً، بعيدةً عن الثرثرة وفيوضات التعبير البلاغية، التي تُعنى بالشكل وتُشتّت الذهن عن جوهر المسألة.

وكان طبيبنا «يوسف»، إضافةً إلى مسؤوليته الصحية وانشغاله المستمر بالمرضى، يمتلك براعةً عزَّ نظيرُها في هضم الأفكار وإعادة إنتاجها بشكلٍ مدرسيٍّ يسهل تناولُه وتداوله، وبعدها تصبح هذه المادة العلمية أو البحثية كُرّاساً محفوظاً يتمّ تداولُه شفهياً، وكان هو مرجعَنا الأوثق في تدريس (تاريخ سورية السياسي).

ولن أنسى المعلِّم «أبا فهد» من بلدة (رأس العين) في الشمال السوري، الذي يُعدُّ مكتبةً تمشي على قدمين، بحافظته الاستثنائية؛ فهو يحفظ من التفاصيل والتواريخ والأسماء ما لا يتأتّى إلّا لندرةٍ من المثقفين، ونادراً ما كنّا نختلف في مسألةٍ إلّا ونجد لها عنده ردّاً شافياً.

حين أقلّبُ الوجوه في ذاكرتي، أجدُ هذا المهجع الغنيّ قد ضمَّ عرباً وكرداً وشركساً وشيشان وتركمان، من كلِّ مدينةٍ سورية؛ بعبارةٍ أخرى، لم يدَّخر نظامُ «الأسد» أحداً إلّا وأشركَه في حصةٍ كافيةٍ من ظلمه المديد.

وبإيجازٍ شديد، يمكن تلخيص ما جرى في سجن تدمر عبر كلماتٍ ثلاث: «احتجاز.. تعذيب.. تصفية». وعبر هذا الثالوث القهريّ يعتقل نظامُ «الأسد» الشعبَ السوري برمَّته، ويكسر قدرتَه على ردّ الفعل، ويتم إخصاؤه.

وأذكر أنني بعد سنواتٍ التقيت بالصديق الأديب «نهاد سيريس»، وتحدّثتُ إليه عن (النظرية النابضيّة)، وهي نظريةٌ من ابتداعنا، كنتُ أحدَ القائلين بها في السنوات الأخيرة للسجن، مفادُها أن النابضَ المعدني، حسب استطاعته الأولية، يستطيع حمْلَ وزنٍ افتراضيٍّ محدد، فإذا ما طبّقنا على هذا النابض وزناً إضافياً بمقدار عشرة أضعاف الوزن الافتراضي، فإنَّ هذا النابض سيتحوّل إلى مجرد سلكٍ معدنيّ محلزن، ويفقد خاصية ردّ الفعل التي تميّزه كنابض. وهذا ـ كما كنت أفترضه يومها ـ ما حصل مع الشعب السوري إثر أحداث ١٩٨٠ وما تلاها، في حماة وفي السجون السورية عامةً؛ إذ إننا كسوريين قد وصلْنا إلى دركٍ من الخنوع واستمراء الخضوع، وحتى تبريره، درجةً فقدْنا فيها أدنى قدرةٍ على ردّ الفعل أو الاعتراض، حتى لو انتهك النظامُ الأمني جميع حقوقنا.

كانت الوقائع في تلك الفترة، وحتى نهاية حكم «الأسد» الأب، تُعزّز من صوابية هذه النظرية، خاصةً أن هذا النظام كان يمْعن في تَغُولِّه كلَّ يوم، فلا يقدم علينا شهرٌ إلّا ونترحّم فيه على سابقه.

إلّا أن الأحداث التي ستَلي موتَ «الأسد» الأب، وتَسَلُّم «الأسد»

الابن، وما رافقَه من أجواء خادعة، أوحتْ في بادئ الأمر أنَّ تحسّناً واعداً قد بدأت تظهر ملامحُه، فانبرى عشرات المثقفين والمعتقلين السابقين ـ وسرعان ما انضم إليهم المئات ـ لاغتنام الفرصة بنفخ الروح ثانيةً في جسدٍ ظنّ معظمُنا ولسنواتٍ أنه ميؤوسٌ من إيقاظه، واشتعلت المنتدياتُ بالحوارات التي تدعو لرفع حالة الطوارئ، ولإيقاف العمل بالأحكام العرفية، ولتعديل الفقرة التي تنصُّ على سيادة الحزب الحاكم على الشعب والدولة؛ وهكذا أكّدَت الوقائع وهْمَ النظرية النابضيّة وفداحة خطئها.

* * *

٦٣ ـ نهاية (الطليعة)

في أواسط عام ١٩٨٥، وفدتْ إلى مهجعنا مجموعةٌ معتقلةٌ حديثاً من مقاتلي تيار (الطليعة المقاتلة)، وسرعان ما نقلوا لنا سلّةً حافلةً بالأنباء، عن اعتقال معظم مَن بقيَ من هذا التيار، وعلى رأسهم قائد التيَّار «عدنان عقلة»، بخديعةٍ مخابراتية، بعد أن نجح أحدُ عناصر المخابرات السورية ـ واسمه «محمد جاهد دندش» ـ بالانضمام إلى تيار الطليعة، والتقرّب من شخص «عدنان عقلة»، لدرجة أنه تزوج من شقيقة زوجته ابنة الشيخ «طاهر خير الله» (١٩٢٢ ـ ١٩٨٩، أحد أهم علماء حلب وخطبائها، وخطيب جامع الرَّوضة فيها). تلا ذلك تسلُّمُ رجل المخابرات هذا مواقعَ متقدِّمةً وحساسة في تنظيم الطليعة، والذي كان يعاني من تفكّكٍ وتهلهلٍ في بُنْيته، لخوضِه حرباً طويلةً وغيرَ متكافئةٍ مع النظام السوري، ولفقْده القدرة على التنسيق مع تيار الإخوان المسلمين، الذي كان ممسكاً بجلِّ الموارد المالية، تلك الموارد التي كان تنظيمُ الطليعةِ بأمسِّ الحاجة إليها.

ويذكر بعضُ قادة الإخوان المسلمين أنهم طالما حذَّروا «عدنان عقلة» من خطر هذا الرجل وعمالته للمخابرات السورية، إلّا أن تحذيرهم هذا ذهب أدراج الرياح، بسبب تعنُّت «عدنان عقلة»، والثقة الغائبة بين تيار الطليعة وتيار الإخوان المسلمين في ذلك الحين.

وعبر عامٍ من التحضير والتخطيط، استطاع «دندش» إقناع «عدنان عقلة» بتأسيسٍ قواعد جديدة في الداخل السوري، ونقل عناصر الطليعة

بالتدريج، من تركيا ـ عبر جبال جسر الشغور ـ إلى الداخل السوري، كيما تتمَّ معاودةُ المناكفة مع نظام «الأسد».

هناك، كانت عناصر المخابرات العسكرية في انتظارهم؛ إذ يتم اعتقالهم عبر مجموعات صغيرة، ويُعمَّى على الخبر فلا يصل إلى قيادة الطليعة، إلى أن تمّ اعتقال الجميع، بمن فيهم قائدهم «عدنان عقلة»، الذي أُودع في أحد فروع المخابرات، ولا يوجد إلى الآن خبرٌ موثَّق ينبئ عن قتْله أو نقْله إلى سجنٍ آخر، مع ترجيح تصفيته زمن «الأسد» الأب.

كان عدد معتقلي هذه الدفعة، التي أتتْ بشباب الطليعة إلى تدمر، قرابة السبعين معتقلاً، تم توزيعهم على مجموعة مهاجع مختلفةٍ، وكان نصيب مهجعنا تسعة منهم. كانوا حانقين على قيادات الإخوان عموماً بشكلٍ كبير، لكنّ عداءهم للبعض منهم كان أشدّ، عداء وصل إلى حدّ التخوين والاتهام بالتعاون مع أجهزة مخابراتٍ سورية، وإمساكِ أموالٍ وصلتْ بهدف مساعدتهم، فأمسكها بعض قيادات الإخوان عنهم، وكان ذلك سبباً في ضعفهم وتمكُّن النظام السوري منهم.

وكان بعضهم يروي بحرقةٍ شديدة من خلال دموعه كيف تمَّ اختراقهم من قِبَلِ المخابرات السورية، وكانوا في بعض الأحيان ينفّذون برامج ومخططات مخابراتية دون أن يدركوا ذلك. كلُّ ذلك مردُّه للفساد الذي يمكن أن يتسلل لأيّ تنظيم تحت ذريعة مقتضيات السرية في التنظيم المسلَّح، وهذا فخٌّ يمكِّن القيادة، أو مَن يمسك بعصاها، من إدارة العناصر والأفراد بشكلٍ عميٍّ، كما تُدار قطعانُ الماشية.

بطبيعة الحال، بعد خروج «عدنان عقلة» ورفاقه من سورية، لم يبقَ من هذا التنظيم سوى الفرع الدمشقي، الذي كان يديره بسريةٍ ودقَّةٍ متناهية «أيمن الشربجي»، حيث جعل التنظيم في مرحلة سباتٍ جزئيٍّ، يستيقظ في فترات متباعدة، ليضرب ضربةً هنا وأُخرى هناك، فيترك أجهزة الأمن في حالة ترقّبٍ مستمر، ثم ما يلبث أن يعود إلى سباته، إلى أن قُتل «أيمن الشربجي» في أحد شوارع دمشق عام ١٩٨٨، ثم ما لبث أن تسلَّم التنظيم بعدَه «عاطف القهوجي»، الذي قُتل بدوره بعده بعامين.

وبمقتل «عاطف القهوجي»، وإعدام من بقيَ من تنظيم الطليعة في سجن تدمر بين عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، يمكن القول إنّ تنظيم الطليعة المقاتلة قد انتهى تماماً، ما عدا بضعة أفرادٍ تمّ إخراجهم من سورية عام ١٩٩٧، كما ورد في مقدّمة كتاب «**على ثرى دمشق**»، الذي كتبه «أيمن الشربجي» نفسه.

أحدثَت الأخبارُ التي وردتْنا مع دخول شباب الطليعة بلبالاً كبيراً بين المتحزّبين للإخوان المسلمين، ومَن يناجزهم الخلاف.

وبعد أسابيع قليلةٍ، وعلى غير العادة، تمّتْ محاكمتهم جميعاً، وبأمرٍ خاصٍّ وردَ من دمشق بتعجيل محاكماتهم وتنفيذ أحكام الإعدام بحقهم. وكما دخلوا حياتنا على حين غرةٍ، خرجوا منها خفافاً سراعاً.

* * *

٦٤ ـ «غازي الجهني»

في نهاية العام ١٩٨٥، وفي يوم مكفهرٍّ أسود، سرَتْ حركةٌ عنيفةٌ في أرجاء السجن، وكان الجلّادون يتراكضون مجتمعين، ثم ما يلبثون أن يقدّموا التحية العسكرية لضابطٍ جديد. كان من الواضح أن حدثاً سيئاً يحدث في هذه الساعة، سيكون له أسوأ الأثر على جميع السجناء في سجن تدمر.

بعد ساعاتٍ قليلة، تمّ استدعاء جميع رؤساء المهاجع، وتمّ جَلْدهم مجتمعين في السّاحة الأولى، وبشكلٍ شديد الوحشية، وتُركوا متمدّدين ووجوهُهم ملتصقةٌ بالأرض، بينما تقدّمَ منهم ضابطٌ جديد، عرَّفَ عن نفسه بأنه الرئيس الجديد للسجن، وأنّ ما كنا ننعمُ به من معاملةٍ رخوةٍ ـ على حدِّ تعبيره ـ في زمن سلَفِهِ «فيصل غانم» ونائبِه «بركات العش»، قد ولَّى إلى غير رجعة، وأننا بدءاً من الساعة، سنعرف على وجه الحقيقة ما يعنيه معتقل تدمر الصحراوي، وما يعنيه الحكم مع الأشغال الشاقَّة.

عاد رئيسُ مهجعنا ووجهُه المدمَّى يخبر عن فظاعة ما ستحكيه شفتاه. كانت جملتُه الأُولى أشبَهَ بإعلان حربٍ في زمن المجاعة: «الآن بدأ السجن». قالها وتعابيره تَشِي بمقدار اليأس الذي يعتصر روحه.

بعد أن تمّ تجميع رؤساء المهاجع وجَلدهم، على مرأى من الضابط الجديد الذي سيملأ السجنَ تعذيباً مروّعاً ورعباً، انبرى متحدّثاً إليهم كإلهٍ يأمر عبيدَه: إنّ ما كنتم به من بحبوحةٍ في الأمر قد مضى إلى غير رجعة،

وإنَّ أيَّة مخالفةٍ للأوامر لن تعني بعد السَّاعة إلّا جلداً حتى الموت، وإنَّ بدعةَ المسؤول الصحّي الدوريّة قد تم إلغاؤها، فلا تطلبوا دواءً أو طبيباً إلّا إذا شارف المريضُ على الهلاك، والأفضل أن يموت بينكم، فتخرجوه للساحة مع وجبة الإفطار.

كان «أبو عمر» رئيسُ مهجعنا ـ على الرغم من صلابته ـ شديدَ التأثّر وهو يكمل حديثَه وينقل لنا الرسالة الدموية التي حملَها من لقاء المجرم «غازي الجهني» ـ كما سنعلم اسمه لاحقاً ـ وهو ضابطٌ برتبة عميد من منطقة (المخرّم) شرق مدينة حمص، أُوكِل إليه أمر سجن تدمر إثْرَ محاولةِ بعض أفراد (تنظيم الطليعة المقاتلة) الفرارَ من أحد فروع الأمن في مدينة دمشق. وكانت أوامر القيادة تقضي بممارسة أقصى درجات الإرهاب والتعذيب.

بتنا تلك الليلة بين الحلم واليقظة، كانت أحلامُنا محضَ كوابيس متعاقبة، فما إن نصحو فزِعين من كابوس، حتى يتعاورنا كابوسٌ أدهى. وكانت صيحات الحرّاس لا تتوقف طوال الليل. لقد كان رئيس السجن يتفقّد كلَّ محرسٍ بشكلٍ فرديّ، ويدقّق على جاهزيّةِ الأسلحة، ونظافةِ البنادق والرشاشات، ويقظةِ الحرّاس، وكنا نسمع الإجراءات العسكرية في سير دوريات التفقّد الليلية على المحارس: «انتبه، توقّفْ، كلمة السر؟ تقدَّم».

وكنا نسمع من كلمات السرِّ عبارات تثير الدهشة والاشمئزاز. ولا غرابة، فهذا منسجمٌ مع وضاعتهم وقذارة مهمَّتهم، فقد كانت بعض كلمات السرِّ عبارة عن شتائم وعبارات سوقية، مثل: «عرصا، ابن قحبة، أخو شرمو...»، وهكذا دواليك.

في صبيحة اليوم التالي، كانت الدواليب تملأ الساحات، وكان الجلّادون متسلِّحين بكل أدوات التعذيب، وكانت جولات التَّعذيب هذه ضرباً جديداً من ضروب الفتك بجلود السجناء، وقد كانت الأوامرُ أن يستمر الجلد حتى تتشقّق جلود الأقدام، أو تتفصَّد الظهور عن دمٍ غزير.

وقد استمر التعذيب في السَّاحات من الثامنة صباحاً حتى العاشرة ليلاً، لم يقْطعه إلّا إجراء التفقّد في منتصف النهار. كان يوماً جهنمياً، فرَّ من جحيم «دانتي أليغييري» ليحلَّ ضيفاً ثقيلاً على سجناء تدمر.

عدْنا من التنفس في هذا اليوم بين جريحٍ مدمّى، وآخر قد كُسِّرتْ أضلاعه أو فُقئتْ عينه، وكان العرَج شأن معظمنا، لكثرةِ ما نالنا من ضربٍ عشوائيٍّ على الأقدام والركب.

لا أحسبني أستطيع ترجمةَ شعورنا في ذلك اليوم إلى كلماتٍ وافية، فقد كانت مخيّلتنا تتأرجح بين حدَّين يمكن أن ينتقل السجين بينهما: إما إلى موتٍ مريح (عبر الإعدام شنقاً أو تحت وطأة التعذيب أو بمرضٍ عضال)، أو إلى فَرَجٍ مشتهًى ومستحيل، تخجل أحلامُنا من المرور به. أمّا أن يكون هناك ما هو أسوأ، فهذا لم يكن ليخطر ببالنا، على الرغم من تراكم خبراتنا وتجاربنا مع هذا النظام لسنواتٍ طوال.

اليوم في عهد «غازي الجهني»، هنالك ما هو شرٌّ ألفَ مرّةٍ من الموت؛ فقد كانت حزمة التعذيب الفرديّة قبلَه تتراوح بين خمسين ومئتي جلدة في المتوسط، حسب مزاج الجلاد، واليوم أصبح الحدُّ الأدنى خمسمئة جلدة، وقلَّما ينجو أحدنا من تسلُّخِ باطن قدمه، أو تساقطِ بعض أظافره، أو كسرٍ في قفصه الصدري.

كان التعذيب الجهنميُّ هذا يهدف إلى خلق صورةٍ إلهيةٍ لـ«حافظ الأسد» في نفوسنا، ونفوسِ مَن تصله أخبارنا، هي أقرب إلى صورة الإله الغاضب المنتقم، الذي لا يغفر أن يُشرك به. وكان خضوع الجلّادين لأوامر أسيادهم أقربَ إلى خضوع العبيد لربّهم الأعلى! وهذا ما حصل بالفعل، فقد استطاع «حافظ الأسد» أن يحكم سورية بسوط الرعب والخوف، حتى بعد موته، على الرغم من هشاشة شخصية «الأسد الابن» وضعفها. وكنا نرى أن «الأسد الأب» قد مهّدَ الطريق لوريثه، بحيث لو مشى حافياً لعشرة كيلومترات فلن يصطدم بحصاةٍ واحدة.

أذكرُ قولَ «هنري برغسون» في كتابه (**منبعا الأخلاق والدين**)، حين

يتحدث عن قوة الإيمان لدى كبار رجال التصوُّف في التاريخ الإنساني، فيقول: «لا تقلْ عن همَّتهم إنها تتجاوز الجبال، إنَّهم لا يرون جبالاً أصلاً». يعيدني هذا التوصيفُ الدقيق إلى حالنا في ذلك الجحيم، الذي يجاوز في قسوته طاقةَ البشر على الاحتمال، فلا أجد تعليلاً لهذا الثبات إلّا بذلك الإيمان الهائل الذي كنّا نقتات منه كلَّ ساعة، وهو السبب الوحيد ـ كما يرى العديد من الأطباء ـ في أن نسبة الاضطرابات العقلية والنفسية لم تخرج عن النسبة المألوفة والطبيعية التي يحصيها الأطباء في الأحوال العامة.

* * *

٦٥ ـ الألم يصارع المعنى

في انعطافةٍ أخرى على مشاهد حياتنا اليومية، سنجد أنها كانت تتمحور ـ بشكلٍ مفرطٍ في قسريّته ـ حول الألم والتعذيب المستمر والحرمانِ من أبسط ضرورات الحياة، والذي يخلّفَ قدْراً هائلاً من الآلام الجسدية والنفسية، التي ستلازمنا لسنواتٍ طويلةٍ، وإن اختلفتْ أشكالُ تمظهُرها في حياتنا.

معلومٌ أن الألم الذي يسبّبه التعذيبُ عموماً هو شكلٌ من أشكال التحذير الحادة، التي تطْلقها الحواسُ للتنبيه على حدوث خطرٍ أو خللٍ يمسّ الجسد أو النفس، وهو تجربةٌ حسّية أو وجدانية بغيضة، تضغط على الكينونة الإنسانية وتدفعها للرضوخ أو التشوّه، وهو ـ إن لم يكنْ قتلاً مباشراً ـ يشكّل عمليةَ دفعٍ مستمرٍ إلى حالةِ الاحتضار، وهي حالةٌ أسوأ بمراتٍ من حالة الموت، وهذا يفسّر في وجهٍ من وجوهه مقدارَ الراحة التي تعترينا حين يموت المحتضر، سواء بفعل التعذيب أو المرض.

في حالة المرض، تصبح الكينونةُ البشرية متمركزةً في الموضع الجسدي، الذي يشكّل حصنَها الأهم. بينما في حالة الألم، تتمركز هذه الكينونة وجملة الأحاسيس في بؤرةِ توهّجِ الألم، مما يجعلها أسيرةَ هذه البؤرة التي يصعب الانفكاكُ عنها.

وغالباً ما تكون تجربة الألم حادثاً عابراً ـ باستثناء المرض العضال ـ يقاومه الإنسان بالمسكنات التي باتت جزءاً مهماً في حياتنا اليومية، أو

بالمعالجات النفسية التي تجدي في كثيرٍ من الحالات. ويمكننا اعتبار الألم من أشدّ العوامل المشوِّهة للكينونة الإنسانية، لدرجة اعتبار هذا النمط من التعذيب المبالغ فيه، والذي يصل في معظم حالاته إلى ضفاف الموت أو يتعدّاها، ثقباً أسودَ، يفتح في ذات الضحية فجوةً دائمة للرعب الوشيك. وهذا كفيلٌ بتهشيم الكينونة الإنسانية وجعْلِها في حالة ترقّبٍ دائم لما هو أسوأ، خاصةً إذا كان هذا الألم ناتجاً عن تعذيبٍ منهجيٍّ بقصدٍ الانتقام، يهدفُ بشكلٍ محضٍ إلى تحطيم البنية المدنيّة الحرّة للإنسان، وتحويلِه إلى حيوانٍ خاضع، جلُّ همِّه النجاةُ من هذا التعذيب والبقاء على قيد الحياة.

هكذا كانت طبيعةُ التعذيب اليومي في سجن تدمر، وهو يختلف بشكلٍ كبيرٍ عن التعذيب الذي يجري في أقبية التحقيق، فالجلّاد المحقق يهدف من خلال التعذيب إلى الحصول على إقرارٍ أو اعترافٍ من الضحية، وبالمقابل فإن الضحية تقاوم هذا التعذيب، من خلال تمسُّكها بقيمة الصمود، وحمايةِ مَن ترفض الاعتراف عليهم، وبالحيلولةِ بين المحقّقين وما يرغبون في الوصول إليه؛ وبفعل المقاومة هذا يكون هناك ضربٌ من تعزيز الصمود ورفع طاقة التحمُّل لدى الضحية، يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ القدرة المتمايزة لمن يتعمّد الغوص في الماء طوعاً ليختبر مدى قدرته على الصبر، وهو يملك في كل ثانية قرار الصعود والتخلّص من الألم، بخلاف مَن يُرغم على حشر رأسه في وعاءٍ مملوءٍ بالماء.

أذكر صديقي «أبا النجا» في حديثه عن معاناته ومقاومته للمحققين، وهُم يحرقون له باطن قدميه وأصابعه واحدةً تلو الأخرى، وهو يرفض الاعتراف على أسماء يطلبها المحققون. ومع هول الألم الحارق، كان يشعر أنَّه يضغط بجميع أسنانه على عنق المحقّق المتميّز غيظاً من صموده؛ هي حالةٌ نادرة للمقاومة، مقاومة الألم ورفض الانكسار، لكن فكرةً عظيمةً كانت تحُول بينه وبين ذلك الانهيار، جوهرها أنَّه لن يكون سبباً في جلْب المزيد من الأبرياء إلى هذا الجحيم.

في البدء يكون التعذيب فرديّاً، أي إن الضحية تواجه الجلّاد أو الجلادين بصفتها الفردية، وبهذا تكون الضحية منفردةً بمواجهة نظامٍ قمعيٍّ كلِّيّ القدرة، وهنا يكون أثر التعذيب في أقصى درجاته، الأمرُ الذيّ ينجم عنه ألمٌ مديد، لا تزول آثارُه في الغالب لسنواتٍ طويلة. بينما يكون التعذيبُ الجماعيُّ أخفَّ وطأةً مهما بلغَ مداه، إذ تشعر الضحية بقوة المشاركة التي يمنحها حضور المجموع، حتى في ساحات التعذيب.

وهذا ينطبق على البون الشاسع بين حجم المعاناة التي يعيشها السجين في زنزانةٍ منفردة، وتلك التي يعيشها في زنزانةٍ جماعية، ليس فقط في الشحن النفسيّ الذي يعزّز بقاءَ السجين ومقاومته، من خلال وجوده ضمن مجموعةٍ تمنح المؤازرة ـ ولو بحدودها الوجدانية الدنيا ـ إنما أيضاً بفضْلِ الساعات المشتركة وتبادُل الأحاديث، ومقارنةِ المصاب الشخصي بمصائب الآخرين، وصولاً إلى السخرية التي يشترك بها المجموع من وقْع حادثةٍ بعينها، ربما تحصل مراراً في ساحات التعذيب، تعبِّر عن تفوّقنا كسجناء على هذا السمج البغيض المتخلّف، الذي شاءت الأقدارُ أن يكون جلّادَنا وآلةَ تعذيبنا.

يبقى المعنى أمراً محورياً، يكتسي أهميةً جوهريةً في التجاوب مع هذه المعاناة، فوجودُ قيمةٍ تبرّر أو تفسّر هذا الألم والعذاب يرفع من قدرة المقاومة ومن حدودِ التكيّف، وهو يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ رضى المؤمنين بقبول البلاء الإلهيّ، باعتباره شكلاً مسلّماً به من أشكال تجلّي العلاقة بين الربّ والمربوب، وصِفةً لصيقةً بالمؤمنين الذين هم عرضةً للبلاء. كذلك المعنى الذي يحْمله الثائرون والمقاومون، وحتى المعارضون، من تحمّلٍ لتبعات هذه المواقف، وربما قبول الموت في سبيلها؛ تلك المواقف النبيلة التي اختاروها عن وعي بمقتضياتها (السجن والتعذيب)، من خلال خروجهم على السلطة المستبِدّة.

لكن كلّ ما سبقَ تناولُه يتعاورُه الضعف والهشاشة بطول الأمد. ومع مرور الأشهر الطويلة والسنوات تبدأ المعاني بفقْدِ قدرتِها على التعليل

ومنْح أسباب الثبات، وتتنخّر المبرّرات والتعليلات، وتصبح محضَ هراءٍ لا تقبل به الروحُ المعذّبة.

وأبعد من هذا، فإن استمرار الألم والمعاناة بشكلهما المفْرط يهدم معنى الحياة، ويُفقد المرءَ القدرةَ على التمسّك بها، وهنا قد يصبح الكثيرون أعداءً أو خصوماً للفكرة التي حمَلوها أصلاً.

* * *

٦٦ ـ في الصراع بحثاً عن المعنى

(إن الجوهر الاستثنائيّ في الإنسان الذي يتغلب على ظرفه القاهر والضاغط، كالمعتقل، إنما يكمن في ذلك القرار المُصرّ على ممارسة حرية الاختيار ككائنٍ مسؤول).

هنا تكمن روح الفكرة التي ينطلق منها «د. فيكتور فرانكل» (١٩٠٥ ـ ١٩٩٧) في كتابه (**الإنسان يبحث عن المعنى**)، الصادر عام ١٩٦٦. وهو طبيبٌ مختصّ في الأعصاب ومعالجٌ نفسيّ، وواحدٌ من أبرز الناجين من المحرقة النازية في سجون «هتلر»، وظّفَ خبراته وتجاربه في علم النفس ـ إضافة إلى متابعاته ومعاناته في المعتقلات ـ في تأسيسِ مذهبٍ جديد، سُمّي العلاج بالمعنى، الذي يشكّل نوعاً من أنواع العلاجِ النفسي الوجودي.

هذا الإنسان مستعدٌّ للتغلّب على الظرف القاهر الذي يفرضه المعتقل، ليس بوصفه حالةً فرديّة، إنما بوصفه مصفوفةً متراكبة من القهر الممنهج وقتل الأمل، وإن تخلّلته أفعالٌ ونزعاتٌ فردية لدى بعض الجلّادين، إلا أنها لا تخرج عن السياق العام، الهادف إلى تحطيم البنية الإنسانية للمعتقلين، وتحويلهم لأشواه حيّة، تُبقيهم في موقع الانتقام المستمر، وأداة من أدوات القمع العام، يقهر بها النظامُ الحاكم شعبَه، ومَن هم في دائرة سيطرته.

ولا يمكن النجاة من هذا الشَّرَك القاهر إلا بإعادة تأطيرٍ مستمرةٍ

للوقائع اليومية. هذا التأطير يهدف إلى خلق رؤيةٍ مختلفة لهذه الوقائع؛ فالجلّاد ـ وبسبب إحساسه بالخوف المستمر والقلق ـ يستمدّ سَكينتَه ووهمَ الأمان لديه من خلال التعذيب المستمرّ للضحية، ذلك التعذيب الذي يؤكِّد بشكلٍ يوميٍّ لازمٍ سيادةَ الجلاد وقدرتَه على السيطرة على الضحية وتعذيبها؛ هذا منٍ جهة، ومن جهةٍ أخرى، يؤكّد الجلّاد، من خلال هذا التعذيب المتكرر، ومن خلال سيل الشتائم والإهانات التي تحطّ مِن قَدْر هذا الكائن المعذَّب عن مكانة الإنسان، على أنّ التعذيب بالنسبة إليه غيرُ متعارضٍ مع القيم الأخلاقية.

هذا الاتجاه يقع على النقيض التام لما ذهب إليه «جان بول سارتر»؛ إذ يقول: «يجب أن نتقبّل انعدام المعنى بشجاعةٍ وإقدام». هذا المذهب الذي أفضى لشيوع حالات اليأسِ المُفضي للانتحار، والذي نجده بنسبةٍ كبيرةٍ لدى الشعوب الأكثر ترفاً ووفرةً بالموارد.

يذكر «د. فرانكل» في معتقله (معسكر أوشفيتز للاعتقال والإبادة، الذي شيّدتْه ألمانيا النازية أثناء الاحتلال النازيّ لبولندا) أنه التقى بسجينين كانا على أهبة الانتحار، وذلك لفقْد الأمل بأي نجاةٍ محتملة، وبأنهما يفتقران إلى أي شيءٍ ذي معنى يمكن للحياة أن تقدّمه إليهما، فما كان منه إلا أن أعاد صياغةَ الأسئلة وتغييرَ الأُطر، فبادرهما بالسؤال: «أليس من المحتمل أنّ الحياة تنتظر منكما ما ينبغي تقديمه، بدل أن تنتظرا أنتما مِن الحياة ما ستقدمه لكما؟».

وكانت النتيجة أعلى مما يُنتظر، كانت النتيجة أن أحدهما وجد أن ابنته بقيت تنتظره، بعد أن نجحت بالهجرة إلى أمريكا، بينما أكمل الثاني إنجازه لمجموعة كتبٍ في حقل الجغرافيا.

إعادة طرح الأسئلة وخلق المعنى اللازم للحياة غيَّرَ اتجاه حياة هذين السجينين من أقصى خاصرة الألم اليسرى، إلى أقصى خاصرة الأمل الأخرى.

ومن اللافت للنظر أيضاً أن تاريخ سجن تدمر، الذي دام أكثر من

عشرين سنةً متواصلةً من التعذيب والقتل الوحشيّ، لم يشهد حالة انتحارٍ واحدة! إذ إنَّ فقد المعنى واليأس المطبق هما علّةٌ أساسية لفعل الانتحار، بينما الحياة في معتقل تدمر، على الرغم من تلاطُم الأهوال اليوميّة فيه، وتراقُص الموت في ساحاته كلّ صباح، كانت غنيّةً بالمعنى، بحيث يصبح الصمودُ هو أنْ نمنح لحياتنا معنى، يمنحنا معنى لموتنا المرتقب، ذلك الذي يضفي على تجرّع التعذيب اليومي، وملاقاة الموت، ألفَ قيمةٍ سامية، ربما يكون بعضها الوقوف بوجه الطاغية، وسلوك طريقٍ وعرةٍ لنَيل الحرية، ونفْض غبار عشراتٍ من سنوات الذلّ، التي لم يجرؤ سابقونا على نفضها.

ومن المسائل المهمة، التي تضغط على الإنسان عامة، وعلى المعتقلِ بشكلٍ أكثر تكثيفاً، ذلك الإحساس بعدم الجدوى، وبعبثية الأقدار؛ وهو ضربٌ من ضروب غياب المعنى. وكان للمعتقلين في تدمر شكلان من أشكال إيجاد المعنى وتعليل البقاء في هذا الجحيم: الشكل الأول هو الإيمان بعدالةٍ سماويّةٍ لا شكّ فيها، والشكل الثاني هو الإيمان بعدالةِ القضية التي نُعذَّب بسببها، وهي الوقوف بوجه الظالمين والمطالبة بحريةٍ تليق بهذا الوجود الإنسانيّ.

وهذا الفرق نجِده في حياتنا اليومية كسوريين، بين مَن قُتل ابنُها برصاصةٍ طائشةٍ في عرسٍ شعبيّ (موتٌ بلا جدوى وبلا معنى)، ومَن قُتل ابنُها وهو في تظاهرةٍ تَرفع إصبعَها بوجه الديكتاتور القاتل، فهو شهيدٌ وبطلٌ يثقب جدارَ الخوف، ويمزّق حجب الصمت.

لا يقتصر هذا على معتقلي سجن تدمر وحسب، لكنني اخترت الحديث عنه كونه الرمز الأشنعَ لوحشيّة وطول التعذيب، الذي تجرّعَه آلاف السوريين وعائلاتهم، ويكاد يكون بِويلاتِه وحكاياته القاتمة شبحَ الرعب الذي جثمَ على صدور ملايين السوريين إلى يومنا هذا.

* * *

٦٧ ـ الحشر إلى المهجع (٣٠)

في نهاية عام ١٩٨٥، جرى جمعُ عددٍ كبيرٍ من المعتقلين من معظم المهاجع، عبر المناداة على أسمائهم، وتلقّوا أوامر بإنهاء علاقتهم بمهاجعهم، وجلْبِ جميع متعلقاتهم معهم، وكنتُ واحداً من هؤلاء.

قاموا بسَوْقنا زرافاتٍ ووحداناً إلى صدر الساحة السادسة، ومنها تمّ إيداعُ عددٍ جاوز مئةً وتسعين سجيناً في المهجع رقم (٣٠)، وهو مهجعٌ كبير يتشارك والمهجع (٢٩) في ساحةٍ صغيرةٍ، تُفضي من طرفها إلى الساحة السابعة، ويتم الوصول إليها من صدر الساحة السادسة.

ما إن دخلنا حتى سرتْ أحاديثُ سريعةٌ تنمّ عن خبرة أصحابها في الوصول عبر أقلّ الأسئلة وأكثرها أماناً إلى معرفة ما خفيَ من الأمر، فالجمعُ الغفير الذي ضمّتْه جدرانُ هذا المهجع خليطٌ متنوعٌ، أشخاصه في غالبهم لا يملكون معرفةً سابقةً ببعضهم.

خلال دقائق، تبيّنَ أن معظم الحاضرين كانوا ممن انتهتْ أحكامهم، مِن تُهمٍ متنوعة، تشمل (الإخوان المسلمين) الذين كانوا يشكّلون العدد الأكبرَ، إضافةً إلى أفراد قلائل من (حزب التحرير الإسلامي)، وعددٍ من معتقلي (حزب البعث اليميني) صاحب الولاء للرئيس العراقي «صدّام حسين». بالطبع هذا التصنيف على أساس التهم المنسوبة إليهم والتي تمت محاكمتهم على أساسها، بينما في واقع الأمر فإن الشطر الأكبر من هؤلاء لا تنطبق عليهم تلك التهم الأمنية. ومن سخريات الأيام أن هذه التهم

ستبقى لصيقةً بأصحابها لعقود ستأتي. وستكون هذه الضحية عرضةً للظلم مرتين، مرةً حين حوكمت واعتُقلت على هذا الأساس، ومرةً أخرى حين توصَم بهذه التهمة لبقية أيامها، حتى من قِبَلِ شركائها في المعتقل، وأبرز ما يظهر هذا في تيارٍ حُسِب على الإخوان المسلمين وتيار البعث اليميني.

وبينما تمّ تعيينُ رئيسٍ للمهجع، يتولّى إدارة الأمور الأساسية، من توزيعٍ للأماكن على أصحابها، وارضاءِ كلّ مجموعةٍ لتكون مواضع منامتهم متقاربةً من بعضها، كان هناك فريقٌ منشغلٌ بمعرفة عدد الأطباء الموجودين في هذا المهجع الجديد، ومعرفة مَن منّا كان يتولى أمور الخدمة العامة، مِن توزيع طعامٍ وغسلٍ للصحون، وعنايةٍ بالمرضى الذين يقرر لهم طبيبُ المهجع عنايةً خاصة.

ربّما مرتْ ساعتان أو أكثر حين نودي على الجميع أن يصطفّوا لإجراءات التفقّد:

ـ كم واحد عندك ولاك؟

ـ مئة وأربعة وسبعون حضرة الرقيب.

وما إن دخلتْ وجبة الغداء، حتى تحلّقَ الجميع عبر مجموعاتٍ مكوّنة من ستة أفراد، معظمهم جلسوا كيفما اتفق، وكوّنوا مجموعات الطعام التي ستجمعهم ثلاث مراتٍ كلَّ يوم.

من هذه المجموعات ستبدأ سلسلةٌ طويلةٌ وغنية من أحاديث التعارف وبناء الصداقات، والتخطيط للقاءاتٍ ستمتدّ لشهورٍ طويلة. سيكون بين الحاضرين عددٌ كبيرٌ من الضباط المعتقلين على خلفياتٍ متباينة، وسينخرطون في أحاديث لا تنتهي عن بنية هذا النظام الذي كانوا جزءاً من أهمِّ مكوناته، وقد خبِروه عن قرْبٍ، خبرةً لا تتأتّى للآخرين.

سرعان ما تمّتْ معرفةُ الأشخاص الذين اعتادوا التحدّث والتدريس في اختصاصاتٍ شتّى؛ سيعلّمنا المهندس «أبو حسن» فنونَ العربية التي كان يعشقها ـ وإن لم تكن اختصاصه الجامعيّ ـ من نحوٍ وصرفٍ وبلاغة،

وسنعكف معه عبر ما يقارب العام، نُعرب فصلاً من القرآن كلَّ يوم، وسيكون الرائد «عثمان» مرجعَنا في تاريخ الحربين العالميتين الأولى والثانية، وسنتعلّم للمرة الأولى فصولاً موسّعةً عن الديالكتيك والماديّة الجدليّة، من طبيب الأمراض النسائية «عبد الرحيم»، العائدِ لتوِّه من (موسكو)، قلعةِ الشيوعية الأكبر، والذي سيصبح بعد أشهر قليلةٍ من أهم المراجع في ضبط قراءاتنا لأصعب سور القرآن حفظاً.

ستدور أحاديث طويلةٌ، يتّسم بعضها بالتسامح، وسيكون بعضها متشنّجاً، لأنه سيمسّ مسلَّماتٍ وأبجديّاتٍ لا ينبغي المساسُ بها عند البعض الآخر. سيكون هناك يمينُ اليمين، ووسطُ اليمين، ويسارُ اليمين. ومثلهم عند اليسار، وعند الوسط، وغيرهم ممّن لا يعنيه كلُّ هذا.

وستجري حركةٌ عاليةُ النشاط في التعرّف على مباحث لم نتطرّق إليها من قبل؛ فبينما كانت أحاديثُ العقيدة ودار الإسلام ومعنى الجاهلية وخلافات السلفية والمذهبية، هي محاور الحوارات الرائجة والحياة في المهجع السابق، ستكون هناك اليومَ قضايا عاليةُ التباين، من بينها الموقف حيال الثورة الإيرانية، بين مَن يرى «الخميني» ممثّلاً لدولة الإسلام التي طالما حلم بها، ومَن يراه محضَ شاهٍ معمَّم، وبين مَن ينظر إلى الرئيس العراقي «صدّام حسين» كبطلٍ قوميٍّ يقارع الفُرس، ويمثّل حامي حدود العروبة بوجه المدِّ الفارسي، ومَن يراه مجرماً قاتلاً، ربما لا يكون «حافظ الأسد» ـ على الرغم من عتوّه في الإجرام ـ أكثرَ من تلميذٍ صغيرٍ في مدرسته.

وستكون دروس «عبد القادر» التعريفية بفكر حزب التحرير الإسلامي ومناهجِه في القراءة السياسية نافذتَنا الأولى للتعرّف على فكر هذا الحزب، الذي لم تكن معرفةُ معظمنا به تتعدّى بضعةَ أسطرٍ متناثرة، وحفْظ بعض آرائه الشاذّة التي يتداولها خصومُه ومخالفوه. وفي هذا السياق سنكتشف جميعاً أن ما نحمله من تصوّرات ومعارف عن خصومنا الفكريين والسياسيين لا يتعدّى بضعة عناوين وقوالب ورِثْناها، دون أدنى تدقيقٍ أو

محاولة تحقّق، ونادراً ما تجد خصماً لتيارٍ سياسيٍ أو فكري قد بنى موقفه عن درايةٍ كافيةٍ أو قراءةٍ قدْرٍ وافٍ من أدبيّاته، تسمح له باتخاذ موقفٍ منهجيٍّ، بعيداً عن العدوانية والكراهية الموروثة، وهذا يشمل جميع التيارات التي ضمَّها سجن تدمر.

ستكون الحياة في هذا المهجع أغنى من سابقيه، لكثرةِ ما توافرتْ له من معارف متنوعة، وصلتْ عبر تنوّع الأفراد القادمين من مهاجع مختلفة في سجن تدمر، وسيكون الحوار على أشدِّه، حيث الفتيان صغار السنِّ ـ الذين جاوزوا سنَّ العشرين من وقتٍ قريب ـ هم لولبُ الحركة والخدمة، وهم محرّكُ الحوار والسؤال، والمشتغلون بالدرس والتعلّم الذي لا يفتر حماسه.

وستكون الرُّتب العسكريةُ مِن السجناء هي مَن تتولّى إدارةَ هذا المهجع، ولن يكون هناك أميرٌ لهذا المهجع بعد. وسيعيش الكثيرون منّا وهم يشعرون أن الانتقال إلى هذا المهجع ما هو إلّا مقدمةٌ للخروج من السجن.

ولن يطول هذا الإحساس طويلاً، فما هي إلّا بضعةُ أيامٍ حتى يباغتنا فريقٌ من الجلّادين بحفلةِ تنفّسٍ خاصة، يُسرفون فيها في تعذيبنا تعذيباً تشيْبُ لهوْلِهِ الولْدان. ويبدو أنهم أحسّوا من تباسُطنا في الحركة والاستجابة للأوامر أننا بتْنا نحسب أنفسنا في منأى عن هذا التعذيب، فسرعان ما عمدوا إلى تذكيرنا بأننا ما دمْنا بين تلك الجدران سنكون تحت رحمة سياطهم وتعذيبهم. كان تذكيراً قاسياً، يمحو من نفوسنا أدنى فسحةٍ للنسيان.

الأمر المهم في هذا الاجتماع أنه ينقذنا من رتابةٍ قاتلةٍ، يعيشها كل السجناء حين يطول بهم البقاء في مهجعٍ أو زنزانةٍ واحدةٍ مع الأفراد ذاتهم؛ فالحكاياتُ تنتهي بمرور السنوات، والمعارفُ التي تمّ تداوُلُها أيضاً، وجميع الطرائف والنكات، وقصص الأهل والأصحاب، حتى يغدو واحدُنا على درايةٍ واسعةٍ بأسماء أشقّاء معظم أصحابه، وجميع الحكايات

التي يحفظونها ويكرّرون روايتها، وكل الطُّرَف والنكات التي يعيدون تكرارها، مع بعض تعديلٍ واقتضابٍ هنا وتوسُّعٍ وإضافةٍ هناك.

بالنسبة لي ولأقراني الذين حضروا من مهاجع الأحداث، سيكون هذا الانتقال حدَثاً نوعيّاً؛ إذ سننفتح على تجارب جديدةٍ ومعارف وثقافاتٍ متنوعة، الأمر الذي سيجعلنا أشبهَ بنحلٍ جائعٍ، انتقل فجأةً إلى غاباتٍ حافلةٍ بألفِ نوعٍ من الثمار والزهور، وسيجدُ فينا بعضُ كبار السنِّ تلاميذَ نجباءَ لا يفترونَ عن التعلّم كلَّ يوم، وسنقف على مآسٍ مروعةٍ في قصص بعض المعتقلين، وسيكون للقائنا بمعتقلي تيار اليمين البعثيّ وقصصِ اعتقال بعضهم تنويعاتٌ أشبه بقصص الخيال العلمي.

فقد تمّ دعوةُ بعضهم في غمرة أحداث ١٩٨٠ بين تنظيم الطليعة ونظام الأسد للانضمام إلى تيار الإخوان المسلمين المعارض، وما إن شاركوا ببضعة اجتماعاتٍ، حتى تمّ التبليغ عنهم من الجهة التي دعتْهم بالأصل، وسيتبيّن لهم فيما بعد أن مجموعاتٍ استخباراتية تتبع لنظام البعث العراقي هي مَن غرّرتْ بهم وسرّبتْ أسماءهم إلى المخابرات السورية، ليكون لنظام «صدام حسين» عددٌ كبيرٌ من المعتقلين السياسيين في سجون نظام «الأسد»، فيزعم عبرَهم أن له رصيداً كبيراً من المؤيدين في الساحة السورية.

ومن طرائف الأمور أنهم لبثوا سنوات في السجن وهم مؤمنون بأن سبب اعتقالهم هو الانضمام إلى تيار الإخوان المسلمين. وقد عُرضوا على محاكم ميدانية كان يرأسها اللواء «حسن قعقع»، وكم كانت دهشتهم كبيرة حين تمّت محاكماتهم على تهمة الانتساب إلى تيار البعث اليميني، الأمر الذي وقاهم من غوائل القانون (٤٩)، الذي يقضي بإعدام كلّ مَن يثبت انتسابه إلى تنظيم الإخوان المسلمين. ومع ذلك، فقد نال بعضُ مَن اعتُقل بتهمتهم عقوبةَ الإعدام.

طوال الفترة التي سبقتْ انتقالنا الأخير، كانت السِّمةُ العامة التي تصبغ جميع المهاجع هي السمة الإسلامية، باستثناء مهجعٍ أو مهجعين،

كانا يضمّان معتقلين من أحزابٍ يسارية (المكتب السياسي للحزب الشيوعي، حزب العمل الشيوعي) ممن لم نلتقِ بهم طوال بقائنا في سجن تدمر، وكذلك من حزب البعث اليميني (البعث العراقي). وكان الحديث في تلك المهاجع الإسلامية، وإنْ تعدّدتْ أصواته وألوانه، إنما يبقى في الدائرة ذاتها، على الرغم من تنوّع محاور الاهتمام في كل مرحلة.

لكن اليوم، ومن خلال اجتماعنا بألوان سياسيةٍ وفكرية متباينةٍ ومتنوعة، تغيّرَ إيقاعُ الحوارات، وتغيّرتْ محاورُ القضايا المركزية التي صارت موضعَ الاهتمام في هذا الفضاء الجديد. هذه النقلةُ النوعية أعطتْ للحياة اليومية، ولطبيعة الأحاديث والمناقشات التي تدور، طعماً جديداً ومحبّباً؛ فقد سئمَت النفوسُ من تكرار الأحاديث والآراء ذاتها، في قضايا لا تخرج عن إطار الحوار الديني، الذي يستدعي الخلاف فيه في كثير من الحالات مواقف حدّيةً ومفاصلة شعوريّة، وتصنيفاتٍ تتّسم في كثيرٍ من الأحيان بالعدوانيّة.

في هذا الانتقال وهذا التجمّع الجديد، يمكن القول إننا انتقلنا إلى بيئةٍ أكثرَ قرباً من البيئة العامة، التي تحوي أطيافاً في غاية التنوّع والتباين والغنى، وهذا يخفّف من غلواء الأكثرية، التي يختلط عليها الأمرُ، فتخال أن الأكثرية التي تمنح الناخبَ فرصة الفوز أو شرعيته هي نفسها التي تمنح صوابية الآراء. وهذا يخالف المنطق والوقائع، فالأكثرية غالباً تميل للتقليد، والبعْد عن التفنيد، ولا تملك جرأة النقد ولا أدواته؛ وحتى لدى الاتجاهات الدينية، هناك دفْعٌ كبيرٌ لاتّباع أُولي الأمر وأهل الاختصاص، وذمّ الأكثرية التي تتّسم بروح القطيع ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

يمكننا القول إنَّ هذا التنوّع الجديد قد أسبغ على حياتنا في المهجع (٣٠) سِمَة المدنيّة، بعد أن كانت السمةُ الدينية هي السمة الطاغية على حياتنا في المهاجع السابقة. هذا الأمر فتحَ الباب أمام تساؤلاتٍ ومراجعات ووقفات، ما كان لها أن تخرج لولا هذا المناخ.

كان صِغر الساحة التي تضمّ المهجعين (٢٩) و(٣٠) يفرض على الجلّادين مسافةً ضيقةً بينهم وبين السجناء، مما يستوجب قرْب مساحة الاحتكاك، الأمر الذي يمنح الجلّاد إحساساً أكبر في هيمنته على الضحية، ويكثّف في مشاعره العدوانية، فيصبح التعذيب أشدَّ وطأةً على ضحاياه.

ستصبح تفاصيلُ الحياة اليومية مبنيّةً على الحقوق والواجبات أكثر من ذي قبل، حين كان الأمر يُبنى على التسامح والإيثار والفداء، وسيكون أي سلوكٍ عرضةً للنقد على أساس التمييز السياسي، فأيّ قرارٍ سيتّخذه رئيس المهجع أو المسؤول الصحي يجب أن يراعي فيه تلك الحساسيّات، التي يمكن أن تُطِلّ برأسها بين الحين والآخر.

* * *

٦٨ ـ المعتقلون والتجارب الكيميائية

في غمرة تعارفنا في المهجع الجديد، نهاية عام ١٩٨٥، كانت هناك كوكبةٌ من الضباط من اختصاصاتٍ متنوعة؛ فمن سلاح الطيران كان بيننا اثنا عشر ضابطاً طيّاراً، ومن سلاح مدفعية الميدان كان هنالك سبعة ضبّاط، ومن الدفاع الجوي وسلاح المشاة وضبّاط المدرعات وغيرها من اختصاصات.

وكنّا نميِّز منهم مجموعةً من الضباط، يبدو عليهم شدّة الإعياء والوهن اللافت للنظر، مع أن معظمهم لم يجاوز الخمسين من العمر إلا قليلاً. وشيئاً فشيئاً بدأت العلاقات تتمتّن، وبدأت الثقة والألفة تفتح أبواباً للحديث لم تكن قد فُتحت من قبل. وكان هناك حديثٌ خاصٌ يسري بهدوء ويتم تداوله همساً، وهذا أمرٌ غير مألوفٍ في هذا المعتقل، إذ يمارس المعتقلون في عوالمهم الداخلية أقصى درجات الحرية في الفكر والآراء، فما يخشاه الآخرون خارج السجن (الاعتقال والتحقيق) متحقّقٌ هنا في أعتى صوره، فلا يخشى مَن هو في لجّة البحر بَلَلَ المطر الطارئ.

كان بعض هؤلاء الضباط قد خاض تجربةً عصيةً على التصديق، لو أنّها رُوِيتْ من غيرهم. فقد تمّ نقلُهم إلى معسكرٍ صحراويٍّ قريبٍ من منطقة (أبي الشامات) في أطراف العاصمة السورية دمشق، وكانوا يُنقلون بوساطة سياراتٍ عسكريةٍ خاصة، بعد أن يتم استدعاؤهم بالاسم، وكان معظمهم ضباطاً معتقلين لصالح فرع المخابرات الجوية، وما إن يصلون إلى ذلك المعسكر، وهم معصوبو الأعين ومقيّدون بسلاسل حديدية، حتى

يتم إدخالُهم برفقٍ إلى قاعات واسعةٍ مساحتُها تقارب المئة مترٍ مربّع، وهناك يُمضون بضعة أيامٍ يتلقّون فيها معاملةً حسنة، ويُقدّم لهم الطعام الجيّد ثلاث مراتٍ يومياً، تمهيداً لحدثٍ لا يزالون يجهلون كُنْهَه.

في اليوم المحدد سيتمّ نقلُهم إلى مستودعٍ مختلفٍ، وسيكون المستودعُ الجديد مجهّزاً بخمس نوافذ زجاجيّة واسعة، يتمّ التحكّم فيها من الخارج، تمكِّن الواقفَ خارجَها من الإشراف الكامل على تفاصيل ما يحدث في الداخلِ، ويَطلب منهم أحدُ ضبّاط الموقع أن يتجمّعوا في زاوية المستودع، تمهيداً لتحقيقٍ عارضٍ وقصير يفضي إلى إطلاق سراحهم قريباً، ويخبرهم أنهم سيُرمَون بقنابل مسيلةٍ للدموع، فلا ينبغي لهم أن يجزعوا، وما عليهم إلا المسارعة إلى أطباق البصل المركونة في الزاوية الأخرى، لتساعدهم في التغلّب على آثار هذا الغاز.

ما إن ينهي هذا الضّابطُ حديثه، حتى يخرج من القاعة مسرعاً، بينما يقوم شخصٌ يرتدي قناعاً واقياً، برمي قنبلةٍ غازيةٍ داخل القاعة ويقفل الباب، خلالها يقوم جمعٌ من الضباط والمختصين بمتابعة ما يجري عبر النوافذ وتسجيل الملاحظات. في الثواني التالية يكون المعتقلون الذين يخضعون لهذا الاختبار قد فقدوا الإدراك وفارقَهم وعيُهم.

وقد حدّثني صديقي «جلال» ـ وهو أحدُ الضباط الناجين من هذه التجربة المريرة ـ عمّا أحسَّه في الثواني الأولى التي تلتْ غيبوبته، التي لا يعلم كم طالت؛ كان يحسّ أن مخلوقاتٍ فضائية تحاول الاقتراب والنيل منه، بأيدٍ سوداء طويلةِ الأظافر، ووجوهٍ قبيحة، وعيونٍ متّقدةٍ كأنّ فيها جمراً يشتعل، وأصواتٍ منكرةٍ ممدودة الحروف، تعلو تارةً وتخبو تارةً أخرى، دون أن يعي منها ما تريد. يتطوّر المشهد سريعاً إلى محاولة هذه الكائنات الإمساكَ به وتشويهَ وجهه بمخالبها، وإلى صراخٍ مرتفعٍ، وضحكٍ وقهقهة.

وشيئاً فشيئاً يتبدّد العماءُ والوهن، الذي يغرق به هو وأصدقاؤه الذين كانوا معه في هذا الاختبار، ليجدوا أنفسهم وقد أمسك كلٌّ واحدٍ منهم

بتلابيب الشخص القريب منه، وجثمَ بعضُهم فوق صدر بعض، وقد اشتبكت الأيدي بعراكٍ عنيف.

بعد ساعةٍ من الزمن، سيصحو الجميع بالتتالي، والألم الحادُّ ينتشر في جميع أوصالهم، وألسنتُهم قد التصقتْ بحلوقهم من شدة العطش، ليجدوا أنفسهم وسطَ مجموعةٍ من الخبراء والضباط الذين يرتدون الكمامات، ويتابعون تفاصيل استيقاظهم عن قرْب، وفي ركن القاعة مصوّرُ فيديو يوثّق تفاصيلَ عودةِ الوعي إليهم.

يقترب أحدُ الحاضرين منهم، يسألهم كم من الوقت مرَّ بكم وأنتم نائمون؟ يجيبه البعض أنهم نائمون منذ خمس ساعات، ويجيب آخرون أنهم نائمون منذ اليوم السابق.

كان صديقي «جلال»، وهو أصغر السجناء سنّاً، يلمح النظرات الساخرة في بعض الوجوه، وسيعلم بعد أيامٍ أنهم أمضوا ثلاث ليالٍ بتمامها وهم غائبون عن وعيهم، وأنهم في غمرةً الاستيقاظ كانوا يحاولون خنْقَ بعضهم بعضاً، فقد كانت تلك الغازات السامة التي قُذفوا بها تتسبّب بتلفٍ أو أذيّةٍ في الجهاز العصبيّ، الأمر الذي يتسبّب عند الصحو بجملةٍ من الإهلاسات السمعية والبصرية، تجعل من الآخرين أعداء ينبغي مقاتلتهم وقتْلهم، وهذه الإهلاسات هي عرَضٌ نفسيٌّ من منشأٍ عصبي، يتسبّب للمريض برؤيةِ أشياء وسماع أشياء لا وجود لها إلّا في مخيلته.

بعدها نُقلوا إلى قاعةٍ أخرى، فيها أسرَّةٌ وبعض الطعام والماء، وكانوا يمشون متعكّزين على ركَبهم، وقد انحنتْ ظهورهم من الإعياء، وكانت رؤيتُهم ضبابيةً إلى حدٍّ كبير، وثمّة أصواتٌ تنبعث من هنا وهناك، لا يملكون لها تفسيراً.

لم ينتبهوا، إلّا بعد مرور زمنٍ وافٍ، أن سبعةً ممن كانوا معهم في هذه التجربة لم يعودوا برفقتهم إلى القاعة، وحين استعادوا القسط الأكبر من إدراكهم، تذكّر بعضُهم أنه رأى أشخاصاً متمدّدين في ركن القاعة السابقة، حيث طُبِّقتْ عليهم اختباراتٌ للقنابل السامة، وسيدركون بشكلٍ

أجْلى، حين يعودون إلى سجن تدمر، أنَّ الآخرين قد قضوا في تلك التجربة.

سيكون منهم ناجون شكلاً، وهم معتلّون تُلازمهم اعتلالاتُهم لسنواتٍ طويلةٍ بعد خروجهم من المعتقل، وقد كنتُ أمرُّ بأحدهم في بعض متاجر حلب، وهو يعمل في إعداد القهوة والشاي لدى بعض إخوته، فأجدُه ساهماً شارداً، لا يكاد يعي ما يُقال له، وحين أُلقي عليه التحية، يجيبني دون أن يرفع رأسه أحياناً، وأحياناً لا يجيب، فأنصرف عنه وأنا أطوي صدري على ألمٍ يصعب البوحُ به في تلك الأيام.

بعدها بأيام، يتمّ سَوقُهم مشاةً إلى مبنى يبعد عن القاعة مئات الأمتار، وهم حفاةٌ وقد لبس الوهنُ أجسامَهم وأرواحَهم، ليُعرضوا على ضابطٍ كبيرٍ كان يتولّى الإشراف على تلك الاختبارات، وسيميّزه العديدون منهم من صوته، إنَّه المقدم «علي مملوك»[1]، الذي يعرفونه جيداً من خلال زياراته المتكررة للمطارات التي طالما حلَّقوا منها، والذي سيُرقّى لاحقاً لرتبة لواء، وسيتولى رئاسة المخابرات الجوية، صاحبة الباع الأطول في قمع السوريين، ووأدِ أيّ حراكٍ يهدف إلى ثقبِ جدار الخوف، وتنسُّمِ بعض الحرية التي طالما حلم بها السوريون.

ستتكرر التجاربُ مراتٍ عدة، وسيكون هناك مختفون يصعب إحصاؤهم، لكن يمكن مقاربةُ العدد بشكلٍ منطقيّ، فقد أحصى بعض المهتمين أكثرَ من ثلاثين تجربة لأسلحة كيميائية، أشرفَ «علي مملوك» على معظمها، وكان عدد الضحايا في كل تجربةٍ يتراوح بين عشر ضحايا

(١) «علي مملوك»: (١٩٤٩ ـ . . . .

ضابطٌ مولود في دمشق، من أسرةٍ علويةٍ مهاجرة من (لواء اسكندرون)، تدرّجَ في مناصب عدّة في إدارات المخابرات، من رئيس فرع التحقيق في المخابرات الجوية، إلى إدارة المخابرات الجوية، ثم إدارة المخابرات العامة، إلى أن تسلم إدارة الأمن القومي. مشهورٌ بولائه لملالي إيران، له جرائم عدة، من أهمها تولّيه لملف الأسلحة الكيميائية وإشرافه على تجربتها على سجناء سياسيين من سجن تدمر.

وثلاثين ضحية، مما يعني أن خمسمئة سجينٍ تدمريّ لقوا حتفَهم في تلك التجارب، التي ستمهّد لامتلاك نظام «الأسد» لترسانةٍ كيميائيةٍ، كانت كلْفتُها مئات الضحايا من معتقلي سجن تدمر، ومئات ملايين الدولارات قيمة تلك المواد، التي ستُكدّس ليستخدمها نظام «الأسد» في قمع شعبه وقتله، إنْ هو ثارَ عليه في يومٍ آتٍ لا محالة.

صحيحٌ أنَّ أدوات التواصل وتقانات المعلومات لم تكن كحالها اليوم، إلّا أن ما كان يجري في معتقلات سورية ـ من قتلٍ وتعذيبٍ ومسحٍ للكرامة الإنسانية، وإذلالٍ لشعبٍ آمنٍ بسَجن أبنائه ومثقفيه، وتجاوزٍ لكلّ الخطوط الحمراء، وازدراءٍ لكلّ القوانين والأعراف الدولية ـ لم يكن ليَخفى على أجهزة المخابرات الغربية وإعلامها، إلّا أنهم آثروا الصمت. ولا غرابة، فهُم اليومَ يلتزمون الصمت على مرأى من العالم أجمع دون أن يتحرّكوا لوقف المذبحة المستمرة في المدن السورية، ولإنقاذ عشرات آلاف السوريين في المسالخ البشرية؛ باستثناء بعض مؤتمراتٍ هنا وهناك، لا تفضي إلى شيء، وخطوط حمراء لا تردع عن ارتكاب حرب كيميائية ضد نساء وأطفال عزَّل، في مدنٍ وقرى سورية عدة، وبعض ضجيجٍ لإعلام ومنظماتٍ، حدُّها الأعلى تقديم بعض المسكِّنات لضحيةٍ يتم ذبحها كلّ يوم.

* * *

٦٩ ـ في مهاجع السلّ

في خضمّ انشغالنا الكثيف بإيقاع الحياة الجديدة في المهجع (٣٠)، كان هناك عدوٌّ خفيٌّ يتسلّل بيننا دون أن نُلْقي له بالاً. في البدء كانت هناك مظاهرُ وهنٍ تعتري العديد منا، ثم ما لبثتْ أن ترافقتْ مع حمّى وتعرُّقٍ ليليٍّ ملحوظ، ثم فقْدٍ للشهيّة وسعالٍ دموي.

إنه السلّ، ذلك الزائرُ الخطير الذي يفتك بمرضاه بعد أن يُدمي صدورهم، ولاسيما في هذا المكان الذي يكتظّ فيه المئات، دون أيةِ إمكانيةٍ للعزل أو أخذِ إجراءٍ احتياطي، ومع توفّر كل أسباب المرض والعدوى، وفقْدٍ تامٍّ لأيّ إمكانيةٍ للعلاج، ومع الزحام الناقل للعدوى، وسوءِ التغذية الذي يخلق استعداداً لسرعة الفتك بالَمريض وإضعاف مقاومته، ومع الإنهاك اليوميّ في حلقات التعذيب؛ كلُّ هذا جعلَنا فريسةً سهلةً أمام هذه العُصيَّة الفاتكة.

ما إن بدأ الأمر حتى بدأتْ عشرات الإصابات تقرع أبوابَ المهاجع مُنذرةً بجائحةٍ تصعبُ مواجهتُها، وكان اهتمام إدارة المعتقل واضحاً، ليس عن موقفٍ إنسانيّ، هم أبعدُ ما يكونون عنه، إنما بفعلِ الأوامر التي ترِدُ يومياً من القصر الجمهوري، والتي تشدّد على أهمية الحفاظ على أرواحِ مَن تبقّى من معتقلين، فهُم ـ كما كانوا يعتقدون ـ يشكّلون ورقةً مهمةً حين يرغب النظام في مغازلة الشارع السوري، وخطْبِ ودّه، أو إشغالِه عن لعبةٍ قذرة يرتكبها.

في بدايات عام ١٩٨٢، بُعيدَ فشلِ المحاولة الانقلابية التي جمعت اللواء «صلاح حلاوة» بالعميد «تيسير لطفي» أواخر عام ١٩٨١[١] ـ والتي اعتُقل على إثْرها جميعُ مَن شاركوا بهذه المحاولة من عسكريين ومدنيين ـ كان الرأيُ بيننا قد استقرّ على أنَّ أية فرصةٍ لزعزعة النظام قد ضاعت. ويومها استقرّ رأيُ مَن تكلموا بنتائج هذا الانقلاب الفاشل على أن هذا الاعتقال الذي نحن فيه سيكون طويلاً جداً، ولن تكون هناك فرصةٌ أمام المعتقلين، إلّا حين يُقْدِم النظام على البدء بمفاوضاتٍ مباشرة مع الكيان الصهيوني، وهو لن يكون قبل عشر سنوات على أحسن تقدير. وهذا ما حصل بالفعل، فمع بدء المفاوضات بين نظام الأسد والكيان الصهيوني، في مدريد (٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١)، كنا على يقينٍ أن النظام في سورية سيقدّم للشعب السوري ورقةً تُلهيه عن تفاصيل تلك المفاوضات، فأصدرَ بعد أيام عفواً رئاسياً شملَ ٢٨٥٢ معتقلاً من جميع الاتجاهات، مع أن هذا الرقم لا يمثّل أكثر من عشرين بالمئة من المعتقلين في سجون الأسد آنذاك.

بالعودة إلى شأن مرضى السلّ، الذي بدأ يتفشّى بين السجناء، فقد كان لزاماً على إدارة السجن فرْزُ المصابين في مهاجع مستقلّة، وتخصيصُ أطباء متطوّعين من المعتقلين ليُشرفوا على رعايتهم وعلاجهم. وبدأت حبوبُ (الإيزونيازيد) وحقَن (الستربتومايسين) تدخل مهاجعنا بكمياتٍ كبيرة، وهو دواءٌ نوعيٌّ لعُصيّة السلّ، مع المحاذير الكبيرة في استخدامه، لفرْطِ أذيّته للعصب السمعي، وقد فقدَ العديدون قدرتَهم على السمع بفعل اضطرارهم لاستخدامه.

---

(١) المحاولة الانقلابية ١٩٨٢:

هي محاولة انقلابية قام بالتحضير لها مجموعةٌ كبيرة من الضباط، في مقدمتهم العميد «تيسير لطفي»، وهو ضابط من مدينة حماة من مواليد عام ١٩٣٦، وهو من مجموعة قليلة خضعت لدورة قائد جيوش. وكان يشاركه العميد الدمشقي «صلاح حلاوة».

كان افتضاح أمرهم بسبب وشاية من العميد «أحمد عبد النبي»، الذي رفعت رتبة خيانته لأصدقائه فأصبح برتبة عماد. وقد تمّ الإفراج عن «تيسير لطفي» وبعض الضباط المشاركين معه بعفوٍ رئاسي في شباط/ فبراير ٢٠٠٤.

ومع توالي الأشهر، وتأكيد الحاجة إلى مزيدٍ من العناية المركّزة والمتابعة الدقيقة لتطوّر حالات المرضى، فقد تمّ اعتماد الدكتور «زاهي عبّادي» لهذه الغاية؛ وهو طبيبٌ من مدينة دير الزور، يمتاز بمهاراتٍ استثنائية في القدرة على التواصل مع المرضى وإجراء الفحص السريع، ومنْح سامعيه ثقةً عاليةً هم بأمسّ الحاجة إليها، خاصةً حين يكونون مرضى يتعايَشون مع مرضٍ فاتكٍ مثل السلّ؛ فقد كان يفحص العشرات منهم يومياً تحت إشراف طبيب السجن ورقباء يُحْصون عليه كلَّ حركة، فكان يشير إلى مَن يلزمه العزل والعلاج، فيتمّ نقلُه إلى بعض مهاجع السلّ التي خُصِّصتْ لهذا الغرض. وفي كلِّ مهجعٍ من هذه المهاجع كان هناك طبيبٌ من السجناء، وربما أكثر، يشرفون علَى علاج الجميع في ذلك المهجع والعنايةِ بالمرضى الجدُد خاصة؛ فمريض السل الجديد يأتي إلى مهجع العزل وقد نزفت رئتاه من الإصابة وأُغلقتْ شهيّتُه، فإضافةً إلى نفْثه الدمَ من صدرٍ مُصاب عند كلّ سعالٍ أو عطاس، فإنه يمتنع عن الطعام، وتصبح عملية إرغامه على تناول الطعام من أشقِّ المهام التي تواجه مَن يشرف على العناية بأولئك المرضى.

على الرغم من مأسوية المشهد وصعوبة الوضع الراهن، إلّا أننا كنا نستقبل عملية الانتقال من مهاجعنا إلى مهاجع السل بوصفها عملاً أقرب ما يكون إلى رحلةٍ سياحيةٍ، يقوم بها الشخصُ المترف من بلده إلى بلدٍ آخر يستجمّ به ويتمتع بجماله. فقد كان الانتقال إلى مهاجع السلّ فرصةً لكسر رتابة الحياة اليومية، وفسحةً للقاءِ أشخاص جدد، وهُم ـ وإن لم نكن نعرفهم ابتداءً ـ أفرادٌ من عائلتنا الكبيرة (جميع معتقلي نظام الأسد)، يجمع بيننا الكثير من الألم والهمّ المشترك، وليس بيننا من عائق إلا أن تتعارف الأسماء، وتُسرد الحكايات، وتكتمل الحلقات المنقطعة؛ فكلّ واحدٍ منّا يحمل ـ أو يشكّل بذاته وحكايته ـ مفصلاً مميزاً ومهماً من مفاصل تلك الحكاية الكبيرة والطويلة.

مرةً أخرى سيتبدّل الإيقاع في هذا المهجع عن سابقيه، وكان من وافر حظّي أن أكون في المهجع ذاته الذي كان صديقنا «معبد الحسون»

رئيساً له، وهو شابٌ من خيرة مثقفي مدينة الرقة، والده الشاعر «مصطفى الحسون»، أمين آثار الرقة ومتاحفها. وكان المسؤول الصحي عن المهجع هو الدكتور «زاهي عبّادي»، كما كان هذا المهجع يضمّ جمْعاً فريداً من المثقفين والأفراد المميزين. ومن محاسن مهاجع العزل هذه أنّها تتلقّى نصيباً من التعذيب اليومي أقلَّ من سائر المهاجع، نظراً لما يشكّله الاحتكاكُ بهؤلاء المرضى من خطر العدوى، التي يتجنّبها الرقباء والجلادون.

ما إن يميل قرص الشمس للغروب، مُرسلاً أشعته البرتقالية عبر قضبان النافذة العليا إيذاناً بدنوّ الغروب، حتى يكرّر صديقُنا الشاعر «حسن» لازمتَه الفيروزيّة: «غابَ نهارٌ آخر».

وكانت فترة ما قبل الغروب من أفضل الساعات التي نحظى بها في تلك المهاجع، إذ يضعف احتمالُ طرْق باب مهجعنا من الشرطة، فيتحلَّقُ كلُّ فريقٍ حول ما يشغله، فهؤلاء يشتغلون على قرض الشعر وروايته، وهؤلاء منشغلون بمتابعة أخبارِ بقية المهاجع عبر ما ينقله الوافدون الجدد إلينا، فيتناقلون أسماءَ مَن تمّ إعدامُهم ومَن حُكم عليه بالإعدام حديثاً، ومَن أصيب إصابةً بليغةً، ومَن يرأس كلَّ مهجعٍ في هذه الفترة، إضافةً إلى عشرات القصص الطريفة والمؤلمة بآنٍ معاً؛ وفريقٌ آخر منهمك في حفظ الألحان والإيقاعات التي يتقنها مَن اشتغلَ بصنعة الإنشاد، فهذا يدندن على (البيات والصبا)، وآخر يعلّمهم تنويعات (الحجاز)، وهكذا دواليك.

وكنت أجلس إلى أصحابي «حسن» و«فخر» و«معبد الحسون»، وقد تميّز صديقُنا «معبد» بذاكرةٍ ذهبية وذائقةٍ عالية، فهو يسرد علينا كلّ يومٍ، وبتسلسلٍ فريد، ما حفظَه من **(الأخوة كارامازوف)** لـ«دوستويفسكي»، ومن **(أولاد حارتنا)** لـ«نجيب محفوظ»، وشعراً كنت أجدُه عصيّاً على الحفظ لـ«محمود درويش»، وكان يكرر بلا كللٍ قصيدته الرائعة «أحمد الزعتر»:

«ليدين من حجرٍ وزعتر، هذا النشيد.. لأحمد المنسيِّ بين فراشتين».

وهناك سمعتُ لأول مرةٍ عن (كس أميّات) «نجيب سرور»، ورحلة ذلك الطبيب المتنوّر الروائي «يوسف إدريس» في أرياف الصعيد المصري.

لست أنسى رؤيا مرعبةً، قصَّها علينا صديقنا «معبد» ذات أصيل؛ فقد كان يعيش ساعات عصيبةً مليئة بقلقٍ مبهم يعتري روحَه ذلك المساء، وكان يذرع غرفته جيئةً وذهاباً وهو يشعل سيجارةً إثرَ أخرى، ولا يجِد لقلقه تعليلاً، إلى أن تهالَك جسدُه من الإعياء، فألقى جسده على سريره كيفما اتفق، وما هي إلّا دقائق حتى وجد نفسه متيبّساً في فراشه، ينظر إلى ثعبان أسود يتسلّل من أسفل باب حجرته، ويصل إلى سريره، وشيئاً فشيئاً يبدأ هذا الثعبان يلتفّ حول جسده من أسفل قدميه وصولاً إلى رأسه، فاغراً فاه أمام وجه صديقنا «معبد»، الذي تجمّدت عروقه، وفي اللحظة التي هَمَّ الثعبان فيها بالانقضاض على وجهه، استيقظ صاحبنا من كابوسه المرعب، ليجد عناصر المخابرات يملؤون المنزل ويقتادونه مقيّداً إلى أقبية المخابرات، حيث تبدأ رحلته الطويلة تلك مع الشقاء.

بالطبع أكتب اليوم ما بقي عالقاً بذاكرتي من رؤياه التي قصّها علينا منذ ثلاثة وثلاثين عاماً على وجه التقريب، وما زالت روحي تختلج إلى اليوم كلما تذكرت هذه الرؤيا، أو قصصتُها على صديق.

كانت تلك الحلقات تهزأ بتلك القضبان الحديدية، وتُخرجنا من أسْر تلك الجدران إلى عوالم تتجاوز الزمان والمكان، وتخلق فضاءً من الحرية تسمو به نفوسُنا العنيدة، ويمنحنا مزيداً من الصبر والإصرار على الحياة، فيغسل عن أرواحنا ما أحاط بها من يأسٍ، وما أطبقَ عليها من كدر الحياة البائسة، التي نحياها كل يومٍ ونحن نمشي على حسك الموت، فلا نحن بالأحياء الذين يرجون من الحياة بهجتَها، ولا بالأموات الذين استراحوا من هذا العذاب.

كان الإصرار على الحياة، ورعاية المرضى الجدد، والاستخفاف بما يحمله مرض السلّ من مخاطر، هو خزّان الطاقة الذي يُبقينا متماسكين. وكان النشاط اليومي المحموم من أفضل المعزّزات التي تُشعل الأملَ في

النفوس، على الرغم من كل ما يحيط بنا من شقاءٍ وتعذيبٍ يوميّ، يتراقص في كلِّ تفصيلٍ من تفاصيل حياتنا.

لم يكن مهجعُ السلّ مكاناً مستقرّاً، كلّ أسبوعٍ هناك إعادةُ تقييم، فهناك مرضى استقرتْ إصاباتهم وبات بالإمكان عزْلُهمٍ في مهاجع مستقلة، يواصلون فيها إتمام علاجهم دون إتاحة اختلاطهم بمصابين جدد، وكانت مدة العلاج تستغرق ستة أشهر، يتم نقلُهم بعدها إلى مكانٍ مختلفٍ، بينما يرِد المصابون الجدد إلى هذا المهجع، ليكونوا تحت إشراف الدكتور «زاهي عبّادي»، لخبرته وتمرّسه في علاج الحالات المُعنِّدة، وبرعاية شبابٍ تطوَّعوا عن طيب خاطرٍ لخدمة هؤلاء المرضى الجدد.

* * *

٧٠ ـ «أبو حسن» يكسر بيتاً لـ«طَرَفة»

كانت حلاقة الذقن ـ دائماً ـ فصلاً مختلفاً وأسبوعياً من التعذيب، إذ يخرج السجناء إلى الساحة عشرةً تلو عشرة، فيصطفّون أمام جدار الساحة، وظهورُهم إلى الجدار، ووجوهُهم مكشوفة، ورؤوسهم إلى الأعلى، والجميع مغمَض العينين. والويل كلُّ الويل لمن يَرفُّ بجفنيه أو يفتح عينيه ولو بسهوٍ منه، فسرعان ما يصرخ الحلاقُ، وهو سجينٌ قضائيّ، لينادي الجلادين، مخْبِراً إياهم بما جنَاه هذا المسكين، فيُكمِلون حلاقةَ ذقنه على عجلٍ، ثم يتلقّفه الجلادون ليذيقوه فنونَ تعذيبهم وآخرَ ما تمخّضتْ عنه نفوسُهم الكريهة، ثم يدخل مَن أتمَّ حلاقتَه إلى المهجع وقد بسطَ كلتا كفّيه تحت ذقنه، ليمنع دمَه المتقاطرَ من هذه الحلاقة الباريسية أن يلوّث الأرض، أو ضاغطاً بكلتا يديه على جرح بليغٍ أحدثتْه موسى الحلّاق، الذي يضرب الوجوهَ بشفرته وكأنها أعجازُ نَخلٍ خاوية.

في داخل المهجع يقوم فريقٌ من الخدمة المتطوّعة بتلقّي العائدين، وقد وُضع في وسط الغرفة الأولى وعاءٌ بلاستيكي يتم سكْبُ الماء عنده، ليغسل العائدون وجوهَهم من أثر الحلاقة. وهذا فقط لمن نجا من أيّ جرحٍ، أما الآخرون فيدخلون إلى البخشة (الحمام)، ليغسلوا ما سال من وجوههم من دماء، ويقف قبالتهم المنسّق فينادي باستمرار: «اللي فيه دم لهناك ـ أي إلى الحمام ـ واللي ما فيه دم لهون ـ أي إلى الوسط ـ ».

كانت عبارة «(ما فيه دم» في ثقافتنا السورية تعني الفاقدَ للمروءة أو النخوة، أمّا هنا فقد اكتسبَ اللفظُ المجازيُّ معنًى على الحقيقة.

أما «أبو حسن»، ذلك الرجل المثقّف المفوّه الوجيه، الذي يحفظ من الشعرِ وأعلامِ السياسة وعواصمِ الدول وأسماءِ الأحزاب ـ الأوروبيةِ منها والعربية ـ الشيءَ الكثيرَ الكثير، وهو خريجُ كلية الأدبِ الإنكليزي وأشهرُ مَن كان يقدّم المحافل والاجتماعات في ريف إدلب، هذا الرجل أصيب بالفصام عند أول حفلة تعذيبٍ تلقّاها في فرع الأمن، وكان يجمع إلى هذا كله طيبةً غامرةً وحسّاً عالياً بالطرافة والنكتة الحاضرة، إضافةً إلى جسدٍ عظيم الخلقة، يتجاوز وزنه المئة وستين كيلوغراماً.

وفي هذا اليوم المشهود، كان صديقنا «أبو حسن» واقفاً وظهره إلى الجدار، رافعاً رأسه وعيناه مغمضتان، وأصوات السياط تلعلع في الساحة، وقلب صديقنا يتقافز بين ركبتيه، وكلُّه أملٌ أن ينادوا سريعاً: «الجميع إلى المهجع»، فينجو من تعذيبٍ مُنتظَر.

صرخ الرقيبُ آمرُ الساحة بصوتٍ، خالَه صديقُنا ذلكَ النداءَ المأمول إلى المهجع، فتحرّكَ نصفَ خطوةٍ سريعةٍ إلى الأمام، وما إن فتح عينيه حتى أدركَ لحظتَها أنه أخطأ بسماعه، وكان الرقيبُ أمامَه مباشرةً، ولعِظَم هامةِ صديقنا «أبي حسن»، فقد أجفلَ الرقيبُ واعتراه الفزع لهذه الحركةَ المفاجئة، وظنّ أنَّ السجين يريد أن يُطْبق عليه بجثّته العظيمة، فأخذ خطوةً سريعةً إلى الخلف، خطوةً فضحتْ بجلاءٍ مقدار الرعب الذي اعتراه، الأمر الذي وضع قدره أمام شركائه ومرؤوسيه، فلم يملكوا أنفسهم من الضحك.

كل هذا جرى في ثانيةٍ أو ثانيتين، وبقي صديقنا «أبو حسن» متجمّداً في مكانه، كأنه رمحٌ انغرسَ في الرمل، فما كان من هذا الرقيب المفضوح ارتباكُه إلّا أن صرخ بالجموع: «إلى المهجع»، مستبقياً «أبا حسن» لينال منه ما يمسح به عارَه، ويطفئ أوارَ غضبه.

تمدّدَ «أبو حسن» بجثّته العظيمة، واجتمع الجلّادون ليردّوا الاعتبار لرقيبهم، وخلع الرقيبُ سترتَه العسكرية، ليكون مرناً وقادراً بشكلٍ أكبر على الجَلد بالسوط، وانهالوا بسياطهم ضرباً وفتكاً بجسد «أبي حسن».

لك الله يا «أبا حسن»، اجتمعوا عليك كالذئاب الضارية، وجلسنا القرفصاء في مهجعنا نبكي وندعو لك بالتخفيف..

نصف ساعةٍ من التعذيب المستمر لضحيةٍ واحدة، يصل صراخُها إلى أقصى مدينة تدمر؛ نصف ساعةٍ يصعب تخيُّلها، فهي ألف وثمانمئة ثانيةٍ طويلةٍ، تحمل كلُّ ثانيةٍ منها سياطَ خمسة جلّادين لا يفترون.

سيبقى «أبو حسن» بين أيدي الجلادين، يصرخ من ألمه، إلى أن اختفى الصوت وتوقفت السياط، ونادى الرقيبُ ليخرج أربعة حقراء يحملوا هذا الكلب إلى المهجع.

يقفز أربعةٌ قادرون على حمل «أبي حسن» المسكين، وهو أشبه بجثةٍ هامدةٍ مضرّجةٍ بدمائها، يضعونه على أرض المهجع الإسمنتية السوداء، وهو عبارةٌ عن ذبيحةٍ ملتحفةٍ بدمائها، ووجهُه تلوّنَ من أثر الضرب بين أسود وأزرق وأحمر قانٍ، وقد تورّمَ وجهه، فلا يمكن للناظر معرفة صاحبِ الوجه.

وانبرى بعضنا لغسلِ وجهه، ومسْحِ ما ظهرَ من جروحه، وهو يتنفس لاهثاً، ما بين شهيقٍ وزفيرٍ دمويٍّ، يخرجَ من بين أسنانه.

مرَّت بضعٌ وعشرون دقيقة، والمهجعُ بأفراده جميعاً واجمون، وألسنتُهم تلهج بالدعاء والصلاة، والعيونُ مسمّرةٌ إلى وجه أخينا «أبي حسن»، حين تحركتْ جفونُه بألم شديد، وافترَّ فمُه المدمّى عن ابتسامةٍ واسعةٍ تبعتْها ضحكةٌ طويلةٌ، فأُسقط في يدنا؛ ماذا جرى للرجل؟

سأله أقربُ الممسكين برأسه: ماذا هناك يا «أبا حسن»؟

هزّ رأسَه منتشياً بما جرى، لقد طلب منه الرقيبُ أثناء التعذيب أن يقول بيتاً من الشعر، فذكر له «أبو حسن» بيتاً لـ«طَرَفة بن العبد»:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ

لكنه لوطأة التعذيب كسرَ البيت سهواً غير عامدٍ، فقال: «ما كنت تجهل» بدلاً من «ما كنت جاهلاً»، ولم ينتبه الرقيبُ إلى هذا الكسر.

واعتبرَ «أبو حسن» أنَّ هذه التمريرة تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تمريرةَ اللاعبِ كرتَه بين رجلي خصمه.

* * *

٧١ ـ «زاهي عبّادي»

ستمضي أيامٌ طوال ونحن نودّع مَن تعافى من مرضه أو شارفَ على ذلك، ونستقبل مرضى ألجأهم نزيفُ صدورهم إلى مهاجع السلّ، إلى أن حان دورنا وتم القرار بنقلنا إلى مهجعٍ من مهاجعِ أصحّاء السل، وكان مهجعاً جديداً في منتصف الساحة السادسة، فتم نقلُنا بعد أن أمضينا يوماً بطولِه ونحن نودّع مَن سيبقى في هذا المهجع. سيكون هذا اليوم هو آخر يومٍ نلتقي فيه طبيبَنا وصديقنا «زاهي عبّادي»، وسيُمضي ما بقيَ له من سنواتٍ يعالج مرضى السلّ الذين يرِدون إلى مهجعه دون انقطاع، إلى أن يصاب بالتهاب المفاصل الرثويّ الحاد. وبفعل عدم توفر العلاج والدواء، تطوّرتْ حالته المرضيّة بشكلٍ حاد، فكان يمشي مَحنيَّ الظهر متّكِئاً على ركبتيه، والألمُ الشديد يصاحبه في كلِّ حركة، وكان يُمضي الليالي الطوال وهو يساهر هذا الألم.

في ظهيرة أحد الأيام سيُنادى على الدكتور «زاهي عبّادي» للذهاب إلى الإدارة، فمضى معهم من فوْره وهو يمشي مشياً بطيئاً والطريق طويل، وكانت تنتظره هناك زيارةٌ هي الأولى له منذ دخوله السجن، زيارة استطاع أهلُه التَّحصُّلَ عليها عن طريق وساطةِ بعض أمراء الرياض، لوجود بعض النسب بين أهل صديقنا وبعض الأعيان هناك. وحين وصل إلى قسم الإدارة شاهد مديرُ السجن مقدارَ الإعياء المفْرط البادي على صديقنا «زاهي»، وكان قد عصبَ كلتا ركبتيه بضماداتٍ وعصائب من بقايا ملابسنا الرثّة، فكان مظهرُه يَشِي بمرضه وبمقدار سوء العناية المتوفرة هنا، فما

كان من مدير السجن إلّا أن أمر بإعادته إلى مهجعه ومنْعه من الزيارة التي حلم بها لسنوات. عاد وقد مزّق المنعُ ما تبقّى في نفسه من فتات أملٍ، عاد وسحائبُ الألم الأسود تُغشي روحه، فتزيده ألماً على ألم.

بعد سنةٍ أو أقل، تم طلب «زاهي عبّادي» مرة أخرى إلى الإدارة، وكان الليل قد أقبل بهدوئه، فخرج صديقنا منتصباً متماسكاً وهو يمشي على أعصاب مهشَّمة ومفاصل متهتّكة، مُخفياً قدرَ استطاعته ما به من معاناة، فقد آثرَ أن يحتمل أضعافاً مضاعفةً من الألم، ويُخفي بؤسَ حاله، فلا يُمنع من الزيارة مرةً أخرى.

وما إن وصل إلى قسم الإدارة حتى تلقّاه محقّقان قدِما من دمشق، بعد أن اعترف أحدُ المعتقلين الجدد عن سرٍّ بقيَ «زاهي» مُطبقاً عليه لسنوات. لم يكن مجيئهم من دمشق إلى تدمر، مع ما يحْمله هذا الانتقال من مشقةٍ، لغاية التحقّق مما نُسب إليه وحسب، فقد كانوا مشحونين برغبةٍ عارمةٍ في إيقاع العذاب به، ومعاقبته عن كتْم سرٍّ يُفضي لاعتقال المزيد من الأشخاص وجلْبهم إلى سجون النظام.

في ساعةٍ متأخرة من الليل عادوا بصديقنا «زاهي» محمولاً ببطانيةٍ عسكريةٍ تقطر من دمه النازف. لم تكن زيارةً كما توقّعَها وتمنّاها، لقد كان تحقيقاً وتعذيباً.

لم يتوقف الأمر عند عظامه المرضوضة وجلده الممزّق من شدة ما فتكتْ به سياطُهم، فقد أتلفتْ هذه الليلةُ الهاربةُ من شقوق الجحيم روحَه، وقتلتْ آخرَ فتاتٍ للأمل في نفسه، وباتت سحائبُ الكرب الأسود مخيّمةً على ما بقيَ له من ساعاتٍ يُمضيها في هذه الحياة التي لا تشبه الحياةَ في شيء.

بقي صديقنا يعاني من مضاعفات التعذيب والمرض، واختلاطات الالتهابات والإنتانات في جِلده، حتى أذِنَ له الموتُ بشفاء جميع أسقامه وعذاباته دفعةً واحدة.

لم يكن شقاء «زاهي» وعناؤه قصةً متفردةً، أو غريبةً عن حياتنا اليومية، فقد انتظمتْ حكايتُه إلى سبحةِ حكاياتٍ كثيرة في عقدٍ تفنَّن ناظموه وأجادوا، لينسجوا من سنوات القهر الطويلة تلك استحالةً لأيِّةِ فرصةِ مصالحةٍ قد تخطر ببال أحدهم ذات يومٍ بعيد.

رحم الله «زاهي عبّادي»، وآلافَ الرجال ممن جالدوا الشقاءَ والتعذيب والمرض الفاتك لسنوات، إلى أن أذَّن داعي الفراق وساقَهم خارج أسوار سجن تدمر.

ودَّعنا «زاهي» والمهجع رقم (٢٩)، لننتقل إلى محطةٍ أخرى في سجن تدمر، إنه مهجعٌ جديدٌ بُني في وسط الساحة السادسة، وكان صغيراً بالنسبة إلى عددنا الذي جاوز المئة وخمسين من أصحّاء السلّ. ولضيْقِ المكان وشدةِ الرطوبة المضاعفة المنبعثة من الإسمنت حديث البناء، فقد كان من المحال أن نستلقي كما كنّا في سابق عهدنا، وكان لزاماً على فئةٍ من الشباب أن يسهروا طوال الليل يتبادلون الأدوار في حمل بطانيةٍ مبلّلةٍ بالماء، ويقفون في وسط المهجع وقد انحشرتْ أقدامهم بين بطون النائمين وظهورهم، ليقوموا بالتهوية بتحريك البطانية المبلّلة يميناً ويساراً، ناثرةً ما يتساقط منها من رذاذ الماء.

وعلى الرغم من ذلك، كانت الحرارة ترتفع في بعض الليالي ليمتلئ فضاءُ المهجع بالبخار المتصاعد من أجسادنا ويستحيل معه التنفّس الطبيعي، ولاسيما لمرضى بالكاد شُفيتْ صدورهم من عقابيل مرض السلّ. كان رئيس المهجع يهرع في الليالي لضرب باب المهجع بقبضته، منادياً الحرّاس ليفتحوا باب المهجع ويُخرجونا لنتمدّد في الساحة طلباً للهواء، فالاختناقات التي تعدّدتْ وتكررت تُوشك أن تُودي بحياتنا.

وبفعل هذا الوضع الرديء، لم نشعر أننا مستقرّون في هذا المهجع، فكانت حياتنا أقرب للنضال بهدف البقاء على حافة الحياة. ولم يَطُل انتظارُنا طويلاً.

* * *

٧٢ ـ المحطة الأخيرة

في صبيحة أحد الأيامِ منتصفَ شهر أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٨، بينما نحن متحلِّقون بمجموعاتِنا ننتظر توزيع وجبة الإفطار الرمزيّة، اقترب صديقي «معبد الحسّون» بوجهٍ بشوشٍ يحمل بشارة، وقال: «لقد رأيت رؤيا في ليلتي هذه، بضعُ حماماتٍ تطير من هذه المجموعة»، يعني مجموعتنا.

وسار الحديث متفائلاً بما يمكن أن تتمخّض عنه تلك الأيام، وما هي إلّا بضع دقائق حتى كان الرقباء يفتحون نوافذَ الأبواب، وينادون أسماء في قائمةٍ طويلةٍ، وحين وصلوا إلى مهجعنا كان اسمي بين الأسماء التي وردتْ في تلك القائمة. لا أستطيع منعَ نفسي من البكاء وأنا أكتب هذه السطور عن تلك اللحظات التي تشبه ضربات القدر. إنَّ أيَّ احتمالٍ لتغيُّرٍ تحْمله هذه القوائم هو دون أدنى شك انتقالٌ لما هو خيرٌ من حالنا هذه، وإنَّ الخروج من هذا السجن إلى أيِّ مكانٍ آخر، حتى لو إلى القبر، لهُو خيرٌ ألفَ مرَّة من البقاء في بحر العذاب والذلّ الذي نعيشه.

كان لدينا ساعةٌ من الوقت، ريثما يتمّ جمْعنا ونقْلُنا إلى حيث لا ندري. دفعَني بعض الأصدقاء للاستعجال بسكْب بعض الماء البارد على جسدي، ولبْس أفضل ما تحويه صرَّتي من لباس. أوّل شيء فعلتُه لحظةَ خروجي من الحمّام وأنا أجفّف رأسي أن ردَّدت في نفسي: «أنا محمد برّو، أبي خالد، أمي مديحة، اليوم اثنين. يا الله.. هل سأخرج من تدمر بعد كلِّ هذا سليمَ العقل سويَّ الحواس؟!».

ساعةٌ مضتْ بطيئةً جداً، أمضيتُها وبعضُ مَن معي في توديع الأصدقاء الباقين في المهجع. لا يمكن الحديث بدقّةٍ عن فوضى المشاعر التي تجتاحنا في هذه اللحظة، لكنَّ الفرح بما يمكن أن يحدث كان طاغياً على كلّ إحساس، وكأنّ ثقباً في جدارِ المُحال قد سرَّبَ بعضَ الأمل، إلى نفوسٍ تصحّرتْ، ولم يعُد لمعنى التفاؤل والأمل موضعاً في قاموس مفرداتها.

حركةٌ سريعةٌ، وعشرات الرقباء والحرّاس يتراكضون، قاموا بجمْعنا من مهاجعنا على عجَل، مضوا بنا إلى أحد المهاجع في الساحة الثانية، وما إن أغلقوا الباب ـ ونحن جميعاً وقوف ـ حتى بدأت العيونُ تستجلي مَن حولها، وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتى التقتْ عيناي بعيني شقيقي «أحمد»، الذي افترقتُ عنه زهاءَ عامين. سرعان ما التحمْنا فرحاً في عناقٍ طويل، كانت سعادتي مكتملة بخروجنا معاً من هذا المعتقل الرهيب، وكنت سأشعر لو غادرته وحدي، مخلفاً شقيقي الأصغر فيه، كأنني سأرتكب خيانةً، وأخذل أمي في رعايته.

لقد تسرَّبَ إلى مهجعهم منذ يومين فقط أنَّ هذه المجموعات التي تُجمع في هذا المهجع ستُنقل في صباح اليوم التالي إلى سجنٍ جديد، لا يعرف عنه أحد.

كانت هذه المجموعة هي المجموعة الثالثة التي ستُنقل إلى ذلك المكان المجهول، لكنه بكلّ الأحوال خارج أسوار تدمر.

بقيَ المهجع بضيوفه العابرين يضجُّ بالحركة والأحاديث التي لم تفتُرْ، فحلمُ الخروج من سجن تدمر صار منّا قاب قوسين أو أدنى، مرّت الليلةُ والجميع ساهرون، خاصةً أنَّ المهجع خالٍ من أيِّ فراشٍ أو غطاء.

كانت الأحاديث تدور بيننا حول مئات الوقائع التي سمعنا عنها، أو سمعنا صدى صوتها، دون أن نقفَ على حقيقتها، وكانت آمالُنا تطاول عنانَ السماء، فحلمُ الخروج النهائيّ من السجن، والعودة إلى الأهل، بات في المدى المنظور؛ فالخروج من تدمر هو المحالُ بعينه، أو ربّما

يتعدّاه بأشواط، وقد بات على وشك الحصول، وكل ما يليه تفاصيلُ غير ذاتِ بال.

مرَّت الليلةُ ببطءٍ شديد، فجميعنا متلهّفٌ لتلك الدقائق التي سنخرج فيها من بوابة سجن تدمر. وما إن أقبل الصباح وأَعلنتْ أصواتُ القدور المعدنية وسياراتُ (الزيل) وصولَ الطعام، حتى اشتعل المهجعُ بحركةٍ هي أقربُ ما تكون لحركةِ خلية النَّحل حين تهمُّ بالانقسام. أدخلوا لنا طعام الإفطار، وطلبوا أن نعجِّل فيه، وما هي إلّا دقائق حتّى كنّا نخرج من المهجع في رتلٍ أحاديٍّ، تُقيَّد أيدينا إلى الخلف، وتُمرَّر سلسلة فولاذية طويلة في حلقات القيد لتجعلنا جميعاً مقيّدين في سلسلةٍ واحدة، وكانت سيارات الزيل المصفّحة تنتظرنا، فصعدناها بعد أن عصبوا أعيننا بتلك العصابة السوداء.

سارت بنا القافلة دون توقّفٍ زهاءَ خمس ساعاتٍ أو تزيد قليلاً، لم نتلقَّ خلالها أدنى أمرٍ أو ملاحظة، ما عدا بعض السباب والشتم من الحرّاس المرافقين.

استطعنا بفعل طول الطريق أن نكشف جزءاً من عصابات العينين، وبدأنا نجتلي دربَنا، ونتمتّع بروعة الأشياء العادية التي احتجبتْ عنّا سنين طويلة. كان بعضُنا يستطيع تمييز البلدات التي كنّا نعبرها، أو نعبر بمحيطها. وحين جاوزنا بلدة (القريتين) بدا للمتابعين منّا أنَّ الوجهة قريبةٌ من دمشق، وبعدها بساعتين مررنا بمدينة (عدرا)، ثم انعطف الطريق بنا نحو (صيدنايا)، وهناك كان القصْد.

توقفت الشّاحنات قُبيل العصر في حيِّزٍ ظليل، أحسسنا ببرودته وبغياب ضوء الشمس عنه، وبرائحة الرطوبة التي تنبعث من الأبنية الحديثة. سمعنا الحديثَ الذي يدور بين الحرّاس المرافقين لنا، وبين عناصر الشرطة العسكرية، الذين استطعنا تمييزهم من قبَّعاتهم الحمْر؛ لقد تبين من حديثهم أننا الآن في عهدة (سجن صيدنايا العسكري)، الذي سيكون عالَمنا لسنوات أخرى.

بخروجنا من سجن تدمر، ستُطوى صفحةٌ مريرةٌ من صفحات حياتنا. ربّما من الخطأ أن نعدَّ حياتنا في سجن تدمر حياةً أصلاً، ربما من الأصحّ أن نعتبر خروجنا من تدمر عَوْداً حميداً إلى الحياة، حتى لو لم يتعدَّ الأمرُ انتقالاً إلى سجنٍ مختلف.

ستكون حياتنا في هذا السجن الجديد فصلاً مختلفاً كلَّ الاختلاف عن الفصل السّابق، وسيكون للحديث عنه شجونٌ وشجون..

وهذا حديثٌ شرحُه يطول.

* * *

نسخة من مجلة (النذير): العدد الذي كان سبب الاعتقال

بسم الله الرحمن الرحيم

انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله.

النذير

نشرة إخبارية تصدر عن المجاهدين في سورية

الله أكبر

وأعدوا

دمشق

العدد الخامس عشر ـ الاثنين ٢٢ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ ٧ نيسان (ابريل) ١٩٨٠

المحتويات

ويسألوننا: لماذا نحارب التتار!

مجزرة جسر الشغور

إضراب عام اليوم واحد.

بيان من علماء حلب

محاكمات سرية جديدة

غضبة جامعة حلب

مسلمو العالم يتضامنون مع شعب سورية

بيان من الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين

لبيك يا جسر الشغور

افتتاحية

ويسألوننا: لماذا نحارب التتار!

يتعجب بائع الجولان وخائن الامة حافظ أسد كيف نحاربه ونحارب زمرته المرتدة؟!!

ليتذكر الخائن ان المجاهدين لم يرفعوا السلاح الا بعد ان سار الطاغية في طريق استئصال الاسلام، والا بعد ان استلمنا جثث اخواننا الذين ماتوا تحت التعذيب، وهو يعلم ذلك كله بالتأكيد، لكن ليعلم الناس - كل الناس - نوعية النظام الذي نحاربه، وقد يكون مناسبا ان نعرض عليهم بعض جرائمه الدموية:

من جرائمه المبكرة قتل الشهيدين حسن عصفور ومروان حديد تحت التعذيب، وخزوان طواني وحسن خرّام على باب دارهما وامام ذويهما.

ومن جرائمه الاخيرة تسليم جثمان الأخ الشهيد سعيد أبو شهاب لأهله في دمشق بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٨٠ وقد بقرت بطنه تحت التعذيب ووضعت يده فيها.

وفي حوادث الاضراب العام بحماه جرحت الوحدات الخاصة الكثير من المواطنين الآمنين وقتلت الكثير، دخلت بيتا كان فيه أربعة اخوة وصهرهم، فرشوهم جميعا بلا ذنب فعلوه ولا مقاومة أبدوها، وفي هذه الحوادث المؤسفة اصيبت امرأة، واخذ جرحها ينزف، وبادرت الشرطة باسعافها فتدخلت الوحدات الخاصة وحالت دون ذلك، ولما اصرت الشرطة، تقدم واحد من جند التتار واجهز عليها.

هذا في حماة: أما في حلب وادلب وجسر الشغور فقد وقعت فظائع لايحيط بها وصف ولا مثيل لها الا في قبة ودير ياسين ومجازر جنكيزخان وتيمورلنك ونيرون وسوزا.

كم من أخ لنا قتلوه تحت التعذيب؟ كم مال سلبوه؟ كم من كرامة انتهكوها؟ ثم - بعد ذلك - يسألنا بعضهم، لماذا نحارب التتار؟

هل كان أحد يستطيع أن يرفع رأسه، أو يقول كلمة حق؟

هل بقيت لضابط سوري مسلم كرامة؟

هل أبقى المجرمون لمواطن حرمة؟

ذلك بعض مافعل التتار، ولذلك سنحاربهم وسنحاربهم - باذن الله - حتى تقوم دولة الحرية والكرامة والمساواة الانسانية، دولة الاسلام.

قال الله تعالى: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم . ويتوب الله على من يشاء . والله عليم حكيم) .

أخبار المحافظات

دمشق

- الاثنين ٨ جمادى الاولى ، ٢٤ / ٣ قام المجاهدون بمحاولة اغتيال (شفيق فياض) قائد الفرقة الثالثة ، فأصيب بثلاث طلقات ، احداها في رأسه ، ونقل الى المستشفى لاسعافه . وقد ابيدت فرقة الحماية التي كانت معه ، وتعدادها / ٣٠ / عنصرا .
وكان المجرم المذكور قد صرح في حلب ـ عندما قدم مع قواته ، انه سيدمر حلب خلال ثلاث ساعات .
- تم تزويد عدد من زبانية السلطة المسؤولين بأجهزة انذار ، تعطي اشارة ، اذا ما دخل انسان يحمل سلاحا ، كما زودوا بمسجلات صغيرة الحجم .
- اعتقل العميد اسعد غنيم ، وهو من بلدة عزازه لاتهامه بتزعم القيام بمحاولة انقلاب على نظام أسد .
- أبلغت سلطات اسد منظمات المقاومة الفلسطينية انها لن تسمح لأي فدائي بدخول اراضيها بهوية المقاومة . وكانت منظمة (فتح) قد تلقت رسالة من النظام المتخبط ، تفيد بأن عددا من المجاهدين قد تم تدريبهم في مخيمات تدريب فلسطينية .

- الشرع استقبل السفير الاميركي
- دمشق ـ و ص ف ـ استقبل امس فاروق الشرع (وزير الدولة السوري للشؤون الخارجية) سفير الولايات المتحدة في دمشق " تالكوت سيلي " ، وتبادل وإياه "احاديث ودية" على حد تعبير الوكالة العربية السورية للانباء " سانا " الرسمية التي لم توضح ما دار في اللقاء .
وكان السفير الاميركي التقى في مطلع شباط (فبراير) الماضي ناصر قدور نائب وزير الخارجية السورية ، وعرض معه الوضع في المنطقة .

(النهار) اللبنانية ٢٦ / ٣ / ١٩٨٠

حمص

- الاثنين ١٥ جمادى الاولى ، ٣١ / ٣ انفجرت عبوة ناسفة في مقر جريدة (العروبة) الرسمية
- وفي اليوم المذكور تم تفجير محل تجاري لأحد التجار من اعوان السلطة الباغية .

حَماة

- اضافة الى الأسماء التي وردت في عددنا الماضي ، لشهداء الاضراب العام وجرحاه ، استشهد كل من : فايز مخللاتي — منذر نجار (٢٩ سنة ، حارة الحوارنة) — زهير صمودي (٢٨ سنة ، حوارنة) — ، كما جرح كل من : حسن الشامي (باب الجسر) ، تامر اوضه باشي — خالد دريك — محمد الزين — حسن عجمو — محمد علي رحمون (حوارنة) — مروان معطي (حوارنة) .
- ٢٣ ربيع الثاني ، ١٠/ ٣ وجهت (جمعية العلماء) مذكرة للمسؤولين ، تتضمن مطالبهم التي تعبر عن رغبات الشعب بأسره ، وهي التي يمليها الواجب العام : جعل دين الدولة الاسلام ، ومنح الحرية الدينية للشعب والجيش ، واعادة المدارس الشرعية المغلقة ، والاهتمام بها وبمادة التربية الاسلامية في المدارس ، ومنع الاختلاط في الجامعة والمدارس والوظائف . كما طالبت المذكرة بالغاء الأحكام العرفية ، والافراج عن المعتقلين ، وكف البحث عن الملاحقين ، وحصر المحاكمات بالمحاكم المدنية ، واعادة الاساتذة والمدرسين الى التدريس ، وعدم التحيز في القبول لدور المعلمين والمعلمات والكليات العسكرية والسابقات والبعثات ، وطلبت المذكرة منع دخول الجيش الى المدن لان ذلك يحرفه عن واجبه الاساسي ويشكل استفزازا للشعب ، ونظرا للتصرفات الشاذة التي يحمل على القيام بها . وقد وقع المذكرة عشرات الاساتذة من اهل العلم .
- السبت ٦ جمادى الاولى ، ٢٢ / ٣ في مسجد السلطان أعلن شخصان توبتهما وانسحابهما من الحزب الفاسد .
- الاربعاء ١٠ جمادى الاولى ٢٦ / ٣ الساعة الثانية والنصف صباحا ، نفذ احد المجاهدين حكم الله في المساعد الاول في المخابرات عبدالله الدرويش ، من قرية)(اللطامنة) فأرداه قتيلا ، وذلك في حي (المحطة) .
- الاثنين ١٦ جمادى الاولى ، ١/ ٤ نفذ المجاهدون حكم الله بالمجرم خالد حداد مدير الاوقاف ، وكان المجاهدون قد ارسلوا عدة انذارات له للحفاظ على اموال الاوقاف ، وعدم السير مع رغبات الحزب والمخابرات ، والا فان عليه الاستقالة ، فلم يستجب . وفي اليوم نفسه ايضا نفذ المجاهدون حكم الله في مخبر عميل من بيت (البرازي) .
- أثناء الاضراب العام برزت مشاركة الريف للمدينة ، وتعاطفه معها ، فكانت النساء في القرى تقوم بتصنيع الخبز ، ونقله الى المساجد التي اصبحت مراكز تموينية ، ينقل منها الخبز والبرغل والمواد التموينية ، بالسيارات الى المدينة ، وقد رفض الاخوة الفلاحون أخذ أي مبلغ لقاء ذلك .

- ٣ -

سهل الغاب

- الخميس ١٩ ربيع الثاني ، ٦ / ٣ مساء وقع هجوم على قرية (الرصيف) المرشدية ، فقتل مختار القرية ، و / ١ / من رجالها ، وجرح / ٢ / منها ، كما هوجمت قرية (عين سلمو) في المنطقة نفسها ، وقتل / ٢ / ، وعلى اثر ذلك قام المرشديون بوضع الحواجز على الطريق العام ، ومنعوا المسلمين من دخول قريتهم ، وهددوا بغزو قرى المسلمين .
- الاحد ٢٢ ربيع الثاني ، ٩ / ٣ بعد صلاة المغرب .. مشاركة في الاضراب ، واستنكارا للمذابح التي ارتكبتها السلطة في عدة مدن قريبة ، قام اهالي (قلعة المضيق) بمظاهرة كبيرة ، تهتف (لا اله الا الله ، والحزب عدو الله) ، وهاجمت مراكز السلطة ، واحرقتها كما هاجمت بيت مدير الناحية — وهو من اعوان السلطة — الذي هرب مع عائلته . كما تظاهر في اليوم نفسه اهالي قرية (التوينة) ضد الحكم الطائفي المتسلط .
- الاثنين ٢٣ ربيع الثاني ، ١٠ / ٣ نزل الجيش في منطقة (الرصيف) ، وجمع المجرم علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة المختارين وبعض المتنفذين من اهالي المنطقة في (السقيلبية) ، وخطب فيهم زاعما انهم — اي رجال السلطة — اقوياء ، وسيبيدون كل من يخالفهم .
- الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ، ١١ / ٣ قام شباب قرية (حيالين) بمظاهرة ضد السلطة ، تضامنا مع اهل (حماة) وقلعة المضيق ، واقاموا الحواجز ردا على حواجز أهل (الرصيف) ، فأطلق زبانية المخابرات النار في الهواء ، ولكن رجال (حيالين) العزل تقدموا ، وطردوا المخابرات من القرية .
- الخميس ٢٦ ربيع الثاني ، ١٣ / ٣ الساعة العاشرة والنصف ، دخلت القوات الخاصة (قلعة المضيق) بأعداد كثيفة ، وبدأوا باطلاق النار ، لارهاب الاهالي ، وتخويفهم ، وتحت هذا الستار من النيران قامت المخابرات باعتقال عشرات الشباب من قلعة المضيق والقرى المجاورة لها ، بلغ عددهم اكثر من / ٥٠ / مواطنا على رأسهم أئمة بعض القرى وحجزوا في (المركز الثقافي) في (السقيلبية) ، وبعد ساعة بدأ التحقيق بوحشية فيما اطلقوا عليه (محكمة ميدانية) ، التي شكلها المقيد المجرم (ديب ضاهر) ، وبعد يوم من التعذيب والاهانة .. أفرج عن بعض الأئمة ، ثم غادر المجرم (ضاهر) المنطقة ، وأوكل الى المخابرات متابعة التحقيق والتعذيب لبقية المعتقلين البالغ عددهم / ١٤ / مواطنا من (قلعة المضيق) ، وملاحقة الآخرين الذين تحرك الايمان في قلوبهم ، وتظاهروا ضد السلطة الظالمة .
- الثلاثاء ٢ جمادى الاولى ، ١٨ / ٣ حضر محافظ (حماة) وبعض الحزبيين واللجنة الأمنية ، الى (قلعة المضيق) ، واجتمعوا مع بعض الاهالي ، ووعدوا باطلاق سراح السجناء اذا ذهب اهل القرية لتعزية اهل قرية (الرصيف) بقتلى يوم الخميس ٦ / ٣ ، فذهب عدد من اهل القرية ، لكن اهل (الرصيف) .... طردوهم من قريتهم ، وشتموا دينهم وربهم ونبيهم ، تحت سمع المحافظ وبصره ، فرجعوا بلا تعزية .

— ٤ —

- وفي اليوم نفسه طلب المحافظ من مدير المنطقة ان يوفر اهل الرصيف على الاعتذار من اهالي (قلعة المضيق) . الا ان النار تحت الرماد لدى الشعب المسلم الصابر الذي لن يترك المجرمين بلا حساب .
- ليلة الاحد ٧ جمادى الاولى ، ٢٣ / ٣ هاجمت عناصر من اذناب السلطة (عند (عقبة الجرادة) - على طريق مصياف ، حماة - سيارتي نقل ، هربت احداهما ، وتوقفت الاخرى ، وصاحبها مواطن نصراني من قرية (كفريهم) ، فأطلقوا عليه النار ، ثم ذبحوه ذبحا .

إدلب

- الاثنين ١٦ ربيع الثاني ، ٢ / ٣ هاجم المجاهدون نقطة عسكرية للوحدات الخاصة في (معرة النعمان) ، وأبادوا / ٧ / منهم ، بينهم نقيب من اعوان السلطة .
- اصطدمت مجموعة من المجاهدين بدورية من الحزبيين عند مدخل (حارم) ، واشتبكوا معها ، وقتلوا عددا من افرادها . استشهد اخ ، وجرح آخر تمكن من الانسحاب .
- الاربعاء ١٨ ربيع الثاني ، ٥ / ٣ نصب المجاهدون كمينا لسيارة مخابرات عسكرية على طريق (ادلب - اريحا) ، وقتلوا رقيبا وعنصرا .

وفي اليوم نفسه نصبوا كمينا آخر في قرية (تل لاتة) لسيارة تقل مدير المنطقة وثلاثة حزبيين ، فأوقعوا فيهم اصابات .

كما هاجم المجاهدون عند قرية (محمبل) سيارة مخابرات ، فأصيب العقيد الذي كان راكبا فيها .
- خلال فترة الاضراب العام .. قامت لجنة مؤلفة من ، يوسف مرزوق (مدير تربية ادلب) ، شكيب علم (عضو قيادة الحزب في ادلب) ، ونائلة كنيته (كدرو) من (احسم) ، قامت اللجنة بزيارة اريحا وقراها ، واخذوا يطوفون على المدارس لتهدئة الاوضاع ، وفي قرية (كنصفرة) في (جبل الزاوية) استقبلهم المواطنون بالحصى ، فأطلقوا النار على الاهالي العزل ، واستشهد على الفور ثلاثة ، طفل عمره / ١٠ / سنوات ، وشيخ في الخمسين وامرأة كانت تقف بعيدا في اطراف القرية ، كما جرحوا / ١٢ / آخرين .
- أطلق احد الحزبيين في (معرة مصرين) رصاصتين - وهو سكران - فهب (رفاقه) من كل حدب ، وأخذوا يطلقون النار عشوائيا ، وبعد ان تبين لهم حقيقة الامر ، انكفأوا الى جحورهم بعد ان ارهبوا المواطنين .
- على أثر حوادث (معرة النعمان) استيقظ الناس في بلدة (كفرنبل) ، على ألسنة النار المشتعلة في مركز الحزب ، ثم قامت مظاهرة جابت شوارع البلدة تهتف بسقوط أسد وحزبه وامتدت المظاهرة الى المدارس ، ولم يجرؤ احد من الحزبيين او الشرطة على صد المتظاهرين وانتهت المظاهرة بالتعبير عن سخط الجماهير المسلمة على الحكم الفاسد وأضربت البلدة اسبوعا

حلب

- الثلاثاء ٢ جمادى الاولى ، ١٨ / ٣ مساء ، نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله في المخبر العميل (صبر جاموس) مختار حي (الكلاسة) .
- الجمعة ٥ جمادى الاولى ، ٢١ / ٣ ، نفذ المجاهدون في الساعة الواحدة والنصف حكم الله في المخبر العميل (صبرا ابو شعر) ، وذلك في محلة (باب النصر) .

والجدير بالذكر ان هذين العميلين كانا يقدمان المعلومات عن المجاهدين ، وعن المسلمين المتعاطفين معهم الى اجهزة القمع الطائفية ، فلقيا جزاءهما العادل في الدنيا ، ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون .

- الاحد ٧ جمادى الاولى ، ٢٢ / ٣ في الساعة الرابعة والنصف عصرا ، حاول ستة من الحزبيين القاء القبض على احد الاخوة المجاهدين في محلة (باب قنسرين) ، فتمكن الأخ من الافلات منهم ، واستطاع – بمعاونة اخ آخر كان قريبا منه – قتل ثلاثة منهم ، أب وابنه من آل هنجريني (صاحب فرن في المحلة المذكورة) ، والثالث من آل شحرور ، كما جرح رابع ، وهرب الاخيران . وانسحب المجاهدان بفضل الله سالمين ، وقد فرح اهل الحي بمقتل الثلاثة ، لانهم جميعهم من الاوباش .
- الاربعاء ١٠ جمادى الاولى ، ٢٦ / ٣ في الساعة السادسة والنصف صباحا ، نفذ المجاهدون حكم الله بـ / ٦ / مساعدين من ضباط السلطة ، وذلك في حي الخالدية (العمران) عند نهاية (شارع النيل) ، حينما كانوا ينتظرون (الباص) الذي ينقلهم الى ثكنتهم ، وانسحب المجاهدون سالمين بفضل الله .
- الخميس ١١ جمادى الاولى ، ٢٧ / ٣ في الساعة السابعة والنصف صباحا نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله في العميل (ابو فيصل البطرشي) ، مختار حي (الصاخور) ، وقد ثبت ان المجرم المذكور هو الذي دلّ على مكان وجود الاخوة الثمانية الذين استشهدوا بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ ، ١٨ / ٢ / ١٩٨٠ . فلقي جزاءه في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .
- الجمعة ١٢ جمادى الاولى ، ٢٨ / ٣ نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله بالمخبر العميل (محمد جنيد) الذي يتزيى بزي العلماء ، ويتجسس عليهم ، وعلى المسلمين ، وذلك في حي (باب النيرب) .
- الاحد ١٤ جمادى الاولى ٣٠ / ٣ ظهرا ، نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله في دورية محمولة للوحدات الخاصة ، وذلك في شارع (السبع بحرات) ، وابادتها ، وعاد المجاهدون بفضل الله سالمين .
- الثلاثاء ١٦ جمادى الاولى ، ١ / ٤ نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله في اربعة ضباط من زمرة الاسد ، عندما كانوا قادمين الى حلب ، وذلك عند قرية (خان السبل) .

وفي الساعة الخامسة والنصف مساء نفذت مجموعة من المجاهدين حكم الله في المخبر العميل (عبد الرحمن الزين) ، وذلك امام حمام (سوق القطن) مقابل جامع (العادلية) حيث

— ٦ —

يعمل ، وهو معروف بانه ملحد يتعامل مع المخابرات ، ويتجسس على ابناء الشعب .

- الاربعاء ١٢ جمادى الاولى ١٤٠٢ قامت مجموعة من المجاهدين بتنفيذ حكم الله بالمخبر العميل (جاد الله ابو الدار) الذى يتزيى بزى العلماء ، ويصلي اماما في جامع (الاصفر) في حي (الجلوم) ، في الوقت الذى يتعامل فيه مع اجهزة المخابرات ، ويتجسس على أبناء الحي ، وهو يحمل معه مسدسا بشكل دائم .

وفي الساعة ٢٥ و٦ مساء هاجمت مجموعة من المجاهدين سيارة مخابرات في شارع (السجن) قرب (السبع بحرات) ، تقل عددا من الضباط ، فأبادتهم جميعا ، وانسحب المجاهدون الى قاعدتهم سالمين بفضل الله .

كما قام المجاهدون مساء اليوم نفسه ، بتدمير عدة دوريات آلية للمخابرات والوحدات الخاصة في انحاء متفرقة من المدينة ، ونفذوا حكم الله في افرادها ، ثم انسحبوا سالمين بعون الله .

- تبين ان عدنان رام حمداني - الرئيس السابق لفرع المخابرات العسكرية بحلب - لم يمت لكنه ما زال يعالج من اصابته ، وقد علمنا ان اطلاق النار عليه تم عمدا على يد الوحدات الخاصة . وكان الحمداني اختلف مع حسين بطاح - محافظ حلب السابق - قبل ستة ايام من اطلاق النار عليه حول اعتقال احد المحامين . وقد رفض الحمداني العودة الى عمله بعد الحادث ، فعين خلفا له المجرم المقدم (مصطفى التاجر) ، وهو من منطقة (مزاز) ، تاريخه قذر ، فهو الذى تسبب باعدام / ٤٠ / ضابطا ، وسجن وتسريح مالا يقل عن / ٢٠٠ / ضابط ، عندما وشى بمحاولة انقلابية على نظام اسد عام ١٩٧٢ . معروف بحقده ، واجرامه ، ومكروه من زملائه ، كان في فرع فلسطين للمخابرات بدمشق . جمل من أتاريه وسطاء مع قريب اسد ، عدنان مخلوف ، وهو يدربهم على اساليب الغش والسلب والنهب وعن طريقه - اى التاجر - تتم صفقات التهريب والسمسرة والمعاملات غير القانونية في دوائر الدولة لقاء عمولة متفق عليها سابقا .

- توضيحا للخبر المنشور في عددنا الماضي ، فقد لقي المجرم الخائن عبد الجبار شبحان - عضو قيادة فرع الحزب - مصرعه بتاريخ ١٦ / ٣ على اثر اصابته في رأسه قبل عدة ايام نتيجة هجوم قامت به مجموعة من المجاهدين ، وكان المجرم المذكور - وهو قريب المجاهد النقيب ابراهيم اليوسف - قد تسبب بعمالته وخيانته في الحاق الاذى بكثيرين من عائلة واقرباء النقيب المجاهد ، فلقي الخائن جزاءه في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

ديرالزور

- اعتقل الرائد (عبدالله مبني) مسؤول فرع المخابرات ، وهو رهن التحقيق بتهمة تعاونه مع الاخوان المسلمين !! .. علما بانه نصراني .
- تبين ان الانفجار الذى وقع يوم ٨ / ٣ قام به عناصر من مخابرات (امن الدولة) في

الليلة نفسها ، بينما كان المواطنان عمر وعلي - ابنا عبد اللطيف الفرحان - يركبان دراجة نارية في الشارع العام ، حين مرت دورية مخابرات ، وارادت اعتقالهما ، فلم ينتبها ، فأطلقت عليهما النار، ونقلا فوراً الى دمشق للمعالجة ، وقد اثار هذا التصرف الارعن سخط الاهالي وغضبهم .

- ما يزال / ٢٢ / طالبا من ابناء الدير يعالجون بدمشق ، بعد اصابتهم برصاص المخابرات اثناء المظاهرات التي جرت خلال الاضراب العام ، وكان (طه الخابر) عضو قيادة الحزب هو الذي أمر باطلاق النار على المتظاهرين .

القامشلي

- في احدى ليالي النصف الاول من شهر آذار (مارس) الماضي نهض مؤذن جامع (زين العابدين) في القامشلي ، من نومه بعد منتصف الليل ، وكانت الساعة تشير الى الثانية عشرة والثلث ، لكنه ظنها تشير الى الرابعة صباحا ، فسارع الى المسجد ، وأذن لصلاة الفجر . على أثر ذلك استنفرت قوات الأمن والمخابرات بالمدينة ، وتوجهوا مذعورين الى الجامع المذكور ، ظنا منهم ان المؤذن - بأذانه هذا - يدعو الناس الى الثورة ، ويحضهم عليها ، فاعتقلوه للتحقيق معه ، ومكث لديهم يومين ..

تعليق : (يحسبون كل صيحة عليهم) .

وَلا تَحسَبنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يعمل الظالمون

مجزرة جسر الشغور ،

أمجزرة جسر الشغور لم

لماذا نقول مجزرة ؟ ... لأنها فعلا كذلك .

حوامات ومدفعية وصواريخ ، من على التلال ، تقذف حممها على البلدة الرابضة في وادي العاصي تخرب البيوت ، تحرق الاسواق ، تقتل كل انسان ، طفلا كان أم امرأة أم شيخا ، او رجالا سلاحهم مسدسات وبنادق غنموها من مقر (الحزب) و (مخفر الشرطة) لكن سلاحهم الامضى ايمان بالله يستعذبون به الشهادة .

نعم ، انها مجزرة . انطلق الحقد الاعمى يحصد كل من تبدو عليه ملامح الايمان . أدوات الحرب الحديثة التي دفع شعبنا ثمنها من كده ، ومن عرقه ، لتكون سلاحا ضد العدو اليهودي ... وجهها اسد الغدر والخسة الى الجسر ، المدينة التي سيسطرها التاريخ بلدا مجاهدا ، وتلعن الاجيال (أسد) نيرونا جديدا .

معركة الســـوق

بعد المظاهرات والصدامات التي شهدتها جسر الشغور قبل ظهر الاثنين ٢٣ ربيع الثاني ، ١٠ / ٣ / ٩٨٠ والتي ذكرناها في عددنا الماضي بدأت تصل بعد الظهر نجدات السلطة من الحزبيين والمخابرات والوحدات الخاصة / ١٦ / طائرة حوامة ، وانزلتها في عدة اماكن منها ، معمل سكر الغاب ـ المحلة الشمالية الجهة ، حيث سلطت المدافع على المدينة ، وكان الصدام الاول مع اهل المحلة الشمالية ، فقتل من الوحدات الخاصة / ١٦ / عنصرا ومع حلول الظلام توجهت قوة من الوحدات الخاصة ، تقدر بـ / ١٠٠٠ / عنصر ، بمساعدة المخابرات ، الى منطقة السوق لاحتلالها ، نظرا لوجود مكتب (الحزب) وفرع المخابرات ومقر (الجيش الشعبي) بها ، ولتمركز المقاومة الشعبية فيها ، فوقعت معركة عنيفة استمرت طوال الليل ، أقدمت خلالها قوات البغي على قصف المنازل ، وهدمها فوق ساكنيها ، مستخدمة قذائف (آر . بي . جي) فهدمت واحرقت / ١٥ / منزلا ، كما احرقت حوالي / ٤٠ / دكانا بالقذائف الفسفورية الحارقة ، وامتلأت الطرقات بجثث القتلى والضحايا .

اعتقالات جماعية عشوائية

قام ازلام الإجرام بحملة اعتقالات جماعية عشوائية ، بتوجيه المحافظ المجرم توفيق صالحة (عضو العصابة القطرية) وغيره من الحاقدين الذين خولهم (فرعونهم) مطلق الصلاحيات حتى لو هدموا المدينة على اهلها . وقد فعلوا .

محكمــة ميـدانيــة ؟ .

ونصب المجرمون ما أطلقوا عليه اسم (محكمة ميدانية) لتسوغ لهم قتل كل من قتلوه أو اعتقلوه . واتخذت من مكتب البريد مركزا لها ، فكان حمام دم جديد شارك فيه المجرمون ، علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة) وتوفيق صالحة ، وعادل الدين ناصر (وزير الداخلية)

ومحمد وحجو (رئيس فرع الحزب بادلب) ومحمد أنيس (رئيس شعبة الحزب بالجسر) .
فكان يساق كل ذي لحية يشتبه بأنه مؤمن ، بالركل والجلد بأسلاك معدنية ، وبالضرب على الرؤوس بأخمص البندقية . لمن نجا منهم من ذلك كله ، ووصل الى (وكر) المحكمة .... يحقق معه بالوسائل نفسها ، مضافا اليها الدعس بالاقدام ، وضرب الرأس بالجدران ، ثم يقال لهم : (اذهبوا ماعليكم شيء) ، حتى اذا خرجوا الى الشارع أطلقوا عليهم النار غيلة وغدرا ، فلم يوفروا شخصا اعتقلوه ، الا قتلوه .

جمع السلاح والغدر بمسلّميه

تحت التهديد بتدمير المدينة كلها ، شكل جلاوزة النظام لجانا لاسترجاع الاسلحة التي استولى عليها الشعب خلال المظاهرات ، وكشف بعض المنافقين عن خستهم باعطاء أسماء للسلطة الباغية ، التي ألزمت كل من ورد اسمه بأن يسلّم بندقية بأي شكل كان ، مع الوعد بالعفو عنه ان فعل . لكن الوفاء بالعهود من شيم المؤمنين ، وليس من شيم الزنادقة والمرتدين ، فالذين استجابوا للخدعة ، هوجمت بيوتهم ، وأحرقت .

فلا عطاء ولا ورود

ظلت المدينة الصابرة تعيش تحت القصف والقمع ومنع التجول ثلاثة أيام بلياليها ، مما دفع الكثير من العائلات التي ليس لها صلة قرابة أو معرفة بعناصر حزبية أو من المخابرات .... الى أن تهاجر الى خارج المدينة ، حيث شوهدت أسر كاملة تنام بين الاشجار تحت المطر .

مشاهد من المجزرة

واذا كنا لا نستطيع تتبع كل ما جرى في البلدة الباسلة ، فلا بد من أن نورد بعضا من الجرائم التي اقترفها زبانية الطاغوت :

- تمركزت عناصر المخابرات أمام عيادات الاطباء في الجسر ، وصارت تطلق النار على كل من تصادفه أمام العيادة ، فمات كل الجرحى . ومن كانت اصابته غير مميتة أجهز المجرمون عليه .
- سقط عشرات القتلى ، وشوهد التمثيل بجثثهم . من بينها ، طفل عمره ستة أشهر شق جسمه نصفين أمام والدته التي ماتت لفورها .
- طفل صغير أريد قتله في بيته ، فارتمت امه فوقه لتحميه ، فقتلوها بالرصاص .
- أحضروا الشيخ (نور الدين الخطيب) ، وأجبروه على استدعاء زملائه أئمة المساجد ، السادة عبد الكريم النايف ، عبد الرحيم منصور ، محمد منصور ، يحيى تلجو ، والشاعر يحيى الحاج يحيى . وحين يخرج كل منهم من بيته ، يعمد الزبانية الى افراغ البيت من اهله ، ويقدمون على حرقه .
- من جملة المحلات التي أحرقت مكتبة لصاحبها عبد الباسط حلّي ، وهي مكتبة اسلامية حافلة بالمصاحف الشريفة وكتب التفسير والحديث الشريف والعلوم الشرعية ، وبعد أن أصبحت المكتبة رمادا ، جاءت سيارة الاطفاء لاستكمال المسرحية .
- أحرق دكان المرحوم سليم الحامض بعد استشهاده بيومين ، وبعد تعهد المحافظ بوقف الاعمال الانتقامية ..
- في اليوم الثالث للمأساة (الاربعاء) أحضر عدد من أهل الجسر للاجتماع في (البلدية)

فخاطب لهم المجرم توفيق صالحة ، وهو يرغي ويزبد ، ويهدد ويتوعد ، ويوزع الاتهامات يمينا وشمالا ، بينما كانت فوهات البنادق موجهة الى صدور المواطنين تحت امرة احد ضباط الوحدات الخاصة المرتد (هاشم مخلا) ، ثم أمر الناس بالانصراف ماعدا (لجنة المدينة) للمناقشة . قال أحد المواطنين لتوفيق صالحة ، انتم طلبتم من ابني بارودة روسية مع العلم انه كان في محل السكر عندما قامت الثورة .. فزمجر المجرم صالحة ، وقال ، أي ثورة هاي ، ولاك هاي ماهي ثورة . قال له مواطن آخر ، انا اسمي موريس شحود .. موريس يعني انا مسيحي . لاني اخوان مسلمين ولا شي ... شو ذنبي لتحرقوا لي دكاني ؛ والله .. عمال يحيرشه اربع عيلات . عندكم امرين ، اما ان تأخذوا هالعيال وتنفقوا عليهم او تردون لي دكاني . فكان جواب المجرم ، اى بروك ..

- وصلت سيارتان مدججتان بعناصر حزبية للنجدة ، فأطلقت الوحدات الخاصة النار عليهما خطأ .
- فتشت القرى المحيطة بالجسر ، مثل قرية الحامة (كفرديين) التي حاصرتها الوحدات الخاصة ، وفتشتها ، وسرقت كل غال وقعت عليه ثم جمعت اهل القرية ، وفرزت اصحاب اللحى ، وأحرقت لحاهم ، واعتقلت آخرين ، لم يعرف مصيرهم حتى الآن .
- قبل ان تقوم عناصر الوحدات الخاصة بتدمير المحلات واحراقها .. أحضرت سيارات شاحنة نهبت المحلات المذكورة امام مرأى ومسمع من اهالي الجسر .

مواقف ايمانية

من خلال ذلك الظلم والظلام ، كان الايمان يتفجر في بعض القلوب حمية للاسلام والمسلمين .

- حاول المجرم محمد انيس حمل الناس على فتح محلاتهم مقابل وعود معسولة بحل مشكلاتهم والاستجابة لمطاليبهم ، وفي احد اجتماعاته بالمواطنين سألهم عن سبب اضرابهم ، أجابوه بمطاليبهم العادلة . ومن الاجوبة الصريحة القوية ما قاله الشهيد عبدالحكيم حلّي ، " لـم نغلق محلاتنا من اجل قوانين التموين الجائرة ، ولا غياب الديموقراطية ، ولا خراب الطرقات وحسب . بل اننا نطالب بحرية الاسلام وسقوط السلطة . "
- قناص مسلم متمركز في اعلى مئذنة لأحد المساجد .. أصاب طائرة حوامة ، فاختل توازنها وهبطت ، فنزل منها احد عناصرها ، وأخذ يصطاد النازلين بعده ، واحدا واحدا ، حتى نزفت ذخيرته ، ثم لاذ بالفرار .
- قتل احد عناصر الوحدات الخاصة قائده ، المرتد ـ وهو برتبة نقيب ـ لأنه أمره بقصف المدينة بالقنابل .
- حاول احد الجنود اطلاق النار على امرأة واولادها ، فتصدى له جندي مسلم ، وهدده بالقتل ان فعل .
- أحد افراد الوحدات الخاصة المهاجمة للجسر .. قتل سبعة من زملائه ، ثم قتل نفسه .

حصاد المجزرة

وكان حصاد ذلك كله أكثر من مئتين شهيدا ، بينهم نساء واطفال ، وعشيرة جرحى ، وما لايقل عن مئة معتقل . وقتلى السلطة الباغية : خمسة من المخابرات واربعة من حزبي سلقين ، وحوالي خمسين من الوحدات الخاصة .

اعترف المجرم علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة) بأن وحداته لم تلق في لبنان من المقاومة ما لاقته في جسر الشغور ، وكذلك لم تتكبد هناك بمثل الخسائر التي تكبدتها في بلدة الجسر .

من المنازل التي أحرقت : ذكرنا في سياق الاحداث اسماء بعض الذين احرقت منازلهم ، ونضيف اليهم منازل كل من : منزل الشهيد خالد شحود ، الشهيد ابو زيد الاهدلي ، ابو يعرب شعار .

بعض المحلات التي احرقت ودمرت : وهي عائدة لكل من : الشهيد سليم الحامض (بيع احذية) — نبيل تجاري (بيت الرياضة) — حسن شمسي (القشة) — عبد الباسط حلبي (مكتبة) — نبيل زوين (أوائل منزلية) — عبد الرحيم المصري (خردوات) — عبد الحليم حلي (سجاد وخيش) — ابو عبد الكريم حلوى (سمانة) — موريس شحود (جملة) — ابو يعرب شعار (سمانة) — بيت عبادي (سمانة) — مستودعات بيت المصري .

الشهداء

من الشهداء الابرار الذين لم نذكر اسماءهم في العدد الماضي :

انور كلمصر : طالب ثانوي ، عمره / ٢٠ / سنة . استشهد في المعركة .

سليم الحامض : بائع الاحذية ، ٣٥ سنة .

خالد شحود : بائع حلويات ، ٤٥ سنة . استشهد بعد اعتقاله والتحقيق معه .

محمود شمسي : سنة اخيرة علوم ، ٢٧ سنة . استشهد بعد اعتقاله ، وشوه جثمانه .

عبد الله حجازي : بائع خضار ، ٤٠ سنة . استشهد في بيته .

ديبو الشاتوري . مصطفى المصري .

من الشهداء الذين ذكرناهم في العدد الماضي :

خالد شروف : طالب صف عاشر ، ١٧ سنة . جرح في المعركة ، وقضي عليه بعد اسعافه .

عماد عاصي : معاون سيارة لوالده ، ٢٠ سنة .

عبد الحليم كلاوي : اعتقل من بيته بلا سبب ، وقتل امام والده اثناء التحقيق والتعذيب .

هاني كرباني (عاقش) : طالب صف تاسع ، ١٧ سنة . استشهد وابن عمه (محمد) في البداية .

احمد فاضل حلي : سمان ، ٥٠ سنة . استشهد تحت التعذيب بالمقرضة .

عبد الحكيم وابراهيم حلي : ابنا الشهيد احمد فاضل حلي ، الاول طالب جامعي . قتلا بعد القاء القبض عليهما بتهمة تخزين اسلحة في البيت .

عبد الرحيم حلي واخوه : الاول بائع ادوية زراعية ، والثاني سمان ، استشهدا تحت التعذيب

أسامة سالم الشيخ : طالب طب بيطري ، ٢٣ سنة . استشهد بعد اعتقاله .

الحاج فاتح شريقي : بائع ، استشهد في الشارع حين سئل عن قصده ، فقال : اني ذاهب الى صلاة العصر ، فأطلقوا النار عليه .

غضبة جامعة حلب

خروجا على كل الاعراف، واستهانة بكل القيم، اشتركت مفرزة من المخابرات حرم جامعة حلب، ودخلت الى غرفة عميد كلية العلوم فيها، تطالب تسليم الدكتور حسن محمد حسين لاعتقاله، فأبى عميد الكلية، وذكّرهم أنّ للجامعة حرمة يجب ان لاتنتهك مهما كانت الظروف وبعد نقاش طويل قبل أن يرافقهم الدكتور حسن الى مركز المخابرات لمدة نصف ساعة فقط لاستجوابه !! .

والجدير بالذكر ان الدكتور حسن محمد حسين عالم مختص في الفيزياء النووية، وهو اختصاص نادر لاعلى مستوى سورية وحسب، انما على مستوى العالم كله .. وغادر الاستاذ العالم الجامعة .. ولم يعد اليها ثانية خلافا لوعد المجرمين الذين مااعتادوا يوما على وفاء بعهد .

وفي اليوم التالي لاعتقال الدكتور حسن تنادى اساتذة الجامعة الى اجتماع عقد في الجامعة، حضره معظم الاساتذة ورئيس الجامعة، وامين فرع الحزب فيها، وبحثوا موضوع اعتقال زميلهم، وندد وا بأساليب القمع والارهاب وانتهاك حرمة الجامعة واساتذتها واعلنوا توقيف الدراسة وارسال لجنة الى دمشق، لاطلاع السلطة الحاكمة على موقف الاساتذة واصرارهم على الافراج عن زميلهم، وطلبوا السماح لهم برؤيته والاطمئنان عليه فورا . فكان مما قاله عبد الله الاحمر للاساتذة : انه لايملك هو نفسه الحق برؤية زميلهم، فكيف يمكنهم من اعطاء الحق الذى لايملكه !!! .

وعادت اللجنة من دمشق لتجتمع ثانية بأساتذة الجامعة ورئيسها وأمين الفرع فيها، وتشرح لهم نتائج مباحثاتها مع مايسمى (القيادة القطرية) وبعض الوزراء والمسؤولين، وقد كانت اللجنة تؤمل في المسؤولين أن يتفهموا الأمور، ويفرجوا عن زميلهم ليعود معهم، ولكنهم عادوا بخيبة ومرارة ليشرحوا لهم نتائج مباحثاتهم على لسان الدكتور عبد الحامد حداد المتمثلة بما يلي :

١ ــ ان اسلوب اعتقال الدكتور حسن لم يكن صحيحا، وهم يقرون بذلك وقد كان الأولى أن يعتقل من بيته أو مكتبه ! ووعدوا أنهم لن يعودوا الى مثل هذا الاسلوب، وخاصة في الحرم الجامعي !! .

٢ ــ اتهمت السلطة الدكتور حسن بأنه من الاخوان المسلمين وهو الآن رهن التحقيق وهذا يستغرق بعض الوقت ! .

٣ ــ يتساءل المسؤولون باستغراب، عندما اعتقل الدكتور حسن استنفرتم بكاملكم .. لماذا لم تحركوا ساكنا عندما قتل الدكتور محمد الفاضل أو علي عابد العلي ؟!! .

وانبرى اساتذة الجامعة الاحرار يردون على الدكتور عبد الحامد حداد وما جاء به من مغالطات واهية، فقال احدهم : (اننا لانرضى أبدا بهذه السياسة التي تنتهجها الدولة من اساليب مختلفة في التعذيب، لتجبر المعتقلين على الاعتراف، وأنا أول الناس الذين يقرون

انه من قادة التنظيم اذا (ضرب عصابتين) .. يادكتور عبد الحامد لقد كذبوا عليك عندما اتهموا الدكتور حسن بالباطل .. كما كذبوا عليك من قبل عندما قالوا ، سنأخذه نصف ساعة ثم يعود !!) . وطالب بعدم العودة الى التدريس حتى يعود الدكتور حسن وختم كلمته بقول الله تعالى : " وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون " . والتهبت القاعة بالتصفيق الحاد ، علما انه لم يصفق أحد عندما خطب الدكتور نجاتي رئيس فرع الحزب في الجامعة والدكتور عبد الحامد حداد .

وقام استاذ آخر من الاساتذة الاحرار ليقول : (لقد كذبوا عليك يادكتور .. فلم يعد أحد منا يصدق مايقولونه .. لقد قال الاسد في المؤتمر القطرى السابع ان الاخوان عملاء لكامب ديفيد ، وهذا يعني ان الدكتور حسن عميل ! والعميل يكون على درجة من الغنى .. ولكن هل تعلموا ايها الاخوة ان الدكتور حسن لايملك حتى سجادة .. بيته بالايجار ! ايها الاخوة .. تعلمون ان اسرائيل تملك عدة مفاعلات نووية ، وقد دخلت في مجال القنابل الذرية ، وهي تنفق الملايين على العلماء في هذا الاختصاص .. وهذا الدكتور حسن دكتور في الفيزياء النووية .. ونحن نرميه في أقبية السجون !! لماذا ؟ لان المخابرات أرادت ذلك ؟ ! انني اطالب واضم صوتي الى زميلي الدكتور الذى تكلم قبلي ، بعدم دخول أية محاضرة حتى يعود الدكتور حسن) .

ثم تكلم استاذ آخر فروى لهم قصة عن أحد اصدقائه اعتقل منذ سنتين ، و وضع اكثر من سنة في السجن الافرادى مع تعريضه لعذاب مستمر ، فخرج من السجن مختل العقل فاعتذروا له قائلين ، عفوا !! لقد أخطأنا معك !! وانا أخشى أن يكون هذا مصير الدكتور حسن .. لذلك اني اقسم والله ثم والله لن أعود الى التدريس حتى يعود الدكتور حسن .. وانني اناشد كل الزملاء أن يضموا اصواتهم الينا) .

وفي غمرة النقاش حول هذه الاوضاع الشاذة اشار رئيس الجامعة الى احد الاساتذة المتكلمين بأن اسمه كان في قائمة الاساتذة المبعدين ايضا ، فهب الدكتور صارخا : (أنا لست جاسوسا .. أنا لست صهيونيا .. ولست عميلا !! انني مواطن ، ولي الحق الكامل في أن امارس حريتي .. اعلموا أن الكلب في الشارع يشبع لقمته .. ونحن لن نجوع اذا طردنا من الجامعة ولكن اعلموا ان الشعب لاالحكومة هي التي أنفقت عليّ .. ولهذا فانا خادم للشعب فقط) . وطالب بالاضراب منذ تلك اللحظة وعدم دخول اية محاضرة حتى يعود الدكتور حسن .

ثم قام دكتور رابع فقال : (ايها الاخوة .. سأذكر لكم حادثة وقعت في حماه .. لقد دخل رجال السلطة منذ ايام أحد البيوت واخرجوا من فيه من الرجال ، وادار وهم على الحائط ، وبدأوا برشهم فقتل ثلاثة فورا ، وسقط جريحان ، استقر في جسد احدهما عشرون رصاصة ! هل تذكرون ما حدث في حلب .. في حماه .. في جسر الشغور ... هذا كله يجعلنا نشك في صدق الذين خلقوك .. نحن نعلم أنهم كذابون ، ولم يبق لنا ثقة بأحد من هؤلاء ، وانى اصر على الاضراب ، واناشد جميع

الاخوة الزملاء أن لا يدخلوا اية محاضرة حتى عودة الدكتور حسن) .

ثم تكلم استاذ خامس فناشد جميع الاساتذة أن يتخذوا موقفا جماعيا بالاضراب حتى لا يتميع الموضوع ، ورد جمهور الاساتذة الحاضرين بالتصفيق الحاد الذي كان يندلع عقب كل كلمة من كلمات الاساتذة السابقين الذين طالبوا بالامتناع عن التدريس حتى خروج زميلهم الدكتور حسن .

واخيرا تم الاتفاق على تشكيل لجنة جديدة مؤلفة من رئيس الجامعة ورئيس الفرع ورئيس النقابة ومن مدرس من كل كلية ، من أجل متابعة الحوار مع السلطة ، كما اتفق الاساتذة جميعا على الاضراب منذ تلك اللحظة حتى عودة اللجنة ، ثم الاعلان عن الاضراب عند اخفاق اللجنة فور عودتها .

ومن الجدير بالذكر أن رئيس الجامعة في هذا اللقاء الجامع لاساتذتها لم يخف الانطباع الذي تركه في نفسه هذا الاجماع الرائع من اساتذة الجامعة فقال : لم اشهد في حياتي منذ نشأة هذه الجامعة اجتماع هذا العدد الضخم من الاساتذة واتفاقهم على رأي واحد كما اشهده الآن في قضية الاستاذ الكبير حسن محمد حسين .

ومما زاد من غضبة الاساتذة على السلطة الطاغية اقدامها بعد هذا اللقاء على اعتقال استاذين كبيرين من اساتذة الجامعة هما الدكتور نبهيل سالم والدكتور جلال خانجي المدرسين في كلية الهندسة ، لرد الاساتذة الاحرار على هذا الاجراء القمعي الارهابي الجديد بتقديم مذكرة الى المسؤولين وقعها ما يزيد عن مائتي استاذ جامعي تطالب بما يلي :

١ ــ الافراج عن المعتقلين من مدرسي الجامعة فورا .

٢ ــ معاقبة الطلاب الحزبيين الذين أساؤوا الى المدرسين أثناء القاء بعض الكلمات في مؤتمرات اتحاد الطلبة .

٣ ــ عدم السماح للمسلحين بالدخول الى الحرم الجامعي .

٤ ــ اذا لم تنفذ هذه الشروط يعتبر الموقعون على هذه الوثيقة انفسهم بحكم المستقيلين جميعا .

وقد وقع على هذه الوثيقة معظم اساتذة الجامعة وفي اولهم رئيس الجامعة ، ولم يشذ عن الاجماع سوى الشيوعي (وصفي مارتيني) الذي رفض التوقيع على الوثيقة مدللا على عمالته وخيانته وجبنه .

وجاء دم (الطليعة المقاتلة للاخوان المسلمين) لاساتذة جامعة حلب الاحرار أروع ما يكون ببيانها الذي اصدرته في ١/ ٩/ ١٩٨٠ بعد ان ترددت انباء غير مؤكدة عن استشهاد الدكتور حسن محمد حسين تحت التعذيب ، مما اثار في حلب المجاهدة جوا من السخط والنقمة والاستياء ، تجلى في اضراب الجامعة والمدارس وخروج الطلاب في مظاهرات صاخبة تتحدى السلطة الباغية ، وقد طلب المجاهدون في بيانهم التوقف الكامل عن الدراسة والتدريس في الجامعة والمدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية حتى اشعار آخر . وقد استجاب المدرسون والطلاب استجابة رائعة لنداء قيادتهم الاسلامية ولا زال الاضراب مستمرا حتى اعداد هذا العدد ... والى اشعار آخر .

— ١٥ —

إضراب عام ليوم واحد .

كان الشعب السوري بأسره على موعد في اليوم الاخير من شهر آذار (مارس) فالشهر الذي يدعي الحزب والسلطة انه شهر اعياد هم واحتفالاتهم ، لكن الجماهير للمرة الثانية اعادت الدليل للناس قاطبة - وخلال شهر آذار بالذات - ان الزمن لصالحها ، وليس لصالح الطاغوت وازلامه الذين نبذهم الشعب .

يوم ٣١/ ٣/ ١٩٨٠ كان موعدا لاضراب نقابة المحامين ، تدعمها النقابات المهنية العلمية الأخرى ، فتحرك اذناب السلطة الخائنة ليمنعوا حدوث الاضراب بأي وسيلة وبأي شكل ، واستخدموا التهديد والوعيد ، ومنعوا المؤتمر العام لنقابة المحامين من الانعقاد بدمشق يوم ٢٩/ ٣/ ١٩٨٠ كما كان مقررا سابقا . وفي حلب طلبت السلطة الاجتماع الى ممثلين عن النقابات المهنية والعلمية والعلماء والتجار ، لاقناعهم بضرورة العدول عن فكرة الاضراب ، وابلاغهم ان الدولة قد قررت قمع الاضراب بالعنف والقوة ، لكن هؤلاء الممثلين لم يستجيبوا للتهديد ، بل حملوا السلطة مسؤولية ما يجري من احداث واضطرابات ، واكدوا ان اسلوب السلطة المخادع لم يعد ينطلي على احد من ابناء هذا الشعب . وكانت القيادة المقاتلة للاخوان المسلمين ، والسادة العلماء بحلب ، قد أصدروا بيانات ، تدعو الشعب بفئاته كافة الى الاضراب العام يوم ٣١/ ٣/ ١٩٨٠ وحسب ، وذلك مشاركة للمحامين والنقابات المهنية العلمية بالاضراب ، احتجاجا على استمرار السلطة باجراءاتها القمعية العدائية تجاه الشعب ، ومحاولتها الايقاع بين ابناء الشعب الواحد في سبيل المحافظة على كرسي الحكم ، وعدم استجابتها لمطالبه الاساسية .

وأتالت سورية يوم الاثنين ١٥ جمادى الاولى ، ٣١ آذار (مارس) ، وقد لبت الجماهير الشعبية - في جميع المحافظات - نداء قيادتها الاسلامية بالاضراب العام لهذا اليوم ، حيث كانت جميع المحلات والاسواق والمدارس والجامعات مغلقة (ما عدا مدينة دمشق ، التي بذلت السلطة فيها جهودا مكثفة للحيلولة دون الوقوع الاضراب العام) ، وتعطل العمل في المحاكم في المدن جميعها ، نتيجة الاضراب العام للمحامين - بما في ذلك محاكم دمشق .

الا ان هذا الاضراب الشامل لم يرق لاجهزة القمع الطائفية ، فحاول زبانيتها فتح المحلات بالقوة ، وحطموا كثيرا من اقفال المحال التجارية وواجهاتها ، في كل من مدن ، حلب وحمص واللاذقية ، الا ان اصحاب هذه المحلات اغلقوا محلاتهم من جديد ، وباءت محاولات السلطة الباغية بالخذلان والاخفاق .

وفي حلب ، دوت اصوات الانفجارات في انحاء المدينة جميعها ، وخرج الطلاب بمظاهرات في مختلف ارجائها ، تهتف بسقوط اسد وزمرته الخائنة ، وتحيي الاخوان المسلمين وثورة الشعب لكن السلطات فرقت هذه المظاهرات ، ومنعتها من اكمال مسيرتها .

امام هذا الموقف الحازم من الجماهير ، وممثلي النقابات والعلماء والتجار .. لم تجد اجهزة الارهاب الا ان تعتقل هؤلاء الممثلين ، فعمدت الى اعتقال اعضاء فرع نقابة المحامين

بدمشق ، وبعض زملائهم ، كما اعتقلت في ادلب / ١١ / محاميا ، وفي حلب اعتقلت كلا من المحامين ، الدكتور اسعد كعدان (رئيس فرع نقابة المحامين بحلب) وسليم عقيل ، عبد المجيد منجونة ، عبد الكريم عيسى ، ثريا عبد الكريم ، اسعد عليي ، سعيد نيفو ، محمد فجر هنسي ، واعتقلت كلا من المهندسين ، الدكتور نبيل سالم ، عبد الهادي الحرس ، غسان نجار ، رضوان دهان ، الدكتور جلال خانجي ، عبد المجيد ابو شالة ، كما اعتقل في اليوم التالي العالم الجليل الشيخ علاء الدين علايا الذي تحدث باسم السادة العلماء اثناء المقابلة التي تمت مساء الاحد ٣٠/ ٣/ ١٩٨٠ مع المسؤولين ، لكن السلطة اضطرت للافراج عنه مساء يوم الخميس بعد ان دام اعتقاله اربعا وعشرين ساعة ، بعد تأزم الوضع وازدياد الغليان الشعبي .

وقد اضرب المحامون في حلب ثانية يوم الخميس ٣/ ٤ احتجاجا على اعتقال زملائهم وسافرت لجنة من نقابتي المحامين والمهندسين منتدبة من اتحاد النقابات المهنية العلمية ، للمطالبة باطلاق سراح زملائهم ، وفي حال عدم الاستجابة سيقرر الاضراب العام بجميع النقابات المهنية والعلمية .

وهكذا يلتحم الشعب بكل فئاته جبهة واحدة متماسكة في وجه اعدائه وجلاديه حتى يسقط الطغاة ، ويستعيد الشعب حقوقه وحريته وكرامته .

تحية لجماهير شعبنا الأبية

وتحية للنقابات الأمينة الحرة الشريفة .

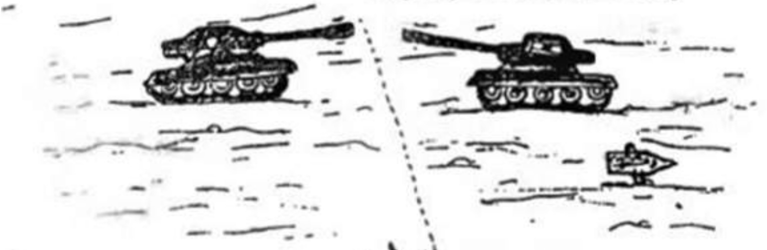

• ١٠ •

— ١٢ —

محاكمات سرية وصورية جديدة !
لـ ٢٧ أخا معتقلا

حصلنا على محاضر جلسات مايسمى (محكمة أمن الدولة العليا) تتضمن محاكمة / ٢٧ / أخا أسيرا لدى أجهزة القمع ، وكانت المعلومات المتسربة قد أفادت ان هناك محاكمات عاجلة لـ / ٨٠ / أخا اسيرا .

وازاء هذه الانباء الخطيرة ، التي لاتقل اهمية عن حصار المدن وقصف الآمنين بالمدافع وسلب الاموال والحريات . يتوقف المراقبون طويلا لتفسير هذه الاجراءات التي تتناقض كليا مع كل الوعود التي قطعها النظام على نفسه امام الرأي العام وممثلي النقابات وامام اصحاب الفعاليات في المحافظات التي عبرت رأيها باضرابات صاخبة غاضبة .

ازاء هذا كله يتساءل المخلصون ، ما معنى هذا التناقض الفاضح ؟ أليس هو الامعان في السياسة الباطنية ؟ أم هي اختلاجة الموت التي حملت سدنة النظام على مثل هذه التصرفات الخرقاء ؟ أيا كان الامر ، فلا بد من تسجيل الحقائق التالية ، وبسطها امام الرأي العام ونقابة المحامين ، ولجنة الدفاع عن حقوق الانسان والمفكرين والكتاب والصحفيين الشرفاء ، وامام شعبنا بأسره :

آ – بدأت المحاكمات برأسها المجرم فايز النوري – يوم الاحد ١٧ / ٢ / ٩٨٠ بمحاكمة الاخوة : عدنان شيخوني (مدرس) ، محمد امين اصفر (طالب) ، عبد الغني سباهي (طالب بكالوريا) . ثم كانت الجلسة الثانية يوم الاربعاء ٢٠ / ٢ / ٩٨٠ للاخوة : هيثم ملا عثمان سنة ثانية هندسة ميكانيك) ، محمد سليم زنجير (طالب هندسة) ، احمد ماهر قولي (مكتب بيع سيارات) ، محمد مالك عقيلي (طبيب) ، الشقيقان هيثم عقيل (سنة أخيرة علوم) وجمال عقيل (طالب هندسة) ، محمد صديق شعبان (طالب بكالوريا) ، محمد بشير حلبلي (عامل تريكو) . اما الجلسة الثالثة فقد جرت يوم الاحد ٢٤/ ٢/ ٩٨٠ للاخوة : محمد عادل غنوم (مدرس) ، محمد زهير خطيب (مهندس) ، عبد الستار عهود (مهندس) ، محمد اسعد بساطة (طبيب) ، محمد نبيل حاضري (موظف) ، محمد نديم لولو (موظف) ، عبد الحكيم جلال (طالب جامعي) ، محمد خير زيتوني (امام وخطيب جامع بلال في حلب) ، عبد السلام عبد السلام ، محمد نذير البوشي ، عمر نبهان . وتمت الجلسة الرابعة يوم الاربعاء ٢٧ / ٢ / ٩٨٠ للاخوة عبد الغني خراط ، بشار تاجا ، عبد القادر دلال ، مصطفى خرسا (مدرس تربية اسلامية) ، حسان سريبني (تاجر) .

ب – جرت المحاكمات بصورة سرية ، وبشكل مسرحي ، ليس فيه من صفات القضاء شيء ، حتى ان الجلسة الاولى من المحاكمة لم يحضرها اي محام على الاطلاق ، وكان المتفرجون على هذه المحاكمات الصورية عناصر من المخابرات بملابس مدنية ورفض اثنان من الاخوة الاجابة على أسئلة رئيس المحكمة الا اذا تمت محاكمتهم بشكل علني ، وقال احدهما : " لن اتكلم الا اذا حضر الناس ، وحضر اهلي ايضا ، لاني اذا كنت مجرما كما تتهمونني – وانا من الاجرام براء –

فليعرف الناس اجرامي ، ثم لماذا تخفون اجرامنا عن الناس ان كنا مجرمين ؟ ... " .

وقال الثاني : "لا اتكلم حتى تكون المحاكمة علنية يحضرها كل من شاء ، وخاصة اهلي .. هذه محاكمات صورية شكلية تمثيلية ، لا اعتبار لها .." فكان رد رئيس المحكمة ان طلب من مدير السجن نقله الى الزنزانة الانفرادية .... ولا نجد خيرا من الحوار التالي بين احد الاخوة ورئيس المحكمة يبين انها مسرحية وليست محاكمة :

النوري : هل تريد ان تضيف شيئا الى اقوالك ؟

الاخ : انني لم افهم من هذه المحاكمة شيئا .

النوري : وانا الآخر لم افهم شيئا . اذهب .

ج- كانت اجراءات المحاكمة تتم بشكل ينم عن رغبة رئيسها بانهائها بأسرع وقت ، ولم يكن يستوعب كلام الاخوة ، بل كان غالبا ما يخلط فيما يسأل الاخوة عنه من احداث واسماء ووقائع . وننقل - تدليلا على ما نقول - ما اجاب به رئيس المحكمة أحد المحامين حينما طلب منه اجراء مقابلة بين اثنين من الاخوة للتأكد من صحة ما يزعمه رئيس المحكمة عنهما ، عندما قال : ليس لدينا الآن وقت ، لأن امامنا / ٤٥ / شخصا مقدمين الى المحاكمة ... فهل سمعتم بهكذا عدالة .. وهكذا قضاء ؟؟؟

د- فضح الاخوة - اثناء محاكماتهم - ما عانوا من صنوف التعذيب الوحشي الذي تندى له الكرامة الانسانية ، وبلغت الوقاحة بالمجرم النوري ان يقول للاخوة عندما ينكرون ما يوجه اليهم من اتهامات : " انكر ، او تكلم ، فكل شيء ثابت عليك " ويضيف : " لولا التعذيب لما اخذنا منكم شيئا " . وقد خاطب احد الاخوة المحامين الحاضرين في ختام محاكمته قائلا : " ارجو ان يكون عندكم اليقين بان هذا الكلام يمكن ان يقال تحت التعذيب ، ويمكن ان يقال اكثر منه . في الجلسة السابقة كان في هذا القفص اخ لنا اعترف بجريمتي قتل تحت التعذيب ، وذكر من شاركه ، ورسم مخططات العملية التي اعلمت عليه ، الا انه - لحسن حظه - كشف من قام بهاتين الجريمتين ، فاضطرت النيابة الى ان تشطب هذه الجرائم عنه " .

هـ- بالرغم من ذلك كله ، وقف الاخوة الابطال وقفة شجاعة ، يردون الاتهامات الموجهة اليهم الى النظام وطائفته ، وقضاته المجرمين ، وتصدوا بكل جرأة وبطولة للتعبير عما يؤمنون به . واليكم هذا الحوار الرائع بين احد الاخوة ورئيس المحكمة :

النوري : انتم العملاء .

الأخ : بل انتم العملاء والقتلة والمجرمون والسفاحون .

النوري : انتم عملاء لإسرائيل ، وعندنا اثباتات ، واذهب الى مكانك .

الأخ : بل انتم العملاء المأجورين ، ونحن معروفون ، وتاريخنا ناصع ، وأبيض ، ويشهد عليه كل الناس .

النوري : تاريخ اجرام .

الأخ (وهو في طريقه الى قفص الاتهام) : الجريمة عندكم . انتم المجرمون .

وأنهى اخ آخر كلامه بقوله : " أشياء كثيرة احب ان اقولها ، لكن سأكتفي بالقول لكم ، ما

- ١٩ -

قال ابن تيمية – رحمه الله – ، ما يصنع اعدائي بي – وارجو الا تضعوا انفسكم في موضع العداء لي – سجني خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة ، فأحكامكم بالنسبة لي سواء . وانما هي مسؤوليتكم بين يدي الله تعالى ، فحاولوا ان تنقذوا انفسكم . "

وبدأ الأخ آخر كلامه امام المحكمة قائلا : " اولا ، انا مسلم ، واعتز باسلامي ، واخترت الاسلام بتعقل وتفكر ، ولذلك اقول ، انني مسلم ، مهما كلفني ذلك ، ولانني مقتنع به " .

حياكم الله يا شباب الاسلام وأبطاله ، ونرجو حكم وأتاكم نصرا قريبا .

وبعد كل هذه المحاكمات الشكلية ، بلغ الطغيان بالسلطة الباغية ان تقتل كلا من الاخوة ، نبيه عثمان (من مواليد ١٩٥٠ ، سنة اخيرة هندسة كهرباء) ، محمد خطيب (١٩٦٠ ، سنة ثالثة طب) ، محمد اديب حدية (١٩٦٠ ، عامل تمديد كهرباء) ، احمد حباب (١٩٦٢ ، طالب بكالوريا) ، وأخ خامس معهم ، نقلوا الى سجن كفرسوسة تمهيدا لاعدامهم بلا محاكمة .

اننا نبين لشعبنا الصابر حقيقة افعال السلطة الدنيئة ، ونحن نعلم انه يقف بالمرصاد لأية جريمة جديدة تقترفها بحقه ، وان شعبنا البطل لن يدع اية لحظة تمر بدون عقاب صارم . وان المجاهدين سينزلون القصاص العادل بكل طاغية وبكل مجرم .

((ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . الا طريق جهنم ، خالدين فيها أبدا ، وكان ذلك على الله يسيرا .))

– ٢٠ –

مسلمو العالم يتضامنون مع شعب سورية

أصدر (اتحاد المنظمات الاسلامية في اوربة) بيانا بتاريخ ٢٤ ربيع الاول ١٤٠٠هـ الموافق ١١ / ٢ / ١٩٨٠ يندد فيه بالنظام الطائفي المتداعي لحافظ أسد ، وجرائمه القمعية التي ارتكبها مؤخرا بحق الشعب السوري المجاهد ٠ وحيى البيان الوقفة البطولية الرائعة لابناء سورية ٠ وأضاف قائلا : (وقد فات حافظ الاسد ان الشعب هو صاحب الثورة ، وان الشعب الذى يدفع بأبنائه ــ وهم في عمر الزهور ــ ليواجهوا رصاص الاسد ومشانق الاسد ، لن يرضى بأقل من اسقاط هذا الحكم الجائر ، واقامة " جمهورية سورية الاسلامية " ٠٠) ويؤكد البيان على ان مؤامرات النظام في لبنان ، واحتمال بيعه أجزاء اخرى من سورية لليهود ، ورغبته في تحويل سورية الى افغانستان اخرى ، لن تؤخر سقوط هذا النظام ٠ ((ان موعدهم الصبح ٠ أليس الصبح بقريب)) ٠

اما المجلس الاسلامي الاوربي فقد عبر من خلال (جبهة التضامن الاسلامي) عن قلقه بسبب الاضطهاد القاسي الذى يتعرض له المسلمون في سورية ٠ وحذر البيان الصحفي لـ (جبهة التضامن الاسلامي) حافظ أسد جزار الفلسطينيين في تل الزعتر ــ وهو المعروف بجرائمه ضد الاسلام والمسلمين) من استمراره في عمليات القمع الوحشية التي لن تمنع المسلمين في سورية من أداء واجبهم تجاه الاسلام ٠ وأضاف قائلا : " ويجب ان يعلم ايضا ان المسلمين في انحاء العالم ينظرون الى افعاله بالاحتقار والاستهجان " ٠

الله اكبر

Federation of Islamic Organizations (In Europe)

اتحاد المنظمات الاسلامية في اوربا

وكان المسلمون في المانيا الغربية قد وزعوا منشورات تفضح النظام السوري ، وتطالب من لجنة الدفاع عن حقوق الانسان زيارة سورية والاطلاع على احوال الاخوة المعتقلين عن كثب واشتركوا بالمسيرة الليلية السنوية التي نظمتها (لجنة العفو الدولية) ــ لاسيما اخوة من جمعية (نويدتال) كولن ، فرانكفورت ، فضلا عن ابناء الجاليات الاسلامية وجماعات مختلفة تمثل الشعوب المسحوقة تحت الانظمة الدكتاتورية الاستبدادية في العالم ٠ وقد حمل المتظاهرون اللافتات التي تدافع عن قضايا شعوبهم ، ومنها قضية الشعب السوري المجاهد ، الذى يرزح تحت ابشع نظام استبدادي عرفه العالم في العصر الحاضر ٠ (انظر الصورة أدناه)

سورية في الصحافة العالمية

سارت الصحافة العالمية الى تغطية أنباء الثورة الاسلامية في سورية ، والغضبة الشعبية العارمة التي اجتاحت القطر من أقصاه الى أقصاه في الآونة الاخيرة . وقد كان لمشاركة الشعب بمختلف فئاته من مثقفين وتجار وطلاب وعلماء وعمال وفلاحين في الانتفاضة الاسلامية الشاملة الأثر البالغ في اهتمام المراسلين ووكالات الانباء العالمية لما يجرى في سورية ، برغم التعتيم الاعلامي الشديد الذى تفرضه سلطات النظام المتداعي .

وكانت الصحافة العالمية التي تناولت الاحداث الاخيرة في سورية بحثا وتحليلا من الوفرة التي يتعذر معها استعراض كل ما ورد فيها ، نورد طرفا منها في هذه العجالة :

– مجلة (امباكت) اللندنية (٨ – ٢١) شباط ١٩٨٠ ، (الأسد يصارع من أجل البقاء) .

THE ECONOMIST MARCH 22, 1980

Time runs out for Assad

– التايمز اللندنية ، ١٨/ ٢/ ٩١٨٠ ، (الانهيار في لبنان) ، ١١/ ٢ ، (مقتل ثمانية معارضين) ، ٦/ ٣ ، (الشبال اللوزى وحرية الصحافة) ، ٢٥/ ٣ ، (قوات النظام تراقب حلب) .

– الفاينتشال تايمز ، ١٩/ ٢ ، (خطر الحرب يتجدد في لبنان) ، ١٢/ ٣ ، (المتطرفون يهددون حكومة الأسد) ، ١٨/ ٣ ، (سورية تعترف بمعارضة واسعة) ، ١٩/ ٣ ، (الاخوان وارتفاع مد العنف) .

– نيو هورايزن اللندنية ، ٢٥/ ٢ ، (الحركة الاسلامية في سورية) .

– الغارديان اللندنية ، ٢٥/ ٢ ، (المحامون يدعون لاطلاق الحريات السياسية) ، ١٢/ ٣ / ٨٠ ، (العنف الجديد يهدد النظام السورى) ، ١٨/ ٣ (مبادرات خطيرة تصد رعن قاعدة قوة واهية) ، ١١/ ٣ ، (سورية وميليشيا العمال) .

– الدايلي تلغراف ، ٣/ ٣ ، (التخريب السورى في العراق) .

– مجلة التوحيد التركية ، ١٠/ ٣ ، (الانتفاضة الاسلامية في سورية) .

– مجلة الايكونوميست البريطانية ، ٢٢/ ٣/ ١٩٨٠ (الزمن يتجاوز الاسد) ، ونشرت مع المقال الرسم الكاريكاتورى المرفق .

- الأوبزرفر اللندنية، ١٦/ ٣، (سورية تغلي موجة الغضب) .
- لوموند الفرنسية، ١٣/ ٣، (الاخطار على النظام السوري) .
- الديلي ميل اللندنية، ١٨/ ٣، (الاسد يواجه ثورة) .
- دير شبيغل الالمانية، ١٨/ ٣، (الاضراب الشامل والقمع الدموي) .
- صحيفة الايكونوميست اللندنية، ٢٦/ ٣، (النظام المتداعي في سورية) .
- الصنداي تايمز اللندنية، ٣٠/ ٣، (عزلة النظام السوري) .

وقد اجمعت معظم الصحف في معرض حديثها عن الانتفاضة الاسلامية العارمة مع مطلع شهر آذار في سورية على الموضوعات التالية :

- كانت هذه الانتفاضة اكبر خطر يواجه الاسد منذ استيلائه على السلطة .
- اتخذت الانتفاضة طابع الثورة المسلحة وعمت القطر في مختلف ارجائه .
- استخدام قوات عسكرية ضخمة من النصيريين لقمع الجماهير الغاضبة .
- كان القمع وحشيا ودمويا سقط فيه مئات القتلى من الشعب .
- لم تفلح الترتيبات التي قام بها النظام النصيري مؤخرا لاعادة الهدوء الى القطر .

وانفردت صحيفتا الديلي ميل والايكونوميست بالتحدث عن بداية التمرد والعصيان في صفوف القوات المسلحة، واوردت الاولى انباء عن رفض كبار الضباط في القوات الجوية الاوامر بقصف اهلهم وذويهم في ثلاث مدن سيطرت عليها القوى المعارضة للنظام، وقد تم اعتقال هؤلاء الضباط . كما اوردت الثانية انباء عن رفض القوات التي دخلت المدن الشمالية اطلاق النار على المتظاهرين، واصبح ترك الجيش والتخلي عن الجندية ظاهرة مألوفة .

وكان مراسل الغارديان قد اورد مزيدا من التفاصيل عن احداث حلب بقوله : (وقد ابتدأ العصيان العام يوم الخميس في بعض اجزاء البلد، واندلع القتال اولا في السليمانية وبسرعة انتقل الى الكلاسة والعاخور وباب النيرب التي تضم حوالي نصف سكان البلد البالغ عددهم مليونا ونصف نسمة) ويضيف قائلا (وقد تم رد العربات المدرعة التي حاولت دخول الاحياء باطلاق القنابل اليدوية والصاروخية عليها، وقد قتل / ٢٥/ شخصا على الاقل في أول ليلة من القتال) . أما مراسل صحيفة الاوبزرفر فينقل عن الشباب الذين وجدهم في شوارع حماه في أوج الاضراب قولهم : (نعم، نحن اخوان مسلمون، كلنا كذلك، وكل البلد ضد النظام) .

وقد ركزت مجلة ناو (؟) وصحيفة الغارديان اللندنيتان في حديثهما حول مشاركة المحامين في المطالبة باطلاق الحريات السياسية والافراج عن المعتقلين السياسيين وانهاء الاحكام العرفية التعسفية وعمليات القمع الوحشي للمواطنين، كما اشارتا الى اخفاق النظام في محاولته اليائسة لتهدئة الأوضاع .

واتفقت صحيفتا النيويورك تايمز على ان استشهاد المجاهدين الثمانية بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٨٠ في حلب كان دليلا على تصاعد المجابهة بين النظام والشعب، وتحدثت صحيفة اللوفيغارو والصنداي تايمز والغارديان عن مساهمة / ٨٠٠٠ / عنصر مدعمين بطائرات هليوكوبتر لقمع الجماهير الغاضبة في حماه، وتحدثت عن عزلة النظام داخليا وعربيا ودوليا .

وكانت جريدتا التايمز والايكونوميست ومجلة الايكونوميست قد اجمعت على ان سقوط النظام اصبح وشيكا بعد تصاعد اعمال العنف، وان القمع لم يعد مجديا بعد وصول الثورة الاسلامية لهذا المدى وتزعم الاخوان المسلمين للمعارضة .

اما صحيفتا التايمز والفاينتشال تايمز فقد اوردتا تصريحات يعترف فيها بعض مسؤولي النظام . بالمعارضة الواسعة التي يواجهها ، فيقول الكسم لمراسل النهار العربي والدولي "ان معارضة النظام مثل الاضطرابات والمظاهرات اصبحت اوسع في الآونة الاخيرة " ، اما محافظ حلب الجديد فقد اتهم الشعب بالغباء في معرض حديثه مع مراسل التايمز ، كما انه يتجاهل عدد القتلى الذين سقطوا في الاضطرابات الاخيرة ، وكان مراسل الصحيفة قد شاهد الملصقات الكثيرة للاخوان المسلمين على الجدران في حلب تدعو الشعب " لتحطيم النظام النصيري" .

وقد تحدثت الغارديان وصحيفة الايكونوميست عن الارهاق الذي اصاب الاسد وانهيار الاعصاب الذي يعاني منه ، وكان ذلك واضحا لكل من زار الاسد خلال الشهرين الماضيين . كما ان التخبط في الاعلام السوري ناتج عن مراوغة النظام ومحاولة اغفاله انباء تصاعد الاحداث في القطر .

وكانت جريدتا التوحيد التركية والفاينتشال تايمز اللندنية قد اعتبرتا الانتفاضة الاسلامية جزءا من يقظة العالم الاسلامي ، وابرزت الفاينتشال تايمز التشابه بين جماعة الاخوان المسلمين ومشايخ قم في ايران في الدعوة الى ربط الدين بالمجتمع وعدم الفصل بين القضايا الدينية والدنيوية ، وعزت اتهام الاسد قوى خارجية في اثارة الفوضى في سورية الى عجزه عن قمع الثورة المتصاعدة التي يشهدها القطر .

وتحدثت التايمز عن اسباب الانسحاب الجزئي للقوات السورية من بيروت بقولها " سبب ذلك تسخين الوضع في لبنان وتحويل الانتباه عن الوضع الداخلي في سورية واشعار الفلسطينيين بحاجتهم للنظام السوري ومن ثم اعدادهم لتسوية سلمية مع اسرائيل ، كما ان عددا من الضباط الموجودين في لبنان قد تورطوا في عملية الفساد والابتزاز " . ثم تحدثت الصحيفة نفسها وصحيفة الايكونوميست عن ضلوع النظام السوري في قتل الصحفي اللبناني سليم اللوزي ، وقالت التايمز عن تورط النظام في هذه الجريمة ، " ان السيد اللوزي الذي حملت مجلته كثيرا على النظام السوري مع عنوان بارز على الغلاف ، لماذا يكذب النظام ؟ في كانون أول الماضي ، اختطف تحت بصر حاجزين للجيش السوري قرب مطار بيروت " وتضيف قائلة " ان ما يقرب من /٢٠/ رجلا يعملون في الصحافة ، ويشمل ذلك صحفيين كبارا ومحررين ومساعدين وسائقين قد قتلوا في بيروت منذ التدخل السوري في لبنان عام ١٩٧٦ " .

بسم الله الرحمن الرحيم

البيانات

بيان من علماء حلب

[واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى من اتبع نهجه القويم، واعتصم بحبله المتين إلى يوم الدين :

وبعد : فيا أبناء أمتنا المؤمنة :

لقد سبق لهيئة العلماء أن أصدرت بياناً عرضت فيه مطالب الشعب المؤمن على المسؤولين وطلبت فيه من الشعب انهاء حالة الاضراب التي عاشتها المدينة اسبوعين كاملين، وكان من مطالبها في ذلكم البيان : الالتزام الكامل بشريعة الله ودينه في كافة مجالات التشريع والمجتمع، وإطلاق الحريات العامة بكافة أنواعها، وإلغاء حالة الطوارىء، وإجلاء العناصر المسلحة من المدينة، وإطلاق سراح جميع المعتقلين وإعادة جميع المنقولين من الأساتذة والمدرسين والمعلمين ووقف الحملات الاعلامية للضالة، حسبما فصل في البيان السابق .

ولقد مضى أكثر من اسبوعين دون أن يتحقق من هذه المطالب إلا النزر اليسير، مما جعل الشعب يطالب علماءه بإلحاح، ويؤكد عليهم متابعة تلك المطالب ويستنكر عدم تحقيقها، وفي هذه الظروف العصيبة من الانتظار الطويل، تفاجأ الأمة بتصعيد جديد لاستفزازات زادت من إثارة الشعب ونقمته، ومن ذلك :

١ – تطويق المدينة بأعداد كبيرة من قوات الجيش التي موقعها الطبيعي خط المواجهة على حدود البلاد، لا على بيوت الأهلين الآمنين، مما يثير الذعر، ويبث القلق على هذا البلد الآمن .

٢ – تصعيد الحملات الاعلامية المضللة، وترسيخ الصراع الطبقي والحزبي، وتأليب بعض المواطنين على بعض، مما يجر البلاد الى حرب أهلية مدمرة .

٣ – منح الشيوعيين رغم العداء الصريح، وعمالتهم المكشوفة حرية النشاط الحزبي والصحفي في الوقت الذي لا يسمح فيه للشعب المؤمن بممارسة هذه الحقوق .

٤ – القيام بحملة جديدة من الاعتقالات في الوقت الذي تنتظر فيه الأمة الافراج من جميع المعتقلين .

الى غير ذلك من استفزازات متعددة .

يا أبناء أمتنا المجاهدة :

ان العلماء وهم يلاحظون هذا التوتر الشديد في صفوف الشعب، يدعون الشعب بكافة فئاته وجميع فعالياته إلى إضراب يوم واحد، هو يوم الاثنين /١٥/ جمادى الأولى ١٤٠٠ والموافق ٣١/٣/١٩٨٠، مؤكدين على ضرورة اكتفاء الشعب بهذا اليوم، وعودة الحياة الطبيعية صباح اليوم التالي، والبعد عن كل التظاهرات، ومظاهر العنف ليكون هذا الاضراب استنكاراً سلبياً، بعيداً عن استغلال المستغلين، وابتزاز المبتزين، عسى أن تسارع السلطة الى تحقيق المطالب، وانهاء الاستفزازات .

آملين أن يتقيد الشعب بتوجيهات علمائه وقياداته الاسلامية كل التقيد، وأن يصبر ويصابر، حتى يأذن الله لهذه الأمة الفرج القريب من محنتها وشدتها. « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هيئة علماء حلب

— ٢٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان من الطليعة المقاتلة للاخوان المسلمين

قال تعالى : "قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون " .

يا ابناء الاسلام العظيم ... يا ابناء امتنا المجاهدة الصابرة :

في مسيرتنا لبلوغ غايتنا المنشودة لاقامة حكم الله في ربوع بلدنا الحبيب ، لابد لنا من وقفات نحاسب فيها انفسنا ونراجع رصيدنا ونتعرف على من معنا ومن علينا ، اذ ان ما فعلته السلطة خلال سبع عشرة سنة قد تهلهل تحت مطارق الفطرة والوعي الاسلامي ، وما كانوا يخفونه من عمد خلال ثلاثين عاما كشفته الأحداث وابانت زيفه وبطلانه ، واظهرت لكل ذي عين حقد الطائفة الباطنية — في صراخ كبيرها وتباكيه وفي تهديدات الجوقاء — على الاسلام ودعاته .

ان السلطة تراجع هي الأخرى حسابها و ولكن بخبث وخسة ومراوغة ، وتحاول خداع المنتفعين بفسادها وقد اطلقت على منجزاتها السابقة اسم سلبيات الماضي ، وتزعم انها جادة في تصحيحها وتجاوزها ، ونحن نقول :((ان السلطة في ابتعادها عن منهج الله والاسلام سائرة لا محالة من سلبية الى اخرى ومن عبث وقعت فيه الى عبث ستقع فيه ، ولربما تعمد الى استبدال طاغوت او لعب انكشف امره بطاغوت او لعب ما زال مستترا ببعض الاقنعة الزائفة التي سيكشفها الشعب بوعيه وحسه الصادقين .

يا شعبنا المسلم :

لقد برهنت في اضرابك السابق من وعي عظيم وفهم صحيح لما يتطلبه الاسلام منك ، وقد استعصيت على العابثين والمارقين ولم تسلس لهم القياد ، حتى غدوت الصخرة التي يتهشم عليها الطوائفيون والاذناب ممن جعلوا ظهورهم مطايا لكل طائفي حاقد على هذه الامة ودينها وتراثها ، فتحية لك من اعماق القلوب المؤمنة بربها ، والتحية لكم يا شباب الاسلام على حسن انضباطكم وبسالتكم وحفاظكم على اموال الامة ومؤسساتها ، وكشفكم للعابثين والمجوقين .

يا ابناء الأمة : انتم اليوم مدعوون الى الاضراب العام لمدة يوم واحد هو يوم الاثنين ١٥ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ الموافق ٣١ آذار ١٩٨٠م مشاركة منكم لنقابة المحامين والنقابات المهنية والعلمية ، وتعبيرا عن اصراركم على مطالبكم التي وردت في بياناتنا السابقة ، سيما وان السلطة تؤكد إصرارها على اساليبها القمعية والتعسفية ، فمنذ ايام قليلة اغتالت الدكتور حسن محمد حسين استاذ الفيزياء النووية في جامعة حلب والمواطن يوسف احمد عبيد من دمشق وبأسلوبها الوحشي المعهود ، وغيرهما من المواطنين الشرفاء الذين قالوا "لا" للتسلط الطائفي واهدار كرامة الانسان

ولكن اضرابكم هذا اضرابا سلمياً ، بعيدا عن الفوضى ، فرب سكوت أبلغ من الكلام ، واننا لنحذر مثيري الشغب ومدبري الفوضى من استغلال هذا اليوم ، ونؤكد على ضرورة عودة الحياة الطبيعية صباح اليوم التالي اي الثلاثاء ١٦ جمادى الاولى ١٤٠٠ هـ .

ونحن نعلم ان اضراب يوم لن يسقط طاغوتا او يزيل سلطة ، ولكنه تعبير عن وقوفكم صفا متراصا وراء المجاهدين تشدون ازرهم في مواقفهم البطولية للدفاع عن كرامة الامة وحريتها .

والله معكم ولن يتركم أعمالكم

والله اكبر و لله الحمد

الاحد ١١ جمادى الاولى ١٤٠٠هـ
٣٠ آذار ١٩٨٠م .

الطليعة المقاتلة للاخوان المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان من الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين

لاعلان الاضراب الطلابي العام بعد الاحداث الاخيرة داخل الجامعة
بعد الأنباء التي ترددت عن استشهاد الدكتور حسن محمد حسين

((ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون
يا جماهير الطلاب والجامعيين ،

تأتي الانباء التي ترددت عن استشهاد الاخ المجاهد الدكتور حسن محمد حـ تحت التعذيب ، وداخل اقبية السجون بعد اسبوع واحد من اعتقاله ، مع ازدياد الحمـ القمعية التي يشنها النظام النصيري الخائن ضد المجاهدين والمواطنين من ابناء امتنا ا ومع اتضاح زيف الادعاءات الفارغة التي يطلقها النظام عن الحريات العامة والضمانات الـ بالمواطنين في هذا البلد المنكوب بحكامه ...

وتأتي كل الاجراءات القمعية التي سبقت وصول هذا النبأ المفجع لتؤكد بأن جما الطلبة والمدرسين كانوا من اكثر واشد المتضررين عليها من هذا النظام ومن ممارساته الاجر حيث شاهد جميع الطلبة المئات من زملائهم ومدرسيهم يساقون الى السجون والمعتقلات ـ داخل مدارسهم وجامعاتهم ، ومن قاعات المحاضرات وصفوف التدريس واثناء اداء التحـ دون مراعاة لأي من الاعراف والحريات المتعارف عليها محليا ودوليا ، والتي تعطي الحرم الـ والمدرسي حصانة خاصة لاتسمح لأيٍّ من الفئات العسكرية باقتحامه او المساس بها ..

ولقد جاء اعتقال الاستاذ الجامعي الدكتور حسن محمد حسين ، ثم استشهاد ه معسكرات الاعتقال ، وداخل حمامات الدم كتتويج وتلخيص قاطع لمجمل المواقف القمعية الـ تشنها عصابات المخابرات ضد قطاع الطلبة والمدرسين في هذا البلد الصامد سورية ...

كما جاء المؤتمر الذى دعا اليه ما يسمى بـ (اتحاد الطلبة) يوم الخميس ٢٧/ ٢ في مبنى كلية الهندسة في الجامعة ، ويوم السبت ٢٩/ ٣/ ١٩٨٠ في المقصف المركزى ـ كلية الطب ، ليبرر من خلال تركيبته القمعية والوصولية جرائم السلطة المارقة ، وليشن حملـ اعلامية قذرة ضد الاستاذ المعتقل على وجه الخصوص ، وضد مجمل اساتذة الجامعة الذين معه في محنته ، متهما اياهم بشتى الاتهامات المشينة ، واضعا اياهم جميعا في صف أعـ الوطن والأمة .. وما ذلك كله الا لتغطية الجريمة البشعة التي ارتكبها النظام بقتل الدكـ حسن محمد حسين اثناء التعذيب ، وفي غياهب السجون ..

فهنيئا لك ـ يا استاذنا المعظم ـ باستشهادك البطولي الرائع ...

وهنيئا لك ـ ايها المجاهد البطل ـ بلقائك لوجه ربك ... مع النبيين والصد والشهداء ، وحسن اولئك رفيـــقا ....

أيها الاخوة الطلبة والجامعيون :

اننا – بناء على ذلك ، وبعد استعراض الاوضاع العامة داخل البلاد ، وداخل القطاع الطلابي على وجه الخصوص – نصدر قرارنا النهائي والقاطع بوجوب الاضراب الطلابي والتدريسي ، داخل الجامعة ، وعلى كافة المستويات التدريسية الثانوية والاعدادية والابتدائية بلا اي استثناء .. ونقطع بوجوب امتناع كافة الاساتذة عن التدريس ، وكافة الطلاب عن الحضور والدوام ، وذلك حتى اشعار آخر تصدره الثورة الاسلامية في بيان آخر ، ونعلن بأن الثورة الاسلامية ستقتص من كافة المخالفين ، وأيا كان شأنهم ، ولن تتهاون بحق أي من الذين يخالفون ارادة الجماهير المجاهدة ، ويقفون في وجه تيارها الهادر ..

كما نحذر اولئك المجرمين الذين تحدثوا باسم اتحاد الطلبة اثناء المؤتمر الاخير ، او الذين حضروا ، كممثلين رسميين عن الاتحاد ، اننا نعرفهم فردا فردا ، وان بين ايدينا القرار النهائي بتصفيتهم في الوقت المناسب الا اذا أعلنوا امام جميع الطلبة استقالتهم وتخليهم النهائي من مراكزهم النفعية التي يشغلونها حاليا ، بعيد اعلاننا عن العودة الى التدريس ، والا فدونهم الرصاص ، وطلقات البنادق ....

((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن يتولهم ، فاولئك هم الظالمون)) .

والله أكبر ولله الحمد

الثلاثاء ١٦ جمادى الاولى ١٤٠٠ هـ
١ نيسان (ابريل) ١٩٨٠ م

الطليعة المقاتلة
للاخوان المسلمين

— ٢٨ —

دفاعاً عن السجناء والمعتقلين السياسيين

الى ذوي السجناء والمعتقلين السياسيين ، والى أصدقائهم وزملائهم ومعارفهم وجيرانهم ، والى كل ذي ضمير حيّ ...

لم تخلُ سجون حافظ أسد من أصحاب الرأي الحرّ ، ولن تخلو حتى يزول هذا الطائفية ، لذلك ننشر فيما يلي عناوين بعض المؤسسات المتخصصة في الدفاع عن حقوق الانسان ومن المعتقلين السياسيين في العالم مع المعلومات اللازمة لتوضيح قضية هؤلاء المضطهدين ودمغ النظام الطائفية وحكم الأسد البغيض بالحقائق والوثائق ،

آ — ترسل الرسائل من داخل سورية وخارجها ، وارسالها من الخارج أفضل ولو بالوساطة .

ب — يحسن ان تكتب الرسائل باللغتين العربية او الانكليزية او الفرنسية الى كل الجهات التا ومن أغلب اقارب المعتقلين والسجناء .

ج — تتناول الرسائل المشار اليها الجوانب التالية : (اسم المعتقل — العمر — المهنة — الوضع العائلي — الأولاد — الجنس ، ذكر او انثى — التهمة الموجهة — ظروف الاعتقا وأسبابه — التهمة موجهة للمعتقل ام لأحد أقاربه؟ ...)

د — اذا كانت الرسالة بالعربية ، فيحسن ذكر الكلمات التالية :

A case Of Political Prisoner In Syria.

هـ — طلب استخدام المساعي الحسنة في هذا السبيل .

و — عناوين المؤسسات المختصة :

١ — اللجنة الدولية للحقوقيين في جنيف

Mr. Neal Mc Dermot,
International Commission Of Jurists,
B. P. 120 - 1224 Chêne - Bougeries,
Genève - Switzerland.

٢ — منظمة العفو الدولية

Mr. Jacques Berthoud,
Amnesty International,
International Section,
10 Southampton Street,
LONDON WC2E
ENGLAND.

٣ — الصليب الأحمر في لندن

ıe Chairman,
nternational Red Cross,
Grosvenor Crescent,
ONDON SW1
NGLAND.

٤ — هيئة الامم المتحدة حول حقوق الانسان

he Chairman
IN Committee on Human Rights,
alais des Nation,
.H 1211 - GENEVA 10 جنيف

٥ — لجنة الامم المتحدة حول حقوق الانسان

ıe Chairman,
N Committee On Human Rights
N Palza. New york
.Y. 10017 - U.S.A.

نيويورك — أمريكا

لبيك يا جسر الثغور

(جسر الثغور) حماة الشطآن … هل تستعبد سلالة أطلسان؟
عصف الحديد بساحها وبأهلها … عصف اليهود بسائس الأوطان
يا من يفتش عن أباة الذل عن … أهل المروءة من بني الايمان
عرّج على (جسر الثغور) لكي ترى … نبض الحياة يدق في قلب الشريان
أسمعت بـ (السالك) في (جسر الثغور) وفي (حماة) طليعة البلدان
أسمعت بـ (الشهباء) في غسق الدجى … والنار والبارود يصطرعان
أرأيت في (الجفر) البطن بالردى … والكفر والأحقاد والأضغان
عرّج على (جسر الثغور) تلق سطورا كتابها تفسير كل بيان
صدحت مآذنها بتكبير الاله ، فجاوبتها عصبة الطغيان :
أن لا اله سوى الذي عبد النصيـ … ـريون من زيغ ومن شنآن
وتداعت طرقاتها وهضابها … بالثائرين على بني الشيطان
(الله أكبر ، والرسول زعيمنا … لا شرع الا شرعة القرآن)
من أين زنها للشام ، ومن ترى … (حطين) و (اليرموك) للأفغان
الدار دار المسلمين ، وشعبهم … هذي الزحوف تموج كالطوفان
فلتخسأي يا بذرة الافرنج يا … نسل (المغول) وعابدي الأوثان
الأرض تهتف ، والسماوات العلى … مزهوة بكتائب (الاخوان)
أسمعت بالاحجار تخلع صمتها ؟ … وتسبح الديان في الجدران
كانت قيامة أمة مقبورة … فاعجب لطوائفين بها لاكفان
حملوا النفوس على الأكف وزغردت … من حولهم أهزوجة الميدان
وتفاوحت ريح الجنان وفتحت … شم الأنوف بدعوة الرحمن
وتصافرت زمر الطغاة وأقفلت … أبوابها بالجبن والخذلان
في (الحزب) في (جحر الشبيبة) في (المباحث) يشتكون زلازل البركان
تركوا السلاح لطالبيه وأطلقوا … للريح ما استبقوا من السيقان
في المعمعان يعز فرسان الهدى … ويذل فرسان الهوى السكران
كتب الاله : لينصرن جنوده ، … إن ينصروه ، ويخذل الشيطان

× × ×

يا ألف بشرى في المدائن والقرى … هتف البشير مرجعا بأذان
كل العروش الى الزوال فكيف بالـ … ـعرش المدنس بالنجيع القاني

ذُعِرَ (القراميُّ) الصغار وقد سرتْ ... (جسرالشغور) سارها الربّاني ؛
أتهدَّد (الجبلَ) الحصينَ غدوة ... وعشيّة ؟ يا للغرور الخزيان !
صبّوا البلاء على البلاء وأشعلوا ... (جسرالشغور) على لظى النيران
سلّوا المدى ، دقّوا الطبول وكبّروا ... الوحداتِ في (الصهبات) والطيران
(جسرالشغور) ضحية مختارة ... فاستأسدي يا أرخص الذؤبان

× × ×

يا جسرُ ، يا مهمازَ (هارون الرشيد) اذا تململ (قيصرُ) الرومان
يا جسر ، يا مغزى (صلاح الدين) و (والبيبرس) هل تقوى على النسيان
ياجسر ، يا قبر الفرنسيين والعملاء من همج ومن خوّان
لهفي عليك ، وللمدافع صولة ... هدّارة ، تأتي على البنيان
تأتي على السوق العتيد على المسا ... جد والمساكن والشذى الريّان
لهفي على طفل يشقّ كما تشقّ ... الأضحيات على شفا الغدران
لهفي على أمٍ ، تذود بنفسها ... عن طفلها ، فتخرّ للأذقان
ما (ديرياسين) ولا غدر اليهو ... دِ بفوق غدر عصابة الشنآن
خمسون عند يدٍ الى حوض الردى ... أُخِذوا بلا حكم ولا ميزان
يا من رأى الأخوين والأب يُقرنو ... ن ، ويقتلون بمعرض القضبان
من (آل حلّي) خمسة أو ستة ... جلسوا على التعداد والحسبان
يا (آل شحّود) ويا (آل الشريقي) ، يا (بني الادرمو) و (الكرياني)
يا (آل عاصي) يا (بني المصري) ويا (آل الحجازي) يا (بني مرشان)
بُشراكمُ بالنصر في هذي الحيا ... ة ، وبالجنان اذا التقى الجمعان
بئست أمانيُّ الطغاة ، أيحسبو ... ن القتل يمحو آيةَ القرآن
أو يحسبون (الجسر) شلواً هامداً ... والثأرُ والرشّاش ينتظران
ها هم شباب الجسر فرسان الوغى ... يتلمّظون لغارة وطعان
ها هم رجال الله في (الشهباء) في ... (حمص) و (دير الزور) في (حوران)
حلفوا ، لينتقمُنّ من أهل الفسا ... د ، ويحمُنّ حضارة الايمان
باعوا الاله نفوسهم ، وشروا بها ... عدل الاله وجنّةَ الرضوان

× × ×

(جسرَ الشغور) ضحيةَ الطغيانِ ... لنثأرنْ ، ان الشعب في غليانِ

التعليق !

على نفســـه يجني . . . بكداش !

كنا نظن أعداء الشعب وتجار السياسة قد تلقوا من الدروس ما فيه الكفاية، وتعلموا من الأحداث ما فيه عبرة لكل ذي عقل سليم، ولكن دهاقنة العمالة، ورؤوس الانتهازية، لا يتعظون بل يظنون ان الشعب قد نسي خياناتهم السابقة، وان الأيام قد طوت ما اقترفت ايديهم من جرائم بحق شعبنا الأبي، وأن ما يجري على أرض الوطن يسمح لهم، من جديد باستعمال أدوات الحاوي الفاشل، الذي سئم الناس ألاعيبه المكشوفة، وأحابيله الواهية، وتمتماته العاجـــــــزة .

ومثل هؤلاء لا يعيشون الا على موائد اسيادهم، يتلقفون ما يتساقط من انواء كبرائهم، ويتبعونهم اينما ساروا، طمعا في كسب رخيص، أو شهرة حقيرة . وان داهم الاسياد شيء في الطـــريق، كانوا جراء نابحة، تظن نفسها تحمي اسيادها، بينما هم يواصلون السير غير عابئين بصـــرير أنيــــابهم .

وهكذا من يطلقون على أنفسهم "الحزب الشيوعي السوري" السائرين خلف قائدهـــم سيء الذكر (خالد بكداش) الذي آلى على نفسه ان يختم حياته كما بدأها، عميلا مأجورا، عدوا للشعب، وخادما للطغاة مزيفا للتاريخ، وكاذبا منافقا، واجيرا للمرتشين والطائفييـــن والاثرياء السارقيـــن .

والعجيب ان هذا الدعيّ، مازال يتشبث بنظريات وتحليلات متهافتة ساقطة، تجاوزها يتخلى عنها (رفاق الدرب) الذين كانوا سواعد بكداش وادواته، فاذا بهم كفروا باحتكاره وحده، النطق باسمهم، وبتحليله الاحداث بعقلية متحجرة بالية، فانفضوا من حوله، واضحى وحيدا مع زمرة من امثاله من المنتفعين والمرتزقين .

ويدعي هذا الأفاق، أن ثورة الشعب ضد الطائفية والاستبداد هي صراع طبقي، وأن استنكار جميع طوائف الشعب لتسلط زمرة الاسد، هو اثارة طائفية . وأن تطلع جمـــاهيرنا المؤمنة الى الحكم بالاسلام، متاجرة بالدين . وأن مطالبة المسحوقين بحياة شريفة كريمـــة، واستغلال للمصاعب والثغرات . وأن اصرار المستضعفين على الحرية والعزة والعدالة، هـــو رجعية وعمالـــــــــة .

بكداش لا يستطيع الخلاص من عقدة العمالة التي وصمه الشعب بها، منذ بداياته، فتراه يفسر أي تحرك شعبي بأنه (خطة مدروسة وموجهة من الخارج والداخل معا) وأي مطالبـــة بالتغيير للواقع السيء انما هي "مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمخططات الامبريالية" .

فهل نحن بحاجة الى الرد على هذا المنطق السقيم؟ ... لقد أتاهم الرد، اضرابا عاما، عبّر فيه الشعب بأسره عن التحامه بقيادته الاسلامية، التي تتقدمه في المعركة ضد أعدائـــه الخونة المارقين، والتي ستنتهي بانتصار ارادة الشعب المؤمن باذن الله .

وتناقض آخر يفضح بكداش، كيف يشارك — وهو شيوعي — في جبهة حاكمة مع حزب يعلن قائده، انه يشكر التجار (البرجوازيين) في يوم ذكرى تسلطهم على البلاد . بل انه يعمد بعد ايام من صدور القانون رقم / ٢ / الى الغائه بدون الاعلان عن ذلك، وهو القانون الذي زعمت

وسائل التذليل انه لتشديد العقوبات التموينية على التجار الذين يستغلون الزيادة في رواتب واجور العاملين في الدولة، ولا يكتفي بذلك ، وهو الحريص على الاشتراكية والعمال والفلاحين اصحاب المصلحة الحقيقية كما يزعمون ، بل يقرر مضاعفة مخصص (كوتا) الاستيراد لكل تاجر — ونحن البلد النامي ذو الخطط الاستثمارية !!! — ثلاثة اضعاف لتصبح / ٧٠/ الف ليرة سورية .

ليعلم بكداش واتباعه ، ان مائدة نظام أسد قد تداعت قوائمها ، وان البقرة الحلوب قد جف ضرعها ، فليبحثوا لانفسهم عن مخرج ، لأن الشعب لن يغفر لمن يساند الطغاة والظالمين ولن يسامح العملاء والمنافقين . وبيد المجاهدين المباركة ، ستصل الى رؤوس الفتنة والكذب ، لتدحرجها عن طريق ثورة الشعب المسلم ، ولتعلو راية الاسلام ... راية الحق والقوة والحرية ...

وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون .

قتلوه .. لأنهم يكرهون حتى القلم الحر

لسنا بحاجة لشرح الأدلة والقرائن ، التي تهم نظام الأسد الارهابي ، بجريمة تعذيب الصحفي اللبناني (سليم اللوزي) وقتله ، ويكفينا ان نشير الى الجرائم الكثيرة لزمرة الاسد الحاقدة ، التي ارتكبتها ، وما زالت ، ضد مواطنين سوريين وفلسطينيين ولبنانيين وعرب .

وقد كان من الممكن ان تمرّ هذه الجريمة المنكرة ، بغير ان نتعرض لها ، لكن الوفاء الذي ربّانا الاسلام عليه ، والعرفان الذي هو من شيمنا ، يدفعاننا لأنْ نشير بصراحة الى الجهة المتوحشة التي قتلت اللوزي بصورة همجية بعد ان صمت الجميع في العالم العربي — وهم يعلمون — خوفا أو طمعا .

ان الأسد وزبانيته ، لم يتمكنوا من كبت غيظهم ، ومدافعة حقدهم ، ضد ما كانت تنشره (الحوادث) عما يجري في سورية ، حيث كانت لاتكتفي ببيانات اجهزة التضليل الاسدية ، وانما كانت تفسح المجال (للصوت الآخر) ان يتحدث .

ما نقوله ليس دفاعا عن شخص ، ولا تبنيا لما تنشره مجلته ، وانما هو نعي للكلمة الصادقة ، والرأي الحر ، الذي ضاع في الحسابات السرية في البنوك ، وفي الليالي الحمر ، في القصور الاوربية الداعرة .

لم تكن (الحوادث) تعبر عما نريد ، ولا كان (اللوزي) متفقا معنا فيما يكتب ، بل كان يهاجمنا في بعض ما ينشر ، ورغم ذلك كله ، نرى لزاما علينا ان نقول ما قلناه ، اقرارا بأن (اللوزي) قتل ضحية صرخاته المستنكرة للجرائم التي اقترفها الاسد وعصاباته ، في سورية ولبنان .

اننا لنأمل ان يكون موته حافزا ، للمرتزقين على فتات موائد الطغاة ، ان يتنكبوا طريق الاسترزام ، وان يلتزموا طريق الشعوب المستضعفة . كما نأمل ان تتابع أسرة تحرير (الحوادث) السير على طريق عميدها سليم اللوزي ، وهم أعرف الناس بالمكانة التي احتلتها مجلته في الصحافة العربية والدولية .

لقطة

١٤٠٠٠ خريج جامعي غادروا سورية في السبعينات

ذكر تقرير رسمي نشرته صحيفة (البعث) بتاريخ ١٧/ ٣/ ١٩٨٠ أن ١٤٠٠٠ خريج جامعي قد غادروا سورية خلال السبعينات . وأوضح التقرير أن ٥٦٦٨ طبيبا ومهندسا وعالم طبيعة واجتماعيا تركوا سورية ، وهاجروا الى الولايات المتحدة بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥ — اى السنوات الخمس الاولى من حكم الطائفية حافظ أسد —

وأوضح التقرير ان الخسارة التي تكبدتها سورية من جراء هجرة هؤلاء الفنيين بما يعادل ٨٢٠ مليون دولار . وقال التقرير ان اسباب هجرة الخريجين من سورية تعود الى انخفاض الرواتب ، وكذلك الى فقدان التخطيط لتنظيم مثل هذه الخسارة .

إنها حكايةُ الآلاف ممّن قضَوا في ذلك السجن الرهيب، وضاعت حكاياتُهم، كما ضاعت حقوقُهم، وضاعوا عن قلوبٍ ما زالت إلى هذه الساعة تنتظرهم.

هي حكايةُ الآلاف من الناجين، وأنا واحدٌ منهم.. ولعلَّ الكثير منهم لم ينْجُ بعد، وإنْ خرج بجسده من السجن حياً، لتكون زنزانته معه وقد صُلبتْ روحُه فيها، ولا أملَ لديه بالانفكاك عنها.

إنّها قصة آلاف الأمهات والزوجات والشقيقات والأبناء والبنات..

إنّها حكاياتٌ سيتناقلها الجيران همساً في الأماسيِ الحميمة، وهم يتذكرون عشرات الشباب والرجال الذين سِيقوا من بيوتهم ليلاً، إلى مصيرٍ مجهول.

إلى جميع الأصدقاء في رحلة العذاب تلك.. إلى جميع الشركاء في تلك الملحمة التي لم تترك بيتاً سوريّاً إلّا اقتاتت من دمه:

ستفرّقنا الأيامُ والحوادث، لكنها وحدَها قصةُ السجن الرهيب مَن تُوحّدنا، وكلما ندَّتْ عن أحدنا همسةٌ، أو نُقلتْ عنه حكايةٌ، في أيّ بقعةٍ من الأرض الرحبة، تلقّفَتْها أرواحُنا جميعاً، فنحن شركاء الدم جميعاً، وأولُ مَن سيهتف بنداء الحرية، ويستجيب له.

هذه شهادتي غير موشّاةٍ ببديع البيان، ولا مزيدةٍ بزيفِ الخيال. هي ما حصل معنا جميعاً، فمنّا مَن قضى، ومنّا من ينتظر. وحتى لا يُقتل القتيلُ مرتين، مرةً حين ذبحَتْه مِدْيةُ الجلاد، وأخرى حين نذبحُه بمبضعِ النسيان، حريٌّ بنا أن نشيدَ لكلِّ ضحيةٍ منهم نصبَ تقديرٍ وإجلالٍ في نفوسنا، كي يبقوا أحياء بيننا، تحدّثُنا حكاياتُهم دائماً أنهم لم يُنصَفوا بعد، وأنّ العدالة لم تأخذ مجراها كما نتمنّى.

الثمن: ١٢ دولاراً
أو ما يعادلها